شرح

أسماء الله الحسنى

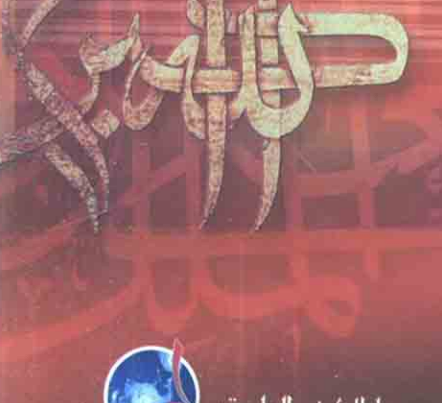
تأليف

الإمام العارف بالله تعالى

أبي الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد

ابن برجان اللخمي الإشبيلي

المتوفى ٥٣٦ هـ



تقديم

الدكتور أحمد شفيق

دكتوراه في الأدب الإسباني من جامعة أوبيدو (إسبانيا)

وباحث في التصوف الإسلامي

تحقيق وتعليق وتخريج

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول



شرح
أسماء الله الحسنى

تأليف

الإمام العارف بالله تعالى
أبي الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦ هـ

تقديم

الدكتور أحمد شفيق
دكتوراه في الأدب الإسباني من جامعة أوبيدو (إسبانيا)
وباحث في التصوف الإسلامي

تحقيق وتعليق وتخريج

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

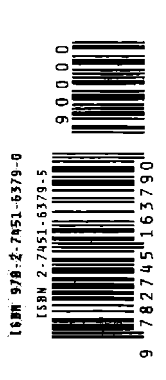
http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title	: Explanation Allah's most beautiful names	شرح أسماء الله الحسنى :	الكتاب
Classification:	Monotheism	توحيد :	التصنيف
Author	: Ibn barrajān al-ʾIšbīli	ابن برّجان الإشبيلي :	المؤلف
Editor	: Aḥmad Farīd al-Mizyadi	أحمد فريد المزيدي :	المحقق
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah	دار الكتب العلميـــة - بيروت :	الناشر
Pages	: 800 (2 volumes)	800 (جزءان) :	عدد الصفحات
Size	: 17*24	17*24 :	قياس الصفحات
Year	: 2010	2010 :	سنة الطباعة
Printed in	: Lebanon	لبنـــان :	بلد الطباعة
Edition	: 1st	الأولى :	الطبعة



Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠


ISBN 978-2-7451-6379-0
ISBN 2-7451-6379-5

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد وتقديم

عرفت السنوات الأخيرة «طفرة» في الدراسات الخاصة بالتاريخ الديني للأندلس، وذلك راجع للأهمية التي توليها المصادر والمراجع الإسبانية المعاصرة للنصوص الدينية، باعتبارها مصادر تزود الباحث بوثائق ومعلومات دفينة، وتفتح أمامه آفاقًا رحبة؛ لدراسة وتحليل مجتمع يمثل العنصر الديني بكافة أشكاله، عاملاً هامًا وحاسمًا، ليس فقط من وجهة نظر أيديولوجية أو سياسية، وإنما باعتباره عاملاً منظمًا للزمان، ولإيقاعات الحياة الاجتماعية والعائلية والفردية، وكان أول من ألقى الضوء على أهمية هذا العنصر المنجز في الحياة الأندلسية، الباحث الكبير ميجيل آسين بلاثيوس، ولاسيما بحوثه عن ابن مسرة الجبلي، ونشره بالعربية مع ترجمة إسبانية وفرنسية لكتاب «محاسن المجالس» للصوفي المريّ، ابن العريف، والتركيز على أعمال ابن عربي المرسي الشيخ الأكبر. لعبت كل هذه الدراسات حول التصوف الأندلسي دورًا حاسمًا في لفت الأنظار بأهمية التاريخ الديني للأندلس، على الرغم من عدم اتفاقنا معه في نواحٍ كثيرة من تلك الدراسات، ولاسيما الخاصة بإضفاء طابع وصفي مسيحي على كل ما يتعلق بالتصوف الإسلامي، وبالأخص حول نشأته وأصوله وتعريفاته ومصطلحاته، قادحًا بذلك صفحة من أهم صفحات التاريخ الإسلامي، والتي سعت من خلال التصوف خلق علم وأسلوب وفكر حياة جديد في كتاب البشرية.

وإذا انتقلنا إلى نهاية السبعينات، نجد دفعة أخرى تحت تأثير «المقاربة السوسيولوجية»، التي تبناها الباحث الفرنسي دومينيك أورفوا، ووظفها لدراسة معطيات كتب التراجم الأندلسية، وما تزال هذه الطريقة تزهر البحث التاريخي بالأندلس، من خلال مشروع مبحث وتراجم أسماء الأعلام في الأندلس، الذي يشرف عليه مجموعة من الأساتذة البارزين أمثال: مربيل فبيدو، ومانولامريد، وماريا لويسا

أبيلا، ولويس موليـنا وآخـرين. وفـي العـشرين سـنة الأخيـرة بـرزت بحـوث ماريـا فورسباسـن، ودومنيك واورفوا، وميكيل دى إيبالـزا، حول الجدل المسيحي الإسلامي بالأندلس.

أما الدراسـات حـول التـصوف بالأنـدلس فهـي كثيـرة، ويمكـن أخـذ فكـرة عـن ببلوغرافيتها من خلال العددين 12-13 من مجلة «القنطرة».

وأمـام استحالة إثبـات ببلوغـرافية شـاملة لهـذا الإنـتاج الإسـباني الـضخم حـول التاريخ الديني للأندلس، يمكـن أخذ فكـرة دقيقة عنه الرجوع إلى المراجع المثبتة في دراسة ماربيل فيرو،في الفصل المتعلق بالدين في الجزئين: السابع والثامن من كتاب

Los reinos de Taifas, Al-Andalus en el siglo XI. Historia de Espana. Men'endez Pidal, VIII, Coord., Maria Jeus Viguera Molins, Madrid, 1994, pp. 399-496

El retroceso territorial de al-Andalus:Almor'avides y Almohades (siglo XI al XIII), coord, Maria Jeus Viguera Molins, Madrid, 1997, pp. 437/546.

بالنـسبة للدراسـات الأكاديمية المتعلقة بالحالـة الدينية بالأنـدلس، بجانـب ذلـك بـدأت تظهـر مجمـوعة مـن الكـتب المـتعلقة بالتـصوف يكتـبها المتـصوفون الإسـبان المعاصرين، ولاسيما شيخ الطـريقة الـشاذلية الحالي بهـا «سـعيد بـن عجيبة الأندلسي الـشاذلي»، فمعظـم كـتاباتها ترتكـز علـى تجاربـه الـروحية، أو المـنهج الـذي يتبعه فكـر مريديه، ومـن أهـم كتبه *A la busqueda del manantial,* Madrid, 2002وترجمته (بحثًا عن المنبع طبعة مدريد).

ومن المـؤكد في الـوقت الحاضـر، أن التـصوف كـان مـن أبرز عناصـر المقـومات الدينية داخل مجتمعات الغرب الإسلامي، وأحد أهم عواملها الدينية والروحية والثقافية والاجتماعيـة، بـل وحتـى الـسياسية والاقتـصادية، فهـو يعكـس أحـد أهـم عناصـر التـراث الإسلامي، التي كان لها تأثير عميق في مجرى الحياة اليومية لمغاربة العصر الوسيط.

كانـت بـدايات التـصوف الأندلـسي متواضـعة، وكانـت تتمـثل فـي الممارسـات الـزهدية، التـي كـان يطـبقها بعـض الـزهاد، كمـا تخبـرنا بـذلك مخـتلف كـتب التـراجم الأندلـسية، فـإن التـصوف سـرعان مـا اكتـسح النـسيج الأندلـسي وأصـبح قـوة اجتماعيـة وسياسية فاعلة، وخـصوصًا في القرن الـسادس الهجري/الثامن عشر الميلادي، ولمعرفة هـذا الواقـع والعـوامل المـتحكمة فـيه، اتجهـت أنظـار الباحثـين فـي الـسنوات الأخيـرة للبحث عـن المـادة المـصدرية الدفـينة، من خـلال تحقـيق النـصوص التـراثية التـي كانـت

مجهولة وقابعة فوق رفوف الخزانات العامة والخاصة، ولا تصل إليها يد الباحثين المتلهفين عليها، ولا يجدون سبيلاً للوصول إليها، ومن هنا كانت أهمية الدراسة التي بين أيدينا؛ ألا وهي تحقيق كتاب «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان.

قد أُرجئت دائمًا شخصية ابن برجان الصوفي في القرن الثاني عشر الميلادي إلى المرتبة الثانية، وعلى ظلال شخصية ابن العريف، والتي اختفت منذ زمن مبكر بجانب أعماله بأبحاث جادة ودقيقة، وذلك إذا أخذنا في الاعتبار الببلوغرافيا المذكورة عنه.

ومن هنا كان السبب الذي جعل ابن برجان يذكر بصورة هامشية دون تخصيص دراسة وافية ومستفيضة عن أعماله، بهدف رسم صوره توضيحية تشير إلى أفكاره ومذهبه الصوفي، وتوضح علاقته بمتصوفي عصره، وميوله السياسية.

فكل ما ذكره الباحثون عنه؛ هو ارتباطه العابر بالثورة التي ستعرف فيما بعد باسم ثورة المريدين، وموته في مراكش؛ حاضرة الدولة المرابطية في ذلك الوقت.

على ضوء ما ذكرناه، نرى أنه من المهم أن نخص بهذه الدراسة للتعريف به، والتعريف بواحدة من أهم أعماله ذات الشيوع الكبير، ولاسيما في بلاد المشرق الإسلامي.

ترجمة الشيخ المصنف

هو الشيخ المكاشف المحقق العارف بالله سيدي عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي الإشبيلي، ويعرف بابن برجان، ويكنى أبا الحكم، من أهل إشبيلية وأصله من إفريقيا، وأبو الرجال؛ هو الداخل إلى الأندلس في إمارة المعتضد عباد ابن محمد [1].

لا نعرف تاريخ ميلاده، ولكن على وجه التقريب ربما قد ولد فيما بين (450هـ/ 1058م)، أو (470هـ/ 1078م)، في حالة بلوغه ستة وستون عامًا، أو ثمانية وستون عامًا.

---

(1) للإطلاع على ترجمة ابن برجان، انظر: ابن الآبار «التكملة» ، جزء أول رقم 1797 ص 247 معجم ص 19، ابن خلكان «وثبات الإيمان» ، الجزء الرابع ص 230و 236، والجزء السابع ص 340، والجزء الثامن ص 71 ، ابن الزبير «صلة الصلة» رقم 45، ص 31-33، اليافعي «مرآة الجنان» ، الجزء الثالث ص 267و 268، الصوفي «الوافي بالوفيات» ، الجزء الثامن عشر رقم 438 ص 428، الذهبي «سير أعلام النبلاء» رقم 44 ص 72-74، ابن شاكر الكتبي «وفات الوفيات» ، الجزء الأول ص 674، ابن حجر العسقلاني «لسان الميزان» ، الجزء الرابع ص 13-14، السيوطي «كتاب طبقات المفسرين» رقم 58، ص 20، الشعراني «الطبقات الكبرى» ، الجزء الأول ص 15، البغدادي «هداية العارفين» الجزء الأول ص570، والتاريخ «التشوق إلى رجال التصوف» رقم 41 ص 156، ورقم 51 ص 170-168، أبي تغري بردي «النجوم الزاهرة» ، الجزء الخامس ص 27، ابن المؤقت «السعادة الأبدية» ، الجزء الأول ص 106، ابن العماد «شجره الذهب» الجزء الرابع ص 113، ابن خلدون «شفاء» ص 51-52، الناصري «الاستقصى» ص 218-219 ، حاجي خليفة «كشف الظنون» ، الجزء الأول ص 257، والجزء الثاني ص 344 و346، والجزء الرابع ص 22- 24- 26 ، والجزء الخامس ص 38، والجزء السابع ص 767-1079 - 1080، كحالة معجم المؤلفين، الجزء الخامس ص 226، الموسوعة الإسلامية باللغة الفرنسية « Ibn Barradjal» مقال A. Faure، ص 755و 766 ؛ بولس بويا، «رسائل ابن العريف إلى أصحاب ثورة المريدين في الأندلس» ، مجلة الأبحاث - الجامعة الأمريكية - بيروت العدد 27 (1978-1979).

درس اللغة العربية والأدب والتفسير القرآني، وبلغ شأن عظيمًا في فروع المعرفة المختلفة مثل: علم الحساب، والهندسة، والفلك؛ فضلاً عن ذلك كان متميزًا في علم الكلام، وكان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم التصوف، سمع من أبي عبد الله بن منظور «صحيح البخاري» وحدث به عنه، وسمع أيضًا من غيره طبقًا لابن الزبير[1] عند وصفه لمحتوى مضمون كتابه «الإرشاد»، يشير أنه من المحتمل دراسته «لصحيح مسلم»، وعلى الرغم من ذلك لا تثبت المصادر شيئًا من هذا القبيل، حيث إن هذا العمل يتناول البحث عن الأصل القرآني لأحاديثه؛ وفضلاً عن ذلك كله كان يوصف بالزهد والاجتهاد في العبادة.

لا تشير المصادر التي لدينا بأنه قام بالحج إلى مكة، إذا أخذنا في الاعتبار تدهور الحالة الأمنية وتقطع السبل؛ بسبب فتنة ابن تومرت والموحدين؛ علاوة على خطورة الطرق البحرية؛ لتعرض سفن المسلمين لغارات قراصنة النصارى، ولم تكن الطرق البرية بأفضل من البحرية؛ فضلاً على أن الطرق إلى الديار المقدسة بالمشرق كانت غير آمنة للاضطرابات التي كانت تسود المشرق، لأدركنا المصاعب والمخاطر التي كانت تواجه المسلمين في رحلتهم البحرية أو البرية، ومع ذلك كان ابن برجان على علاقة بأهل العلم الذين جازفوا بالرحلة؛ لأداء هذه الفريضة المقدسة، ورغبة في لقاء العلماء [2].

من المؤكد أن ابن برجان لم يقتصر نشاطه العلمي على مدينة إشبيلية [3] إذا أخذنا في الاعتبار تمكنه المتميز في كافة علوم المعرفة ودراسته المتعددة، والذي بلا شك حمله إلى السفر إلى مدن عديدة بالأندلس، ولاسيما إلى مدينة قرطبة؛ لتلقي دروسه في علم الكلام، حيث كانت هذه البلدة من أهم مراكز دراستها [4] علاوة على

---

(1) ابن الزبير، المصدر السابق ص 32

(2) انظر ابن العريف «مفتاح السعادة» ، و«تحقيق طريق السعادة» تحقيق عصمت دندش، بيروت 1999، انظر «رسالة لابن العريف إلى ابن المنذر» رقم 2 ص 99.

(3) انظر ابن العريف «مفتاح السعادة» في الرسالة رقم (20)، الموجهة للحسن بن غالب، يتحدث ابن العريف عن شخص يسمى: عبد الواحد بن محفوظ، ذهب لاستيطان أشبيلية بجانب الشيخ أبو الحكم بن برجان ص 147.

(4) Urvoy, D., *El mundo de los ulemas andaluces,* Madrid, 1983, p, 55.

ذلك، يدفعنا ذاك إلى التفكير بأنه كان يتنقل بين المدن الأندلسية، ولما توجه إلى حضره مراكش رحل من قرطبة [1].

وبالنسبة لطريقته في التصوف، فهو يعد من أهم رجال عصره في هذا المذهب، يخبرنا ابن الزبير بأنها قريبة نوعًا ما من الباطنية، ولكن على الرغم من ذلك لم يترك قط طريق القرآن والسنة؛ اقتداء بالصحابة وكبار العلماء [2].

تطلق عليه المصادر لقب: زاهد وصوفي، «ابن الآبار» هو المرجع الوحيد الذي يشير إلى ابن برجان بلقب الزاهد [3] بينما باقي أصحاب التراجم يصفونه *بالصوفي* [4] أو *شيخ الصوفية* [5] مع التركيز على بعض الوجوه في ممارسته الصوفية: ميله إلى العزلة، وتفضيله للخلوة، فكان يلتف حوله مريدوه المقربون، فأخذ عنه الكثير من طلبة العلم ورووا عنه، واختص البعض منهم بصحبته، ونختار من هؤلاء النفر:

1 - أبو بكر محمد بن أبي بكر بن أبي الخليل التميمي، والمعروف بابن ولّم الذي توفي سنة (557هـ/1162م)، ولد في المرية، حيث صاحب أيضًا ابن العريف ومال إلى طريقته، وبعد ذلك رحل إلى إشبيلية؛ ليكمل دراسته على يد ابن برجان [6].

2 - أبو محمد عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف السكوني، من أصحاب ابن العريف أيضًا، كان يقال عنه أنه صاحب كرامات، وأنه مستجاب الدعوة، وكان يعيش حياة زاهدة، ولم يشارك في الفتنة التي أثارها المتصوفة والفقهاء، ورحل إلى المشرق في عام 540هـ، حيث مات هناك، ولكن نجهل تاريخ وفاته [7].

---

(1) التاريخ «التشوق» في ترجمة أبي الحسن بن حرزهم رقم 51 ص 170.

(2) ابن الزبير «صلة الصلة» ص 32.

(3) ابن الآبار «التكملة» رقم 1798.

(4) من بين من وصفه بهذا اللقب الصوفي في العراق بالوفيات؛ الكسبي «وفات الوفيات» ، وابن حجر العسقلاني في «لسان الميزان».

(5) في التراجم التي تشير إلى هذا اللقب؛ ابن العماد في «شجرة الذهب» ، والذهبي في «سير أعلام النبلاء».

(6) ابن الآبار: ن.م الجزء الثاني رقم 1366، أن عبد الملك: م. س، سفر 6، رقم 348 ص 139.

(7) ابن الزبير «الصلة» الجزء الرابع رقم 50 ص 38.

3 - أبو محمد عبد الله (بن عبد) الواحد بن محفوظ، كان أيضًا من أصحاب ابن العريف، نعرف عنه القليل، من خلال رسالة موجهة من ابن العريف إلى تلميذه الحسن بن غالب، حيث تؤكد رغبة ابن محفوظ لاستيطان إشبيلية بجانب الشيخ، ورغبة في السفر للحج[1].

4- من بين تلامذته أيضًا: أبو القاسم القنطري، وأبو محمد عبد الحق الأشبيلي، وأبو عبد الله بن خليل، وأبو محمد، والملقى (انظر ابن الزبير، ص31-33).

ولكن أهم تلامذة ابن برجان؛ هو ابن العريف الصوفي المري، (توفى سنة 536هـ/ 1141م)، أخطأت الدراسات الأولى في التأكيد على أن هذا الأخير هو معلم الصوفي الأشبيلي، وعلى الأخص ما كتبه المستشرق الإسباني آسين بالاسيوس ومن تبعه [2] فعلى ضوء رسائل ابن العريف، نلاحظ أن الأمور تخالف هذا الرأي؛ فكل شيء في هذه الوثائق يشير بأن الشيخ والمعلم؛ هو ابن برجان، وأن ابن العريف يعد نفسه تلميذًا له، فالصوفي المري يدعوه: «شيخي وكبيري»، أو «إمامي وكبيري»، ويؤكد له في ذات الوقت شكوكه، وتجده في طريق العلم والمعرفة: «شكايتي التي شكوتها إلى الشيخ الإمام قديمًا بحالها»، وأبلغ من هذا هو شوق ابن العريف إلى قراءة رسائل ابن برجان، فهو يكتب إليه: «كان من همي أن يصل كتاب الشيخ واحدي نظرًا، ومتقدمي تسليمًا ومعتبرًا»، وأخيرًا نقرأ هذا الدعاء الذي يوجهه ابن العريف إلى شيخ إشبيلية: «وأنت يا إمامها بحرمة الشيب اذكرني إذا رقدت عند من له رقدت»[3].

ويتضح من هذه الرسائل، أن ابن برجان قد ادعى الإمامة، وإذا دعاه ابن العريف شيخه وإمامه، فهذا يدل بوضوح على أن ابن العريف لم يكن إمام المدرسة الصوفية، كما يكتب السيد محمد عفان عندما يؤكد:

«وظهرت في الأندلس في العصر المرابطي حركه دينية خاصة، اتخذت طابع

---

(1) ابن العريف «مفتاح السعادة» ص 147.

(2)Asin Palacios, M., Tres estudios sobre pensamiento y mistica hispanomusulmanes. Madrid, 1922, p. 223.

(3) ابن العريف «مفتاح السعادة» ، انظر رسائل الأربعة والرسائل الموجهة عن ابن العريف لشيخه أبي الحكم بن برجان ص 106-110.

التصوف؛ وهي التي أسفرت عن قيام طائفة المريدين في غرب الأندلس، وكان إمام هذه المدرسة العلامة الصوفي أبو العباس الصنهاجي، المعروف بابن العريف، وهو من أهل المرية، وبها ولد سنة 481هـ (1089م)»[1].

ومن المؤكد أن أول متمرد هو أبو الحكم ابن برجان، إذ يقال: «إن البلاد قد خطبت لابن برجان في نحو مائة بلد وثلاثين»[2]، على كلٍ فقد جلب أنظار السلطة المرابطية، وأرسل السلطان علي بن يوسف بن تاشفين يستدعيه إلى مراكش في نحو 536/1141، ونعلم ما جرى عند حضوره لمراكش من خلال ترجمة سيدي علي بن حرزهم، كما جاء ذلك في كتاب التشوف، ما نصه:

ولما أشخصه أبو الحكم بن برجان من قرطبة إلى حضرة مراكش، سئل عن مسائل عيبت عليه، فأخرجها على ما تحتمله من التأويل، فانفصل عن أكثر من النقد، وقال أبو الحكم:

والله لا عـــــشق ولا عاشـــــــق الـــذي أشـــخص بعـــد موتـــي

يعني: السلطان، فمات أبو الحكم فأمر السلطان أن يطرح على المزبلة ولا يصلى عليه، وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء، فدخل على ابن حرزهم رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه، فأخذ أبو الحسن بما أقر به السلطان في شأن أبي الحكم، فقال له أبو الحسن: إن كنت تبيع نفسك من الله، فافعل ما أقول لك، فقال له: مرني بما شئت أفعله، فقال له: تنادي في أسواق مراكش وطرقها: يقول لكم ابن حرزهم: أحضروا حياة الشيخ الفاضل الفقير الزاهد أبي الحكم بن برجان، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله؛ ففعل ما أمره به، فبلغ ذلك السلطان، فقال: من عرف فضله ولم يحضر جنازته، فعليه لعنة الله[3].

وقد دفن في شهر محرم 536هـ/ أغسطس 1141م، وقبره مشهور في مراكش، ويعرف بسيدي برّجان، ويقع ضريحه في رحابة الحنطة القديمة[4].

---

(1) انظر عصر المرابطة والموحدين في المغرب والأندلس، 1: 465 (القاهرة، 1964).

(2) «الطبقات الكبرى» للشعراني، 1: 15 (القاهرة، 1299).

(3) التاريخ «التشوق» ص 169.

(4) العباس بن إبراهيم «الإعلام» ، الجزء الثامن ص 56.

أعماله:

ذكر لنا أصحاب تراجم ابن برجان أسماء تأليفه، وأكثر كلامه فيها على طريقة أرباب الأحوال والمقامات:

- «شرح أسماء الله الحسنى»، وفي هذا العمل يعرض لأكثر من 130 اسماً، وكل واحد منها يظهر مرتبًا على ثلاثة أقسام؛ **أولها**: دراسة عن أصل الأسم المعني ومدلولاته المختلفة ، **وثانيها**: تسمى اعتباره، والذي يشير لظهورها في الاستشهادات القرآنية واستخدامها في الأحاديث، وفي **المقام الثالث**: التعبد؛ وفيها يحاول المؤلف توضيح لهؤلاء الذين يريدون التقرب إلى الله كيف تجتاحهم سلطة أسمائه، وأن يستطيع المريد أن يكتسب الاسم المشار إليه.
- «تفسير القرآن»، وعلى الرغم من كبر [1] حجمه، لم يكمله طبقًا لما ذكره أصحاب التراجم، يكرس تفسيره لشرح الآيات الغريبة من خلال منهج جديد، وأسلوبه في هذا الكتاب غامض جدًا، ولا يستطيع أن يفهم مغزاه إلا من كان على دراية بأسلوب كتابته [2].
- من بين التواليف التي تنسب إليه ولكن تظهر بصورة قليلة في كتاب التراجم؛ كتاب «الإرشاد»، والتي يحاول أن يوضح فيها ابن برجان بأن أحاديث مسلم بن الحجاج تشتق من الآيات القرآنية، أما عن طريق المعنى أو عن طريق عنه دمج أكثر من آية.
- بالنسبة لرابع مؤلفاته، نجد إشارة عند حميد الدين ابن عربي في كتاب «مشاهد الأسرار القدسية»[3] وتوجد المخطوطة في مكتبة السليمانية كما مر[4] وعنوان الكتاب «إيضاح الحكمة بأحكام العبرة»، وعلى ضوء محتواه يظهر أنه تفسير آخر للقرآن.
- وأخيرًا، يذكر ابن خلدون في كتاب «الشفاء» [5] كتاب آخر لابن برجان يسمى:

---

(1) توجد عدة محفوظات لهذا الكتاب في مكتبة السلمانية.30-31Reisulkuttab

(2) ابن الزبير «الصلة» ص 31، الشعراني «الطبقات الكبرى» الجزء الأول ص 15.

(3) دراسة وتحقيق سعاد الحكيم، وبابلو بانيتو فرنسا: 1994

(4) مادة؛ محمود باشا 3-4.

(5)R. Perez, La voie et la loi ou le maitre el le juriste, p. 253

«عين اليقين»، ولم يصل إلينا.

• والخاصية المميزة لمؤلفات ابن برجان؛ هي اتساع حجمها، فتعليقاته وتفسيراته تقع عادة في مجلدين طبقًا لما ثبت عند أصحاب التراجم، فكحالة (ص226)، وحاجي خليفة (الجزء الأول: 257)، يؤكدان أن كتاب التفسير قد كتب في عدة أجزاء، حتى عند كتاب شرح، يقول البغدادي: قد كتب في جزأين.

أسماء الله الحسنى في الأندلس

من المؤلفات التي اختصت بهذا الموضوع منذ بدايات الإسلام، يحتفظ فقط ببعض الإشارات، إذا أخذنا في الاعتبار بأن معظم هذه الأعمال قد فقدت بصورة عامة، معظم مؤلفيها كانوا من المعتزلة والمتكلمين، والذين عالجوا هذا الموضوع من خلال مفهوم إسلامي تقليدي.

على الرغم إنه من الصعب التأكيد بصورة قاطعة، لكن يبدو أن المبرد (285هـ/ 898م) كان أول من احتفظ بأخبار عن تأليفه لأعمال متعلقة بأسماء الله الحسنى، يوجد عملان كتاب «معاني صفات الله»، وكتاب «العبرة عن أسماء الله»[1] ويرتكز محتواهما على أساس لغوي.

ومع مرور الوقت وبسبب الطابع الدلالي، بدأ المفسرون في توسيع نطاق شرح هذه الأسماء، مثل البغدادي (429هـ/ 1037م)، والذي استخدم *الاسم* كنقطة انطلاق؛ كي يستطيع عمل استطرادات على انتمائها للأحاديث أم لا، مستندًا على القرآن وعلى الأحاديث النبوية، مع القيام بعمل اعتبارات كلامية عن أصل وطبيعة الأسماء، وفي وقت لاحق؛ فرض هذا النوع من التفسير نفسه على مفسري القرآن ودارسي الحديث.

فالرازي (933/322) في كتاب «الزينة» يعرض عن رؤية، من وجهة نظر لغوية محضة، وفيها يشرح معاني الأسماء طبقًا للغة العربية، ولكن من الممكن أن نشير بكل تأكيد على أصولها الإسماعيلية؛ وهي تعد أول عمل يحلل فيه أسماء الله من وجهة علم الحروف[2].

أول من تناول موضوع أسماء الله الحسنى من وجهة نظر صوفية؛ هو القشيري (465هـ/1072م) في كتاب «شرح أسماء الله الحسنى»[3] وأدرج المنهج الزهدي والذي بدأ منذ هذه اللحظة، ويستخدمه لاحقًا كل المائلين إلى التيار الصوفي، ويوضح فيه كيف أن على عباد الله أن يجتهدوا لمحاولة اكتساب بصورة تدريجية خصائص الاسم

---

(1)Sezgin, *Geschiche des arabischen schifftums,* Leiden, vol. VIII, p. 98

(2)G. Vajda, "Les Lettres et les sons de la langua arabe d' après Abu Hatim al-Razi", ***Arabica,*** 8, 1961, pp. 113/130.

(3)Brockelmann, *Geschichte,* I, p, 432, y S. I, p. 770.

الذاتي؟ وبهذه الطريقة يستطيع معرفه الله [1] وعلى هذا النسق ستحرر كل التواليف الصوفية اللاحقة عن الأسماء.

كتب الغزالي (505هـ/1112م) كتاب «المقصد الأسنى» في شرح معاني أسماء الله الحسنى على الرغم من أنها ليست عمل منتهي، فقد حلل الغزالي بصوره رحبة وعميقة المشاكل الهامة التي تنبع عن السنة، مثل: لماذا هم تسعة وتسعون أسمًا؟ أصلهم ودرجاتهم؛ فضلاً عن ذلك أشار إلى إمكانية اكتساب الفرد للخواص المتضمنة في هذه [2] الأسماء، ولكنه حذر من خطورة الاتحاد مع الله؛ ولذلك فهو يقدم تفسير صوفي معتدل.

في الأندلس أول رسالة كتبت عن أسماء الله الحسنى، والتي أثبتت في المصادر، ولكنها فقدت وبدون عنوان؛ هي لابن حزم (456هـ/ 1064)، فالإشارة الوحيدة التي نحتفظ بها، هي التي ذكرها الذهبي مؤكدًا أن ابن حزم كان من القليلين الذين اهتموا بجمع أسماء الله، والبحث عن أصولها، ويشير ابن حزم أن هناك ثمانية وثمانين أسمًا مذكورين في القرآن والأحاديث، والباقي قد اشتقوا منهما [3].

كتب أبو بكر بن العربي (543هـ/1148م) أيضًا عن أسماء الله الحسنى مماثلة لكتاب الغزالي، تحت عنوان: «الأمل الأقصى في شرح الأسماء الحسنى»[4] والتي لم تحقق بعد، فكان الفقيه ابن العربي على دراية بعمل أستاذه الغزالي، ربما قد صار على نهج معلمه في تحليل وعرض قائمة الأسماء، ولكن من المحتمل أنه لم يتبنى في تفسيره نظرة صوفية، غير أن هذا الافتراض لم يتحقق بعد.

ولكن بالنسبة للكتاب الذي كان له شيوع كبير عن أسماء الله الحسنى في الأندلس؛ كان تفسير أبو الحكم (536هـ/1154م)، الذي تخصص له هذه الدراسة وهذا التحقيق.

بعد ابن برجان ظهرت أعمال عديدة تعالج هذا الموضوع، منها: «الإيثار في

---

(1)I. Guimaret, *Les Noms Divins en Islam,* Paris, 1988, p. 82.

(2)Ibn Barrayan, *Sharh asma Allah al-husna,* ed. P. de la Torre, Madrid, 2000, p. 26.

(3)D. Guimaret, *Les Noms Divins,* p. 20

(4)Brockelmann, *Geschichte,* S. I, p. 772

حقائق شرح الصفات والأسماء»[1] لأبي العباس الأقليشي[2] من خلال دراسة حياته والوسط الذي نشأ وفحص مراحل تكوينه العلمي، من الممكن أن نؤكد أنه أحد تلاميذ مدرسة الغزالي في الأندلس.

لا ينبغي أن ننسى أن المتصوف الأشبيلي أبا مدين شعيب 594هـ/1197م)، كان يقرأ على مريديه كتاب «المقصد الأسنى» للغزالي، مؤكدًا بذلك ذيوع هذا العمل في كافة المغرب الإسلامي[3] فضلاً عن ذلك كان أبو مدين يقول في كتابه *أنس الوحيد ونزهة المريد* عن أسماء الله ما يلي:

«أسماء الله تعالى بها تعلق وتخلق وتحقق؛ فالتعلق: الشعور بمعنى الاسم، والتخلق: أن يقوم بك معنى الاسم، والتحقق: أن تعنى في معنى الاسم»[4] (638هـ/1240م).

على ضوء هذه المقولة الأخيرة لأبي مدين، التي أوحت للشيخ محيي الدين بن عربي إلى تأليف كتاب «كشف المعنى عن سر أسماء الله الحسنى»[5] يؤكد الشيخ الأكبر في مقدمة كتابه:

والعبد بأسماء الحق تعالى تعلق وتحقق وتخلق؛ فالتعلق افتقارك إليها مطلقًا من حيث ما هي دالة على الذات؛ والتحقق معرفة معانيها بالنسبة إليه سبحانه وتعالى وبالنسبة إليك ؛ والتخلق أن تنسب إليك على ما يليق بك، كما تنسب إليه سبحانه على ما يليق به، فجميع أسمائه سبحانه عليه تحققها والتخلق بها، إلا اسم الله عند من سيجريه مجرى العملية، فيقول أنه التعلق خاصة إذ كان مدلوله الذات، كما قلنا

---

(1) المصدر السابق، الجزء الأول ص 361، 370.

(2) المراكشي «الذيل» ، الجزء الأول رقم 37، الذهبي «سر أعلام النبلاء» ، الجزء العشرين رقم 248، المغربي «نفح الطيب» ، الجزء الثاني رقم 223 ؛ والصفدي «الأعلام» ، الجزء الثامن رقم 3609، مخلوف «شجرة النور» ، الجزء الأول رقم 419 ، كحالة معجم، الجزء الثاني، ص181.

(3) ابن قنفذ «أنس الفقير وعز الحقير» ، تحقيق محمد الفاسي، وأدولف فور، الرباط ص 92.

(4) *The Way of Abu Madyan,* ed y tr. Vincet, Cornell, Cambridge, 1996, p. 149

(5) دراسة وتحقيق وترجمة بابلو بينيتو، مرسيا 1997.

بمجموع مراتب الألوهية [1].

تعد هذه النظرة الثلاثية من حيث النسبية؛ من أحدث الإسهامات التي قدمها الشيخ ابن عربي بالنسبة لتاريخ تفسير الأسماء الإلهية، من الممكن أن نضيف أنه بعد فحص تعليقات كلاً من الغزالي وابن برجان من بين كتاب آخرين، فإن الشيخ الأكبري قد استوعب الأعمال السابقة التي كتبت عن هذا الموضوع، واستطاع أن يخاطبها من خلال رؤيته الخاصة مع خلق لغة وفكر جديد، دون أن يتجاهل أساسيات السنة المرتبطة بهذا الموضوع [2].

علاوة على هذا الكتاب للشيخ الأكبري، فقد خصص في فتوحاته المكية بابًا عن هذا الموضوع؛ واضعًا نصب عينه الأعمال السابقة التي كتبت في هذا الشأن، وفيها بعض مظاهر تأثير ابن عربي بالشيخ الصوفي الأشبيلي؛ **أولهما:** نجد إشارة إلى التكهن المبكر لغزو بيت المقدس، والخطأ الذي ارتكبه المسيحيون للقيام بهذا العمل، ولذلك من الممكن أن نؤكد أن ابن عربي كان مطّلعًا على كتابة التفسير والذي ظهر فيه هذه النبوءة [3]، وفي موضع آخر يتكلم ابن عربي عن «التخلق بالأسماء»؛ بمعنى: تبني المريد الصفات الإلهية؛ لكي يستطيع من خلالها الوصول لمعرفة الله طبقًا لمذهب ابن برجان[4] ويعود ابن عربي لاستخدام هذا التعبير وربطها بمختلف الأصول والمقامات الحاصلة في الطريق الصوفي، مع الإشارة لمذهب التستري [5] وأخيرًا يؤكد ابن عربي أن الشيخ ابن برجان خلق هذا التعبير؛ لكي يشير إلى الله، أو «الحق المخلوق به»، والذي استخرجه من آيتين قرآنيتين: (القرآن سورة 44: آية 238)، و(قرآن 15: 5) [6] على الرغم من ذلك، الشيخ الأكبر لا يذكر المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات؛

---

(1) المصدر السابق، انظر النص العربي ص 11.

(2) ابن عربي «الفتوحات المكية» ، القاهرة 1972- 1985، الجزء الرابع ص 196، والصفحات التالية.

(3) المصدر السابق، الجزء الأول ص 60، والجزء الرابع ص 242.

(4) المصدر السابق، الجزء الثاني ص 649.

(5) المصدر السابق، الجزء الثاني ص 577.

(6)المصدر السابق، الجزء الثالث ص 77.

ولذلك انه من الواضح أن ابن عربي كان على علم كبير بأعمال ابن برجان.

على ضوء هذه المعلومات، من الممكن أن نستنتج أن التواليف التي كتبت عن موضوع أسماء الله الحسنى في الأندلس، كانت نتائج ميراث التقليد الشرفي الذي صاغه المؤلف عن الصفات الآلية، على الرغم من وجود أعمال شرقية كثيرة عن هذا الموضوع، ولكن أعمال الغزالي قد كان لها أكبر ذيوع عن غيرها؛ بفضل تداول هذا العمل وخاصة في أوساط التصوف المغربي.

علاوة على ذلك أن من المؤكد أن شرح أبي الحكم بن برجان؛ يعد من أوائل الأعمال التي كتبت عن هذا الموضوع في الأندلس من وجهة نظر صوفية، هذا العمل الكبير في حجمه، والغزير في معلوماته، قد أثر بصورة كبرى في كل الأعمال اللاحقة عن هذا المذهب، من الصعب أن نحدد المصادر الذي استقى منها ابن برجان مصدر عمله، إلا إذا استثنينا كتاب المقصد للغزالي؛ وذلك بسبب ضياع الأعمال الأخرى التي كتبت في هذا الموضوع في الأندلس.

شيوع شرح أسماء الله الحسنى لابن برجان

يشير حاجي خليفة [1] بأن عمل ابن برجان هذا؛ يعد من أكبر التواليف التي كتبت عن هذا الموضوع، وبأنها تحتوي على أكثر من مائة وثلاثين اسمًا إلهيًا.

بالإضافة إلى هذه المعلومات ذات الأهمية القصوى، من الممكن أن نؤكد أن مركز انتشار وذيوع الأعمال الدينية بصفة عامة كان مكة، حيث أن الأندلسيين كانوا يقومون أثناء الرحلة إلى الحج بحمل الأعمال الأندلسية الأصلية والرجوع بأعمال أخرى شرقية، كانت هذه أحد الوسائل التي من خلالها تم التعريف بابن برجان وأعماله في المشرق، فكل المخطوطات المحتفظ بها ذات أصول مشرقية، علاوة على أن المشرق هو الذي احتفظ بتقاليد هذا الموضوع، وعلى الرغم من كونه مؤلف أندلسي فلا توجد أي نسخة مغربية لكتاب شرح أو كتاب التفسير.

وها هنا جدول يوضح التحديد المكاني لمخطوطات «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان، والتي تؤكد نصيبها الشرقي[2].

محفوظ	كتب في	تحديده الحالي	تاريخ كتابته
1	حلب	اسطنبول	598هـ/1202
2		اسطنبول	1309/708
3		اسطنبول	1392/795
4	مكة	اسطنبول	1474/879
5		اسطنبول	1527/933
6	صفد	اسطنبول	1328/728
7		اسطنبول	1199/595
8		اسطنبول	1310/709

(1) كشف الظنون، الجزء الرابع ص 22.

(2) ابن برجان «شرح أسماء الله الحسنى» ، دراسة وتقديم يوريفيكاثيون دي لاتوري، مدريد 2002 المقدمة الإسبانية ص 78.

9		اسطنبول	1542/949
10	مكه	لندن	1310/709
11		باريس	1573/983
12		برلين	1528/934
13		قنية (بتركيا)	
14		المدينة المنورة	1316-17/716

من هنا نستنتج أن النسخ المغربية قد فقدت، أو تم إحراقها؛ لاعتبارها من الأعمال المحدثة؛ فضلاً عن مطاردة السلطات المرابطية له ولأتباعه، أو ربما أن هذا العمل قد حالفه النجاح في الشرق أكثر من الغرب، أو إحدى المخطوطات والتي تصف ابن برجان كمسيحي الدين [1] مثلما يسمى ابن عربي، ومن الجانب الآخر في عدد مسيحي من المخطوطات المذكورة، عندما يشير الناسخون لأهم المعلومات عن سيرته الذاتية، فالكل يتفق في الإشارة إلى تكهنه باحتلال بيت المقدس في كتابه التفسير، علاوة على ذلك فالفارق الزمني لأوائل المخطوطات هو فارق متقارب، مما يؤكد رغبة القراء المشرقين في قراءته.

د/ أحمد شفيق

دكتوراة في الأدب الإسباني في جامعه أوبيدو

وباحث في التصوف الإسلامي

(شمال إسبانيا)

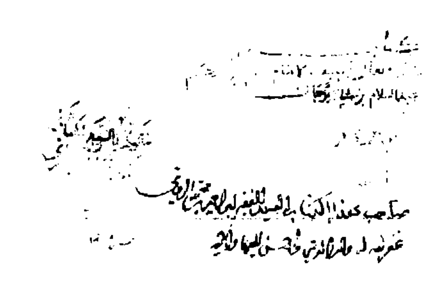
2007/1/11

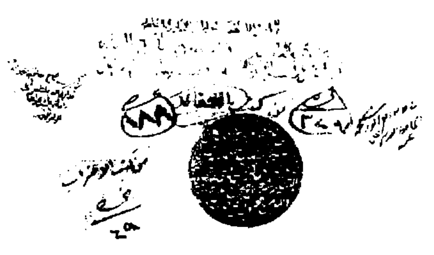
❁❁❁

---

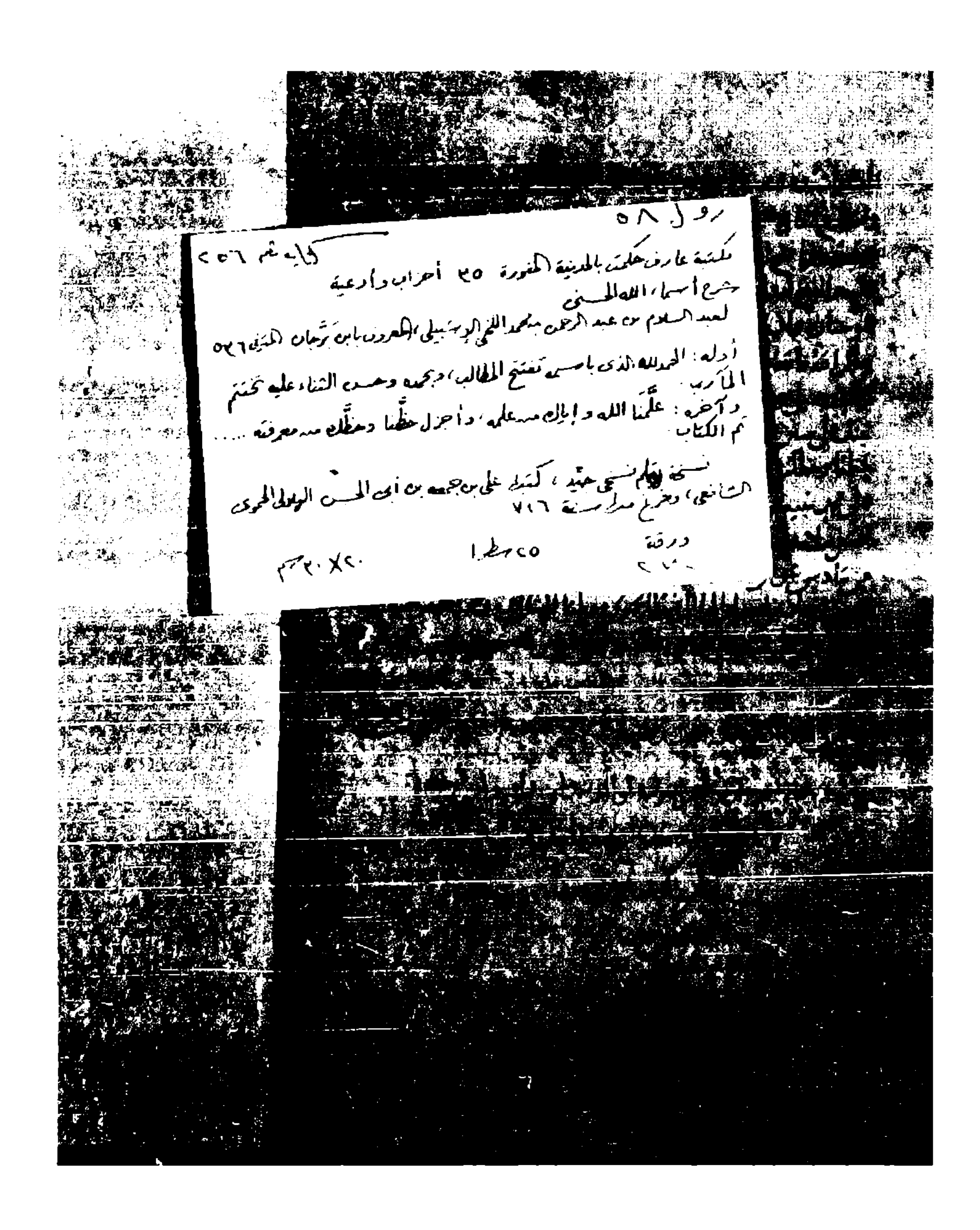
(1) المخطوط folio 17,S3 .

كتاب شرح اسماء الله الحسنى
تصنيف الامام العارف بالله تعالى
ابي الحكم عبد السلام بن ابي
برّجان عليه رحمة
الرحمن وقدّس الله
سرّه العزيز





التأويلات وسديد الأسجاع عساه يلحقه [illegible] ويسلكه السبيل المرتضى
وليضرع لسانه حتى يرى [illegible] لشأنه ويشاهد بعقله ما يرده [illegible]
بعد هذا نفع الله [illegible] ذكره لمن سأله ذلك عظيم ما [illegible] عليه العطف
فيه والنفع له وليس ما سطرته في هذا الكتاب إلا تنشيطاً للكسلان وتنبيهاً
للوسنان وإن كان بحمد الله [illegible] شافياً وحظاً [illegible] كافياً فالجد الجد
رحمك الله فإنه جل ذكره أحد إليك [illegible] ومتى صدقت صدقك ومحال في معهود
كرمه وجميل وعده أن تريده ولا يريدك وأن تطلبه تجده [illegible] وخالص من
نيتك على سنن [illegible] فلا تجده سواء ذلك [illegible] علمنا الله وإياك من علمه وأجزل
حظنا وحظك من معرفته وأحسن عوننا على ذكره وشكره وحسن عبادته وصلى الله
على محمد نبيه وعبده وعلى جميع النبيين والمرسلين وعلى الملائكة أجمعين وسلم
أفضل صلاة وتسليم تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ليلة [illegible]
من [illegible] سنة [illegible] علقه الفقير إلى عفو ربه [illegible]
[illegible] الشافعي مذهباً غفر الله له ولوالديه [illegible]
[illegible]



رول ٥٨

مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ٢٥ أحزاب وأدعية كتاب رقم ٢٥٦

شرح أسماء الله الحسنى

لعبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي الإشبيلي المعروف بابن برّجان المتوفى ٥٣٦

أوله: الحمد لله الذي باسمه تفتتح المطالب، وبحمده وحسن الثناء عليه تختتم المآرب.

وآخره: علّمنا الله وإياكم من علمه، وأجزل حظّنا وحظّكم من معرفته ....

تم الكتاب.

نسخة بقلم نسخي جيد، كتبها علي بن جمعة بن أبي الحسن الهلالي الحموي الشافعي، وفرغ منها سنة ٧١٦

ورقة ٢٠٠ ٢٥ سطرا ٢٠×٢٠ سم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي باسمه تفتتح المطالب، وبحمده وحسن الثناء عليه تُختتم المآرب، وبتأييده يُستعان على منال الرغائب، وباستصحاب ذكره يُتبرك في جميع المذاهب، الخبير بخفيات الصدور، العليم بمحجوبات الغيوب، له القوة التي لا تُرام، والعزة التي لا تُضام، والجلال الذي لا يسامي، والسلطان الذي لا يُغالب ولا يدانى، لم تتحرك خاطرات الخواطر له إلى بلوغ غاية، ولا هاجس في صحيحات الضمائر، له تصور بداية، ولا توهم نهاية، وهو الأول فلا آخر له، وهو الآخر فلا أول له، وهو الظاهر فيما أظهره، وهو الباطن فيما أبطنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11] له المثل الأعلى، والأسماء الحسنى، والصفات العلا، خلق كل شيء بالحق، علوًا وسفلاً، آخرة وأُولى، وبالحق أتقنه، وله أرصده، ذلك بأن الله هو الحق المبين.

والحمد لله الذي نهج لنا سبيل معرفته بما كشف لنا عن حقيقة عجزنا عن بلوغ كنهه، وإن أحاطه بحقيقته، فأكمل خليقته به معرفة أعلمهم بأن لا نهاية لمعرفته، ولا غاية لمدى كنهه، وله الحمد، رفع لنا عَلَم الهداية إلى علا وجوده بما أشهدناه من آثار صنعه، وبدائع فطرته، ثم أنار لنا الدليل على الإلهية بما أرانا من وله القلوب له على صبابتها بذكره، فجميعها مصوبة سهام عقولها إلى غرض مراده، فمنها الصادف عن سنن دليله، والصائب سواء سبيله، جمعها في الإرادة والمحبة، باين بينها في الهداية والمنحة، ﴿مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِ﴾ [الأعراف:186] وبما نزهه علو جده، ويسوق عظمته من ألا معقب لحكمه، ولا راد لأمره على عظيم سلطانه، واتساع ملكه، وإحاطة ملكه بملكوته، هو الديّان فلا يدان، والملك الحق فلا تضرب له الأمثال - له المثل الأعلى - له الأمر النافذ فلا يبدل القول لديه، والحجة البالغة فلا تتوجه الحجج عليه، وعلى ربوبيته تتعبد جميع الخلائق له، واستسلامهم إليه، وافتقارهم في الأمر كله إلى ما لديه، وعلى قدرته بإبداعه المبدعات، واختراعه جميع المكونات، وعلى علمه

وحكمته بلطيف الصنعة، وإتقان الجملة، وتدبيره الأمر وزمة الكل، وعلى إرادته ومشيئته بالرفع والخفض، والتقديم والتأخير، والإعطاء والمنع، وعلى وحدانيته بعدم القرين، وانقطاع النظير؛ لعجز الكل عن مقاومته، وتأخرهم عن مكافأته، وجعل ذلك كله دليلاً على حياته وبقائه وديمومته، لم يزل حيًّا قائمًا صمدًا ولا يزال حيًّا دائمًا أبدًا، سبحانه وتعالى عمَّا يقول الملحدون رجمًا بالغيب، إن يقولون إلا كذبًا ما لهم به من علم ولا لآبائهم سنكتب شهادتهم ويسألون ويجزون بما كانوا يفترون.

وصلَّى الله على نبي الهدى والرحمة خاتم النبيين ورسول رب العالمين بالبينات والهدى إلينا وإلى الناس أجمعين وعلى جميع النبيين والمرسلين والملائكة أجمعين، وسلّم أفضل صلاة وتسليم.

أمَّا بعد...

أيها الولي الحبيب، والأخ المصافي القريب، فإنك سألتني - كتب الله لنا ولك رضوانه، وأوسعنا وإياك رحمته وغفرانه - أن أشرح لك معاني قول رسول الله ﷺ المشهور في حديثه المأثور: «**إِنَّ لِله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة**»[1].

وهل هذه المذكورة معينة معروفة أم لا ؟ فإن كانت معينة فهل الواجب الاقتصار عليها دون غيرها من الأسماء؟ وإن كانت معلومة فأي الأسماء هي؟ وإن لم تكن معينة فهل يجوز لنا أن نستخرجها من كتاب الله جَلَّ ذِكْرُهُ، وحديث رسوله ﷺ؟

إذ قد وقع الاتفاق من السلف ﷺ أجمعين على أنه لا يجوز لعباده أن يسموه إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ، أو أجمع عليه المسلمون، وذكرت مع ذلك أن الذين عَنوا باستخراج الأسماء من القرآن والحديث وجدوا أكثر من هذا العدد، وإن الروايات التي جاءت بتعدادها احتوت باختلافها - بتبديل اسم مكان اسم - على أكثر من تسعة وتسعين وقد أتت من طرق شتى، وكلها حق، وأسماء الله تعالى، فنحن إن اقتصرنا على عدد هو تسعة وتسعون منها أضعنا غيرها، مع أننا لا نقف على ما عناه رسول الله ﷺ منها، وإن تتبعنا ما جاءت به الروايات والآثار منها زادت على العدد، فما وجه الصواب في ذلك مع ما ذكرناه؟ وما المعتقد الحق منه؟ فوقع سؤالك مني -

(1) رواه البخاري (85/10)، ومسلم (259/17).

وفقك الله ورضي عنَّا وعنك - موقع الوجدان من الإضلال، والماء البارد من العطشان، فاستخرت الله ﷻ في جوابك، واستعنته على أداء واجب ما قلدتنيه من سؤالك، فجمعت من ذلك ما زاد على المائة وثلاثين كلها مشهورة مروية، وتركت كثيرًا من المشهور المعلوم، أما الزيادة مني في ذلك على العدد؛ فطمعًا في أن أوافق ما عناه رسول الله ﷺ في قوله: «**مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1].

---

(1) اعلم أن (**الأسماء الحُسْنَى**) هي الدلائل مصدر وصف به، أو مؤنث أحسن، فأفرد؛ لأنه وصف جمع ما لا يعقل، فيجوز فيه الإفراد والجمع، وحسن أسمائه تعالى هو بتحسين إطلاقها شرعًا، مع تضمنها معانٍ حسانٍ شريعةً من المدح والتعظيم والتحميد، قال الله تعالى ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ**﴾ [الأعراف:180].

قال القاضي - رحمه الله تعالى: لأنها دلالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ، وقيل الصفات: ﴿**فَٱدْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف:180]، وسموه بتلك الصفات، ﴿**وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ**﴾ [الأعراف:180]، واتركوا تسمية الزائفين فيها الذين يسمونه بما لا توفيق فيه؛ إذ ربما يوهم معنى فاسدًا كقولهم: ما نعرف إلا رحيم اليمامة، أو ذروهم واتخاذهم فيها بإطلاقها على الأصنام، واشتقاق أسمائها منهم: كاللات من الله، والعزى من العزيز، ولا توافقوهم عليه، أو اعرضوا عنهم، فإن الله مجازيهم، كما قال: ﴿**سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:180]، انتهى.

ويحتمل أنه أراد التسعة والتسعين، المشار إليها بحديث: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة**»، «**إنه وتر يحب الوتر**»، وفي رواية: «**من حفظها**»، وقد استخرجها بعض العلماء من القرآن العظيم، وبعضهم من السنة. وخرج الترمذي - رحمه الله تعالى - في «جامعه» تعيين هذه الأسماء، فروى عن إبراهيم بن يعقوب عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لله تَعَالَى تسْعَةً وَتسْعِينَ اسْمًا مائَةً غَيْرَ وَاحد مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ اللهُ الَّذي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحيمُ الْمَلكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمنُ الْمُهَيْمنُ الْعَزيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَليمُ الْقَابضُ الْبَاسطُ الْخَافضُ الرَّافعُ الْمُعزُّ الْمُذلُّ السَّميعُ الْبَصيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطيفُ الْخَبيرُ الْحَليمُ الْعَظيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَليُّ الْكَبيرُ الْحَفيظُ الْمُقيتُ الْحَسيبُ الْجَليلُ الْكَريمُ الرَّقيبُ الْمُجيبُ الْوَاسعُ الْحَكيمُ الْوَدُودُ الْمَجيدُ الْبَاعثُ الشَّهيدُ الْحَقُّ الْوَكيلُ الْقَويُّ الْمَتينُ الْوَليُّ الْحَميدُ الْمُحْصي الْمُبْدئُ الْمُعيدُ الْمُحْيي الْمُميتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجدُ الْمَاجدُ الْوَاحدُ الصَّمَدُ الْقَادرُ**
=

=

الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الأَوَّلُ الآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ». وفي رواية أبي الشيخ وابن مردويه معًا في التفسير والحاكم وأبي نعيم عنه أيضًا بعض زيادات ونقص في سردها، وكذلك وقع في رواية ابن ماجه عنه أيضًا. قال بعض العلماء: ويحتمل أن يكون ذلك مدرجًا من كلام أبي هريرة، سمعها آحادًا فنسقها، فحصل بعض اختلافات في الروايات من تقديم وتأخير، وزيادة ونقص.

قال شارح «الدلائل»، وقال الخطابي على قوله في أول الحديث: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة**»، في هذا الحديث الكريم من الأحكام إثبات هذه الأسماء المحصورة بهذا العدد، وليس فيه ما يدل على نفي ما عداها، وإنما وقع التخصيص بالذكر لهذه الأسماء؛ لأنها أشرف الأسماء، وأبينها معانٍ وأظهرها. قال: فجملة قوله قضية واحدة لا قضيتان، ويكون تمام الفائدة خبر إنَّ، وهو قوله: «**من أحصاها دخل الجنة**»، لا في قوله: «**تسعة وتسعين اسمًا**» وهو بمنزلة قولك: إن لزيد تسعة وتسعين درهمًا، أعدها للصدقة، أو: من زاره أعطاه إياها، فهذا لا يدل على أنه ليس عنده من الدراهم غيرها، ولا أكثر منها، وإنما يدل على أن الذي أعدَّه زيد من الدراهم للصدقة أو للعطية من ذلك العدد المذكور.

قال: ويؤيد هذا التأويل ما ذكر في حديث ابن مسعود في دعائه: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» الحديث، قال غيره، ويؤيد قوله ﷺ: «**وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم**»، وقوله ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»، وقوله في حديث الشفاعة: «**فيفتح على من خافه وحسِّن الثناء عليه، ما لا أقدر عليه إلا أن يلهمنيه الله ﷻ**»، أو كما قال ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:110]، «ثم الإحصاء صادق بالعدّ والحفظ، والعلم والفهم، والتعبد والتعلق، والتخلق والتحقق، ووجوه ذلك لا تنحصر من حيث التحقق تفصيلاً، فتتفاوت رتب المعارف من أجل ذلك تفاوتًا خارجًا عن الإحاطة والضبط، وكان الكلام على الأسماء من العلوم المكنونة، والأسرار المصونة التي ضنَّ بها عن غير أهلها، وأعطيت لمن جعل نفسه أقل مهرها»، قاله بعض العارفين، انتهى.

وقال سيدي محمد القونوي ﷺ في مقدمة «شرح الأسماء»: وصح عن المخبر الصادق:ﷺ «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة**»، وقوله: «**مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة**»، وقوله: «**مائة إلا واحدًا**» على وجه التأكيد، كقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ [البقرة: 196] فقيده على التأكيد عند أكثر العلماء،

=

فينالني وإياك - إن شاء الله- هذا الوعد الكريم، وأما تَركي للمشهور المعلوم منها؛ فإيثارًا للاختصار، وتركًا للإطالة؛ إذ التطريق للاعتبار على ما تركناه قد يحصل بحمد الله بما شرحناه، وإنما هو للإشارة والإيماء، وبها يكتفي الألباء، ومن قعد به جَدُّهُ لم ينهض به جِدُّه، ثم فصلت الكلام في كل اسم إلا اليسير منها ثلاثة فصول:

الفصل الأول: استخراجها بالاستقراء والاعتبار من لغات العرب.

الفصل الثاني: التطرق إلى معرفة مسالكها في العالم، واستقراء مسالكها في الخليقة.

الفصل الثالث: بالإرشاد إلى التعبد بمعانيها، وإعمال النفوس بمقتضاها؛ ابتغاء مرضات الله ﷻ بذلك.

ثم الإحصاء للأسماء السبعة، والله أعلم بما وراء ذلك:

إحداها: استخراج معانيها من اللغة.

الثاني: معرفة خواص بعضها من بعض وتمييز مفهومها.

الثالث: معرفة رجوعها إلى الصفات العلا وهي: الإلهية، والوحدة، والحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والملك، فينضاف إلى كل صفة منها ما يوافق معناها من الأسماء؛ كالوحدة ينضاف إليها ما كان في معنى عدم القرين، وانقطاع النظير والشبه والمثل ونحو هذا، كالواحد، والأحد، والفرد، والصمد، والوتر وما كان في معنى ذلك،

=

وهو أبعد عن التصحيف في الكتابة؛ لأن التسعة والتسعين تشبه في الكتابة السبعة والسبعين، فما زال الالتباس بالقيد، وأما قوله ﷺ: «**من أحصاها**» **عند علماء الظاهر** هو بمعنى: العلم، وهو معرفة ألفاظها ومعانيها، والعثور على حقائق نتائجها، وآثارها، و**عند أهل الله**: هو الاتصاف بها، والظهور بحقائقها والعثور على مدارج نتائجها، بحيث يصدق عليهم إطلاق أعيانها، كما أنه تعالى وصف نفسه بأنه خير الناصرين، وخير الحاكمين، وخير الحافظين، وخير الرازقين، وأحسن الخالقين، وأخبر عن نبيه أنه رؤوف رحيم، ففي أمثال هذه التنبيهات مجال متسع لأهل العناية من أرباب القلوب، وأصحاب الكشف والشهود، فيتصفون بما نعتها لهم وبهم، وينصبغون بصبغ آثارها في سلوكهم على مناهج السنن المشروعة، وبسيرهم على مدارج طريقة أهل الولاية، والتخلق بالأخلاق الإلهية، ويصير ذلك قربة لهم إليه، ووسيلة لديه، نسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من أهله، فإنه ولي ذلك؛ لأنه ما أولى من ولي إلا من هو من ذوي الأهلية.

وينضاف إلى الحياة ما كان في معناها؛ كالحي، والباقي، والدائم، ثم يتسع معناها ويشيع في أكثر الوجود؛ لأن الحياة بها ثبات الأسماء، كذلك العلم ينضاف إليه ما كان في معناه؛ كالعليم، والخبير، والسميع، والبصير، والشهيد، والمبين، ونحو ذلك من معناه في غير المختصة به، كذلك القدرة ينضاف إليها من الأسماء ما كان في معنى الفعل، وإخراج الموجودات من العدم إلى الوجود؛ كالقدير، والقوي، والخالق، والرازق، والقيوم، والمبدع، والفاطر، والمنشئ، ونحو هذا مع ما يشيع من معناها في غير المختص به، وكذلك الإرادة ينضاف إليها ما كان في معنى المشيئة؛ كالباسط، والقابض، والرافع، والخافض، والمعز، والمذل، والمغني، والمفقر، والمحيي، والمميت، والمرسل، والمفضل، والمحسن، وينبسط معناها على ما ينضاف إلى القدرة والعلم، وحيثما اتصلت وانفصلت، وينبسط أيضًا معاني القدرة والعلم عليها كذلك، غير أن معاني أسماء القدرة معلومة من معاني أسماء الإرادة بأيسر نظر، وبالجملة فإن معاني أسماء الإرادة تنبسط على ما كان من الأسماء بمعنى التدبير كله، والاختصاص بالرحمة والفضل، والعقاب والعذاب، والولاية والبراءة، وتصريف الفعل في المفعولات وبداياتها ونهاياتها.

وكذلك الملك ينضاف إليه ما كان في معناه؛ كالملك، والجبار، والحكم، والعدل، والمقسط، والمرسل، والباعث، والمنذر، وينضاف إلى الإلهية ما كان في معناها، والإلهية جماع الأسماء كلها، فمنها ما يتبين اختصاصه، ومنها ما يخفى، فتدبر هذا - وفقك الله - بفهمك، وقف عليه بعقلك، واستعن بالله يعنك، ويؤتك فرقانًا تفرق به بين الأشباه والأمثال حتى تتحقق حقيقة الحق بإذن ربك، فإن هذا أكثره ليس من علم الصحف بل هو من علم القلوب، وحظ كل امرئ منه بعد توفيق الله ﷻ وحسن عونه بقدر عنايته، وطول مثابرته، وحينئذٍ ترى اختصاص المختص منها بما اختص به، وكيف قام القائم منها عدلاً بين المعنيين، وكيف قرب غيره إلى إحدى الجهتين، وقرب غيره أكثر من قربه، وكيف تصادقت وتعاضدت، وكيف اتصلت وانفصلت، وظهرت وبطنت في الوجود بين العلم والوحي، فسبحان من ليس له شبيه ولا نظير، المسمى من الأسماء بكل حسن جميل.

ثم يلي هذا من **الإحصاء الرابع** منها وهو: استقراء معانيها في العالم، وآثارها في مصانع الله جَلَّ ذِكْرُهُ، ومعرفة ما يختص به كل اسم من صاحبه، وما ينبسط عليه منها مع غيره، ويتسع ذلك جد الاتساع الصنعة وعلو شأن الأسماء، وينخرق النظر فيه

انحراقًا عظيمًا لانبساط الملك، وعظم الملكوت، والمهارة في ذلك من قبيل العطايا والمواهب والإلهام للصواب بتوفيق الله جَلَّ ذِكْرُهُ، قال الله عز من قائل: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ**﴾ [الأنعام:75].

وقال ﷺ: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ [مريم: 43]، والصراط السوي، والذي فطر الله السماوات والأرض عليه وهو صراط الإسلام.

ثم الإحصاء الخامس وهو: معرفة التعبد بمقتضى كل اسم منها ومعناه معرفة موقعها من العبادات والطاعات على سبيل الأمر والنهي.

ثم الإحصاء السادس وهو: أخذ النفس بالعمل بما يتبين لها من ذلك، وحملها على طريق الأدب في موافقة ربها ﷻ دون خروج عن حكم الأمر والنهي، أو عدول عن سنة إلى بدعة، بل يجعل ذلك كله حيث جعله الله ﷻ في كتابه وسنة رسول الله ﷺ؛ ليعمل على بصيرة من أمره، ويكون في ذلك على بينة من ربه، وتلك درجات المقربين من وهبها، وسيأتي إن شاء الله تعالى في كتابنا هذا بإشارات تومئ إلى ما ذكرناه، ولمحات تدل الطالب على ما وراء ما قدمناه، فعليك بالطهارة والتفرغ ثم التفكر والإدمان على ذلك، ومن الله الهداية وحسن العون، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومفاتيح التوفيق الدعاء، فادعوا الله مخلصين له الدين.

ثم الإحصاء السابع: أوله ضروري وأعلاه لا غاية له ينتهي إليها، هو الجامع للعلم المشتمل على ضروب المعرفة ومنبعثه الأعلى، ومنبثقه الأسنى من معنى اسمه الفاطر العليم الحكيم ﷻ وتعالى شأنه، وهو باب لما تقدم من الإحصاء، وهو ما فطر الله ﷻ عليه العباد من معرفته، وما عبر عنه قوله الحق: ﴿**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾ [الأعلى:3]، وقوله: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه:50]، وعليه هو ما عبرت عنه الرسل بقولهم: ﴿**أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ**﴾ [إبراهيم:10]، وعلى القول بالتحقيق إنما يبحث عن معرفة المطلوب بنعوته وأسمائه وأفعاله وآثاره من أجل النكير له، واختلاج الشك، وضعف العمل به، وإنما يتعلم ما يراد العلم به بالعلامات، ويستدل عليه بالدلالات حين الجهل به، فإذا عُلم المطلوب وعُرف المقصود بالتعرف فوقوع العلم به يكون بأول ذكر، بل لا يحتاج في

معرفته استعراض أسماء ولا صفات ولا نعوت، بل بأول وهلة بعلم جزم وعرف فضل دون تذكر ولا تفكر، قال الله ﷻ في مثل هذه المعرفة: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾ [البقرة:146]، وهذا تعرض لأصحاب العلية في المقامات، فيعرض للخائفين خوف عَليّ رفيع، ينبعث عن محبة، وكذلك يعرض في مقام هذه المعرفة لأهل المحبة إذا صعد بأحدهم إلى أعلى مقامات المحبة انبثق لهم حب على أصله عن مقام الخلة، وهو مقام محبوب على معناه، عزيز وجوده، يقع العلم لصاحبه بأن ربه ﷻ محبه، ومن هذا لمقام قال بعضهم:

فمنك بدا حبّ بعز تمازجا بماء وصال كنت أنت وصلته
ظهرت لمن أبقيت بعد فنائه فكان بلا كون لأنك كنته

هذا كما يقول سبحانه وله الحمد: «**إني لأطلع على قلب عبدٍ فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ورجله الذي يمشي بها، ويده التي يبطش بها**»(1) العبد عبد، والرب هو الرب الحق لا محالة، وقد جهل قوم تأويل هذا حتى وقعوا في العظيمة، إنما المعنى: ﴿**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:4]، «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»(2).

أسماء وصفات ليست على معاني الذات، فالعبد موصوف بأسماء العبودية من ذل، وخضوع، وفاقة، ومسكنة، وخشوع وخضوع، وفقر... إلى غير ذلك من سمات العبودية، ومعارف المحدّثين والمربوبين، كذلك أيضًا هو موصوف بكبر، وعجب، وغلظة، وفخر، واستعلاء، وتعاظم، وغنى... إلى غير ذلك من أسماء الربوبية وصفات الإلوهية، فإذا تولى الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - العبد وقاه شر نفسه، ومن شر نفسه استعمال صفات الإلوهية وأسماء الربوبية، وهو العبد القن، فتوليه إياه هو أن ينسخ عنه تعاظمه

---

(1) أخرجه أحمد (256/6، رقم 26236)، وأبو نعيم (5/1)، وابن عساكر (277/37)، ولفظه المشهور أخرجه البخاري (2384/5، رقم 6137). وابن حبان (58/2، رقم 347)، والبيهقي (219/10، رقم 20769)، وأبو نعيم في الحلية (4/1).

(2) أخرجه أحمد (315/2، رقم 8156)، والبخاري (2299/5، رقم 5873)، ومسلم (2183/4، رقم 2841). والبخاري في الأدب المفرد (339/1، رقم 978)، وابن حبان (33/14، رقم 6162).

واستعلاؤه، ونحو هذا، ويوجه بها إليه، فيجعل ذلك منه على أعداء الله، ثم يوجه صفاته التي هي سمات العبودية فيحققها فيه، ويستعمله بها بين يديه، فإذا هو ﷻ قد حاز العلا كله الذي كان في العبد من أثر الخلقة وصفات الحق ﷻ، واستعمله بشاكلة العبودية فكان هو، أي: أنه كان العظيم الحق، العلي الكبير، والغني الحق، ولم يبق من ذلك في هذا المتولي إلا ما كان حريًّا لله تعالى ﷻ ثم يرزقه الوفاق في جنبتي الوصفين، فكان عبدًا حقًّا، والله جَلَّ ذِكْرُهُ وهو الرب هو الحق ويحق الحق، فكان بذلك سمعه وبصره وروحه ويده وجوارحه الظاهرة والباطنة، أي: خلقًا وأمرًا وولاية، ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**﴾ [محمد:2].

فهذا الذي تقدم ذكره هو أولى بالتأويل إن شاء الله، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكذلك ما نحن بسبيل من مقام المعرفة، وهو مقام عَلي الدرجات، رفيع المكانة، وله شروط، وهي إذا لم يحجبه حظ من عقل، ولا رغبة فيما اطلع عليه من فوائد الملك ولا وقف بحب من سر قلبه على ما رآه في سره من عجائب الملكوت، ولا سكن إلى ما رفع إليه من على المرتبة التي شاهدها، فحينئذٍ يشرف به على المقامات، ويطلع على سني المراتب، ويكشف له الفضائل؛ فيعدم الطلب ويفنى الطالب، ويتبقى المطلوب الأعلى الباقي الدائم؛ فيفتح له بعد هذا باب من المعرفة عزيز لم يعلق له قط بوهم، ولا خطر له ببال، وعلى قدر صدقه في سيره وطهارة غيبه، وجهره يطلع له علم الهداية، ويظهر له التعلق بالاسم المحجوب، وربما أعطى فوائد كن المتصلة بـ(كان) عوضًا من الـ(كن) المتصلة بـ(يكون) المعهودة في دار الدنيا، فيومئذ يتحقق له قوله: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى**﴾ [الرحمن:27.26] قال عزّ من قائل: ﴿**فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [البقرة:28] فهم يرجعون إلى الحي الباقي الدائم؛ فلذلك يكونون عند الرجوع إليه في بقاء متوال دائم، ويبين له قوله جل من قائل: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [الحديد:17] قال الله عزّ من قائل في هذا المعرفة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ**﴾ [يونس:9] وهم بإيمانهم وتوحيد من حل هذا المقام يومئذ توحيد

مفرد في قلب مجرد، وهي معرفة لازمة، وصديقية قائمة، قال الله جل من قائل: ﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾ [الحديد:18] فأخبرك عز وجل أن الأعمال الصالحات تضاعف للعاملين، ثم قال عز من قال: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ [الحديد:19] وكثير دور هذا في القرآن لمن تأمله[1].

وكذلك لأهل التوحيد مقام عَلي تحله من أحكم هذه المقامات الثلاثة: التوحيد، أعني: التوحيد المفرد، لا يرى شيئًا في ذلك المقام سوى الواحد الأحد في جلال وحدته، لا يرى نفسه ولا سواه، وهذا يسمونه الفناء في التوحيد، وما تقدمه من المقامات فناء أيضًا، أي: أنه فني عن كل شيء سوى مطلوبه.

واعلم - علمنا الله وإياك من علمه، وأفضل عليك وعلينا من فضله- أن علم الأسماء الحسنى، وإن كانت المعرفة ينقطع دونه والوهم يحار فيه فالمطنب فيه من أجل ذلك مقصر، والمطول فيه متأخر لبعد غوره وعلو شأنه؛ إذ هو يربي على الوصف، ويحوز نهاية النعت؛ فإنه على ذلك يمت إلى المؤمن برحم ما بينه ونسب دان لأجل معرفة متقدمة وأنساب متصلة لحق واجب بمستقر ومستودع لوجود لازم، وإلى هذا فإنه يذهب الشك ويجلو الريب ولعلو قدره وسنى خطره، يصيب المقصد، ويقرب البعيد، ويظهر الخفي، ويبين المستتر، ويخلص المشكل، ويثير الكامن، وبه تكون صحة الإيمان وثبات اليقين ورفيع العلم، فاتخذه - وفقك الله -راحة عقلك، ومقبض فكرك، ومربع عينك، وموضع أنسك، وينبوع سرورك، فهو يفضى بك - إن شاء الله- إلى

---

(1) اعلم أن سائر الأسماء الإلهية إذا لم يتعلق بها السالك - أولاً- ثم يتحقق، لا يعد سالكًا في هذه المسالك، وكلما زاد زاد المريد من هذا التعلق والتحقق والتخلق الحميد، بماء نوره وسماء سروره، من علامة تخلق العارف بهذا الاسم أن يبدئ غرائب المعارف، ويظهر مكنونات الغيوب، ويفيق مرتوق الجيوب، ويكشف عن العلوم المستورة، ويرشف الفهوم المجهولة المنكورة، ويرفع غواشي الأستار عن قلوب طلاب الستار، ويعرف عن الأحوال حالاً حالاً، ويبين الواقع ماضيًا ومستقبلاً وحالاً، وصاحب هذا المقام هو الذي ذاق من الأسرار، هذا الاسم - المبدئ- جَابه لطالب الندى يندي، ولباغي الهدى يهدي، فأصبح نورًا محضًا وطورًا للتجلي، أظهرت زبد أسراره سر أطواره محضًا، فما حلَّ حبه بأرض قلب إلا عَمُرَ منه الدارس، ولا نزل جسمه بأرض موات إلا حييت منه الدوارس.

الحياة العظمى، والاختصاص الأكبر، وبه تبصر جملة أحكام الله ﷻ ومواقعها، وتبلغ علم التوحيد، وبه تدرك معرفة حكمة الله تبارك وتعالى الموسوعة لتدبير ملكوته، واتساقها في الأسباب الجارية على سبيل سننه المتممة لكلماته، وبه يدرك أحكام البسط والقبض، والرفع والخفض، ويبين لك قيامه ﷻ بالقسط، وبه ترى عدله موافقًا لحكمته، وبه تفهم عنه كتابه، واتصاله بحكمته في مجاري صنعه، وترى به كيف ليرجع أواخرها على أوائلها، وأقبل بأوائلها إلى أواخرها، وكيف أدرج المتضادات بعضها في بعض، وكيف أولج بعضها في بعض، وكيف قارب بين المتباعدات، وباعد بين المتقاربات، وبه تفقه مبعث ذلك كله، وتقف على التفرقة بين الفطرة والطبيعة بمعرفة منبعث كل واحد منهما، وبه يفقه العارفون عن الموجودات شهادتها، ويرون عبادتها لربها وقنوتها لخالقها، ويرون شرائع الإسلام مسطورة في العالم، مشوبة بأمشاج الخليقة، أوامرها ونواهيها، مغروزة في فطرة القيمة فيتناطق في حنك الصدق ظاهرًا في العلم، وباطنًا في الوجود، وتتصل في معرفتك الشِرْعَة بالفطرة، والجبلة بالسنة، والله نسأله لنا ولك تمام النعمة وإكمال المنة.

قال الله ﷻ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:1]، وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:78]، وفي أخرى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:27] ﴿وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الأعراف:180] وقال عزَّ من قائل: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:1].

اختلف علماء المسلمين ﷺ في الاسم هل هو المسمى أو غير المسمى؟ وكثر الداخلون في الكلام بذلك، وعظم الخوض لكثرة الاختلاف، وخالف الخَلَف في ذلك السَلَف، ونسي المبدأ بطول الأمد، وضلَّ بذلك الأكثرون عن المقصد، وترك المنهج جانبًا، وعدل القول في ذلك، والله أعلم أن هذا الاختلاف فيه - أعني الاسم - وما يقع عليه ويفهم منه يوجد واقعًا على معاني:

أحدها: أن يكون الاسم لقبًا؛ كثمامة في الناس، وحنظلة، وشجرة، وحبل، وعصفور، وكلب وجميع ما سمي بأسماء الحيوان، والثياب والحجارة والنجوم، وغير ذلك مما ليس هذا المسمى به.

والآخر: أن يكون الاسم تفاؤلاً؛ كخير، ونجاح، وفتح، وفرج، ويحيى ويعيش وخلف، ونحو هذا فهذه تسميات وألقاب سميت بها هذه المسميات للتمييز بينها وبين

أغيارها وأشكالها من حيث هي أقوال وحروف وكلام تكلم به للتفاهم والدلالة والتعريف، وفي هذا المعنى قال ﷻ ذكره: **﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾** [النجم:23] أي: ألقاب لقبتموها لا يرجع من مفهومها إلى حقيقة، وكذلك قال عزَّ من قائل: **﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾** [الرعد:33]، فطالبهم بأن يسموا معبوداتهم بأسماء توجد حقائقها في ذواتهم، كأسمائه جل وعز، ثم تلك الأسماء الواقعة على غير حقيقة المسمى من حيث إن المراد بها من المخاطب المتكلم والمنادى بها الذوات، وهي المفهوم عند المخاطب، فهي المسمى لا من حيث هي ألقاب، وأسماء هي كلام من حروف مقطعة، بل المعنى فيها، والمعنى منها، فافهم.

والثالث: أن يكون الاسم صفة، والعبارة عن الصفة وصف، والوصف خبر، والخبر يدخله الصدق والكذب، فإذا كان الاسم صدقًا؛ كمحمد وأسمائه أحمد والعاقب والحاشر والمقفي، وكذلك يحيى بن زكريا عليهم السلام قال الله ﷻ: **﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾** [مريم:7]،كذلك يحيى عليه السلام فلم يمت بكفر ولا معصية، فهذه وأشباهها أسماء حق من حيث إن دلت على مسمياتها تمييزًا لها من أشكالها وأغيارها، ووصفًا لها على ما هي عليه من حقيقة ومعنى.

وأسماء الله تبارك وتعالى منها أسماء فعل؛ كخالق، ورازق، ومحيي، ومميت، وباعث ووارث، وأليم الأخذ، وسريع الحساب، وكذلك كل ما دلَّ من الأسماء على ذات وفعل.

ومنها: أسماء تدل على ذات وصفة؛ كحي، ودائم، ورحيم، وكريم، وبر، وحليم، وقدير، وقاهر، وما أشبه هذا من الأسماء التي تدل على ذات، فصفة ذات منها أسماء تدل على معنى سواه ليس المفهوم والمراد بالإخبار عنه بها سواه؛ كموجود وقائم وشيء ومذكور ومعبود، وكل ذلك يدل على النهاية القصوى، والكمال الأرفع فيما ذكرته، فقولك شيء دلَّ على ذات، **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى:11]، وكذلك موجود وقديم ومذكور.

ومنها: أسماء تدل على حروف مركبة أو مفردة هي كنايات لذوات المتكلمين، وإشارات من ضمائر المخاطبين منها قولك هو، وذلك أظهرها اسم مركب مفرد مركب

من حرفين هما أول حروف في الباطن وله بها تشير بواطن المخاطبين بعضها إلى بعض إلى معاهدها ومعارفها.

ومنها: أسماء هي باطنة يعبر بها في أثناء التخاطب عن المراد به؛ كالألف، والباء، والياء، والواو، والنون، والتاء، والكاف، والثاء من سر محجوب مكنون وهو على ذلك لا يستطيع أحد أن يجهله، ولا يقدر أن يعمله، وهو المعلوم في أصل الفطرة، المعهود في سنح الفطرة الموجود في أصل الجبل، كما قال بعضهم: إن بين الألف واللام سر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة، به تتخاطب الذوات، وتتفاهم العقول، وتتراطن أنواع البهائم والحيوان، وهو الذي تشهده به الشواهد عنده، وهو قابلها ومعدلها، وهو الحق المتصل في غيابات الغيب بالحق المبين، عنه انصدعت أنوار المعرفة فيما يقدم وإليه تنتهي، وبه وعنه يعبر إلى نور الأنوار، وعليه تدل جميع الأسماء الظواهر والبواطن، وإياه تصف الصفات، وهو المسبح بها والمسمى.

فإذا أوصل الذكر بنور الإيمان إلى ذلك النور المبين اتحدت الأسماء كلها فكانت المسمى، والاستغناء عند ذلك الفهم عن العبارات بالأسماء، والمؤلفات بالحروف الموضوعة للإفهام، وإلى هذا المعنى الإشارة بقول الحق: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾ [الأعلى:1 - 3] إلى آخر ما يعبر به بأنواع التذكير، وكذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن:78]، وقد أفاض من نوره على التسميات المؤلفة من الحروف، فمتى صحب الإيمان بالعلم والفهم عند ذكر كل اسم دلَّ على صفة أو فعل إذا اعتبرت الأسماء على ما هي عليه من الإعلام بالذات، فالاسم المسمى أيضًا لما كانت هذه الحروف المؤلفة موضوعات للإفهام بما دلت، وكانت الدلالة عليها، والمقصود بها من المخاطبين على تقدير التقريب[1].

(1) فائدة: قال الأستاذ البكري: قيل: ثلاثمائة، وقيل: ألف وواحد، وقيل: مائة ألف وأربع وعشرون ألفًا على عدد الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- إذ كل نبي تمده حقيقة اسم خاص به، مع إمداد بقية الأسماء له؛ لتحققه بجميعها، فعن الاسم الجامع تفرعت الأمهات السبع وعرفها، وعنها بقية الأسماء، وقيل: ليس لها حد ولا نهاية، ولا يُحيط بها عد ولا غاية، وإلى هذا جنح ابن عباس ﷺ، وهي ذاتية كالله والرحمن، وصفاتية كالحي والعليم، وأفعالية كالمحيي والمميت، =

وعلى القول بالتحقيق فهو ﷻ لم يزل كذلك في الأزل لا إلى أول ولا إلى آخر، وهذا النوع من الأسماء، أعني أسماء صفات الذات والأفعال هو المراد به بقوله ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:74] وعلى هذا الترتيب جاء التسبيح في الصلاة، وقوله في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود: سبحان ربي الأعلى، قال رسول الله ﷺ «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ» [1] . وقال ﷻ: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق:19].

فالظواهر من الأسماء شارحة للاسم الذي هو الله جَلَّ ذِكْرُهُ، والاسم الذي هو الله تعرف بالاسم الذي هو، والاسم الذي هو، هو باطن الظواهر، وظاهر البواطن من الأسماء، والسر في اللام ومعتمدة الهاء، وبالاسم الذي هو به يشار إلى كل المقصود بالذكر، وهو يشد الأفهام إليه، ويفهمها عنه، ويحصرها به عن سواه إليه من الظواهر والبواطن، والهاء في الاسم تدل بل تشير إلى الاسم المحجوب، ولا تعبر عن ما سوى هذا عبارة، ولا يبلغه الفهم، ولا يتوهمه الوهم، والله العليم الحكيم.

فهذه الجملة بعون الله تبلغك - إن شاء الله - إلى أن تقول: «بسم الله» فيكون الاسم تسمية على ما تقدم من وسمت اسم، وكونه اسمًا هو من سما يسمو؛ لأنه معنى لمعنى به يعلو بالعلم من الجهل إلى العلم به، فيقول القائل: «بسم الله» معناه: ابدأ بذكر

=

والصفاتية على أقسام: أسماء صفات جمال: كالرحيم والكريم. وأسماء صفات جلال: كالكبير والعظيم.

وأسماء صفات كمال: كالسميع والبصير. وإذا كانت أفعاله لا تنحصر، فكذلك أسماؤه، لكن هل يُزاد في أسمائه على الوارد؟ فقيل: لا، وقيل: نعم، بقيد تصرف الاسم: كالعليم والعالم والعلام، وقيل: إن كان فيه معنى التعظيم جاز، وإلا لا، والأسماء دالة على المسمى، ومدلوله هو الذات والنسبية بين الاسم والذات، وهي الحقيقة الاسمية.

مثالها: كحقيقة الإنسان هي الحيوان الناطق، فمعرفة حقائق الأسماء تعطي علم النسب والإضافات، وهو علم كبير وعالمه عالم فيضه كثير، ومنه يُرتقى إلى عالم رقائق المعارف الحسناء، ومنه إلى شهود وخفي تجليات الصفات الأسنا، ومنه إلى كنوز أسرار الذات التي نيلها أغنى وأثنى، واتقى وأفنى، وأقرب وأدنى، ولما كان علم الأسماء هو الذي يعني، وعنه لا يبتغى طلبه، وخص بعد العموم علوم الأسماء الحسنى.

(1) رواه مسلم (332/3)، وأبو داود (175/3).

علو الله، أو يعلو الله أبدًا، على معنى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:74]، وبالله أستعين، أو بالله أمرك، على معنى قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:78] وقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:1] كما يقول: تبارك الله، وسبحان الله، والعلاء سبحة تنزه المسبح بها عن نقائض البشر وآفات الحديث، وبخاصة فإنها تنزه عن الشبه والمثل والعديل والنظير ونحو هذا، وتباعد عنه القهر والغلبة، ونعم بذلك نفي جميع النقائض والآفات.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:42-43]، فتنزه العَلِيّ الأعلى الحق بعلاه عن كذبهم وافترائهم، كذلك قال عز من قائل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ*عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: 91 - 92] وكذلك قوله ﷻ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:1]، إلى آخر السورة، كذلك قوله ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:40].

ثم نزَّه نفسه ﷻ بعلوه عن وجود مثل يماثله، وشريك يقارنه، يفعل كفعله، أو يضرب بنصيب في ملكه بقوله الحق: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:18]، كذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]، ثم تنزه العلي الحق عن فعل العبث، وعن أن يلحقه عجز عن إعادتهم وإرجاعهم إليه بقوله: ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:116] كذلك قوله في سورة «طه» لما ذكر قصة فرعون وعتوه وادعاءه الربوبية من دونه بقول: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:71] ثم ذكر إهلاكه إياه، وفعل بني إسرائيل في ثبوتهم، واتخاذهم العجل إلهًا من دونه، ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98] ثم ذكر الحشر وفظاعته والموقف وهول مطلعه، وعقاب المجرمين، وثواب المحسنين فيه، وإنهم لا يخافون منه ظلمًا في حكمه، ولا هضما من الحق الواجب لهم عنده، ثم

أعقب ذلك كله بقوله الحق: ﴿**فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ**﴾ [طه:114].

فعلى هذا النحو يأتي سبحة العلو على الأغلب في القرآن والحديث، فمنه الظاهر يبدو بأيسر نظر، ومنه الخفي يحتاج إلى تدقيق التفكير والتدبر، ولما كانت هذه الكلمة - أعني قوله: بسم الله - معناها العلو يعم جميع السبحات، وكانت سبحاته - جَلَّ ذِكْرُهُ -لا تحصى، ومدائحه لا تتباهى قرنه باسمه العظيم الذي جميع الأسماء دالة عليه ومشيرة إليه.

ثم أُمِرنا أن نتبرك بها عند بداية أمورنا، ونلوذ بعصمتها عند الشروع في جميع أعمالنا، وحكم على تاركها بالفسق، وعلى ما ترك ذكرها عليه بالتحريم بقوله: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**﴾ [الأنعام:121]، وقال رسول الله ﷺ: «**كل أمر لم يذكر اسم الله عليه فهو أجذم**» [1] وفيما يجده المستقرئ من ذلك في القرآن والحديث لنا غنية عن الإسهاب والتطويل.

فكلمة «بسم الله» بجميع السبحات والمدائح، وعامة لذكر الأسماء الحسنى والصفات العليا، جمعها لنا - وله الحمد - تيسيرًا منه، ورحمةً بنا لنتوصل إلى ذكره في كلمة واحدة بجميع الأسماء، وحمده بجميع المحامد، والثناء بأيسر مؤنة وأخف عمل، كفعله في أم القرآن من جمعه فيها جميع ما تضمنه القرآن كله، وعلى ذلك أجرى حكمته في تيسير هذه العظائم في مواضع الحاجة إليها، والله رءوف رحيم.

---

(1) رواه الطبراني في الكبير (15491)، والبزار (3740).

اسمه الله جَلَّ ذِكْرُهُ

كثر الاختلاف في هذا الاسم هل هو مشتق أم لا؟ فمنهم من قال ليس بمشتق، وصدق ليست أسماء الله مشتقة من سواها، إنما سواها مشتق منها، بل يستدل على معرفتها بما في سواها مما يقارب معانيها في موجودات هي أسماء مقتضية لمعاني تفهم من حروف ركبت تسمياتها منها، فأما من قال: إن هذا الاسم المشتق فيذهب إلى أن هذا الاسم الكريم هو من الوله، أي: الفزع، وهو الوله، والوله مقول على معنيين يرجعان إلى معنى واحد أحدهما: الفزع المتقدم ذكره، والآخر: الحب والطرب اللذان يكونان عنه، ويحتجون على ذلك بقول القائل:

وَلِهَت نَفسِيَ الطَّرُوبُ إلَيهم وَلَهاً حَالَ دُونَ طَعمِ الطَّعَامِ

وأنشدوا في الوله الذي هو الفزع قول القائل:

ولهت إليكم في بلايا تنوبني فلقيتكم فيها كرام محتدا

وقال بعضهم: أول المعرفة التحير، ثم الاتصال، ثم الافتقار، ومن هذا المعنى قال قائلهم:

قد تحيرت فيك خذ بيدي يا دليل لمن تحير فيك

وهذا الذي تقدم من معنى الوله هو من ألاه، وقال قوم: هو من قولهم ألاه وهذا مقول على معنيين: بمعنى احتجب، وبمعنى ظهر، واحتجوا على معنى الاحتجاب بقول القائل:

لاهت فما عرفت يوما بخارجة باليتها خرجت حتى عرفناها

وأما احتجاجهم على معنى ظهر بقول القائل: وأعجلنا الآلهة أن تغيبا، وعلى هذا فهو إذن بمعنى الظاهر والباطن، كما قال رسول الله ﷺ: «**هو الظاهر فليس فوقه أحدًا، وهو الباطن فليس دونه أحد**»[1] وهو أيضًا الظاهر فيما أظهره، وهو الباطن فيما أبطنه،

---

(1) أخرجه مسلم (633/2، رقم 919)، والترمذي (307/3، رقم 977)، وقال: حسن صحيح.
=

اللام الأولى مع الألف للعهد وللمعرفة، والثانية للملك، وهو ما أظهره، وإليها إشارة إلى حقيقة المشار إليه، وصورة حقيقتها، وهو من قال جل من قائل: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:1]، ﴿**هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [الحشر:22].

وهما حرفان: هاء تخرج بواسطة هواء يثور بها من الجوف، وهو نَفَسي، والواو تخرج من الشفة، فهي بهذا تدل على الأولية والآخرية، قال الله ﷻ: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾ [الحديد:3]، فإذا ابتدأ منه وإله منتهاه وهو الأول وإليه المنتهى، ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾ [النجم:42] وقد قيل في اللام الثانية: إنها إشارة إلى نفي ما سواه، والهاء إشارة إلى إثبات هُويته.

وقيل: أيضًا في اللام الثانية: إنها إشارة إلى النحو الواجب وجوده فيما أظهره بما كشفه بالهاء في قوله: ﴿**هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾ [الحشر: 22] إلى آخر السورة، وبقوله: ﴿**وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ**﴾ [الأنعام:3] ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الملك:16] ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾ [الحديد:4]، وإنما يقع معنى المحو على ما عسى أن تعدل به النفوس مما يهجس فيها من إثارة الأغيار المتوهمة بكاذب الوهم في الموجودات التي تناولها موضع النفي في كلمة الشهادة.

تنبيه: إنما وإن كانت للمحو كما ذكروا فإنما ذلك لمحو ما سبق إلى القلوب يلزم الغفلة عدم التيقظ، وإلا فهي تذكير للمتذكر وإرشاد للمعتبر، أظهر ذلك في قوله: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:1]، ﴿**هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [الحشر:22].

تنبيه: لزوم اللام الثانية الهاء من الاسم بواسطة الألف بينهما إشارة إلى لزوم حضوره جميع الموجودات، ووجوب كريم مشاهدته وقربه من كل شيء خلقه، وهو ما عبر عنه قول الحق: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ**

=

والنسائي (4/4، رقم 1825)، وابن ماجه (465/1، رقم 1447)، وأحمد (306/6، رقم 26650).

هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:7]، وقوله: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**﴾ [يونس:61] المعنى حيث وقع، ومما يقال: إنه مأخوذ ومشتق منه قولهم: لهيت عن الشيء بمعنى ذهلت عنه، وانتزعت عن ذكره، وذهب بي، ونحو هذا، وهو حال اللاهي عن الشيء، فمن كان كذلك في كل شأنه وصف بذلك وسمي به، قال رسول الله ﷺ: «**استوهبت من ربي اللاهين من أمتي فوهبنيهم**»[1] .

وقيل: لما يُلهي عن الحق: لهو، من هذا قال الله ﷻ:﴿**لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء:17]، فلو اتخذه من لدنا لكان الحق سبحانه هو خالق الحق، وخالق ما يُلهي عنه، وقد جعل على كل ضرب من الذكر فتنة تلهي عنه، حتى إن الأكثرين لاهين عن الحق، قال الله جل من قائل: ﴿**مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنبياء:2-3] فيكون العباد بهذا الوصف هو الحق المخلوق به السماوات والأرض أيضًا، أوجد ذلك في فطرتهم، كما أوجد الذكر وسبق في الوجود المذموم، الذي هو الإعراض والذهاب عن المراد بهم؛ لتخص برحمته وإيقاظه من يشاء من عباده، وترفع في ذلك قومًا وتضع آخرين؛ ليتم كلمته، هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار، الكلمتين، وعلى القول بالتحقيق فما من بشر وإن رفع إلى أعلى النهاية إلا وهو لاه، فإن طاقة البشر لا تستطيع مشاهدته، وحضوره على التحقيق.

ولذلك قيل ما ذكر الله أحدًا إلا بغفلة، وما عبده إلا عن فترة، ولو علم من يذكر اللسان يجف في الحنك، فالذاهب عن الحق وغيره يقال له: لاهٍ من لهيت، وكذلك طالب ما يلهي عن الحق فهو من لهوت الهواء لهوًا، وبكل هذا عاش المكلفون كما باستعماله نسوا ما ذكروا به، كما بالإغراق في ذلك كان الهلاك الهلاك[2].

---

(1) رواه ابن الأعرابي في «معجمه» (229/2).

(2) قلت: قال الأستاذ مصطفى البكري: قال الثعالبي- رحمه الله تعالى- في كتابه «الحقائق»: حقيقة =

=

اسم الجلالة: اسم جامع لمعاني الذات والصفات والأفعال، وإن شئت قلت: اسم لموجود واجب الوجود، موصوف بالصفات نزه عن الآفات، لا شريك له في المخلوقات؛ فقولنا: اسم لموجود ردًا على الدهرية القائلين: بأن الأرحام تدفع والأرض تبلغ، وما يهلكنا إلا الدهر؛ وقولنا: واجب الوجود ردًّا على من قال: إن الله جسم؛ لأنه إذا كان جسما يكون جائز الوجود؛ وقولنا: موصوف بالصفات ردًا على المعطلة النافين لصفات المعاني؛ وقولنا: منزه عن الآفات ردًا على من وصفه بها جل وعز عن النقص؛ وقولنا: لا شريك له في المخلوقات ردًا على القدرية القائلين: بأن العبد يخلق أفعاله الاختيارية أهلكهم الله تعالى، والاسم: عبارة عن المسمي عند أهل السنة والجماعة، انتهى.

وهل هو مشتق أو غير مشتق؟ وعلى كونه مشتقًا فأصله: إله فحذفت الهمزة، وعوض عنها الألف واللام، فقيل: الله، وقيل: هو من إله يإله إذا تحير إشارة إلى حيرة العقول أُولى الألباب فيه، وقيل: مشتق من لاه يليه لها إذا ارتفع إشارة إلى الرفعة، وإنه تعالى محجوب عن الأبصار، ومرتفع عن كل ما لا يليق به، أو من الهت إلى فلان؛ أي: سكنت إليه؛ لأن القلوب تطمئن بذكره، والأرواح تسكن إلى معرفته. وقيل: أصله: لاهًا بالسريانية، فعرب بحذف الألف الأخيرة، وأدخل الألف واللام عليه، وأُدغمت اللام الأولى في الثانية، أو من أله الفصيل إذا ولع بأمه، والعباد مولعون في التضرع إليه عند الشدائد، واستدل القائلون بعدم اعتقاد بأن أهل اللغة لم يتم فوافيه،بل لم يوجد في كلامهم استعمال لفظ الله قبل الشروع في صفته فضلاً عن غيره، فكانوا يكتبون: باسمك اللهم، وكان هذا أول ما كتبه النبي ﷺ، وجرى عليه ما شاء الله أن يجري، ثم نزلت بسم الله مجراها، فكتب بسم الله فجرى على ذلك ما شاء الله أن يجري، ثم نزلت: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء:110]، فكتب بسم الله الرحمن، وجرى على ذلك ما شاء الله أن يجري؛ ثم نزلت آية النمل فكتبها ﷺ.

قال سيدي عبد الكريم الجيلي -قدس الله سره- في «الإنسان الكامل»: وقد اختلف العلماء في هذا الاسم فمن قال: إنه جامد غير مشتق، وهو مذهبنا تسمى حق به قبل خلق المشتق، والمشتق منه، انتهى.

وقال في «القاموس»: إله الآلهة، والوهة والوهية عبد عبادة، ومنه لفظ الجلالة، واختلف فيه على عشرين قولاً ذكرتها في المباسط، وأصحها: أنه علم غير مشتق، وأصله: إله كفعاله بمعنى: ما لوه، وكل من اتخذ معبودا إله عند متخذه بين الآلهة... إلخ.

قال القاضي رحمه الله تعالى: وتفخيم لامه إذا انفتح ما قبله، أو انضم منه، وقيل: مطلقًا وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة، ولا ينعقد به صريح اليمين، وقد جاء في ضرورة الشعر:

ألا لا بـــــــارك الله في ســــــهيل   إذا مــــا الله بــــارك في الــــرجال

انتهى.

=

واعلم: لهذا الاسم الهيمنة على سائر الأسماء؛ إذ هو الجامع لها، ولا يختص بحضرة دون أخرى؛ بل هو متصرف سار ظاهر في جميع الحضرات والمراتب والشئون والظاهر والأفعال، وحروفه الظاهرة أربعة؛ فتصرف كل حرف منها في قطر، وطبيعة، وعنصر، وركن، وهي: الحاملة للعرش؛ إذ عن ظاهرية كل حرف من ظهر ملك، وهم حملته الآن، وسيظهر عن باطن كل حرف ملك أيضًا عند انتقال الأمر إلى الدار الآخرة فتصير الجملة ثمانية، والفصول أربعة، والمسبحون كذلك، والأشهر الحرم كذلك، والمجتمعة منها؛ كالمجتمع من حروفه، والمنفرد كالحرف المنفرد، ولهذا الاسم الكريم من المزايا ما لا يوجد لغيره منها، لا تخلو منه عبادة، ويقع في أولها، وآخرها، ولا يجمع ولا يثنّى.

ومنها: أن الإيمان لا يتم بدونه؛ لقوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»، وهو مفتاح الصلاة، والآذان، وختامه وأول اسم أفتتح به الكتاب.

ومنها: أنه الاسم الأعظم ظاهرًا وباطنًا، وكاد أن ينعقد على هذا الإجماع.

ومنها: أن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: «قل الله واجعل ما سواه خوض ولعب» إذ كان الاسم الجامع لسائر الأسماء الإلهية، وهي تنعت به، ولا ينعت بها، وإذا أزلت منه حرفًا أو حرفين أو ثلاثة لا يختل معناه، وليس هذا لغير من الأسماء، فإنك إذا أزلت منه حرف الألف بقي لله، وإذا أزلت منه اللام الأولى صار له، وإذا حذفت اللام الثانية بقى هو.

ومنها: أنه لم يسم به غير الله.

ومنها: أنهم حذفوا ياء من أوله، وزادوا ميمًا مشدودة في آخره، فقالوا: اللهم، ولم يفعل ذلك بغيره.

ومنها: أنهم ألزموا الألف واللام عوضًا عن همزته وقطعوها، فقالوا يا الله، وجمعوا بين ياء النداء والألف واللام، ولم يجمع بينهما إلا في ضرورة الشعر؛ كقوله:

فيا الغلامان اللذان فرا إياكما أن تكسبانا شرا

ومنها: إدخالهم التاء عليه في القسم في قولهم: تالله لا أفعل، وقولهم: أيمن الله؛ لأفعلنَّ، ويطلق على أي اسم كان بقرينة المقام، فإذا قال المريض: يا الله فمراده: يا شافي، وإذا قال التائب: يا الله فمراده: يا تواب.

ومنها: أن هذا الاسم المتعلق لا التخلق بخلاف غيره من الأسماء، وقال الإمام الشيخ أبو بكر الموصلي قدس الله سره: والمتعلق به سبعة شرائط: منها: استحقار ما سواه حالاً، وتعظيم أوامره كشفًا، وسقوط من أكوان شهودًا، والفناء في الجمع استغراقًا، وتعاني المهمة بالله أدبًا ومراقبة الأنفاس سرًا، وذكر الاسم الأعظم ظاهرًا وباطنًا إلى التاء له في الوله؛ أي: يشرق سره في وجوده، ووجوده في حقيقة شهوده لا يرى، ولا نحي ممن سواه، انتهى.

وقال الشيخ أحمد بن محمد الغزالي -قدس الله سره- في كتابه «التجريد في علم التوحيد»: كلمة الله أربعة أحرف حاصلها ثلاثة أحرف: ألف، ولام، وهاء.

=

=

فالألف: إشارة إلى قيام الحق بذاته، وإنفراده عن مصنوعاته، فإن الألف لا تعلق له بغيره.

واللام: إشارة إلى أنه مالك جميع المخلوقات.

والهاء: هادي من في السموات، ومن في الأرض ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:35]، وإن شئت أن تقول الألف: إشارة إلى تأليف بإسباغ النعم والرزق، واللام: إشارة إلى يوم الخلق بالإعراض عن الحق، والهاء: إشارة إلى هيمان أوليائه في المحبة، والعشق ألف التآلف للخلائق كلهم، واللام لام اللوم للمطرود، والهاء هاء متيم في حبه مستهزّ بالواحد المعبود.

وقال سيدي الشيخ السيد محيي الدين عبد القادر الجيلاني قدس الله سره: الله اسم الله الأعظم؛ وإنما يستجاب لك إذا قلت: يا الله وليس في قلبك غيره بسم الله من العارف؛ ككن من الله تعالى هذه كلمة تزيل الهم، وتكشف الغم، وتبطل اسم ابن آدم لأجلك خلق الجنة والنار، وبسبب معصيتك قال: (وإني لغفار) أُلوهية الهوية الأحدية مغناطيس حديد قلوب العارفين، وحق اليقين نقطة دائرة التوحيد، والتوحيد: قاعدة بناء الوجود، والحرقة: عبارة عن تلهف من عرف وما انحرف، وعلى قدم الإخلاص وقف، واحرقتاه عليكم، كيف تموتون، وما عرفتم ربكم الشجاعة! صبر ساعة، انتهى.

وقال سيدي محيي الدين بن العربي -قدس الله سره- في كتاب «الجلالة»: واعلموا أنها تحتوي من الحروف على ستة أحرف، وهي أل لاه، وأربعة:

منها: ظاهرة في الرقم وهي ألف الأول، ولام الغيب، وهي المدغمة، ولام الشهادة، وهي المنطوق بها مشددة، وهاء الهوية، وأربعة:

منها: ظاهرة في اللفظ وهي ألف القدرة، ولام بد الشهادة، وألف الذات، وهاء الهوية، وحرف فيها لا ظاهر في اللفظ، ولا في الرقم لكنه مدلول عليه، وهو واو الهو في اللفظ، وواو الهوية في الرقم، وانحصرت حروفه؛ فاللام للعالم الأوسط، وهو البرزخ، وهو معقول، والهاء للغيب، والواو لعالم الشهادة؛ ولما كان الله هو الغيب المطلق؛ وكان فيه واو عالم الشهادة؛ لأنها شفوية، ولا يمكن ظهورها في الله، ولهذا لم تظهر في الرقم، ولا في اللفظ فكانت غيبًا في الغيب، وهذا هو غيب الغيب، ومن هنا صح صرف الحس على العقل، فإن الحس اليوم غيب في العقل، والعقل اليوم هو الظاهر، فإذا كان غدًا في الدار الآخرة كانت الدولة في الحضرة الإلهية، وكتيب الروية للحس، فنظرت إليه الأبصار؛ فكانت الغايات للإبصار، والبدايات للعقول، ولولا الغايات ما التفت أحد إلى البدايات فانظر ما هنا من الأسرار، وهو أن: الآخرة أشرف من الدنيا، قال الله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ﴾، وقال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:17]، ثم إن الآخرة: لها البقاء والدنيا: لها الزوال والفناء، والديمومية أحسن وأشرف من الذهاب والغناء، ثم إن المعرفة ابتداؤها علم اليقين، وغايتها عين اليقين، وعين اليقين أشرف

=

=

من علم اليقين، والعلم للعقل، والعين للبصر؛ فإن العقل إليه يسعى، ومن أجل العين ينظر فصار عالم الشهادة غيب الغيب؛ ولهذا ظهر في الدنيا من أجل الدائرة، فإنه ينعطف آخرها على أولها فصار عالم الشهادة مقيدًا بما يجب له من الإطلاق فلا يبصر البصر إلا من جهة، ولا تسمع الأذن إلا في قرب بخلافه إذا مشى حقيقة، وانطلق من هذا التقيد؛ كسماع سارية، ونظر عمر إليه من المدينة، وبلوغ الصوت، وما أشبه ذلك، وصار عالم الغيب هو عالم العقل، فإنه يأخذ عن الحس براهنه لما يريد العلم به، وصار عالم الشهادة المطلق غيبًا في الغيب، وله يسعى العقل ويخدم، وأطال في ذلك.

وقال تلميذه سيدي محمد القونوي -قدس الله سره- في «شرح الفاتحة»: والاسم الله إذا جمعت حروفه الظاهرة والباطنة كانت ستة على رأي شيخنا ﷺ الألف واللامان، والألف الظاهرة في النطق لا في الخط، والهاء والواو الظاهرة بإشباع الضمة، فإذا أُضيفت إلى هذه الستة الحقيقة التي يدل عليها هذا الاسم أعني: الألوهية التي هي عبارة عن نسبة تعلق الحق من حيث ذاته بالأسماء المتعلقة بالكون كانت سبعة فافهم، انتهى.

وقال شيخه -قدس الله سره- في الباب 559: قال الحلاج وإن لم يكن من أهل الاحتجاج بسم الله منك بمنزلة كن منها فمن تقوى جأشه واستدار عرشه فخذا التكوين عنه، فمن قوي جأشه وتمهد فراشه، قال: كن ولم يبسمل فكان، ولم يحوقل.

قال شارح هذا الباب الإمام الجيلي قدس الله سره: مبدئ اللباب أشار إلى قوله ﷺ لشبح رآه من بعيد: كن زيدًا، وكان الشبح زيدًا آخا عمر بن الخطاب، كأن أرسله رسول الله ﷺ، وترقب وصوله، وحكايته مشهورة، والمراد: أن من كان متحققًا بربه روحًا وجسمًا صورة، ومعنى تكون له الأشياء بكلمة: كن؛ كما كان ذلك الشبح فصار زيدًا لرسول ﷺ، فقال: كن، ولم يقل بسم الله؛ لأن بسم الله مرتبة العارف، وكن مرتبة الله، انتهى.

ومعنى قول الشيخ قدس الله سره: وإن لم يكن من أهل الاحتجاج؛ أي: فإنه سكران، والسكران لا يحتج بكلامه، لكن إذا قبله أهل الصحو دل على صيحته فيقبل، وإذا كان الحلاج مع أن سكره ناشيء عن ذوق وشرب وري لا يعول عليه، فكيف بالذي يتساكر قانعًا بمجرد النسبة، أو اللبس والزَّي، وهو خلي مما يدعيه ملئ بالدعاوى التي لا تجديه بتملح بكلام الغير، ويتملح في نفسه حسن السير، وإذا كان السكر من أهل الصدق غير مرضي؛ فصاحبه يقال فيه: أنه أرضى والحال أنه مقلوب بحاله مقهور بوارد جلاله، فما ظنك بمن لم يشم شمة من ذلك، ولا لاح لسلعة ضياء مما هنالك؛ فالواجب على من نصح نفسه أن يفر ممن هذا حاله فراره من الأسد إذ هجره هو الرأي الأسد، والساعد الأشد، ولا يصحب إلا من شهد له الحال والمقال والرجال؛ أنه من أهل الرسوخ في الإقامة والترحال.

واعلم: أن لهذا الاسم الكريم خواص عجيبة، وتأثيرات غريبة، قال أهل الخواص: من داوم على ذكر هذا الاسم الشريف في خلوة مجردًا يقول الله الله حتى يقلب عليه منه حال شاهد عجائب

=

الاعتبار

قال الله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الرعد:16] وقال: ﴿**الذي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [طه: 98] وقال: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام:101] وكل شيء على العموم هو الجملة المتضمنة لكل ما خلقه الله الممثل للوهم على صورة آدم مصليًا لخالقه، قانتًا لبارئه، وهو العبد الكلي جعله جاعله على غير شيء مخلوق تحصله قدرته، ويحف به أمره ومشيئة وكما ﴿**وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [طه:98] كذلك وسع كل شيء قدرة ومشيئة.

=

الملكوت، ويقول بإذن الله للشيء كن فيكون، وهو ذكر الأكابر من المولهين، وأرباب المقامات، وأهل الكشف التام، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام:91].

وذكر بعض العلماء الأعلام: أن من اسم الله في إناء مكرر بحسب ما يسع الإناء، ورش به وجه المصروع احترق شيطانه، قال: ولقد أمرت بذلك رجلاً كان له غلام يصرع منذ أربع وثلاثين سنة، وأعياه أمره؛ فاعتكف ثلاثة أيام، ورش به عليه فاحترق عارضه، ولم يعد إليه، وهو: اسم الكمال والتمام، وهو يذهب العلل كلها، ومن ذكره سبعين ألف مرة في موضع خال من الأصوات لا يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه، وإن واظب على ذلك كان مجاب الدعوة، ومن دعا به على ظالم أخذ لوقته، ويكتبه بعدد حروف لسائر الأمراض، ويشفي به المريض؛ يعافى بإذن الله تعالى.

ومن قال كل يوم بعد صلاة الصبح: هو الله سبعًا وسبعين مرة؛ رأي بركتها في دينه ودنياه، وشاهد في نفسه أشياء عجيبة.

وقال الشيخ -قدس الله سره- في الباب ثلاثمائة أربعة وتسعين من «فتوحاته»: من أراد أن يتولى الله تعليمه شهودًا كما تولى أهل الله؛ كالخضر وغيره، فليترك جميع المعلومات، وجميع العالم من خاطره، ويجلس فارغ القلب مع الله بحضور ومراقبة وسكينة، وذكر إلهي باسم الله، الله ذكر قلب، ولا ينظر في دليل يوصله إلى علمه بالله، فإذا لزم الباب، وأدمن القرع بالذكر؛ وهب الرحمة التي يؤتيه الله من عند؛ أعني: توقيفه، وإلهامه لما ذكرنا، قال الله تعالى: ﴿**ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾ [الكهف:65] من الوجه الخاص الذي بينه، وبين الله، وهو لكل مخلوق؛ إذ يستحيل أن يكون للأسباب أثر في المسببات، فإن ذلك لسان الظاهر، انتهى.

وإذا كان ذلك كذلك فما من معلوم مقدور مراد حيًا كان أو مواتًا كان، أو لم يكن بعد مما في مقدور أن الله ﷻ يوجده، وما هو لا يكون أبدًا، وما هو كائن على الجواز، ولا يكون بالكيف والكَم والمتى والأوصاف والنعوت لجميع ذلك كله جملة وتفصيلاً إلا هو عنده حاضر مشهود له مرئي مسموع بلواحق ذلك كله وتوابعه، وكما هو الآن - جَلَّ ذِكْرُهُ - فلذلك كان في أزل أزله قبل أن يخلق ما خلق لم يستفد بما خلقه علمًا ولا وصفًا، خلا أن المخلوق أحضره لنفسه، فظهر المخلوق بذلك لنفسه، وظهر بعضه لبعض، وعلى المخلوق اختلفت الأوصاف لا عليه سبحانه وتعالى.

ثم خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء، ولما خلق آدم استخرج من ظهره ذريته إلى آخرهم وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا وأخذ منهم الميثاق يومئذٍ، قال رسول الله ﷺ: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**»[1] وفي أخرى: «**معه**»، وكتب في الذكر كل شيء، وقال الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - للقلم: «**اكتب، قال: ما أكتب يا ربي؟ قال: اكتب علمي في خلقي، وقال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وقال: اكتب المقدار، وكان في ذلك ما شاء وما كتب ما هو خالقه إلا كتب ما هو عامله وما هو رزقه وأثره وأجله إلى غير ذلك**»[2] كما ذكره.

بيان اسمه ﷻ
وتعالى علاؤه وشأنه

هو آخر الظواهر من الأسماء وأول البواطن منها، وكل الأسماء سواه من الظواهر معلم به وشارح له، وسوف يأتي هذا في شرح كل اسم منها إن شاء الله، وأما ما يخص هذا الموضع من ذلك فهو أن حروفه الظاهرة أربعة: (ا لـ لـ ه) ويحدث عند النطق حرفان: همزة لازمة لموضع تحقيق متصل الألوهية والوحدانية وجماع الأسماء كلها، وللحامد وتمحيق منفصل ما نزهه عنه علو جده وشموخ عظمته مما يضاد ذلك.

ثم ألف حادثة في اللفظ متصلة باللام الثانية، وقد تقدم ذكرها قبل، فالألف

(1) رواه البخاري (266/24)، وابن حبان (10/14).

(2) رواه ابن بطة في الإبانة (1361)، وابن أبي حاتم في التفسير (6905).

واللام الملازمة لهما الهمزة - كما تقدم - لتحقيق المتصل وتمحيق المنفصل والألف الحادثة في اللام الثانية لمحو آثار الأغيار الهاجسة في أنفس الخليقة الحادثة عنه وبها، وقد تقدم ذكر هذا.

ثم الهاء يتصل بها واو باطن ذكرها بطنت في الحظ وظهرت في الوجود كله علوًا وسفلاً أظهرها في الشهادة بذاته وختم بها فقال مخبرًا عن نفسه ﷻ :«**هو**»، فكان هذا تفصيلاً لما أجمل في الألف واللام من حصر تقدم ذكره، وتحقيق «الذي لا إله هو» هذا تفصيل لما اشتمل عليه، وبذلك تحقق معنى التوحيد في الكلمة والإخبار عنها والشهادة بها، وعاد بذلك الآخر منها بالتحقيق على أولها، وصارت بهذه الحكمة كدائرة ستة أجزاء عاد بالتحقيق آخرها على أولها، قبل بذلك أولها إلى آخرها، ﴿**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ**﴾ [فصلت:54] ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: 4] [(1)].

---

(1) قلت: قال الرازي في خواص لفظ الجلالة: اعلم أن هذا الاسم مختص بخواص لم توجد في سائر أسماء الله تعالى، ونحن نشير إليها: فالخاصة الأولى: أنك إذا حذفت الألف من قولك: «الله» بقي الباقي على صورة «لله» وهو مختص به سبحانه، كما في قوله: (وَلِلَّهِ جُنُودُ السموات والأرض) [الفتح:4] (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السموات والأرض) [المنافقون: 7] وإن حذفت عن هذه البقية اللام الأولى بقيت البقية على صورة «له» كما في قوله تعالى: (لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض) [الزمر:63] وقوله: (لَهُ الملك وَلَهُ الحمد) [التغابن:1] فإن حذفت اللام الباقية كانت البقية هي قولنا: «هو» وهو أيضًا يدل عليه سبحانه كما في قوله: (قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ) [الإخلاص: 1] وقوله: (هُوَ الحي لاَ إله إِلاَّ هُوَ) [غافر:65] والواو زائدة بدليل سقوطها في التثنية والجمع؛ فإنك تقول؛ هما، هم فلا تبقى الواو فيهما، فهذه الخاصية موجودة في لفظ «الله» غير موجودة في سائر الأسماء، وكما حصلت هذه الخاصية بحسب اللفظ فقد حصلت أيضًا بحسب المعنى، فإنك إذا دعوت الله بالرحمن فقد وصفته بالرحمة، وما وصفته بالقهر، وإذا دعوته بالعليم فقد وصفته بالعلم، وما وصفته بالقدرة، وأما إذا قلت يا الله فقد وصفته بجميع الصفات؛ لأن الإله لا يكون إلهاً إلا إذا كان موصوفاً بجميع هذه الصفات، فثبت أن قولنا الله قد حصلت له هذه الخاصية التي لم تحصل لسائر الأسماء.

وقال سيدي ابن عطاء الله السكندري: ومن تخصيص هذا الاسم المفرد بالذكر أنه ما من لفظة بالذكر من قل هو الله أحد وفيها تخصيص وإشارة ومعنى وفوائد عجيبة. وأسرار وحكم وعلوم ومعارف جليلة غريبة فهاهنا [قل] إشارة إلى الأمر [هو] إشارة إلى الإثبات لوجوده [الله] إشارة =

=

لاسم ذات الألوهية [أحد] إشارة لإفراد الأحدية [الله] إشارة لذكر الاسم المفرد [الصمد] إشارة لتنزيه الذات عن النفس البشرية [لم يلد] إشارة إلى كمال التنزيه عمن سواه [ولم يولد] إشارة إلى إثبات الأزلية والقدم. ونفى السبقية والحدوث والعدم. وهي إشارة إلى عدم الضد. والشبيه. والنظير. والكفو. والند.

وسمي هذا الاسم بالاسم المفرد لتكرار ذكره وإفراده بين الاسم الآخر واسم الصمد. فاختص الحق سبحانه هذا الاسم الثاني وأفرده. وكرر ذكره ليذكر. كما خص الاسم باسم ذات الألوهية بمعناها ظهر. وذكر في الوجود واشتهر. فقال [قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون] وقال [وهو الله في السماوات وفي الأرض] أي معبود. ومذكور. ومحمود ومشكور. وجميع الخلق تحت أمره ونهيه مقهور. يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولا يخفي عليه شيء فيها من جميع الأمور. وكذا الله أكبر. فيه خمسة أوجه. أحدها أن ذكر الله تعالى لنفسه. وتوحيده وتعظيمه وتمجيده. أكبر وأعظم من ذكر خلقه الضعفاء الفقراء وتوحيدهم له. لأنه هو الغني الحميد. الثاني أن ذكر هذا الاسم أعظم من ذكر غيره من أسمائه. الثالث أن ذكر الله تعالى لعبده في الأزل قبل كونه أعظم وأكبر إذا ذكره العبد في الحال. وأسبق وأقدم وأتم وأسنى وأرفع وأشرف وأكرم. قال الله تعالى [ولذكر الله أكبر] الرابع إذا ذكر الله تعالى في الصلاة أفضل وأكبر من ذكره في غير الصلاة ومشاهدة المذكور في الصلاة أعظم وأكمل وأكبر من الصلاة. الخامس أن ذكر الله لكم بهذه النعم العظيمة. والمنن الجسيمة. وندبه إليكم بدعوته إياكم لطاعته أكبر من ذكركم له بالذكر عليها إذ لا تطيقون شكر نعمته. ولهذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم [لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك] معناه لا أطيق وكان أعلمهم وأشرفهم وأرفعهم قدرا وأفضلهم. فأظهر عجزه مع كمال علمه ومعرفته صلى الله عليه وسلم.

ثم إن ما بعد توحيده شيء أعظم من الصلاة، ولهذا كانت ثاني قاعدة من قواعد الإسلام بقوله ﷺ «بني الإسلام على خمس أن يوحد الله وإقام الصلاة» الحديث. وجعلت تكبيرة افتتاحها الله أكبر. ولم تجعل لغيره من الأسماء كلها. ولا يجوز غير ذلك لقول النبي ﷺ «تحريمها التكبير» وكذلك ذكر هذا الاسم في الأذان. وفي كل تكبيرة للصلاة. فذكر هذا الاسم أفضل من جميع العبادات. وأقرب للمناجاة لا للصلاة ولا غيرها من أنواع الطاعات. وقد ورد في الحديث عن الله عز وجل أنه قال [أنا جليس من ذكرني] وقال [أنا عند ظن عبدي إذا ذكرني فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وان ذكرني وحده ذكرته وحدي وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه] قال تعالى [فاذكروني أذكركم] ودليل تفضيله على الصلاة من نفس الآية قوله تعالى [إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر] وإنها كذلك وهي معظم الذكر ولكن ذكر الله أكبر منها ومن كل عبادة. لقوله تعالى [ولذكر الله أكبر] ولما روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا

=

فصل

لما كان كل شيء في وجوه العلي الذي عبر عنه بقوله الحق: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام:59] كان مما أظهره من ذلك وفصله أن أوجد العرش العظيم المحيط بكل شيء أمرًا وخلقًا، وجعله على الماء المخلوق منه كل شيء حي، آية ذلك إنزاله الماء من السماء فيوجد عنه نباتًا وجمادًا وحيوانًا بتوابع ذلك كله وأوصافه، وأوجد الإنسان على أنه إذا ذكر ما تقدمت له به مع معرفة تصوره إن كان ذا صورة وما لم يكن ذا صورة أو كان معنى من المعاني تصوره بفرقان يتميز له به فيما هنالك من مذكرات سواه، وما لا يجوز أن يتصوره الباطن، ولا يتوهمه الوهم، أوقف عليه بالعلم، وهذا هو وصف الإيمان إذا كان هذا المذكور من الحق.

وإن كان الباطل تصور لمعتقده ذلك المذكور على ما ليس به، قال الله ﷻ: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل:72] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ

=

بلى قال ذكر الله» ولقوله ﷺ في حديث معاذ بن جبل «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله] ومعنى ذكر الله سبحانه لعبده أن من ذكره بالتوحيد. ذكره بالجنة والمزيد. قال الله تعالى [فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار] ومن ذكره باسمه المفرد أعني [الله] ودعاه بإخلاص أجابه. قال الله تعالى [وإذا سألك عبادي عني فإني قريب] الآية. ومن ذكره بالشكر ذكره بالمزيد. قال الله تعالى [ولئن شكرتم لأزيدنكم] وما من عبد ذكره بذكر إلا ذكره بما يقابله عوضا له. فان ذكره العارف بمعرفته. ذكره بكشف الحجاب لمشاهدته. وان ذكره المؤمن بإيمانه وذكره برحمته ورضوانه. وان ذكره التائب بتوبته ذكره بقبولها ومغرفته. وان ذكره العاصي باعتراف زلته. ذكره بستره وأناته. وان ذكره الفاجر بفجوره وغفلته. ذكره بعذابه ولعنته. وان ذكره الكافر بكفره وجرأته. ذكره بعذابه وعقوبته ولعنته. ومن هلله أجله ومن سبحه أصلحه. ومن حمده أيده. ومن استغفره غفر له. ومن رجع إليه أقبل عليه فان أحوال العبد كلها أربعة أحوال. منها أن يكون في طاعة فيذكره برؤية المنة في توفيقه لها. ومنها إن يكون في معصية فيذكره بالستر والتوبة. ومنها أن يكون في نعمة فيذكره بالشكر. ومنها أن يكون في شدة فيذكره بالصبر. وفي ذكر الله تعالى خمس خصال. رضى الله تعالى. ورقة القلب. وزيادة الخير. وحرز من الشيطان. ومنع من ركوب المعاصي. فما ذكره الذاكرون إلا بذكره لهم. وما عرفه العارفون إلا بتعريفه إياهم وما وحده الموحدون إلا بعلمه لهم. وما أطاعه المطيعون إلا بتوفيقه لهم وما أحبه المحبون إلا بتخصيص محبته لهم. وما خالفه المخالفون إلا بخذلانه لهم. فكل نعمة منه عطاء. وكل محنة منه قضاء. وما أخفته السابقة أظهرته اللاحقة.

وَكَفَرُوا بِاللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت:52] وهذه خلقة الكافر، وتلك خلقة المؤمن، وذكر الحق على إصابة المحمود هو من إثارة مفهوم قوله: **﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾** [المجادلة:22]، **﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يعقلون﴾** [البقرة:18]، ولا يرجعون فالله ﷻ أعلى وأعظم وأكرم وجودًا فافهم.

ولما شاء أن ينشئ عن عظيم وجوده العلي، ويخبر عن اسمه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أشار به إلى حاضر مشاهد ظاهر فيما أظهره، باطن فيها أبطنه، فقال: **﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ﴾** [الإخلاص:1،2] أي: أن الذي أنتم فيه من إيجاد وحفظ وكلاءة وخلق أنتم عليه، وأمر مدبر لكم، مصرف مقلب لكم، ورزق ونعمة أو محنة، وجميع الوجود كله سَوَّاه الله، جاعله ومدبره وخالقه، مصرفه ممسكه أوله آخره ظاهرة باطنة ثم أخذ في تمام السورة بما باين به ظواهر الموجودات بقوله: **﴿اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾** [الإخلاص: 2- 4] وقال: هو فابتدأ بالإخبار بهويته وحقيقة وجوده، ثم جعل يخبر عن ذلك بقوله الحق أي: إني أنا الله لا إله إلا أنا عالم الغيب والشهادة، فكان مفهوم قوله: الغيب هنا ما كان في علمه في الأزل ألا يوجده من شيء، ومفهوم قوله: الشهادة ما هو موجده من شيء، هو الرحمن الرحيم، فابتدأ بمثل ذلك أيضًا يخبر عن نفسه بصفاته وأسمائه، ولما كانت الصفات والأسماء ذاتية وفعلية وكان ما تقدم من ذكر الوحدانية والرحمة والرحمانية من صفات الذات نظم بذلك إن ابتدأ بمثل ما تقدم من ذكر الهوية ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وعبر بإشارة الهوية إلى اسمه الله ﷻ ذكره، وعرفه بالتوحيد، ثم نسق عليه ذكر أسماء الذات ﷻ إلى ما شاء ذكره من ذلك، ثم سبح نفسه كما ينبغي لعز جلاله ونعوت تعاليه عمّا به يشركون، ثم ابتدأ بمثل ذلك من ذكر الهوية ﷻ، وأظهر المشار إليه؛ وهو اسمه الله ﷻ[1].

---

(1) قلت: قال الشيخ روزبهان في «عرائس البيان»: وأما «ألله»: فإنه اسم الجمع لا ينكشف إلا لأهل الجمع، وكل اسم يتعلق بصفة من صفاته إلا الله؛ فإنه يتعلق بذاته وجميع صفاته لأجل ذلك، وهو اسم الجمع أخبر الحق عن نفسه باسمه الله، فما يعرفه إلا هو، ولا يسمعه إلا هو، ولا يتكلم به إلا هو؛ لأن الألف إشارة إلى الأنانية والوحدانية، ولا سبيل للخلق إلى معرفتها إلا الحق تعالى.

=

وفي اسمه «اَللهُ» لامان: الأولى: إشارة إلى الجمال، والثانية: إشارة إلى الجلال، والصفتان لا يعرفها إلا صاحب الصفات، و«الهاء»: إشارة إلى هويته، وهويته لا يعرفها إلا هو، والخلق معزولون عن حقائقه، فيحتجبون بحروفه عن معرفته «بالألف»: تجلِّي الحق من أنانيته لقلوب الموحدين، فتوحدوا به، و«باللام الأولى»: تجلِّي الحق من أزليته لأرواح العارفين، فانفردوا بانفراده، و«باللام الثانية»: تجلِّي الحق من جمال مشاهدته لأسرار المحبين، فغابوا في بحار حبِّه، و«بالهاء»: تجلِّي الحق من هويته لفؤاد المقرَّبين، فتاهوا في بيداء التحيُّر من سطوات عظمته.

قال الشبليُّ: ما قال الله أحدٌ سوى الله، فإن كان من قاله بحظٍّ، وأنَّى يدرك الحقائق بالحظوظ.

وقال الشبليُّ: الله، فقيل له: لِمَ لا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: لا أُبقي به ضدًّا.

وقيل في قوله: «اَللهُ»: هو المانع الذي يمنع الوصول إليه، كما امتنع هذا الاسم عن الوصول إليه حقيقةً، كأن الذات أشد امتناعًا، عجزهم في إظهار اسمه لهم؛ ليعلموا بذلك عجزهم عن درك ذاته.

وقيل في قوله: ﴿اَللهُ﴾: «الألف»: إشارةٌ إلى الوحدانية، و«اللام الأولى»: إشارةٌ إلى محو الإشارات، و«اللام الثاني»: إشارةٌ إلى محو المحو في كشف الهاء.

وقيل: الإشارة في «الألف» هي قيام الحق بنفسه، وانفصاله عن جميع خَلْقه، فلا اتصال له بشيءٍ من خَلقه؛ كامتناع «الألف» أن تتصل بشيءٍ من الحروف ابتداءً، بل تتصل الحروف بها على حدِّ الاحتياج إليها، واستغنائها عنهم.

وقيل: ليس من أسماء الله اسمٌ يبقى على إسقاط كل حرفٍ منه إلا الله، فإنه الله، فإذا أسقطت منه «الألف» يكون «لله»، فإذا أسقطت أحد لاميه يكون «له»، فإذا أسقطت اللامين بقيت الهاء، وهو غاية الإشارة.

وقال بعضهم: «الباء»: باب خزانة الله، و«السين»: سين الرسالة، و«الميم»: مُلك الولاية.

وقال بعضهم: بالله سَلِمت قلوب أولياء الله من عذاب الله، وبشفقته تطرَّقت أسرار أصفياء الله إلى حضرته، وبرحمته تفرَّدت أفئدة خواص عباده معه.

وقال بعضهم: بالله تحيَّرت قلوب العارفين في علم ذات الله، وبشفقته توصلت علوم العالمين في صفات الله، وبرحمته أدركت عقول المؤمنين شواهد ما أشهدهم الله من بيان الله.

وقيل: بإلهيته تفرَّدت قلوب عباد الله، وبتعطُّفه صَفت أرواح محبيه، وبرحمته ذُكرت نفوس عابديه.

وقال سهل: «الله»: هو اسم الله الأعظم الذي حوى الأسماء والأسامي كلها، وبين الألف واللام منه حرفٌ مكنّي غيبٌ من غيب إلى غيبه، وسرٌّ من سرٍّ إلى سرِّه، وحقيقةٌ من حقيقةٍ إلى حقيقته، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قوامًا لضرورة الإيمان.

ثم نسق على ذلك أسماء أفعاله إلى ما شاء ذكره من ذلك ليعرفنا سبل معرفته، ويبين لنا سبل الطريق إلى هدايته، فسبيل المتعرف بربه الطالب العلم به إن شاء الله أن ينظر في كل ما يقع عليه بصره أو يسمعه أو يعلمه، فيطلب ربه الله فيه وبه ومعه، دون توهم طرفيه ولا معية صحبه، قد نزهه عنها علو جده وشموخ عظمته، فهناك تجده أولاً لكل ما يطلبه عنده، وآخرًا وظاهرًا وباطنًا وتستقر أسماء الذات - جَلَّ ذِكْرُهُ - إلى حيث انتهى علمه بها.

ثم أسماء الأفعال إلى حيث انتهى علمه بها، وليستكثر من معرفة الموجودات ما استطاع ما لم يشغله ذلك عن طلب المقصود العلي يستعرض أفعاله وأحكامه وأيامه، ونعمه ونقمه، وهدايته وإضلاله، ومحبته وكرهه، وأوامره ونواهيه، وما تبع ذلك كله أوجز إليه، وعلى القول بالإجمال، فليستعرض الوجودين العالم، والوحي، وما يئول إليه ذلك من أمور الدنيا والآخرة، فبذلك يبين له بعض المراد من عظم هذا الاسم العظيم، وأنه عنه انبثق العلم كله، ووجد الوجود أجمعه، وقد نصَّ على هذا في خطابه أولي الألباب حيث يقول: ﴿**إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [طه:98]، وتدبر ذكره الاسم الأعظم ووصله به التوحيد بحرف نفي الإلهية عمّا سواه، وإثباتها بلفظ الحصر له وحده لا شريك له، فقد فصل بهذا الخطاب ما أحكم في الاسم، وما أحكم في الخطاب فصله في سائر القرآن والوجود أجمع، فافهم.

تنبيه: أنكر قوم الاشتقاق في هذا الاسم لضرب من التحقيق ألهموه، وقال به قوم

=

وقيل: من قال بالحروف، فإنه لم يقل الله؛ لأنه خارجٌ عن الحروف والحسوس، والأوهام، والأفهام، ولكن رضى منّا بذلك؛ لأنه لا سبيل إلى توحيده من حيث لا حال ولا قال.

وحُكي أن أبا الحسن النوري بقي في منزله سبعة أيامٍ لم يأكل، ولم يشرب، ولم ينم، ويقول في ولهٍ ودهشةٍ: الله الله، وهو قائمٌ يدور؛ فأخبر الجنيد، قال: انظروا محفوظًا عليه أوقاته، فقيل: إنه يصلي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان له سبيلاً، ثم قال: قوموا حتى نزوره إما أن نستفيد منه، أو نفيده، فدخل عليه وهو في وَلَهه، فقال: يا أبا الحسن، ما الذي ولهك؟ قال: أقول: الله، الله، زيدوا عليَّ؛ فقال له الجنيد: انظر هل قولك الله الله، أم قولك: إن كان كنت القائل الله الله، فلست القائل له، وإن كنت تقوله بنفسك، وأنت مع نفسك، فما معنى الوَلَه؟ قال: نعم المؤدب كنت، وسكن من ولهه.

لضرب من الحق وجدوه، وفصل الخطاب في ذلك أن أسماء الله ليست مشتقة من شيء، بل كل شيء موجود فهو عن وجود وجودها، وما كان ذلك في وجود الموجودات كذلك وجب أن يكون لكل اسم حروف ركبت عنها تسميته، وتلك الحروف بأعيانها قد ركبت في سائر لموجودات للتعريف بتسميات لمسميات هي من مقتضيات الأسماء العلى، فلا بأس على طالب أسماء ربه - عز ذكره - في استعراض تلك الحروف في مسميات الوجود؛ ليصل بذلك إلى تحقيق أسماء ربه ﷻ بتفرقها وتجمعها، فتتلفق له جملة المعرفة على ذلك، ألا تسمعه كيف سمى نفسه بخالق؟ لأنه يخلق، ورازق؛ لأنه رزق، وبارئ؛ لأنه برأ، وغافر؛ لأنه يغفر، كذلك رحيم وحكيم وغير ذلك، بل كيف يسوغ لمتعرف العلم بربه - جَلَّ ذِكْرُهُ - إنكار الاشتقاق على سنن الاشتقاق بعد ما سمع رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**أنه يقول: هي الرحم وأنا الرحمن، اشتققت لها اسمًا من اسمي، من قطعها قطعته، ومن وصلها وصلته**»[1]. فنص العليم الحكيم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أنه اشتق للرحم اسمًا من اسمه الرحمن، فالراء، والحاء، والميم، أصليات، والألف واللام فهما للتعريف، وهكذا فليكن الاشتقاق أن تكون الموجودات مشتقة من الأسماء لا الأسماء مشتقة من الموجودات فافهم.

واعلم - علمنا الله وإياك من علمه- أن الغفلة قطعت بالأكثر عن معرفة الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - مما قطع بأكثر المتيقظين إلى طلب المعرفة كثرة تعرفه إليهم وقربه منهم؛ للزوم مشاهدته وعموم حضوره ووجوب وجوده، وأنه ملأ كل شيء وجودًا، وكما ليس يعزب عن علمه وقدرته ومشيئته مثقال ذرة في الوجود ولا أصغر من ذلك ولا أكبر كذلك لا تخلق منه مكان في الحضور والشهود بمقتضى هذا الاسم، فلو أنهم طلبوه ها هنا لوجدوه حاضرًا مشهودًا لكنهم اعتقدوا البعد، وسبق إلى أوهامهم مع الغفلة قطع المسافة إليه، ومن لم يعتقد ذلك عقدًا ربما حجب عن قرب وجوب وجوده فعلاً، فهم يطلبون صانعهم، والقائم عليهم بجميع شأنهم الذي به قوامهم وجمع وجودهم فلا يجدونه وربما وجدوه فأهملوه ذلك حتى أذهلتهم الغفلة عن حقيقة شهوده وكريم

---

(1) رواه الترمذي (2031)، وأحمد (1708)، وهناد في «الزهد» (448/2)، والحاكم في «المستدرك» (7378)، والبيهقي (26/7).

حضوره، فمن كان طالبًا له فليطلبه في وجوده المتوالي وظهوره الواسع العميم في خلقه نفسك أيها العبد، وجميع ما خلقه من شيء من سماء وهواء وأفلاك ونجوم وبحار وأرض وجماد ونبات وحيوان وجريان الأزمان، واختلاف الليل والنهار، وتفصيل ذلك على فصوله وآياته بما في ذلك من معهود نعم النفع والدفع وبلوى وامتحان حتى يكون ما عدا ذلك آيات على ما شاء من قبض أو بسط، أو ما يعبر به عن معنى اسم من سائر أسمائه - جَلَّ ذِكْرُهُ - أو يعرف به من ذلك الوجه الذي شاء التعريف به من نعم أو نقم، قال الله عز من قائل: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ**﴾ [النحل:53] فذكر النعم على تواليها وتتابعها، ثم قال: ﴿**إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾ [النحل:53]، كذلك قال عز من قائل: ﴿**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ [الرعد:2]، المعنى ونظائر هذا حيث وقع هكذا يخبر عن اسمه الله بالكليات وبمجاري القضايا على مسالكها، ويختم الآية بالأسماء التي معانيها مطابقة لمعاني ما جاء في الآيات المجتلبة هذا موضوع الكتاب المبين، فالعالم والأسماء الحسنى فمن استرشد كل معلم منها فأرشده فالله - جَلَّ ذِكْرُهُ - كل الكل، وإليه يرجع الكل، والكل مرشد إليه ومعبر عنه، والاختصار يوجب الاقتصار، وإلا فالوجود أوسع والمقصود أعظم.

فصل

ومن الواجب في المعهود أنه من حل بأرض أو دفع إلى معاشرة قوم فأول ما ينبغي له أن يستشعر سيرهم ويتعلم عباراتهم، فإن ذلك لمن الإحصاء للأسماء فيما نحن بسبيله فمتى ورد عليك في الأخبار عن الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - أو عن أسمائه، أو صفاته، أو أفعاله، هذه الأدوات المعهودة عندنا كقوله: ﴿**وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ [الأحزاب:40] ومحيطًا ﴿**وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [النساء:134]، فإنما معنى كان هنا عبارة عن كأنه القديم الأزلي حيث لم يكن سواه مذكورًا ولا ذاكرًا، فهو الذي لم يزل ولا يزال كما لم يزل لا إلى أول ولا إلى آخر، لا إله إلا هو العلي الكبير، وكذلك قال رسول الله ﷺ: «**كَانَ اللهُ وَلاَ شَيْءٍ قَبْلَهُ**»[1] .

---

(1) أخرجه أحمد (431/4، رقم 19889)، والبخاري (1166/3، رقم 3019)، والطبراني (203/18، =

وكذلك ثم وأين وكيف، لكل عبارة تكون عن كل واحدة من هذه الأدوات وجه من الحق، وكذلك كل عبارة توهم تمكنًا أو تنقلاً؛ كذكره التنزل والمجيء، وما أشبه هذا كله مما يعبر به عن وجوده، فإن الإجماع من علماء المسلمين ﷺ قد اتفق على تنزيهه ﷻ عن أن يكون محلاً للحوادث، كما اتفق ذلك منهم على أنهم تأولوها لا أول له، بل يلقوا ذلك على وجهين يرجعان إلى وجه واحد:

أحدهما: أنهم تئولوها عن ظواهرهما إلى ما لا يوهم الضعفاء ما لا يجوز عليه من نقائص الحدث المعهود عندنا من معانيها، ومنعوا أن يعبر أحد عنها بما سوى ما جاء منها من أمثالها، وأمروا الأتباع بإمرار ما جاءت به دون زيادة فيها ولا نظر إليها أو وقوف بها، وزجروا عنها جدًّا خيفة الإيهام لما لا ينبغي لغير جلاله سبحانه وتعالى، وهذا وجه صحيح درج عليه الجم الغفير من الأمة.

والوجه الآخر: وهو لأهل العلية في المعرفة فإنهم قالوا بصحتها وإقرار مواضعها، وفهموا فيها هنالك منها بما جعلت له ها هنا حقائق هي هنالك منزهة عن نقائص معهودها فيما ها هنا، وقالوا: إن لكل أداة وكلمة عبرت عمّا هنالك وإن كانت محدثة مكونة وجهًا إلى القدم والتنزيه لما عبرت عنه أنالها ذلك من بركته، وأنارها من نوره، ووجهًا إلى الحدث الذي عنه أفاض عليها ذلك، أعنى: الحدث من افتقاره، فتنزهه ﷻ عن نقائص مفهومها نعوت تعاليه وعِزة جلاله، فلقربها منه وسفارتها بينه وبين عباده أيدها بالتنزيه له والتبليغ عنه.

وهذه من آيات النبوة ورسالة الموجودات في العالم المبثوثة فيه، وهو من الحق المخلوق به الوجود كله أخذت الحروف من ذلك بقسطها، فاعلم ذلك، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله في بابه، فإن آلة الإبهام ونفيها، فالمقصود عندنا من مفهومها وإبقاء التنزيه من آيات الله تعالى على معنى النبوة فيها كسواها الموجود فيها ذلك كما أيد البشرى المصطفى ﷺ بالتبليغ، وفارق في ذلك ظاهره باطنه، كذلك الحروف المعبرة

=

رقم 497)، وابن حبان (7/14، رقم 6140)، والروياني (135/1، رقم 140)، وأحمد (431/2، رقم 9562)، وابن عساكر (72/57) بنحوه.

عنه المخبرة به، فقول رسول الله ﷺ: «**كَانَ اللهُ وَلاَ شَيْءَ قَبْلَهُ**» [1] ، وقول الله: ﴿**وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [النساء:134]، ونحو هذا ليست كان هذه متصرفة لا يقال فيها كان يكون كونًا كغيرها، بل هي معصومة مرفوعة عن ذلك، إنما هي عبارة عن توالي الوجود المطلق دون تقييد متوهم أو منتهى إليه في أزل الأزل لا إلى أول، وإنما أخبر بها عن كونه التنزيه الرفيع، وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا، وكان الله عليمًا وبصيرًا وقديرًا ونحو هذا؛ أي: لم يزل سميعًا وبصيرًا وعليمًا، وهو الآن على ما لم يزل لم يزد بإيجاد الخليقة وصفًا لم يكن عليه قبل.

وقد قال بعض العارفين: كان هو الله ﷻ، وإنما قال ذلك عن استمرار الوجود، وهكذا ما في بابها، قال الله ﷻ فيما حكاه لنا عن فرعون في محاجته موسى ﷺ: ﴿**قال فرعون وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ**﴾ [الشعراء:23] فإنها وإن كانت من فرعون - لعنه الله - على وجه البحث عنه بما وهو ما نهينا عنه، فإنها من عند الله ﷻ على وجه التعاظم والافتخار والجلال ولذلك رده موسى ﷺ إلى طريق التعلم بقوله: ﴿**رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ**﴾ [الشعراء:24] فجاد ﷺ عن بحثه العنيد وسؤاله الفاسد إلى الدليل المرشد، والسبيل المستقيم، ثم قال: ﴿**إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ**﴾ [الشعراء: 24]، معناه: إذا علمتموه من هذا السبيل الذي أرشدتكم إليه، ووصلتم إليه بالتعريف الذي دللتكم عليه، شاهدتموه بنعوت تعاليه وجلال عظمته، وكنتم موقنين، فيومئذٍ يصح عنكم الإخبار عنه بها، وقد مضى في غير هذا الموضع الكلام على بحث فرعون عنه بما ولأي وجه قصد به، ومقابله جواب موسى ﷺ بحثه ذلك، هكذا قوله ﷻ: ﴿**وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾ [الشمس:5-7] معنى ذلك التعظيم لشأنه، والافتخار بجلال اقتداره، ومن ذلك قول المرأة العربية: زوجي مالك وما مالك خير من ذلك، وقول الأخرى: «زوجي أبو زرع وما أبو زرع».

وأما قوله ﷻ: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ**﴾ [الأعراف:54] فاقطع - وفقك الله - قطعًا باتًا أن القبل والبعد لا يصل إليه حكمهما، ومعنى هذا هو أن البعد لا يفنيه القبل،

---

(1) تقدم تخريجه.

والقبل لا يعجله عن البعد، وكل ذلك حكمه وقضاؤه وفعله فكيف يعجزه صنعه؟ أو يعدوا عليه عبده، إنما هي عبارات عن ترتيب إلهي وحكم رحماني يشير إليه الإيمان جملة، ولا يتصوره العقل تفصيلاً.

وأيضًا فإن الاستواء فعل له ﷻ واقعًا له جائز عليها وقوع بعضها بعد بعض، كذلك قال عز من قائل: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [الأعراف:54] كما قال: ﴿**السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا**﴾ [النازعات:27-29]، ثم قال عز من قائل: ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ [النازعات:30].

التعبد

أيها العبد المؤمن، قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى - من الذي شفع لك في الأزل إذ كنت معلومًا في علم الله ﷻ ومقدورًا في قدرته، ومرادًا في إرادته، فلم تكن يومئذٍ مذكورًا لسواه، ولا مظهرًا لغيره، بل مرئيًا له مشاهدًا حاضرًا لديه مقدورًا، فسماك باسم السلام، ووسمك بوسم الإيمان وناداك من قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب عمل المؤمنين والصالحين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتق سرك عن التزام الرق لمن له شكل ونظير، ثم وجه بوجهتك إلى الله العَليّ الكبير، فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق في القدم في إجزال المنة عساه يتم عليك النعمة، واسم بهمتك عن ملاحظة الأغيار، ولا تتسع بالركون إلى الرسوم والآثار والرضا بخسيس الأقدار، بل ليكن اتسامك بالخضوع والجموع لله الكبير المتعالي، ثم اسمُ بسرك إلى الأفق المبين تعبدًا وحبًا إلى من سماك من المسلمين، فأعط الله الرضا من قلبك تظفر، وتوكل عليه وحده تغنم وتؤجر.

فإن كنت كذلك فاعلم أن من علامات الرضا سرور العبد بالمقدور في جميع الأمور فلا تذم شيئًا ولا تعبد مشاهدًا لله جَلَّ ذِكْرُهُ في كل صنعه، ناظرًا إليه في كل ما يقع عليه نظرك، ولا تقل هذا يوم شديد الحر ولا هذا يوم شديد البرد، ولا تقل الفقر والأمراض بلاء ومحنة، والعيال غم وتعب، والاحتراف كد ومشقة، ولا تفقد بقلبك من ذلك على ما يتفوه به لسانك، واستغفر الله من ذلك، بل ليرضى قلبك ويسلم ويسكن

العقل، وتستسلم وتغتبط النفس بوجود حلاوة التدبير، واستحسان محكم التقدير.

واعلم أن الله خلقك على معاني الأسماء والصفات، وهيأك لمعرفته، ولا تعلم من حيث يرقى بك إلى ذلك، كما أذهلك عن حقيقة المعرفة ومشاهدة الذكر والإيمان، وسبق إليك قبل التكبر والتعاظم والفخر وحب الثناء والملك والتعزز وحب الغلبة والعلو والانتقام والجبروت والقهر والاستيلاء والغنى بعرض الدنيا، وهذا عن الحق المخلوق به السماوات والأرض، وعلى هذا ترتيب الحكمة في التكليف للبلوى والامتحان، فمحبة العبد تعجيل المحبوب من ذلك كله، ورضا الله ﷻ في حكم الابتلاء والامتحان، ففرق صفاتك أيها العبد من صفات ربك، وتأجل أكثر المحبوب إلى دار الآخرة وعلى المقدار الذي يتطلب مرادك، وتقويه وتؤثره، ويكون هلاكك، فإن تدارك بأن يكتب لك الإيمان في قلبك بالعلم، وبأن يستعملك في معالم الإسلام فقد استنقذك من شر نفسك وإن رقى بك إلى أن يكتب في قلبك الإيمان، أي: يثبته فيه باليقين التام والعلم النافع، وأن يأخذك عنك بمعنى: يؤيدك بروح منه فقد أفلحت، فارغب إليه في الوفاق، وادعه في ذلك، فإنه إذ ذاك يحققك في العبودية وشاكلتها، ويجعلك عالماً راحمًا رفيقًا شاهدًا بالحق، مشاهدًا للغيب قريبًا مما يرضيه عنها، حيًّا قائمًا على العهد، حافظًا للغيب بما حفظ الله، مجيبًا مراقبًا له، رقيبًا على نفسك، مبينًا للحق غفورًا، رحيمًا، عفوًا، حليمًا، مريدًا للخير معلمًا له، محبًّا في الله، محبًّا للصالحين، معطاءً، وهابًا، سخيًّا، بذولاً، زكيًّا، مزكيًا، توابًا ،طاهرًا، طيبًا، مؤمنًا، مسلمًا، صالحًا، عدلاً، قائمًا بالقسط، برًّا، شكورًا، صابرًا هكذا إلى سائر الأسماء، يستعملك فيها على شاكلة العبودية، فيومئذٍ يكون معك بذكرك بأن تذكره فتذكره فيذكرك بما ذكرته من ثناء وجزاء، حاضرًا معك، شهيدًا عندك، قائمًا عليك بالوفاق، ظاهرًا وباطنًا.

ولكل بناء مستقر وسوف تعلمون فاستكثر من شواهد اليقين ودلائل صحيح الإيمان واذكر قول رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»[1].

وأشد الناس حبًّا أحسنهم تخلقًا بمعاني أسماء الله وصفاته على سنن التعبد له

(1) رواه أحمد (27/28).

مثل العلم والحكم والعفو والصفح والمغفرة والسخاء والكرم والستر على الخلق، وحب الإحسان إليهم، ثم على ذلك وعلى قدر المعرفة بمعاني صفاته، ثم أتركهم منازعة له في معاني الصفات التي تقدم ذكرها؛ مثل الكبرياء والعظمة والجبروت ونعوت التعالي والجلال، فإن انتحال ذلك يخرج عن شاكلة العبودية، وبمفارقة العبيد شاكلة العبودية يهلكون، ثم أشدّهم محبَّة لرسول الله ﷺ وتحققًا في الاقتداء به هو حبيب الله، وحب حبيب الحبيب من أرفع درجات المحبة، **«ومن تواضع لله رفعه الله ومن ترفَّع وضعه الله»**[1].

فأشعر نفسك - وفقنا الله وإياك - عظيم مشاهدته وكريم حضوره في كل أحيانك، وجميع أحوالك، وارغب إلى الله أن يؤنسك بقربه، ويحبب إليك حب مشاهدته، وقد كان ضيغم -رحمة الله عليه- يقول: عجبت لخليقة كيف أرادت بك بدلاً؟! عجبت لها كيف آنست بسواك؟!

ومن كمال حب الله: دوام ذكره في القلب بالفرح به والسرور والشوق إليه والأنس به، وعلامة الأنس بالله: إيثار الخلوة به كما قال عز من قائل: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد:28]

وعليك بثلاث: اجعل رأس مالك الصدق، وزادك الفقر، وقوتك التقوى، وتعرف علم حالك، وقف عند حدك، وألزم الصدق في مقالك، واترك التكلف والدعوى في جميع سكونك وحركاتك، فذاك أبلغ لك فيما تريد، وأقرب لمنال العون على ما ترجوه.

فعلم العلماء وأعمال العاملين لا تغني عنك من الله شيئًا، إنما تسأل عن علم نفسك وعملها وفَّقنا الله وإياك لما يرضيه، وعصمنا من التكلف إنه قريب مجيب سبحانه الحمد له الوجود الواجب المتوالي الباقي الدائم.

ووجوب وجود ما سواه ممكن ما شاء إيجاده منه أوجده، وما لم يشاء لم يكن له وجود، وما شاء إيجاده فوجوده بين عدمين: بداية ونهاية، وكونه بين تصريف تدبيره، وخيره مشيئته إذا شاء إبقاؤه أبقاه، وإذا شاء إعدامه أعدمه، علم كل شيء من ذاته،

(1) رواه الطبراني في «الكبير» (400/19)، والبيهقي في «الشعب» (182/17).

وابتدع كل شيء من ذاته، وأراد كل شيء شاء من ذاته بالتفصيل بالتقسيم ولفصل التفصيل الزماني والتحصيل الإلهي، فعلمه وقدرته وإرادته وصفاته مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، فهو قهر كل شيء جبروتًا، وحاز كل شيء ملكوتًا، وعم جميع نواحي الذكر وأقطار الوجود وجودًا وعلاء، له الخلق كله والأمر كله والمجد والثناء الحسن أجمع، وله الأولى والآخرة لا إلى منتهى ولا إلى أمد، تبارك الله وارت غيبة حجب فليس يعلم إلا الله ما الله حد حيث شئت فإن الله ثم، وقل ما شئت عنه فإن الواسع الله أسماؤه مخبرات عنه، معلمات به وبأفعاله وقضاياه وأحكامه وتدبير وجود الأذكار عطايا ومواهب من الله ﷻ فالتوحيد عين اليقين، وعين اليقين عين النعيم، وهي المعاينة التي تنسب إلى المشاهدة، وإنما يبلغ إلى هذه المرتبة من مقام هذا التوحيد، ولعظم قدره وعلو المعرفة به صغرت العطايا كلها بالإضافة إليها حتى يغيب العلم فيها، والعلوم كلها مجموعة فيها كيف لا وهي معدن العلوم، كلها منها بدأت وإليها تعود، ولا مطمع للعقول في مزيد مقام بعدها ومزيدها لا يفنى وسيأتي التعبد به فيها مائة، فيما يأتي بعد من الأسماء إن شاء الله ﷻ.

اسمه الإله تبارك وتعالى

الإله هو المحبوب الودود والمطاع والمعبود، وهو أيضًا الثابت الدائم القائم القيوم، ولا يقع على غيره الإله بالتعريف حقيقة ولا مجازًا ومن التطرق إلى معرفته من جهة الحروف المؤلفة قولهم: أله بالمكان إذا أقام به، ومن ذلك الوله والتوله: وهو بمعنى إفراط المحبة والود والفرار من سواه إليه والفزع إليه من غيره كما قال ﷻ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:50] هذا كله مشتق من اسمه (الإله)، والله أعلم.

وإنما كان الحرفان: لاه وقد تقدم ما هو المفهوم عنهما في اسمه «الله» ثم أوجد الهمزة في هذا الاسم وهي من حروف النَفَس؛ إذ هي أول حروفها بعد الهاء، فدلَّت بذلك على المحبة والود والفزع إليه ومنه، ودلَّت بهذا كله على الطاعة له والتعبد إليه،

والمحبوب المودود مخوف هجره محذور فراقه ومفزوع منه وإليه، فكونه مطاعًا ومعبودًا اقتضى ذلك جماع التوجه إليه والإقبال عليه وقصده بالأعمال كلها، قال عزَّ من قائل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان:43] وقال رسول الله ﷺ: «**الهوى إله معبود**»[1]، وقال ﷺ: «**حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ**»[2].

فمن قال بمعرفة الله فكأنما تكلم بالأسماء كلها فإذا أضاف إلى اسمه الوحدانية فقد صدق العالم كله علوه وسفله، وإذا أضاف التوحيد للألهية فقد جمع النفي لما سوى الإله الحق، وأصاب الألوهية بما هي على الحقيقة بحكم الوحدانية إلى اسمه «الله»، فهذه شهادة الحق الذي ضمنه العالم كله علوه وسفله، وإذا فعل ذلك فقد شهد شهادة العالم، وعبد بتوحيد ربه المفطور عليه.

وقد قال: المعرفة وضع الإقرار سوى قدره ومحو الأذكار سوى ذكره، وهذا هو التوحيد وهو معنى قول: لا إله إلا الله، وبالحقيقة فما قال الله على الحقيقة سوى الله وذلك لعلمه بنفسه وكثر شهادته، وأرفع الذكر ذكر ذاكر يقول: الله الله بمعرفة شهود قلب، ثم يقول: لا إله إلا الله، ثم يعود إلى قوله: الله الله لا إله إلا الله ويستكثر من ذلك، وإن شاء مع هذا أن يقول: الله الله الحليم الكريم، الله الله العَليّ العظيم، الله الله سبحان الله العظيم، الله الله الرحمن الرحيم، الله الله القوي العزيز، الله الله الكبير المتعالي، الله لله الحي القيوم، هكذا يقرن إلى الاسم ذكر الأسماء كلها بشهود قلب وحضور ذكر، فذلك أنفع أذكاره وأكرم أوقاته، فقوله: لا إله إلا الله ليصفى قلبه، الله الله بعدها ليرد الذكر على قلب منقى وسر مصفى، وكذلك ذكر سائر الأسماء مع الاسم كما تقدم، وقيل لبعضهم لما تقول: الله الله ولا تقول: لا إله إلا الله؟ قال: أخشى أن أوجد قلبي وحشة الجحود، وهذا الذكر يكون لمن جمع الهموم كلها، فكان في الله ﷻ، ثم جمع الوجود كله إلى الوحدة بما هي عليه للواحد الحق ﷻ فلم ير في الصنعة سوى صانعها، ولا شاهد في الخلقة إلا خالقها، وقتني عن كل شيء سوى الله ﷻ،

---

(1) ذكره الصولي في «أخبار أبي تمام» (ص23)، والجاحظ في «البيان والتبيين» (ص71) عن ابن عباس.

(2) رواه أحمد (250/47)، والطبراني في «الأوسط» (334/4).

وذلك مقام في الإحصاء السابع وقد تقدمت إشارات إليه.

الاعتبار

كل وله يكون في شيء أو عن شيء أو تأله كائن ما كان فهو مأخوذ من هذا الاسم الكريم، ومعلوم منه قال الله -عز من قائل-: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾** [الجاثية:23]، وقال: **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾** [الفرقان:43]، يقول: وهو أعلم بما يقول: **﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾** [الفرقان:43] فلا تستطيع أنت هدايته ليتخذ إله الحق إلهًا؛ لأنه إنما يسمع بسمع إلهه الذي هو هواه، ويبصر ببصره، ويعلم بأمره، ولذلك قال - عز من قائل- على لسان رسول الله ﷺ: «**إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وإلا اتجرت له من وراء كل تاجر**»[1] وقال رسول الله ﷺ: «**الهوى والشهوة يغلبان العلم والعقل والبيان**»[2].

فهذا كله من الوله والحجب الذي تقدم ذكره عن الحقيقة والظهور للباطل أو ظهور الحق وحجب الباطل، وكل ذلك عن اسميه الله والإله - جَلَّ ذِكْرُهُ- فما غلب منه العلم والعقل والبيان والصبر والتجمل والحسن كله فهو من الهوى، وما غلب الهوى والشهوة والجهل والنداء والجزع والقبيح كله فهو عن الإله الحق تبارك وتعالى، نصب القسم الأول إلى الهوى لدلالته عليه وتزيينه إياه وقربه منه، والإيجاد والخلق للإله، قال تعالى: **﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** [الرعد:16] والنسبة فيما هذا سبيله على وجهين: نسبة ولاية، ونسبة إيجاد، فما تولاه الله إيجادًا وولاية فهو المؤمن والمرضي، وما لم يتوله فهو منسوب إلى الله ﷻ إيجادًا ثم هو منسوب إلى من تولاه، فافهم.

التعبد

فاقصد - وفقك الله وإيانا - قصد الإله الحق - جَلَّ ذِكْرُهُ- فاتخذه إلهًا من دون

---

(1) تقدم.

(2) رواه أبو نعيم في «الحلية» (10/88).

من سواه فقد قال عز من قائل: ﴿**لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ [النحل: 51] يحذر من اتخاذ آلهة من دونه؛ إذ ذاك فتح لمعاني الكثرة من الآلهة؛ لأنه من اتخذ مع الله إلهًا آخر كان بذلك متخذًا لإلهين سوى إله الحق، وأكثر من ذلك الإله الحق - جَلَّ ذِكْرُهُ- والآلهة التي أشرك بها وهواه الذي قاده إليه، والشيطان الذي زينه له وجعله عليه، ثم تستكثر في حقه الآلهة جدًّا فتخاف كل شيء، ويرجو كل شيء؛ إذ قد أسلمه الإله الحق ﷻ فلم يدخل في شركته لعزته يقول الله جل من قائل: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي**»[1].

فهو له كله، ألا ترى أنه لم يدخل في ضمير التثنية لا يدخل في ضمير مع سواه في خطاب القرآن المعصوم من الذلل، وما جاء من ذلك في خطاب من سواه فأدخله مع غيره في ضمير فليست العصمة مشروطة للغير، وربما كان ذلك من الراوي، ولو علم ما في ذلك لجابته، وقد قال رسول الله ﷺ لخطيب قام في مجلسه فقال: «**من يطع الله ورسوله يرشد ومن يعصهما فقد غوى أنزل فبئس الخطيب أنت**»[2] فأنكر عليه أن جمع الله ورسوله في ضمير التثنية، والرسول أقرب قربًا إلى الله ﷻ من الآلهة، فكيف يجوز هذا في القرآن العزيز، وقد أتى بذكر نفسه ﷻ معبودًا في قوله إثر ذلك، إنما هو إله واحد.

فاطلب - وفقك الله - حقيقة ألوهيته، وتعلم علم طاعته ووحده، كما أمرك وإياك وشركه بكل وجه كما قال: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة:163] وصرف ذلك في كتابه الحكيم لفظًا ومعنى ونصًّا وتعريضًا، وعلى ذلك دار القرآن بتبيانه، وجميع الوحي والوجود أجمع علوًا وسفلاً، أوضحت بذلك الشواهد، وأعربت بحقيقته الدلائل﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾ [الأنفال:42].

واعلم أن بتوحيده قامت السماوات والأرض وما بينهما وما علا وما سفل، وبه

---

(1) رواه مسلم (57/19)، وابن ماجه (398/12).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة (74/6، رقم 29574)، وأحمد (256/4، رقم 18273).

ثبت كل شيء، وبه قام التدبير وتماسك النظام، وبتوحيده في ألوهيته ظهر الإسلام وتحقق الإيمان وثبت اليقين، وعليه ابتنى حكم الدنيا والآخرة، وبه حقنت الدماء وأمن السباء، وهي الموجبة للجنة والرضوان وضدها الموجب للسخط وعذاب النار، قال رسول الله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه دخل الجنة**»[1].

فهذا لقائلها مرة واحدة ثم مات عليها ساعته تلك، فكيف ترى من استصحبها وعمل بها وتعلم اليقين بتحقيقها من حط ذنوب ورفعته في درجات تلك الدار، وقربه من ربه، وبالضد لمن استكبر وأبى قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [الصافات:35].

فاعلم - وفقك الله - بموجبها وتعلم حقيقتها ترفع إلى أعلى درجاتها، قال رسول الله ﷺ: «**ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا عند النشور كأني أنظر إليهم قيامًا من قبورهم ينفضون التراب عن رءوسهم يقولون: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾** [فاطر:34]»[2].

مصداق ذلك في قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [الأحقاف:13] وكثير جاء هذا، فأكثر من قولها فلا شيء يوازنها كلما إذا مرت بسيئته محتها، قال رسول الله ﷺ: «**إذا تعار الرجل من النوم فقال: لا إله إلا الله تحاتت عنه ذنوبه كما تحات ورق الشجر عنها**»[3].

ومتى ابتليت بالخروج عنها أو عن معنى من معانيها فبادر بالتوبة والرجعة إليها، ومتى عملت عملاً كفرت به ذنبًا اقترفته أو تقربت به إلى ربك ﷻ، فعقب شهادة أن لا إله إلا الله فيها تستفتح أبواب الجنة وتصعد في درجاتها، قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ**

---

(1) رواه مسلم (62/3)، والبيهقي (409/1)، وابن خزيمة (217/2).

(2) رواه البيهقي في «الشعب» (110/1)، والطبراني في «الكبير» (233/11).

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (15/3، رقم 2737)، بنحوه.

ومن غريب الحديث: «تحاتَّ»: تساقطت، وأصله: تحاتت ؛ فحذفت إحدى التاءات لتوالي الأمثال، وذلك للتخفيف.

فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فتحت أبواب الجنة يدخل من أيها شاء»[1].

وهذا حاصل له في المثال إن شاء الله؛ لأنه قول صدق ووعد حق، وقد قال بعض العلماء: إن هذا أيضًا معجل له حينه ذلك تفتح له أبواب الطاعة المفضية به إلى الجنة الآخرة، وتطلق له جوارحه التي ظهرها إلى طلب مرضاته، وهي الجنة المعجلة في الدنيا وبذلك تعلق عنه أبواب التي جوارحه هي الشوارع إليها.

والثامن من الأبواب: هو قلبه الذي أحسن به الظهور وقصد به ربه وأخلصه بالعبادة، ولا قول أنفع من قول قائلها ولا عمل أزكى من عمل أهلها، قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَل مَا قُلْت أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: «لاَ إِلَه إِلاَّ الله وَحْده لاَ شَرِيك لَهُ ، لَهُ الْمُلْك وَلَهُ الْحَمْد وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير**»[2].

وهي رأس الدين وملاكه وقوامه وموضع مداره وهي الكلمة الطيبة، والشجرة الطيبة، والأعمال كلها فروعها فمتى زكت زكت الأعمال، ومتى وهت وهت الأعمال والأعمال دلائل عليها في صلاحها وفسادها وصلاحها، فلذلك فاجمع همك عند قولها، واقصر عقلك وفهمك عند الشهادة بها، واهزز نفسك عند ذكرها، فخير القول أصدقه، وأنفع الذكر ما صدر عن حقيقة البيان والتثبت، قال الله ﷻ: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**﴾ [محمد:19] وأفضل الشهادات وأعدلها شهادة من أحاط بشهادته علمًا، وتثبت عند أدائها، فلم يبق في تحقيقها مريَّة ولا ريبًا ولا غفلة، ولذلك قال عز من قائل: ﴿**وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾

---

(1) ذكره ابن حجر في «تلخيص الحبير» (102/1)، ونحوه أخرجه أبو داود (43/1، رقم 169)، والنسائي في الكبرى (25/6، رقم 9912)، وابن أبي شيبة (13/1، رقم 21)، وعبد الرزاق (1/ 45، رقم 142)، وأبو يعلى (213/1، رقم 249)، والحاكم (433/2، رقم 3508)، وابن ماجه (159/1، رقم 470). وكذلك أخرجه أحمد (19/1، رقم 121)، والطبراني (331/17، رقم 916)، والبزار (361/1، رقم 242).

(2) أخرجه مالك (214/1، رقم 500)، والبيهقي (117/5، رقم 9256).

[الزخرف:86].

وكلمة (لا إله إلا الله) مركَّبة من نفي وإثبات، وإنما أدخل فيها النفي لتحقيق معنى الإثبات، فقول القائل: لا ولي لي إلا أنت، أعظم تحقيقًا من قوله: أنت ولي وهو نفي ما يستحيل كونه إثبات ما يستحيل فقده، وهي لمن قالها عالمًا بها مصفية للسر عن الكدر، ومروحة للقلب من وهج الشكوك والعلاقة، والغير فمتى حضرتك ثانية في قولها وبذلك علم العلم بشهادتها.

فقد علمت - رحمك الله- أنه تبارك وتعالى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن وما بينهن والدنيا والآخرة والجنة والنار وما فيهما والعرش العظيم والكرسي الكريم وجملة المخلوقات فأجمعها في وهمك شخصًا قائمًا قانتًا وصورة متوهمة بعقل شاهد وقلب حاضر، فانف الألوهية عن جميع ذلك نفيًا لا يبق شيئًا منها له، ولا معنى من معانيها إلا نفيها عنه وشهدت له بالعبودية، ثم تدارك عقيب ذلك دون مهلة بالاستثناء للإلهية المحضة الخالصة مثبتًا، وقد وجهت بعقلك صعدًا، وأتممت بإيمانك مستسلمًا، فأضفها لله الأعظم الأعز الأكرم، فإن واصلت حالتك ذلك بأن تقول: الله الله هكذا ما قولتها الله الله، ثم تستأنف الشهادة له بذلك فتقول: لا إله إلا الله، ثم تعاود قولك: الله الله الله، ثم تستقبل الشهادة له والتحميد والتمجيد وذكره بأسمائه وكريم أفعاله كالذي تقدم ذكره، هكذا ما صحبك ذلك فهو أفضل أوقاتك وأكرم أذكارك وأزكى أعمالك بعد أداء مفروضاتك والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

اسمه الواحد جلَّ جلاله

الواحد يقال على أنحاء منها واحد العدد، وهو بما هو لا يتناوله العدد، فمتى أضفت إليه ثانيًا سرى إليه، ففني العدد ولم ينتقل عنه معنى الأحدية[1] وإنما يصير بما

(1) عرف الشيخ القاشاني الأحدية بقوله: هي اعتبار الذات من حيث لا نسبة بينها وبين شيء أصلاً ولا شيء إلى الذات نسبة أصلاً، ولهذا الاعتبار المسمى بالأحدية تقتضي الذات الغنى عن =

=

العالمين، لأنها من هذه الحيثية لا نسبة بينها وبين شيء أصلاً. ومن هذا الوجه المسمى بالأحدية يقتضى أن لا تُدرَك الذاتُ ولا يحاط بها بوجه من الوجوه لسقوط الاعتبارات عنها بالكلية. وهذا هو الاعتبار الذي به تسمى الذات أحداً كما عرفت، ومتعلقه بطون الذات وإطلاقها وأزليتها.

الأحدية الذاتية: هي ما عرفته من اعتبار الذات من حيث لا نسبة لها إلى شيء أصلاً، ولا لشيء إليها نسبة بوجه ولا تُدْرك ولا تُحاط بها بوجه، والذات باعتبار هذه الأحدية تقتضي الغنى عن العالمين.

الأحدية الصفاتية: يعني بها اعتبار الذات من حيث اتحاد الأسماء والصفات فيها، وانتشاؤها عينها. وهذا الاعتبار يسمى بواحدية الذات أيضاً كما سيأتي في باب الواو، وبهذا الاعتبار تتحد الأسماء على اختلافها، ويدل كل اسم منها عليها، وإن فهم منه معنى يتميز به عن غيره من الأسماء.

أحدية الأسماء: هي الأحدية الصفاتية كما عرفت.

الأحدية الفعلية: يعني بها رفع الوسائط في الأفعال، ورؤيتها كلها فعل الحق تعالى وحده. وينبغي أن تعلم أن لهذه الأحدية الفعلية اعتبارين:

أحدهما: سقوط اعتبار الوسائط، وهذا حال المُسْتَهلكين.

وثانيهما: اعتبار الأحدية المشهودة لصاحب مقام الأكملية، التي باعتبارها يكون المراد برفع الوسائط، التمييز بجهة انتساب الفعل إلى الحق عن جهة انتسابه إلى الخلق، لأن المراد برفع الوسائط في نظر الكامل سقوط اعتبارها، لأن ذلك حال المستهلكين كما عرفت.

أحدية الجمع: ويقال: حضرة أحدية الجمع، ومرتبة أحدية الجمع. والمراد بذلك: أول تعينات الذات، وأول رتبها، الذي لا اعتبار فيه لغير الذات فقط، كما هو المشار إليه بقوله (ص): «كان الله ولا شيء معه»، وذلك لأن الأمر هناك، أعني في مرتبة أحدية الجمع وحداني، إذ ليس ثَمَّ سوى ذات واحدة مندرج فيها نسب واحديتها، التي هي عين الذات الواحدة. فهذه النسب وإن ظهرت بصور الأوصاف في المرتبة الثانية التي هي حضرة تفصيل المعلومات، وتميزها، إنما يجمعها وصفان هما: الوحدة والكثرة، ولكونهما صورتي نسبتين من نسب الذات الجامعة المجتمعة غير المفرقة، والمتفرقة لم تكن التفرقة الحاصلة بهذين الوصفين تفرقة حقيقية في نفس الأمر، فتصير تلك التفرقة مشتتة لشمل جمعية الذات، لأنهما نسب الذات في أول رتبها المحكوم فيه بنفي الغير والغيرية هناك، فهي أعنى تلك النسب والإضافات أوصاف محكوم بالتفرقة بينها وبين الموصوف بها في الرتبة الثانية.

فهي من حيث باطنها الذي هو شؤون الذات هي عين الذات، لا غيرها. إذ لا غيرية، ولا مغايرة هناك، لأنها ليست هي. ثَمَّ أوصافاً للذات بل هي عين الذات، فهذا هو مقام أحدية الجمع، الذي لا تصح فيه رؤية تفرقة بين الذات من حيث تعينها، وبينها من حيث إطلاقها، أو قل بينها من

=

أضيف إليه ثانيًا لقرينه وتبقى له حرمة الأحدية من حيث أوليته، وذلك لعزة الوحدانية، وسيأتي بيان ذلك في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

وواحد بمعنى عدم القرين وانقطاع النظير، وهو معنى قول الله ﷻ: ﴿**الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [ص:65]، ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:4]، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: 11].

وهو الواحد القهار بمعنى أنه وحد الواحد على بناء اسم الفاعل كما يقال: من قام قائمًا ومن قعد قاعد؛ لأنه فعل القيام والقعود، وكما يسمى بالخالق؛ لأنه خلق، ورازق؛ لأنه رزق، ونحو هذا، وعلى هذا يكون من أسماء الأفعال ذلك؛ لأنه جمع الكثرة وزم الجمل، فوحد بذلك الواحد، والوحدة أصل الاسم، ألا ترى أنك تقول: رأيت رجلاً واحدًا وجاءني زيد وحده، أي: ليس معه غيره، ويقال: واحد بمعنى أحد، وسيأتي الكلام عليه في اسمه إن شاء الله تعالى[1].

=

حيث حقيقة الحقائق، وبينها من حيث التجلي الأول لعلو هذا المقام الذي هو مقام أحدية الجمع.

وفرقيته على جميع مراتب التفرقة فرقية بها يصير الوصف والموصوف، أو قل الذات وشؤونها عين ذات واحدة بلا مغايرة ولا غيرية، ولهذا كان من ترقى سره عن التأثر بمراتب التفرقة والتقييد بثمراتها، والانحجاب برؤيتها إلى حضرة أحدية الجمع عند تمام حياته الحقيقية وعن جميع أحكام الكثرة والغيرية لم يبق من حقيقته شيء سوى هذه الحقيقة الأحدية.

وهو القائل:

«تحققت أنًا في الحقيقة واحد»

وقوله:

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا»

وقوله:

«تحققت أني عين من أنا عبده»

وأمثال ذلك مما قد عرفت ما هو المراد به.

(1) قال سيدي عبد العزيز الديريني في «المقصد الأسنى» ما نصه: قال الله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [الرعد:16] هو القَدِيم الذي لا قديم سواه لأن القَدِيم لا يكون إلا واحِدًا، وذلك أن حقيقة القَدِيم السَّابِق لكل ما سواه، فلو فرضنا وجود قديمين لكان كلٌ واحِد منهما غير سابق

=

الاعتبار

دلائل الوحدانية في الوجود أجمعه شائعة، وشواهدها ظاهرة مفصحة ناطقة، كثير وجود ذلك في العالم جملةً وتفصيلاً رحمة منه بعباده؛ لعظم الحاجة إليه، كشفه للمعتبرين، وإبانة للناظرين المتأملين؛ ليصلوا بذلك إلى تحقيق ما شاهدوا به فيشهدوا له بالحق، وهم يعلمون؛ إذ التوحيد يصحبهم في أنفسهم، وفيما هو محيط بهم بكل

=

للآخر فظل قدمه فلا قديم إلا الإله الواحِد سبحانه وتعالى الواحِدُ الأحَدُ الذي ليس بجِسْم، ولا جَوْهَر، ولا عَرَض؛ لأن الجسم يجوز عليه الانقسام فليس بواحد، والجَوْهَر يجوز انضمام غيره إليه فيصير جسمًا، والعَرَض مفتقر إلى محل يحله، والواحِدُ الأحَدُ الفَرْدُ الوَتْر هو الله ﷻ الذي لا يجوز عليه الانفصال بشيء، ولا يدخل في العدد، ولا يضم إليه غيره، هذا معنى كونه واحِدًا في ملكه لا شريك له. ويقال: الواحِدُ الذي لا شريك له، الأحَدُ الذي لا شبيه له، ويقال: الواحِدُ الذي لا حَدَّ لسلطانه فلا يصح الخروج عن ملكه. وقيل: الواحِدُ الذي يقرب من يشاء، ويختص بالولاية من يشاء وتوحيد الله ﷻ لنفسه علمه بأنه واحد وإخباره بذلك في كتبه المنزلة، قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [آل عمران:18]، وتوحيد الخلق لله ﷻ علمهم بأنه واحد وإقرارهم بذلك، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ**﴾ أي: تشهد بذلك الملائكة، والمؤمنون، وهذا التوحيد نور يقذفه الله في القلب، فينفى به ظلمات الشرك.

قال الله ﷻ تعالى: ﴿**يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [البقرة:257]، ثم يزداد وضوحًا بتأمل بدائع المصنوعات، وسماع القرآن، وملازمة ذكر الله وطاعته حتى تسقط رؤى الوسائط في الأفعال، وتصير ضرورية فلا يرى فاعلاً غير الله هذا كله مع حفظ الشريعة، والوقوف على الحدود امتثالاً لأمر الله.

وسُئل الجُنَيْد عن التوحيد! فقال: هو معنى تَضْمَحِلّ فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم، ويقال: التوحيد فناء ذكر الأشياء عن القلب وانفراده بالله.

ويقال: التوحيد أن يكون العبد شبحًا بين يدي الله تجرى عليه تصاريف تدبيره بالاختيار.

وقال أَبُو سَعِيدِ الخَرَّازُ ﷺ: التوحيد أن يعلم أن الله غير مُشبه بالذات، ولا مَنْفى الصفات، ويقال: التوحيد إسقاط الياءات، يعني: ياءات الإضافة فلا تقل علمي، ولا عملي، ولا حالي، ولا ما لي.

قال رجل لبعض الصالحين: اذكرني في خلوتك، فقال: إذا ذكرت ربي نسيت نفسي فكيف أذكرك.

قيل: إن الشِّبْلِيُّ ﷺ سمع امرأة تصيح خلف جنازة ولدها وهي تقول: والله ما لي سواه، فصاح الشِّبْلِيُّ ﷺ: وقال والله ما لي سواه ووقع مغشيًا عليه ﷺ. [المقصد الأسنى ص 28] بتحقيقنا.

وجه ومعنى، وإنما الكثرة كالعرض للأجسام، والجواهر تجمله، ومعنى الوحدة غالب على أمرها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:38ـ 39].

مفهومه أن من طلب ذلك في العالم تعلمه، والتوحيد والوحدة من الحق المخلوق به السماوات والأرض، فمن بعض الطرق إلى ذلك: أن نتعلم أن جميع مجاري حكمة الله - تبارك وتعالى - في الدنيا والآخرة جارية على دوائر محكمة التداور؛ لترجع أواخر الحكمة على أوائلها، ثم لتعود أوائلها على أواخرها، على ذلك أحكم أمره في الأرض وفي السماء، وأجرى الأفلاك في مطالعها ومغربها، وسير بذلك الشمس والقمر والنجوم والرياح والليل والنهار، وقدر على ذلك ساعاتها ودقائق الساعات وشعائرها، وما تنفس كل ذات نفس وما يضمحل، وينشأ أو ينمو، وما يتهشم ويتحطم أو يخضر وينعم، أو يزيد أو ينقص، قدر على ذلك عطاءه، ومنعه ونصره وإدالته من شاء من سعادة أو شقاء، من صحة أو سقم، من عافية أو بلاء، من خير أو من شر، من هداية أو ضلالة، كل ذلك حكم من تقديره ترجع أواخرها على أوائلها وتعود أوائلها على أواخرها بما شاء من مقدر محتوم، أو كائن عن مشيئته في الكتاب مذموم.

فصل

كل دائرة فمركب خطها والمحيط بها من حركة وسكون، والحركة ظاهر الخلق والسكون فيها غائب الأمر ينبعث السكون المعبر عنه في هذا الخطاب عن نقطة في وسط الدائرة تسمى المحور؛ لأنه عنه وإليه يحور الأمر فيها وبها، وذلك المحور سكون خالص عنه ينبعث السكون الذي انعطف لأجله فيحيطها فدار الأمر لأجل ذلك حول الوسط منها الذي هو معنى الأمر فيها، ثم يتداخل وجود الحركة والسكون في جملة المحاط به بمحيط الدائر، فإذا نظرت في ذلك المعنى المسمى بالمحور فليس يوصف بسكون؛ لأنه باطن، وما بطن عن الوجود فوصفه بالحركة أو بالسكون تجوز في عبارة، وإنما اضطرت إلى تسميته بذلك للضرورة، بل هو أمر الله ﷻ في وجود ذلك الدائر، ويدور على ما شمله، وينبعث من ذلك المحور الأمر إلى المشتمل عليه من خلق وأمر، كذلك تحريك هذه الدوائر، أي دائر كان بأمر خارج منه ليس يسمى بحركة،

كما لا يسمى المحور سكونًا.

فهكذا توهم الدائر كلها من أنفاس الخلائق إلى الساعات إلى الأيام والليالي إلى الجمع إلى الشهور، إلى فصول العام، إلى تمامه إلى الأسابيع من ذلك إلى أسابيع الأسابيع إلى انقضاء الآجال إلى تمام الآماد، ونهاية حركات الأفلاك بالأزمان والأحكام المقدرة في الأزل، بما في ذلك من خلق وأمر ماس بكل موجود دقيق ذلك، وجليلة صغيرة وكبيرة، ظاهر ذلك وباطنه من أصغر الدوائر إلى ما عبر عنه العَليّ الحكيم الكبير بقوله الحق: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [الأنبياء:33].

فصغير الدوائر على ما تقدم من وصف الخلق والأمر فيه وبه هو ضمن ما هو أكبر منه، وكذلك في ضمن أكبر منها، هكذا إلى قوله: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [الأنبياء:33]، الكل من ذلك بما خصَّ به من حكم مفصل على خلق وأمر خاص أو عام، كما قال: ﴿**لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس:40] ثم هكذا إلى ما علا السماوات السبع وما سفل عن الأرضين السبع، إلى المسمى﴿**أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ**﴾ [الشورى:53]، ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ**﴾ [هود:123].

هو الفاعل الحق المحرك الحق لا يوصف بحركة ولا بسكون، فاعبده، أي: على التوحيد له، وتوكل عليه، وهذا الذي شاهدته في اسم الواحد ﷻ من حسن الاتساق وكريم الاتصال، كذلك وجود الحق المخلوق به جملة العالم على جميع وجوهه فتطلبه في أبعاض جملة العالم وكليته، تجده ظاهرًا مبينًا، فافهم.

قال الله ﷻ: ﴿**وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ [الجاثية:22]، ومن الحق فيما خلق العالم به مسالك معاني أسمائه، ومعالم صفاته، وإلى هذا فلينظر الإنسان في نفسه وخلقته، قال الله ﷻ: ﴿**وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [الجاثية:4] فينظر إلى قدمه فيرى أصابع خمسة وعصبًا رابطًا وعروقًا وأنسجة وعظامًا جمة، وعقبًا يجمع ذلك كله القدم الواحد، وأخمصًا

وغيرًا إلى الكعبين جملة متكثرة لجميع ذلك كله تجمع ذلك القدم، وغير ذلك الواحد لكثرته رابطًا لجملته، ثم ليرفع بصره فوق ذلك أو دونها أو فوقها يجمع ذلك كله الساق، ثم كذلك في الفخذ إلى أعلاه، يجمع ذلك كله الرجل، رابط لهذا كله واحد له، ومثل ذلك من العبرة في الكفين مع الذراعين مع العضدين، تجمع ذلك كله اليد، ثم كذلك البطن واحد أيضًا لكثرته رابط لجملته، ثم كذلك الصدر ثم العنق ثم الرأس، كل مسمى من ذلك واحد، ثم الجسد، الجمع يجمع ذلك كله واحد لكثرته رابط لجملته، ثم أبسط اعتبارك على الشجر والنبات كله شيئًا شيئًا ترى كيف تفرع من أصول العروق تحت الأرض عروق دقاق، ترجع تلك الدِّقاق إلى الجامع لها، ترفع إليه عملها، وتؤدى إليه ما عندها، ويرجع أيضًا ذاك الجامع بما تحته إلى جامع لهما، وكذلك حتى يصعد بك النظر إلى أصل الشجرة فتجده قد توحد بذلك الجمع كله، ثم تصعد بنظرك كذلك إلى أعلى الشجرة فتجده قد تفرع إلى أفنان وأفنان أفنان وورق وزهر وثمر ويجمع ذلك كله اسم الشجرة، والمعنى الذي وجدت له.

وإن الأصل مع ذلك هو الواحد لما تفرع منه إلى ما علا وإلى ما سفل، كذلك تجد الجميع حقًّا لا بد لهم من واحد يرجعون إليه، وكذلك جميع أعضاء الإنسان؛ جسده، ولحمه ودمه وعروقه من جهة قوامه واعتداله كل ذلك يؤم رأسه ويتبعه، ولذلك سمي رأسًا، وهو مأخوذ من الرئيس، وسمى أعلى الرأس، أما إذا الكل يؤمه فهو واحدها من جهة القوام والقلب واحدها من جهة التدبير، ولذلك لم يقصد الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - بخطابه من ابن آدم إلا قلبه، وقال رسول الله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب**»[1].

فأنبأك نصًّا صريحًا بما تقدم ذكره، وفي قول رسول الله ﷺ إذا فسد القلب فسد

(1) أخرجه أحمد (270/4، رقم 18398)، والبخاري (28/1، رقم 52)، ومسلم (1219/3، رقم 1599)، وأبو داود (243/3، رقم 3329، رقم 3330)، والترمذي (511/3، رقم 1205) والنسائي (241/7، رقم 4453)، وابن ماجه (1318/2، رقم 3984)، والدارمي (319/2، رقم 2531)، والبيهقي (264/5، رقم 10180).

سائر الجسد، وإذا صلح القلب صلح سائر الجسد، عبرة لمن تدبر، وذلك أن واحد الأشياء وجامعها إذا عدمت الأشياء جمعه لها إذا عدمت الأشياء جمعه لها وربطه إياها فسدت، كما ذا عدمت توحيدها له فسدت.

أيضًا لو أن التدبير والحركة لم يؤمان القلب فسد، أو لو أن أوراد الدم لم تؤم الكبد فسدت وأفسدت، وكذلك في حكم الطحال والمثانة والرأس والأعضاء الرئيسة كلها، وإلا فانظر إلى الرأس كيف حال الجسد بعده، وإذا زال القدم هل يبقى مما سمي تحتها شيء أم لا؟ قال الله ﷻ: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج:31]، ثم انظر إلى الحيوان من جماعات الناس بل من الوحوش والدواب وشبه ذلك ترجع إلى واحد يجمعها.

وكذلك أهل البيت لا بد لهم من واحد يكون لهم، يرجع أمرهم إليه، يكون لهم قيّمًا، كذلك البيوت تكون كثيرة يجمعها الدار يكون لهم واحدًا، كذلك دور القرية تكون كثيرة تجمعها المدينة، كذلك المدن والقرى تكون كثيرة تجمعها البلد، والبلاد كثيرة تجمعها الأرض، كذلك كل جنس واحد للكثرة ما تحته رابط لجملته؛ كالرجل وفصيلته تجمعها العشرة، والعشيرة يجمعها الفخذ، والفخذ يجمعها البطن، والبطن تجمعها القبيلة كل جنس منها أيضًا واحد لكثرته رابط لجملته، وكذلك فاستقر ارتباط آحاد الموجودات بأنواعها، والأنواع بأجناسها، تصب البغية إن شاء الله.

فلو لم يضع الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - من الدلائل على وحدانيته والشواهد على أنه لا شريك له في ملكه ولا منازع له في ملكوته وجميع خليقته، غير ما ذكرناه من العبرة والإثبات؛ لأنه الخالق لها الحاكم عليها، الجامع لها الرابط لها، الممسك، لكان ذلك كافيًا لمن كان له قلب، أو أيقظه لب، فسبحانه بحمده عمّا يقوله كل ملحد في ربوبيته ووحدانيته، علوًا كبيرًا.

فكيف وما من شيء أوجده من صغير ولا كبير، علوي أو سفلي من خلق أو أمر، كما تقدم كائن ما كان إلا وهو يدل على وحدانيته دلالة ناطقة، وتشهد له شهادة بينة متضحة، أعدل من شهادة الألسن، وأحق تحقيقًا من عبادة النطق؛ إذ الألسن قد تعبر بخلاف ما في القلوب.

وهذه تؤدي شهادتها عند ألباب أولي الألباب بغير واسطة ولا ترجمان، وذلك

أعدل لشهاداتها، وأثبت لتحقيق عباراتها عن ذلك، على هذا أوجد الموجودات، وأتقن المحكمات، وخلق الأرضين والسماوات، زم بذلك الجمل، وقطع به المعاذين والعلل، وعلى ذلك أرسل رسله، وشرع شرائعه؛ لتتأكد المحجة وتستبين الحجة، فمن ذلك أنه خلقهم حنفاء على التوحيد دينًا واحدًا قيّمًا لا عوج فيه، فتفرقوا، فبعث الرسل وأنزل الكتب يأمرهم بالرجوع إلى أصلهم الذي فطرهم عليه، فقال: ﴿**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾ [المؤمنون:52] يقول وهو أعلم بما ينزل: هذا دينكم دين واحد وهو التوحيد وأنتم أمة واحدة، كما قال رسول ﷺ: « **المؤمنون في تعاضدهم وتعاطفهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1]، ﴿**وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾ [المؤمنون:52]، أي: خافوني، ولا تخافوا سواي كما قال: ﴿**فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران:175]، يقول جل من قائل: ﴿**فَاتَّقُونِ**﴾ أن ينزل عليكم عقابي حين فرقتم دينكم بعد وحدته، ثم أمرنا بالمناصحة في ديننا، أولاً في أنفسنا حتى تستقيم أخلاقنا كلها على التوحيد، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾ [البقرة:208]، إني ظاهركم وباطنكم، ثم أمرنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمن رأيناه جنح إلى بعض الفرقة فنرده جهدنا إلى أن نكون أمة واحدة نعبد ربًّا واحدًا وندين دينًا واحدًا، أمرنا في ذلك بقتال من كفر ففرق بذلك دينه فقال: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ**﴾ [التوبة:29]، الذي هو التوحيد وهو كثير، ومنه صلاة الجماعة، أمرنا أن نجمع من قرب منا بعضنا من بعض على رجل واحد منا، نقوم بقيامه، ونقعد بقعوده، ونكبر بتكبيره، ويكون فعلنا تلو لفعله، ولتكون الفرقة يجمعها قيم واحد.

وفى قوله ﷺ: «**يؤمكم أفضلكم**»[2] تبصره في معرفة فصل الواحد وشرفه، قاتلهم الله كيف عبدوا صنعة أيديهم، والصانع أفضل من مصنوعه، قلبوا الأمر أسفله أعلاه، وأمرنا أيضًا يومًا في الجمعة أن يجتمع أهل المصر ومن قرب منه إلى رجل

(1) رواه مسلم (471/16)، والبيهقي (353/3).

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (433/15) بنحوه.

واحد منهم لتكون تلك الفرق من الجماعات يجمعها موضع واحد وإمام واحد، كذلك أمرهم أن يجتمعوا في تدبير أمورهم بأحكامهم، وترتيب جيوشهم إلى رجل واحد منهم يكون أفضلهم، كل ذلك ليدلهم على وحدانيته، ولينبههم على أن ذلك هو المراد الأكبر منهم.

شبهة

ضرب من الاعتبار في سبيل التوحيد مشكل لكنه يتبين بعد التثبت وذلك أن الواحد من المخلوقين يغلبه الأكثر عددًا من جنسه على الأغلب، فإذا انضاف إليه آخر كانت القوة معهما موجودة أكثر، فإن زادوا إلى ثلاثة فكذلك، وكذلك مع الزيادة القوة معها متزايدة على الأغلب حتى إذا اجتمع الجمع الكثير حكم له بالغلبة في ظاهر الأمر على من دونه في الجمع، كذلك لو اجتمع الجمعان تضاعفت القوة، ولو اتفق أن يجتمع الأنس كلهم على كلمة واحدة وأمر جميع، لكانت القوة أمكن ولو انضاف الجن إلى الأنس فكذلك أيضًا، ولو اتفق أن ينضاف إليهم البهائم والطير وجميع المخلوقات معهم حتى يكونوا يدًا واحدة؛ لكانت القوة مع ذلك أظهر وأكثر فمن هنا وقعت الشبهة أوثرت الكثرة، وإنما ذلك لأن العالم كله في نفسه واحد، وأعني بالعالم: جملة المخلوقات، والعالم كله مفروض كرجل واحد وشخص مفرد، والشخص المفرد منه بعض للجملة التي هي العالم، فقدر قوته من تلك الجملة بقدره منها، فإذا انضاف إليه منها بعض آخر انضاف إليه من القوة بقدره، فكلما اجتمعت أبعاض العالم اجتمعت قواه بالضد، وإنما كان كذلك؛ لأن قلة الأبعاض رجوع إلى التفرق واجتماعها صعود إلى الوحدة، فكذلك الإنسان يقدر بيديه معًا ما لا يقدر عليه بيد واحدة، وبجملته على ما لا يقدر ببعضه، فانظر إلى الوحدة حيث كانت، وإلى أين توجهت القوة معها والغلبة؟ وظهر معها الفضل وتبين الشرف ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾ [ق:37].

وانظر إلى العدد المركب من الواحد الذي إليه ينزم وعنه يجتمع، لو بطل واحدة هل كان يوجد عدد أبدًا؟ وانظر أيهما التابع أو المتبوع، العدد للواحد، أو الواحد للعدد، وانظر إلى الحيوان كله إذا بطلت نفسه التي هي واحدة، وناظم كثرته، هل يبقى منه بعدها شيء؟ وانظر إلى الماء لو بطل الحيوان والنبات ألم يكن الماء باقيًا على أصله

وحاله؟ وانظر إلى الأرض لو بطل حيوانها ونباتها ألم تكن باقية بحسنها وهيئتها وهبتها؟ وانظر إلى ابن آدم إذا بطل جسمه كيف تبقى روحه، وكيف صارت روحه أشرف منه، فصار فوقه ولا يدركه بعقله ولا بحسه ولا بقوة بدنه، وإنما ذكرتك بهذا النوع من الاعتبار لتقف على شرف التوحيد، وعظم قدره، وجلال سلطان الموحد به، ولذلك قال الحكيم: ليس في خزائن الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - أفضل من التوحيد، وقال: لم يؤتوا شيئًا أفضل من التوحيد به، سلموا من شر الدنيا والآخرة، وبه نالوا كرامة الدنيا والآخرة.

هذه دلالته في الشاهد الذي هو الدنيا، وأما الآخرة فأفعاله فيها أبين، وأحكامه أمضى وأفخم، بل هي مشاهدة الموحدﷺ ربنا ورؤيته أما في الموت فإن المرء يموت وحده ويقبر وحده ويحاسب بعمله وحده، فلو مات الخلق كلهم أجمعون معه لم يخرج بذلك من معنى الوحدة التي لزمته، وأما الموازنة فلا يقوم هناك شيء للتوحيد، ولا يرجحه شيء سواه، وحسبك من عظم قدره إنه لا يوازن بشيء من الأعمال إنما توازن الأعمال بعضها بعض، ويوزن التوحيد بالتوحيد بواسطة العلم والمعرفة، ولا يقوم لمن عري من التوحيد وزن ولا له في الآخرة كلها حظ ينفعه.

وأما الجنة فالتوحيد مفتاحها، والموحدون سكانها، لهم أعدت، وهم المرادون بها، ألا تراهم على طول واحد وشكل واحد جُرْدٍ مُرْدٍ وعلى قلب واحد، لا غل في صدورهم، ولا غش في قلوبهم، ولا تباغض ولا تحاسد، قد تباعدت عنهم معاني الفرقة وانفردوا بمعاني الوحدانية، وجوار الواحد الحق، ثم صورهم بعد على قدر ارتقائهم في درجات التوحيد علمًا وعملاً.

وأما النار فمن التوحيد خلقت من خالق التوحيد، أسكنها جزاءً لتفريق التوحيد، ومعنى اسم التوحيد يمسكها كغيرها، فحسبك بهذا قدرًا وعظمًا نسأل الله البر الرحيم أن يرزقها إقامة التوحيد بمنّه ورحمته، إنه ولي ذلك، وحده لا شريك له.

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء:22]، ﴿**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء:42]، ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:43]، المعنى إلى آخره قد تقدم

في صدر الباب أن العرش العظيم وما تحته وما أحاط به من العلا إلى المنتهى كله مزموم في مسكه المقدار؛ لشمول القدر وعموم محكم التدبير وسلوك معاني الأسماء والصفات العلا في حلاله جريان الماء في العود الناضر، وحلول التدبير له بالأمر في محالة حلول الغذاء في جسم المنعم الناعم قد لزم الخلائق وضغط الأكوان من دقيق الموجودات، وجلبها ظاهرها وباطنها، فلو كان معه آلهة كما يقولون ما وسعها الخلاف، ولا وجدت ملجأ من أن تتخذ إلى ذي العرش سبيلاً سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:44].

ولو سلمنا لهم ذلك تسليم جدل لكان المفروض في ذلك أن يكون ذا قدرة وإرادة وعلم وحياة، مبتدأ بخلق ما خلق، ورزق ما رزق، إلى غير ذلك، وكان يجب على ذلك أن يكون أحدهما يريد إيجاد زيد، ويريد الآخر إعدامه، أو يريد إحياؤه ويريد الآخر إماتته، ولا بد من أن ينفذ مرادهما؛ إذ المفروض كونه على ذلك أن يكون ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فكان على ذلك يجب كون زيد حيًا ميتًا في حالة واحدة من جهة واحدة، فيكون حيًا من حيث هو ميت، وميتا من حيث هو حي ومعدومًا من حيث هو موجود، وموجودًا من حيث هو معدوم، وهذا خارج عن المعقول، وفي هذا قال ﷻ وقوله الحق: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهُ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [المؤمنون:91-92][1].

---

(1) تتمة مفيدة: قال الصدر شرح جنابه الصدر في «شرح الأسماء» عند الكلام على اسمية الواحد الأحد:

اعلم أن في مضمون هذا الاسم رجاء للعموم وفتح للخصوص، وهو خطابه للكل بقوله:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [البقرة:163]، ومن عبد غيره قال:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:3] فما أشرك من أشرك إلا بسببه، وإن وقع الخطأ فالوقوع من نظرهم ومن قصدك لأجل أمر، فذلك الأمر هو مقصده على الحقيقة، ومن أحبك لأمر ولي بانقضائه، ولهذا ذكر أنهم متبرؤن منهم، وما أخذوا إلامن كونهم فعلوا ذلك من =

التعبد

اعلم - رحمنا الله وإياك - أنه هو الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له واحد أحد ليس كمثله أحد وحد الواحد، وأوجد كل واحد، وهو الذي لا تدركه العقول، ولا تكيفه الأوهام، سبحانه وله الحمد، فات العقول دركه، والأوهام كنهه، والألسن وصفه، ليس لذاته تكييف، ولا لفعله تكليف، قارب بين المتباعدات، وحبب بين المتباغضات، وألف بين المتنافرات، وطاوع بين المتعصيات، وجعل لكل شيء نهاية، ولكل وجود حدًّا.

وهذه هي المسميات طبائع في متجانسات الخلق، ومختلفات الأشكال، ومعاني اليمين والشمال، حتى مثل ذلك كله في شخص مفرد، وقام جمعيه في ظلل موحد، متفقًا في اختلافه، مختلفًا في اتفاقه هو الواحد القهار، قهر الأشياء باطنًا كما قمعها

=

عند أنفسهم، لا أنهم جهلوا قدر الحق: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:25]، وانظر إلى قوله تعالى:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:115]، فوجه الحق موجود في كل جهة يتولى العبد إليها، ومع هذا لو تولى في صلاته إلى غير الكعبة، مع علمه بالجهة، لم تقبل صلاته؛ لأن الله تعالى شرع له استقبال الكعبة في حال الصلاة خاصة، وإذا تولى عبادة أخرى غير الصلاة إلى أي جهة شاء فهي مقبولة، ومن خصائص الكون أن يقبل الأضداد من حيث أحدية عينه، وهي أحكام أعيان الممكنات في العالم، التي تظهر الأسماء الإلهية المتضادة بظهورها، ومن أهل الشهود من يرى كثرة الأسماء؛ لظهور كثرة الأحكام في أحدية عين الحق، فإذا علمت ذلك فاعلم أن الله تعالى واحد في كل شرع، لكن الأدلة العقلية تُكثر العقائدَ باختلافها فيه، وكلها حق، ومدلول الكل صدق، وبذلك تختلف مشارب أذواق أرباب القلوب وأهل الكشف؛ لكثرة اختلاف التجليات الصورية والمعنوية والطبيعية والروحانية، مع أحدية العين، ولما كان الأمر على هذا النمط لم يمكن المحقق أن يخطئ أحدًا من أهل النظر والشهود، وإنما الخطأ في إثبات الشريك، والمشرك قائل بما ليس له وجوده، ولذلك لا يغفره الحق؛ لأن الغفر ستر، ولا يستر إلا من له وجود، والشريك عدم، فأي شيء يستر؟ فإنه لا عين له هناك تتعلق به المغفرة.

واعلم أن الأحد: اسم لفرد لا يشاركه شيء في ذاته، والواحد: اسم لمن لا يشاركه شيء في صفاته، فتوحد الحق عن شأنه ليس بتوحيد موحد، ولا بتوحيده لنفسه، فتكون أحديته مجهولة، لكنه تعالى واحد بنعيتة، واحديته ذاتية، وهو مُنفرد بالرتبة الإلهية وحده لا شريك له، انتهى.

ظاهرًا، مزجها بقسر، وملكها في غلبة، وأخرج عن ذلك ما شاء بقدرته ولطفه، فكل يعمل بخاصته، من موضع حدة المحدود له يعمل له في ذلك عباد له بأمره ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء:20].

ثم يعملون في إنتاج النتائج عن ذلك بأمره، ويخلقون عنه ما شاء بإذنه، ويظهر خلقه كما شاء بحكمته ﴿**ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [يس: 38].

واعلم - يسر الله علينا وعليك سلوك السبيل القويم - أن من الواجب عليك أن تتطلب حقيقة التوحيد وتتعرفها بالمداومة على الاستدلال، ومطاولة الاستقراء للآيات التي نصبها شواهد على ذلك ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الحجر:85] وإلا ليعرف بأسمائه وصفاته وإلا ليدان له بالتوحيد.

وبعد هذا فاعمل نفسك في تحقيق التعبد له بالتوحيد منك له، ولا قوة إلا بالله العَليّ العظيم، فإن كنت توقن بأنه خلقك وحده ورزقك وحده وقام بأمرك كله وحده، ولم يشرك في ذلك كله منك أحدًا، فاعبده أنت وحده، ولا تشرك في عبادتك إياه أحدًا، وكما وحدك بصفاتك، ويرزقك وبكفالته إياك، وأخلصك بها، فأخلص له أنت بالشكر على ذلك، ولا تعبد لسواه بحواس وقوى ونعم أنعم بها عليك، فإنه لم يشرك فيما أنعم عليك سواك.

واعلم أن مرجعك إليه وحده، فيجزيك بعملك كله وحدك خيرًا كان أو شرًّا، فاعمل على ذلك، ولا يغرنك كثرة الناس وما يأتونه، تقول: أنا واحد من الناس ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾ [الطور:21] ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ [الزخرف:39]، وهو الواحد لا يقبل إلا عملاً قد وجه له وحده، لا شريك فيه، فاعمل على ذلك دون دغل في شيء من ذلك من رياء أو عجب، وعلى ما يرضاه، هو - جَلَّ ذِكْرُهُ - لا على ما تحبه أنت دونه، وقد تقدم في اعتبار جملة ذهب توحيدها ما حالها بعده، وأعمالك جملة واحدة التوحيد، وأنت جملة واحدك ربك عن جلاله كما العالم كله جملة واحده الله الواحد القهار، فمتى هلكت وهلك عملك لن يضر الله ذلك شيئًا، قال الله ﷻ في إكرام عباده وخواص أوليائه: ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام:88].

واحذر الدعوى فإنها شرك بل هي كفر، والتبرؤ من الحول والقوة قولاً وعملاً إسقاطًا لها، ومن أسقطها وجبت معونته إن شاء الله على ما سواها ذلك بأن الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - جعل الاختيار في الإنسان وهو موجود عن إرادته، وخلق له الاستطاعة، وهي موجودة عن قدرته المركبة فيه، والدعوى موجودة في الصفتين، فقابل ذكره اختيار العبد باختياره له، وقابل استطاعته بتكليفه إياه جمعهما جميعًا اسم المحنة، فلولا الاختيار من الإنسان لم يكن اختبار، ولولا الاستطاعة لم يكن تكليف ولا محنة، فمن أسقط الدعوى مع ربه ﷻ وجعل مكانها التفويض والتوكل والتسليم عصم إن شاء الله ﷻ، ومن تبرأ من الحول والقوة أيد بالمعونة، وتيسر له أمره، وهذا هو الذي استبدل من الظلم عدلاً، ومن الجهل علمًا، قال الله ﷻ: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾** [الأحزاب:72]، وقال عز من قائل: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾** [الأحزاب:36] **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾** [القصص:68]، استعلمنا الله وإياك بعمل المخلصين، وحشرنا وإياك في زمرتهم ولا حرمناها بذنوبنا إنه ولى ذلك والقادر عليه.

اسمه الأحد عزّ وجل

أحد على وزن فعل، الألف فيه أصلية، يبالغ فيه بأوحد، وقالوا: أصله وحد من وحد يوحد، ويقال وحْد بإسكان الحاء، ووحيد ووحد كما يقال: فرْد وفرَد وفريد، وهو أصل لباب الوحدة، فلم تدركه المضارعة بعلم وقدم وشرف ونهر، ألا ترى أنه جعل العلم علمًا؛ ليحصل به العلم بما جعل عليه علمًا، وكذلك الشرف من شرف الرفعة، والسنن من السنة، وهو ما سن ليحتذى كذلك أحد من الوحدة، فاسم الأحد يدل على شخص الوحدة، ألا ترى أنه ناف لما يأتي معه، تقول من ذلك: لم يأت واحد، ويحتمل أنه لم يأتك الواحد ولا أكثر، ويحتمل أنه قد أتاك أكثر من الواحد، فإذا قلت: لم يأتني

أحد، انتفى الاثنان، ولا تقول: جاءني واحد، فبينهما خاصية فرقان ظاهر، وهو مذكور لتخصيص، يقال: هو الله الأحد، ولا يقال: جاءني الأحد ولا جاءني أحد ولا يقال فيه: وحيد ولا وحد، ويطلق ذلك في وصف المخلوق، وإنما ذلك أقدم التوفيق.

الاعتبار

واعلم مع هذا أن الاسم كلما غمضت دلالته وتعذرت معرفته على الأفهام، وعزب عن العقول علمه، كان ذلك دليلاً على قربه من الاسم الأعظم، واسم الأحد لا يعلم إلا من جهة واحدة حسب، فمن آيات أحديته توهم الموجودات في علمه، وقدرته ومشيئته على حقائقها الأولى قبل الإيجاد، وإبرازها بالخلقة إلى ظاهر الوجود الذي ظهرت به بعضها لبعض، ألا ترى أن واحد العدد أول وجودنا إياه؛ لتركيب العدد سمي واحدًا إذ لم نجد له ثانيًا، فلما وجدنا له ثانيًا وأضفناه له زال عنه اسم الواحد وصار ثانيًا لما أضيف إليه؛ إذ ظهرت فيه الصنعة، وصار بذلك زوجًا لما ازدوج إليه، لما توهمنا مباينته لزوجه، كان بذلك فردًا، فلم يرجع إلى أن يكون واحدًا حيث توهمنا له أنه مغايرًا، ولم يرجع إلى أن يكون واحدًا من حيث طرقته الصنعة يومًا ما ورجع بوحدته عن زوجه إلى أن يكون فردًا؛ لسريان معنى الأحدية فيه، وعزتها عن الشركة، وللتلبس بالوحدة له من الأحدية جهتها، لا يفارقه حكمها وإن بطن، فإنه يظهر ذلك بالأوتار للانتفاع، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى(1).

فمن تسمى منا بمجاز هذا الاسم الكريم فيما جاز أن نتوهم منه أوليته قبل تركيب أجزائه، وموضع المحمود منه فأولى جهتيه بذلك هو موضع اليمين، ألا ترى أنه لا يجوز أن يعبر باسم أحد عن شيء من البهائم سوى الملائكة والجن والأنس وهو المعنى الذي يخاطب من الإنسان وهو أمانة الله ﷻ في عبده، ومن تسمى منا بمجاز

---

(1) قال الحرالي في «نظم الدرر» المنسوب للبقاعي- بعد نقل كلام المصنف المتقدم هنا- قال بعض العارفين في كشف معنى الأحد ورتبته: إن الذات الأعظم غيب محض والأحد أول تعيناتها، ولذلك بدىء بالهمزة التي هي أول تعينات الألف التي هي لهيب محض وذلك سر مخالفتها للأحرف في أن كل حرف يدل على مسماه أول حروف اسمه إلا الألف لكونها غيباً، فكان أول اسمها الهمزة التي هي أول تعيناتها، والهمزة لكونها مرقى إلى غيب الألف كان أول اسمها أيضاً غير دال على مسماها. [نظم الدرر (10/55)].

اسم الواحد فلتوحده بمعانيه الباطنة وأشكاله وأجزائه الظاهرة على اختلاف ذلك كله فهو الواحد بتوحد جملته.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1] وأسماؤه جَلَّ ذِكْرُهُ منها: ما اختص به كاسمه (الله والرحمن)، ومنها: ما أباح التسمي به كالواحد والأحد والمؤمن والكريم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله ﷻ.

وأكثر ما يأتي ذكرها بالألف واللام، وبخاصيته منها ما أباح به منها بل قد يعم ذلك جميعها وجاء في قوله هذا دون ألف ولام وأرى ذلك؛ لأنه وصف ونعت لاسمه الله في هذا الموضع خاصة لمكانه في الآزال، ألا ترى إلى قوله ﷻبعد هذا: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:2] فجاء به المعهود من التعريف، وأرى هذا والله أعلم بما ينزل أنه إخبار عنه في آزال القدم، حيث لا مذكور سواه، ولا وجود لغيره سبحانه، وله الحمد ثم أخبر عن نفسه زائدًا على الإعلام بأحديته بأنه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4] أي: لا وجود لسواه وبأنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:3] [1].

---

(1) قلت: قال الشيخ روزبهان: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: كان الله جلَّ جلاله مستترًا بنفسه في أزل أزله، قال: «كنتُ كنـــزًا مخفيًا، فأحببت أن أُعرف»(١)، فإذا أوجد أعلام ظهور أفعاله تُعرف نعوته بفعله، فلم يعرف أحدٌ بالحقيقة؛ إذ الوسائط حجابٌ، فأراد إظهار كنوز ذاته وصفاته، فاختار من خلاصة الوجود خاصًا خالصًا، فألبس لسانه فصاحة الربوبية، ونوَّر قلبه بنور المعرفة، وظهر لعينه عين الحقيقة، فأمره بتعريفه لعباده العارفين، بقوله: ﴿قُل﴾: ظاهره سرٌّ، وباطنه سرٌّ، حرفٌ تحته بحرٌ من غوامض علوم الربوبية، فالقاف: إشارةٌ إلى قهر عظمته على الحدثان حتى لا يصل إلى ذرَّةٍ من حقيقة العرفان بألوهية الرحمن؛ لأن على وجه القدم وقاية الغيرة، وهناك في الأزل قلزم الحيرة، واللام: إشارةٌ إلى لا النفي أي: لا يصل إلى كنه الألوهية أهل الحدوثية أمره بالإشارة إلى الإشارة، وغوامض سرِّ الذات؛ إذ قال: هو أوقع قلوب الراسخين في أودية الهوية الغيبية في تيهِ غيب الغيب بنعت الوله والحيرة، فلم يصلوا إلى هاء الهوية، فانصرفوا إلى واو الوصف، فعجزوا عن الوصف؛ إذ لم يصلوا إلى الموصوف، فاحتجبوا بالغيب وبُعد بطون الهوية، وانصرفوا حيارى سكارى عطاشى والهين غير مدركين أوائل الحقائق، فاعترفوا بالعجز عن الإدراك، وإدراك الإدراك، فلما علم الحق عجْزهم عن إدراك سر الهوية أظهر لهم أنوار الذات والصفات، رحمةً ولطفًا بهم لكيلا يُحرموا من نصيب عرفانه =

=

وإيمانه، وقال الله أي: الذي لو تركوه، ولم تدركوه بعد طلبكم هذا، هو الله الذي بان بنعت الوحدانية والجمال والجلال من قرار الهوية، وأيضًا لما غاصوا في بحار الهوية بانت لهم أنوار الألوهية، فانصرفوا من صدمات الصمدية، وسطوات الأحدية، ووقعوا في تيه الحيرة، ونسوا ما بان لهم، وفرُّوا، ثم طلبوا، فلم يجدوا، فأظهر الله ما ظهر لهم في الغيب، فقال: أين أنتم مما رأيتم هذا هو الله، فظهر لهم في الظاهر كما ظهر لهم في الباطن، فلمّا رأوه عيانًا فنوا في أول ألف الفردانية، ثم بقوا في لام جماله، وهابوا من عِظَم لام جلاله، ثم سقطوا في بحر هويته، أيضًا منه بدأ وإليه يعود، الأول: إشارةٌ وغيبٌ، والآخر: إشارةٌ وغيبٌ.

قال: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾، وفي البين بدا وخفا بقوله: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾، فلما عاينوه سكروا بجماله، واتَّصفوا بجلاله، واتَّحدوا بفردانيته، وصاروا وحدانيين، كادوا أن يدَّعوا الوحدانية، فقطعهم الحق عن سرِ الأحدية. وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾، فانحسمت أطماعهم عن الوحدانية حين بانت لهم أنوار وحدته، فسَبَحوا في بحار ذاته وصفاته، وطلبوا الخروج إلى سواحل العرفان، فناداهم أين أنتم لو تَسْبحون أبدًا في بحر الذات وبحر الصفات، لم ينتهوا من بحر حقائق الألوهية، فإن بحر الذات والصفات واجد الكل في حيّز سرادق وحدانية الأفعال، غائبة في الصفات والصفات في الذات، فمن عين الجمع هو هو، ومن حيث الحقيقة هو الله، ومن حيث الفردانية أحيد وحيد لا غير؛ إذ الغير يفنى في بقائه، ثم زاد في نبوية فردانيته، بقوله ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: «الله»: ظاهر بنعوت الجلال والجمال والفردانية والوحدانية، باطن بالهوية، «والصمد»: انقطع عن إدراك الخواطر والضمائر، وغابت في مهمة صفاته الأسرار والأرواح، وتاهت في تيه هويته القلوب والأشباح، وهو تنزيه جلاله وصمديته حجبهم من نفسه، ثم أبرز من نعت صمديته نور تنزيهه، ونشقهم روائح قدسه وأنسه، وجعلهم مشتاقين إلى لقائه عاشقين جماله، فيصمدون إليه بنعت الفناء والبقاء، فلما علم عجزهم عن رؤية حقيقة هويته وصمديته ووحدانيته وفردانيته تجلّى لهم بنعوت الجمال من لباس الأفعال، فهاموا بعشقه في بيداء أنوار جماله وجلاله، سكارى متببّطين، وطابوا بكل مستحسن من عالم الأفعال، فلمّا سكنوا بالمستحسنات ورؤية الجمال في الأفعال أمال أزمن قصودهم إلى فضاء الوحدانية، وأعلمهم أنه منزَّهٌ عن مباشرة الحوادث، بقوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾ أي: لم يكن هو محل الحوادث، ولم تكن الحوادث محله، التجلِّي ظهور الصفات، والالتباس ظهورها في الأفعال، وهو منزَّهٌ عن التمثال والجبال، ألا ترى كيف حقق التوحيد لمن شاهد مشاهدته في أهله، بقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ غلطَ النصارى واليهود والكفرة والمجوس حين رأوا من الأشخاص أنوار الأرواح، ومن الأرواح سنا روح فعله، ثم نور صفته، ووقعوا في ظلمات الحلول حين لم يعرفوا أصل الأصل، وحقيقة الحقيقة، وعين العين وفردانية الذات والصفات عن مباشرة الأمثال

=

والتمثال، سبحان المنزَّه بذاته عن رؤية كل راءٍ، ومعرفة كل عارفٍ، وتوحيد كل موحدٍ، وعبادة كل عابدٍ، وجحود كل جاحدٍ، وجهل كل جاهلٍ، ووصف كل واصفٍ، كلهم في نكرة النكرة، معزولون من حقيقة المعرفة.

قال ابن عطاء: «الهاء»: تنبيهٌ عن معنىً ثابتٍ، و«الواو»: إشارةٌ إلى ما لا يدرك حقائق نعوته وصفاته بالحواس، و«الأحد»: المتفرد الذي لا نظير له، و«التوحيد»: هو الإقرار بالوحدانية، و«الأحدية»: هي الانفراد.

وقال الواسطي: «هو»: حرف ليس باسم ولا وصف، ولكنَّه كنايةٌ، وإشارة كناية عن الذات، وإشارة إلى الذات، عَلِمَ الحق من يلحد في الأسماء والصفات، ويفرِّق بين الصفة والموصوف، فقال: لا يكون فرقًا بين هويته، وهو ذاك لم يكن فرقًا بين هويته، ولم يكن فرقًا بين أسمائه وصفاته.

قال ابن عطاء: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو المنفرد باتحاد المفقودات، والمتوحد بإظهار الخفيَّات.

وقال الحسين: «الأحد»: الكائن عنه كل منعوتٍ، وإليه يصير كل مربوبٍ، فيطمس من مساكنه، ويطرح من نازله أن أشهدك إياه، فإنك وإن غيَّبك عنه راعك.

قال بعضهم: توحد ثم وجد لا سبيل إلى ذلك إلا أن يوجدك الحق له.

وقال جعفر: «الصمد»: الذي لم يعط الخليقة من معرفته إلا الاسم والصفة.

وقال الواسطي: امتنع الحق بصمديته من وقوف العقول عليه، وإشارتها إليه، ولا يعرف إلا بألطاف أسدائها إلى الجوارح.

وقال ابن عطاء: «الصمد»: المتعالي عن الكون والفساد.

وقال جعفر: «الصمد»: خمسة حروف: «الألف»: دليلٌ على أحديته، و«اللام»: دليل على ألوهيته، وهما مدغمان لا يظهران على اللسان، ويظهران في الكتابة، فدلَّ ذلك على أن أحديته وألوهية خفيّة لا تُدرك بالحواس، وأنه لا يقاس بالناس، فخفاؤه في اللفظ دليلٌ على أن العقول لا تدرك، ولا تحيط به علمًا، وإظهاره في الكتابة دليلٌ على أنه يظهر على قلوب العارفين، ويبدو لأعين المحبّين في دار السلام، و«الصاد»: أنه صادق فيما وعد فعله صدق، وكلامه صدق، ودعا عباده إلى الصدق، و«الميم»: دليلٌ على ملكه، وهو الملك على الحقيقة، و«الدال»: علامة دوامه في أبديته وأزليته، وإن كان الأزل والأبد؛ لأنهما ألفاظٌ تجرى على العواري في عباده.

وقال ابن عطاء: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: ظهر لك منه التوحيد، ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: ظهر لك منه المعرفة، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: ظهر لك منه الإيمان، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: ظهر لك منه الإسلام، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾: ظهر لك منه اليقين.

قال الأستاذ: كاشفَ الوالهين بقوله: ﴿هُوَ﴾، وكاشفَ الموحدين بقوله: ﴿ٱلله﴾، وكاشفَ

=

العارفين بقوله: ﴿أَحَدٌ﴾، والعلماء بقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: والعقلاء بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ انتهى.

وقلت: قال الشيخ حقي: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ﴾ خاطب به النبي ﷺ مع أن القائل في الحقيقة هو نفسه تعالى كما دلَّ عليه بعض الإطلاقات وهو ينظر الأمر بالعلم في قوله: ﴿فاعلم أنهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد: 19]؛ لأن العالم أيضًا هو ذاته تعالى، ففي كل منهما إشارة إلى ذنب مستغفر عنه في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾، فلا بد من إزالة النسبة من البين؛ ليظهر اتحاد العين.

قوله تعالى: (هو) كلمة مركبة لفظًا وبسيطة معنى؛ لأن المراد بها الهُويَّة الذاتية الأحدية؛ ولذا جعلوها من الأذكار الغيبية الليلية، وأدخلوا عليها اللام فقالوا: عالم الهوى ولا مناقشة في الاصطلاح، ووجه التركيب من الهاء والواو؛ إن الهاء من مبتدأ المخارج، كما أن الواو من منتهاها.

فكما أن الهواء المتكيِّف بكيفية الصوت يمرُّ بالمخارج كلها إلى أن ينتهي إلى الواو شفوية؛ فكذا سر الهُويَّة التأدِّي في الموجودات المرتب بعضها على بعض يتجلَّى في العوالم كلها إلى أن ينتهي إلى الإنسان؛ فيكون الإنسان وحقيقته أجمع الحقائق.

كما أن الواو أجمع الحروف من حيث مرورها بجميع الحروف ومخارجها؛ فصارت صورتا الحرف والفعل متطابقتين، فكون لفظ هو ضميرًا يدلُّ على الغيب، وكونه اسمًا يدلُّ على الشهادة؛ لأن المراد من الأسماء التعيُّنات؛ وهي من عالم الشهادة إضافية، أو حقيقية؛ ولذا كان أجلُّ الأذكار عند الأقطاب المكاشفين من حيث مكاشفتهم، وإن كانت كلمة الشهادة خير الأذكار عند المحجوبين من حيث حجابيتهم.

وفي الابتداء بالهاء؛ إشارة إلى رجوع الكل إلى تلك الهُويَّة، كما قال: وإليه ترجعون، فكل هاء تدور على هذه الهاء كما أن قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:1]، ناظر إلى (قُلْ) [الإخلاص:1] الواقع في هذه السورة؛ لأن القرآن صفة الله تعالى، وفيها مجد وجلالة، كما أن هذه السورة مما يصرِّح بذاته العليَّة، وصفاته الجليَّة.

قوله تعالى: (الله) اسم دال على الألوهية؛ لكن الألوهية لمَّا كانت سنام الصفات الإلهية؛ أُخذت مع الذات، وجُعلت مستجمعة لجميع الصفات، ففي هذا الاسم دلالة على تنزُّل الذات من مرتبة الهُويَّة إلى مرتبة الصفات؛ ليكون وسيلة إلى سرِّ الربوبية كما قال: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

وكل منزَّل من التنزُّلات الأسمائية منطبق على ما فوقه، ومن ذلك الهاء في آخر هذا الاسم؛ لأن الصفات مشتملة على الذات، كما أن الشجرة مطوية على النواة، فكل نهاية راجعة إلى البداية بما اشتملت عليه من الحقيقة سواء كان ذلك الرجوع بواسطة أو بغيرها، والعارف يمشي على

=

المراتب صورة، ويجري على التجريد معنى، ففيه السلامة.

(**أحد**): أيِ في ذاته؛ ومنه: أحدية السلطان فإنه ممكن، والممكن ظل الواجب، ولا يكون ظلان لذي ظل واحد، وإليه الإشارة بقوله: «**السلطان ظل الله**»: أي ظلُّ الحقيقة الإلهية، فانطبق المرآتان، واستبان سرُّ قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:11].

فهنا رب وعبد فقط، كما أن هناك ظلاً: وذا ظل لا غير، فإذا كانت الهُويَّة أحدية في ذاتها؛ كانت الأُلوهية وصورتها أيضًا كذلك، وإلى هذا أشير بما ورد: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**» ، وإنما أمر بقتل الأخر وإزالته؛ لأن الشركة إنما نشأت منه، فإذا قتل، رجع الأمر إلى وحدته.

ومنه: كلمة الشهادة نفيًا وإثباتًا، فاعرف.

ثم إن التصريح بالأحدي؛ إنما هو لأزالة الأوهام، وإبطال الخيالات، وإلا فلا وجود في الحقيقة إلا لموجود واحد؛ لأن الظل تابع لذي الظل، فلا وجود له في نفسه إلا صورة، والصورة لا تزاحم المعنى، كما أن البدن لا يتعدد مع الروح، إذ ليس هنا إلا ذات واحدة؛ وإنما التعدد مبني على الاعتبار؛ ولذا قال مَن قال لنا: (**من أمره**) روح وجسم؛ حيث جعل كلاً من الروح والجسم من الأمر مع أن الجسم من الخلق إذ لا يختلف الأمر من اختلاف الخلق؛ بل هما متحدان بالذات، وإن كانا مختلفين بالصفات.

ومن هنا قالوا: أصل العالم أمر واحد، فإذا تقرر هذا عندك؛ عرفت أن كلاً من الأسماء الثلاثة؛ وهي: (**هو**)، و(**الله**)، و(**أحد**) ذكر على حدة مشتمل على حقيقة من الحقائق، وإن كان الكل يرجع إلى حقيقة الحقائق من حيث لا تعيينها، فمن كان محجوبًا؛ كان (**هو**) عنده ضميرًا؛ لأنه غائب عن الحقائق، وتجلياتها غيوبية الضمير.

ومَن كان مكاشفًا؛ كان (**هو**) عنده اسمًا؛ لأنه عند الحقائق وحاضر لديها؛ فهو (عنده) بمنزلة (**الله أحد**) فكن عندك، وخذ بما لك، ولا تتعد إلى حاضر غيرك نفيًا وإثباتًا، وإلا فأنت جاهلٌ بالحقائق، ذاهلٌ عن الحق الصريح، وإن كنت من أهل التقليد الحقيقي، فأنت إذًا غائب حاضر، فأفعل بذلك فلا ضير والله الهادي إلى جنابه.

قال تعالى: ﴿**اللهُ الصَّمَدُ**﴾ [الإخلاص:2]: كُرر الاسم؛ لأن الأول راجع إلى الذات، وهذا ناظر إلى الصفات؛ ومعنى الصمد: المصمود إليه.

ومنه: حال السلطان الظاهر في صورته؛ لأن الخلق من حيث كونهم رعاياه محتاجون إليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ**﴾ [فاطر: 15]: أي إلى الله الفرد الذي هو الحقيقة الجامعة لجميع الحقائق، فإنه مبتدأ أول لجميع التأثيرات الواقعة في الأكوان، وكذا إلى القطب الفرد الذي هو المظهر الأولى لتلك الحقيقة من حيث الاسم الباطن، وكذا إلى

=

السلطان الفرد الذي هو ظل ذلك المظهر من حيث الاسم الظاهر.
فما من اسم من الأسماء إلا وفيه معنى الصمد؛ لكن فرق بين اسم واسم، ومن هنا ظهر التفاوت بين الخلق، فكان الرجوع إلى السلطان في المهمات أولى من الرجوع إلى مَن دونه من أهل المراتب، كما أن الرجوع إلى القطب من حيث مظهريته على وجه أتم؛ أعلى من الرجوع إلى السلطان الظاهر؛ ولذا كان العلاج الروحاني أنفع من العلاج الجسماني في أكثر المواد.
وقس على ذلك الرجوع إلى الله تعالى في مقام التفريد، وأنى ذلك لكل محجوب مرتبط بالأسباب والوسائل؛ ولذا قلّ استجابة الدعاء؛ فالمقصود إنما في جانب الداعي فبقدر حضوره في مشهده؛ يجد المطلوب، ويصل إلى المراد.
قوله تعالى: ﴿**لَمْ يَلِدْ**﴾ [الإخلاص: 3]. لأنه لو كان والدًا؛ لكان متعلِّقًا، ولو كان متعلِّقًا؛ لجرى عليه الحل والحرمة، ومن ثمة قال تعالى: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾ [الأحزاب: 40]، فكان الحبيب من أهل هذا المقام، وهو لا ينافي كونه أبا الأرواح، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾ [الأحزاب: 6].
فالروح والد (الجسد) بواسطة، ووالد الروح؛ هو النور الإلهي بلا واسطة، كما أن والد القمر؛ هو الشمس، ووالد الشمس؛ هو ذلك النور؛ لأن نور الشمس من نور الله تعالى لا بواسطة بخلاف سائر الأنوار.
قال تعالى: ﴿**وَلَمْ يُولَدْ**﴾ [الإخلاص:3].لأن الولد نتيجة، والنتيجة فرع الأصل؛ فكان آدم أبو البشر ﷺ من أهل هذا المقام؛ لأن الله تعالى خلقه لا عن أبوين، فكان على صورة خالقه؛ ولذلك كان مسجود، أو ليست السجدة إلا لله تعالى؟ ومن هنا قالوا: ظاهر الكون خلق، وباطنه حق، ومَن صفا قلبه؛ كان كأنه لم يلد ولم يولد، وإن كان والدًا ومولودًا.
قال تعالى: ﴿**لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:4] إذ لا أحد هنا غيره حتى يكون كفوًا له؛ إذ الموجودات كلها مظاهر أسمائه، ومجالي صفاته، وههنا كلام آخر رمزنا إليه بقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:11] كما سبق، فتفطَّن فإن المقام من المزالق، ومن الله التثبيت والتمكين. قال الله سبحانه: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾ [الإخلاص:3]. اعلم أن العبد على صورة المولى وسيرته.
أمَّا الأول: فقد دلَّ عليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»؛ وهي الصورة الحقيقية المعنوية المدلول عليها بالصفات السبع المرتَّبة.
وأمَّا الثاني: فدلَّ عليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»: أي ظهر فيه بكمالات هَويَّته.
ولذا ورد: «**تخلَّقوا بأخلاق الله**»: أي اظهروا تلك الأخلاق والأوصاف التي أودعها الله فيكم حين التجلِّي؛ وذلك بالمجاهدات. كما قال: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾
=

[العنكبوت:69]: أي سبل المعرفة والمشاهدة؛ فإن المشاهدات تُورِّث المشاهدات. ولا شك أن المشاهدة موقوفة على المعرفة الصحيحة، فظهر إن المجاهدة لها ثمرتان؛ المعرفة الإلهية، والمشاهدة: أي إذا كانت مجاهدة من طريق السنة كما دلَّ عليه لفظة: (**في**)، فخرَّج مجاهدات الفلاسفة ونحوهم؛ لأنها من طريق العقول، والتصرُّفات النفسانية لا من طريق الذِكر، واتِّباع الأنبياء وسننهم، فليس لها ثمرات يقينية مفيدة. ولذا ضلُّوا في طريقهم، ورُدُّوا إلى أول منازلهم؛ وهو منزل الطبيعة التي لا نفع منها؛ فكانت رياضاتهم بمنزلة الاشتغال بالمأمور الخسيسة الطبيعية، فكما أن هذا الاشتغال حجب أربابه عن الوصول الروحاني؛ فكذا الرياضة المذكورة، فاعتبر من هذا إن كان لك عقل سليم.

ثم إن الإنسان الكامل الذي هو العبد الحقيقي لم يكن والدًا ولا مولودًا في الحقيقة؛ لكونه على صورة مولاه، وإنما قيل: له مولود؛ لقوله ﷺ: «**أنا من الله**» ، فأورد كلمة من؛ إشارة إلى مبدأ الظهور، فليس هناك إلاّ خفاء دلَّ عليه قوله: «**كنت كنـــزًا مخفيًّا**»، وظهور دلَّ عليه قوله: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»؛ وهو التجلِّي النوري البرقي. وإنما قيل: له والد؛ لقوله ﷺ: «**يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة**»، فإذا كان أبًا لهذه الأمة؛ كان أبًا لِمن قبلها أيضًا؛ لأن هذه الأمة؛ هم الآخرون السابقون كما ورد في الحديث: «**والعمدة في الأمة؛ هم الذين كانوا من إله الحقيقي، وأهل بيته المعنوي**».

كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب: 33].

ومن هذا المقام كان سلمان ﷺ من أهل البيت، والتحق به المطهَّرون جميعًا؛ لأنهم الذين مسُّوا القرآن الحقيقي، كما قال: لا يمسه إلا المطهرون: أي من دنس التعلُّقات بما سوى الله تعالى مطلقًا، ودلَّ على ما قلنا قولهم: الولد سرُّ أبيه؛ معناه فيه ما فيه، فمَن لم يكن سرَّ أبيه؛ لم يوجد فيه ما فيه، فهو لم يكن من أولاده، ورحم الله أكامل الناس حيث قدَّموا الأولاد المعنوية على الأولاد الصورية الذين تجرَّدوا عن المعنى.

ومن ثم قسموا الهاشمية على أقسام، فإن كان الإنسان الكامل على هذه الصفة التي قررناها؛ فالجهل بحقائقه أقرب من العلم بها، فلا يعلم ما الله إلا الله، ولا يعرف الإنسان الكامل أيضًا إلا مَن كان في طبقته من المظاهر الكلية، فإن العوام والمحجوبون من هذه المعرفة؟ وهي أعمق الأشياء، وأغرب الأحوال.

ثم قال الشيخ حقي في موضع آخر: قال الله سبحانه: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:1].

لطيفة: قيل لي في المنام ليلة الاثنين الثلاثين من شهر رمضان سنة 1129 هـ: إن (هو) مبهم ما لا تعيُّن له في الخارج؛ بل عهديته في الذِّهن، وإنما يُريد إبهامه ما بعده من تفسيره؛ وهو الله أحد، فهو قبل التفسير مبهم في الخارج، ومفسِّر في نفس الأمر، وإنما جاء الإبهام من حيث

كذلك لما أوجد الموجودات لم تجز في جواز الوجود أن يوجد لنفسه كفوًا، كما استحال أن يكون له أولاً أب يكون عنه، أو آخرًا يكون له ولد سبحانه، وله الحمد

=

المراتب، ففيه إشارة إلى قوله تعالى: «**كنت كنـــزًا مخفيًّا، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف**»، فإنه تعالى كنزًا مخفيًّا قبل خلق الخلق، فكان ظهوره بذاته في ذاته؛ فكان خلق الخلق كالتفسير له بحيث كان ظاهرًا لغيره أيضًا.

فالأول: مرتبة الجلاء. **والثاني**: مرتبة الاستجلاء. فمَن قصر نظره؛ لم يرَ العالم إلا كالضمير المبهم، ومَن كاشف عن حقيقة الحال؛ لم يكن عنده مبهم، فإن الحق تعالى كشف عن ذاته وصفاته وأسمائه؛ ولذا قال: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [آل عمران:18].

فالهَويَّة كانت ظاهرة للحق قبل خلق الخلق، وباطنة للخلق، وبعده كانت ظاهرة للخلق أيضًا، فباطن الحق ظاهر الخلق، وبالعكس على هذا نفس الإنسان الكامل؛ فإنه بمنزلة ضمير هو في إبهامه وتفسيره، وليس تفسيره إلا الكرامات العلمية المتعلِّقة بحقائق الذات، والصفات، والأفعال؛ وهو القرآن الفعلي، والضمير المفسَّر، والهَويَّة الظاهرة بآثاره، والباطنة بحقائق ذاته.

ومَن أنكره؛ فقد أنكر القرآن، ومَن أنكر القرآن؛ فقد أنكر الحق بذاته وصفاته، فإن القرآن ذات وصفة، فإن الصفة لا تقوم إلا بالذات، ولا تنجلِي إلا بالمحلِّ؛ فلذا قال بعض الأكابر: أنا القرآن والسبع المثاني، ففيه أسرار الحروف والكلمات، والآيات والسور، فإنه حرف عملي روحانية، وآية مثالية، وسورة جسمانية.

وهذا مراد مَن قال: مَن أراد أن يجلس مع الله تعالى (واصطنعته لنفسه) وجعله مجلى لصوَّر كمالاته، فمَن رآه فقد رأى الحق، ومَن عمى عنه فقد عمى، وكم ترى في كل عصر مَن يُقبِّل المصحف صباحًا ومساءً بناءً على أنه كلام الله، ويستحقر الإنسان الكامل مع أنه سرُّ ذلك المصحف، ولو كان عالمًا به فاستحقره؛ لمُسخ مسخ الأمم الأولى؛ لكن قد يعذر بالجهل، وذلك من رحمة الله تعالى بعباده؛ ولذا ستر الله الأقطاب في كل عصر إلا عن أهل المعرفة. فالمحجوب ينظر إليهم وهو لا يبصرهم؛ وإنما يبصر البشر، والمكاشف ينظر إليه ويبصرهم على أنهم صورة الحق تعالى. وليس لله تعالى تجلٍّ إلا في مرائيهم وعلى صورهم، ومن ينظر إلى الله وهو مجرَّد عن النعوت، فقد طلب المحال، كما أن مَن أرد أن ينظر إلى الروح بدون توسُّط مرآة البدن؛ فقد ضرب حديدًا باردًا، فإنه لا يتيسَّر إلا بالمرآة، ومرآته الجسم.

ومن هذا ظهر أن الإنسان الكامل رداء الحق، فهذا الرداء لا يزول عن المرتدي أبدًا، وهو ليس بحجاب له، كما أن المرآة كذلك مع القناع. فعليك بفهم هذا المقام، وكُن مع أهل العافية والسلام.

واعلم أن الله ليس منه أثر على الكون في الحقيقة، وكذا الكون ليس منه أثر على الحياة في نفس الأمر، وهو غنيٌّ عن العالمين. وانظر: [عرائس البيان، ومرآة الحقائق كلاهما بتحقيقنا].

أولاً وآخرًا، ذلك المعدوم لا يعلمه المحيط بكل شيء علمًا، ولا يعلمه أولو العلم ولا أولوا الألباب لثبات فقده وحقيقة عدمه، بل هو *الأحد الذات الواحد الأسماء* والصفات، علم كل شيء من ذات نفسه، واقتدر على كل شيء من ذاته، وشاكل شيء من ذاته، وشهد الشهود الأعلى على نهايات التفصيل من ذاته، فهو بما شهد به علم، وبه اقتدر، وبه شاء وأراد، لا تبعيض يلحقه، ولا وصف الترتيب لصفاته يدركه، وعن هذا الوصف أظهر لعباده اسمه الأحد.

ثم اعلم أن أكثر أذكار التوحيد المعهودة إنما جاءت على مقتضى اسم الواحد من أجل ما تقدم ذكره؛ لأن اسمه الواحد أقرب إلى الوجود الذي للموجودات، ألا ترى أنه جاء على بناء اسم الفاعل؛ كخالق، ورازق، فكما أنه خلق وتسمى بالخالق، ورزق وتسمى بالرازق، كذلك وحد الواحد وتسمى بالواحد، فقرب لأجل ذلك من القلوب، وكانت أسرع إليه بالقبول، فأما التوحيد على مقتضى اسم الأحد فقليل ما جاء، وما ذكر منه فالمعتاد من مقتضى اسم الواحد، ربما حمل هذا محمله، وسلك به مسلكه، وسنلمح إن شاء الله ﷻ إلى جملة من التوحيد بمقتضى هذا الاسم الكريم، نسلك في ذلك بالكلام سنن التوحيد القريب من المعهود في توحيد الواحد - عز جلاله - إذ أكثر أذكاره على الاسم الأحد غيب، والنفوس تنفر للطارئ عليها غير المعهود عندها، فهو الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، القريب الذي هو أقرب إلى الموجود من نفسه، وأقرب إلى الموجود من المعنى الذي له وجد الوجود، هو أقرب إلى الروح من حياته، وإلى البصر من نظره، وأقرب إلى كل شيء من القرب، يقرب هو وصفه لا بتقرب ولا تقريب، رفيع الدرجات من العرش كما هو رفيع الدرجات من الثراء، وقربه من العرش ومن كل شيء كقربه من العرش من حيث الخلقة لا من حيث الولاية.

هو الولي الحميد، هو العَليّ الأعلى فوق كل شيء، وفوق وتحت كل شيء في السمو، وصف تعالى بالعلو والسمو، ولا يوصف بالسفل ولا بالتحت، الرحمن اسمه، والاستواء نعته، والعرض محتاج إلى مكان، ومكانه ليس كالأمكنة، والرحمن ﷻ غير محتاج إلى مكان محيط بعرشه، وبكل شيء لا محاط به يحيطه هي وصفه، احتجب بقدرته عن ريبته فكأنه مشيئته ووجوده قدرته، لا يسعه غير مشيئته، والعرش والثراء وما

بين ذلك كحبة خردل في قبضته، لا نهاية لعلوه ولا فوق لسموه، ولا بعد في دنوه ولا إدراك لحضوره، ولا حيطة لحيطته، بعيد من كل شيء وصفه، والأشياء مبعده عنه بأوصافها الحجب والبعد حكم مشيئته، وهي واقعة على خلقه متصلة بهم، سبحانه وله الحمد، جاز المقدار والأحكام، وفات العقول والأوهام، غير متصل بالخلق، ولا مفارق غير مماس للكون ولا مباعد، بل منفرد بنفسه متخذ بوصفه، هو الأول في آخريته بأولية هي صفته، والآخر في أوليته بآخرية هي نعته، وباطن في ظهوره بباطنية هي قربه، وظاهر في باطنيته بظهور هو علوه، لم يزل كذلك ولا يزال أبدًا.

يُوجد ما أحب لمن أحب من التجلي بمعاني أسمائه وصفاته بخفي لطفه ولطيف قربه، لاختصاص رحمته إن شاء وسعه أدنى شيء، وإن شاء لم يسعه كل شيء، وإن شاء عرَّفه كل شيء، وإن شاء لم يُعرفه شيء، وإن أحب وجد عند كل شيء، وإن لم يحب لم يوجد بشيء، سبوح قدوس، جاز الحدود والمعيار، وعلا على التناهي في الاعتبار، لا يظهر إلا في أنوار صنعته، ولا يوجد إلا برحمته لعزته، لا يعرف إلا بمشيئته بشهوده وهدايته، ولا يرى إلا بنوره، ولا يتجلى بوصف مرتين، ولا يرد منه معنى واحد لكلمتين، بل لكل تجلي منه مرائي، فلكل ظهور صفة، وعن كل نظر كلام، ولكل كلمة إفهام، ولا نهاية لتجليه، ولا غاية لأوصافه، ولا نفاد لكلمه، ولا انقطاع لإفهامه، ولا تكيف معانيه هذه؛ إذ لا تكيف في التوحيد، ولا لقدره في الوجود وجود، ينظر إذا أحب إلى من يحب ينظره اختيارًا فلا تعترض المنظورات في نظره اضطرارًا، ينظر إذا شاء إلى كل شيء بنظر واحد في ذاته، ويعلمها بعلم واحد من ذاته دون زمان بل دفعة واحدة، والزمان لا يصعد إلى ما هنالك ويخص ما شاء ويعم ما شاء يعرض في نظره لكبرياء عزه، وينظر في أعراضه بلطائف عطفه، الملك في قبضته، والخزائن كلمه، والكون في مشيئته، والملكوت بيده، والجبروت والعظمة سبحات صفاته، لا يضطره وجود الأشياء إلى النظر إليها إن أراد الإعراض عنها، العظيم اقتداره، وتناهى قهره، فكذلك لا يضطره عدمها إلى ألا يراها؛ لسبق علمه بها، وشهوده في أزل قدمه إياها؛ إذ كانت مشهود شهوده، ومعلوم علمه، ومقدور قدرته، ومراد إرادته فيما لم يزل هو الجبار ذو الإجبار، إنما يضطر الوجود غيره إلى النظر لضعفه على الامتناع، ويضطر العدم سواه إلى الفقد لعجزه عن الاختراع، هو المباين لسواه بعِزة، غير مماثل لغيره،

شهد الكون من أوله إلى آخره في أزل أزله بعلم هو وصفه، وشهادة هي نعته، ويشهده المثال والأواخر إلى أواخر نهاياتها في أبد أبدها؛ لأن علمه بها شهادة له، ليس بينه وبين علمه حجاب.

ألا ترى أن كلامه الصدق يخبر بأنه قد كان، فذلك منه دليل على شهود المثال؛ لأنه قبل في أزل شهيد بما علم كما علم ما به تكلم؛ إذ شاء إيجاد الموجودات، فلم تتفاوت أوصافه، ولم يختلف علمه وشهادته مع ذلك كله، قال جل من قائل: ﴿**أَعِندَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى**﴾ [النجم:35]، فهو يرى مفهوم هذا الخطاب أن الذي يعلم الغيب يراه يدرك الأشياء كلها على اختلاف أوصافها بصفة من صفاته، كذلك يدرك بجميع صفاته أوصاف ما أدركه بهذه الصفة، لا يدخل الترتيب في صفاته ولا التعقيب، عز عن ذلك العَليّ الكبير، فهو على ذلك يعلم بنظره، وينظر بعلمه، ويريد بما علم، ويقدر بما يريد، والأوائل والأواخر لديه كشيء واحد، وصفاته كلها آحاد كاملات غير محدودة للمحدودات، ولا مؤقتة للمرئيات؛ إذ الترتيب في النعوت من وصف الخلق والأدوات للمخلوق، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:11] في كل صفة ولا كذاته من كل معنى؛ لجلاله وعزته في حقيقة أحديته.

صفاته قديمة بقدمه، موجودة بكونه، ووجود الأفعال محدث وهي مظهرات بترتيب، ليست صفاته ذات جهات، فستوجه إلى جهة دون جهة، فيدرك بصفة دون صفة ولا ذاته ذات ذوات، فيقبل على مكان دون مكان، ويضطره الترتيب، ولا يريد الأمور بأفكار فيشغله شأن عن شأن، ولا تدخل عليه الإعراض فيتغير عمّا كان، لا يضطره التكوين إلى الكلام، يوجد المكان وكلامه إليه كما شاء، كان عزيز في قربه قريب في علوه، حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، كشف العلم بالإرادة وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع بالصنعة وأظهر الصنعة بالأدوات، باطن في غيبه وظاهر بحكمته وقدرته، غيب في حكمته وحكمته شهادة لمحكوماته، وهي مجاري قدرته، وصنعه سر في صنعته، وهي علانية مشيئته، علم الكون بعلم هو وصفه، وهو الناظر في أزله إلى ما علمه، لا حجاب بينه وبين ما علم الكون، متأخر وصفاته لم تزل آحادًا لا ثواني لها، لا يجوز أن يدرك اليوم ما لم يكن أدركه في القدم، كما لا يجوز أن يستفيد الآن علم ما لم يكن علم فيها، لم يزل الكون في الأزل معدوم

لنفسه لئلا يشبهه؛ لأنه خالق العدم كما هو خالق الوجود، ليس للعدم قدم مع قدمه فيكون ثانيًا معه، جل المتوحد الأحد عن ثاني معه في الأزل، وإن أردت أن يسهل عليك معرفة علمه بجميع المعلومات في أزل قدمه كما أوجدها على التفصيل إلى غايات نهاياتها بالكيف والكم والحيث والمتى؛ فلتعلم أنه يعلم نفسه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وينظر نفسه، ويشاهد نفسه، لا مرية في ذلك، فنظره لنفسه نظره لجميع المعلومات، وشهوده جملة الموجودات جملة وتفصيلاً، ولما أوجد كل شيء لم يزد بذلك نظرًا وبصرًا، ولا شهودًا، ولا علمًا، إنما اختلفت الحال بالموجودات حسب، وكما يظن العاقل نفسه فيعلمها بسرعة، فالله أعظم قدرًا وأقدر على ما يشاء، سبحانه له المثل الأعلى، كيف لا يكون كذلك وهو الذي لا يخلو منه أين ولا يعزب عنه في الموجودات مثقال ذرة ولا أصغر وأكبر إلا هو مع ذلك بالإيجاد أو بالولاية والقرب أو بهما، فافهم، وكما هو مع شيء ما فكذلك هو مع كل شيء، فأنى يشغله شأن عن شأن.

التعبد

فاحرص- رحمنا الله وإياك - على تعزيز العلم بتحقيق معرفة الأحدية، فبذلك ينبغي عنك إن شاء الله القول بقدم العالم، وتنبغي عنك شبهه تكثير الصفات بما عسى أن يدخل في عقدك من ترتيب أو تعقيب، فيذهب ذلك عنك نور اليقين الثابت بأحديته ﷻ وأنه ما نظر قط في وجوده بعد أن لم ينظر إليه حال عدمه، ولا سمع شيئًا لم يسمعه قبل حدوثه، ولا كلم شيئًا قط بعد أن لم يكلمه في حال العدم، ولا علم شيئًا قط بعد أن لم يعلمه؛ إذ كل شيء موجود كان أو لم يكن بعد منطو في علمه وفي قدرته في مشيئته وهي مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو، قال الله جل من قائل: ﴿**أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم**﴾ [الروم:8]، وقال: ﴿**وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [الجاثية:4]، وقال رسول الله ﷺ: «**من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه**»[1].

وهذه المعرفة تحتاج إلى معرفة، وهذه الهداية رآها القائلون بقدم العالم على بعد وهم في ظلمة مجاهلهم، ولما يتمموها قصدًا إليها ضلوا عنها، فصرحوا بضلالهم، وسمع آخرون بعدة أسماء وصفات، فلو همهم ذلك التكثير، وهو الله ﷻ الأحد الذات

(1) انظر: إحياء علوم الدين (2/219)، والفتوحات المكية (5/483).

الواحد الأسماء والصفات له المثل الأعلى في الأرضين وفي السماوات، وهو الذي لا غيب عنده فلا يعدم معدومًا ولا يفقد غائبًا، والمعدوم معدوم لنفسه غير موجود بنفسه حتى أحدثه وأوجده، فظهر حين أظهره بعضه لبعض، وبدأ بعضه لبعض، أما هو ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه فكما لم يحدث به علمه لم يحدث به نظره، وسماعه منه ومشهود له، وكما لا ينبغي أن يحدث شيئًا لم يعلمه كذلك لا ينبغي أن يفقد شيئًا علمه ثم يجده.

من قال أن الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - علم بعد أن لم يعلم، ونظر بعد أن لم ينظر، تكلم بعد أن لم يتكلم، أو شاهد بعد أن لم يشاهد، فقد قال بحدوث الصفات، وقدم عليها الموجودات، وإنما المعلومات منطوية في علمه كما تقدم ذكره، وإنما قدمنا هذه المقدمة من مقتضى اسم الأحد لما عسى أن يأتي من الكلام في مواضعه على مقتضى الأسماء سواه، لكن هذا هو المعتقد الوزر وإليه الملجأ، والتوحيد حقائق عبارات يعجز بعض العقول عن درك شهادته لسبق الإنكار منها لضعفها عن جمل مكاشفته وفوق علم التوحيد والاسم منه وحداني، فالتوحيد وصفه، ثم فوق علم الاتحاد ووصف منه متحد، وفوقهما علم الوحدانية والاسم منه واحد، وفوق ذلك على الأحدية والاسم منه أحد، هذه أسماء لها صفات، وأوصاف لها علوم، وعلوم لها أنوار، وأنوار لها مشاهدات بعضها فوق بعض، قال ﷻ: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف:76] وهو توحيد الرب ﷻ وتعالي علاؤه وشأنه نفسه بنفسه.

واعلم أن علم التوحيد أول هذه العلوم وعموم هذه المشاهدة أقربها إلى الخلق فالاسم منه موجود ومن ها هنا تبين الخلق وظهر لهم بما أبان لهم وهو الذي أظهره إلى الخلق، فالاسم منه موحد، فهذا توحيده الذي وحده به الموحدون من جميع خليقته، فتوحيدهم إياه عن توحيده الذي أعلمهم عن نفسه وأخصهم من وصفه، وأما رفيع ذلك فهو محجوب في خزائن الغيوب قد جاوز علم الملكوت كله فهو من وراء خزائن الجبروت والعظمة، ومن الله ﷻ نسأل المزيد برحمته وجميل عطفه، وهو وإن كان لا يجري على ترتيب المعقول ولا يمثل بقياس العقول فإنه من وصف ظاهر التوحيد المتصل بفرض الشهادة، وكما تقدم ذكره أن من ورائه كلام في تحقيق التوحيد يعجز عن إدراكه أكثر العقول.

وإن علم الأحدية له علوم وأنوار مشاهدات الأسطر في كتاب، وإن أعلى منه توحيد الرب نفسه بنفسه، وإنما توحيد الموحدين إياه موجود عن توحيده نفسه، كما أن تسبيحهم موجود عن تسبحه كذلك التحميد والتمجيد والأذكار كلها، فاعلم ذلك ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ**﴾ [الأنعام:19] وسنبسط الكلام بعد هذا إن شاء الله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وعلى نحو ما يأتي من الأسماء ومقتضياتها ثم موضع التعبد بهذا الاسم الكريم إخراج أفعال كلتا الجهتين اليمين والشمال على سنن الصدق والعدل والمحمود كله وتمحيق المذموم حتى تتخذ بذلك، ويرجع شبيهًا بأحديته في أوليته يوم الإقرار الأول، والمطلوب منه أن يكون واحدًا في تركيبه، أحدًا في نيته وتعبده لأحد، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:11].

اسمه الصمد جلّ جلاله

الصمد، الإجماع من ذلك قالوا: تصمد الشيء إذا اجتمع، وقالوا: الصمد المقصود عند الحوائج، والصمد: القصد، يقال من ذلك: صمدت صمدة إذا قصدته، فهو المقصود إليه عند الرغائب، وتلك دلالة على أنه المتناهي في السؤدد والشرف والكرم وتفريج الكرب، وقيل: الصمد هو الذي لا يطعم، وقيل: هو الذي لا جوف له، وهذه دلالة على صفة الغنى، وقيل: هو الدائم الباقي الذي لا يزول، وجماع هذه الأوجه أنه الأول الذي لا أول له، والآخر الذي لا آخر له، لم يتقدمه والد كان عنه، ولم يتأخر عنه ولد يكون عنه، وآية ذلك هو الذي يكلله عدم النسب، فلم يترك أبًا ولا ابنًا، وهو المعني بقول الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - وهو أعلم بما ينزل الله ﴿**الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾ [الإخلاص:2،3] [1].

---

(1) قال ابن عباس: الصَّمَد السَّيد الذي انتهى إليه السُّؤْدُد معناه الملك المقصود، يقال: صَمَدْتُ نحو =

ومن هو كذلك فهو الجامع للأسماء الحسنى والصفات الكاملة، وبالواجب أن يكون المقصود بكل وجه وبكل معنى ويكون معتمد كل شيء عليه فيما ينوب ويرغب فيه، ولمعنى الاجتماع عبر عنه بالتوجه والإقبال والتوله إليه ونحو هذا فإن المتوجه على حقيقة التوجه مجتمع الجملة إلى ما توجه إليه، وجاء صمد على وزن (فعل) لما تقدم ذكره في باب اسم الأحد وهو لا يلحقه المضارعة وهو اسم خاص، والله أعلم.

والصمد حقيقته فناء كل شيء سواه وإلى حقيقة هذا سمى التوجه وهو الإقبال بالكلية وهو من أسماء الأول كاسم الأحد ﷻ فمتى كان عبارة عن الذات ﷻ كان عبارة عن الغنى كله كقوله: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ**﴾ [الأنعام:14] وعبر عن هذه الجملة السلف ﷺ بقولهم: هو الذي لا جوف له، ومتى كان عبارة عن وجوده كان معناه الأول الآخر، أي: لم يكن له أب، ولا كان له ولد، سبحانه وتعالى، ومتى عبر به عن معاني أسمائه وصفاته كان عبارة عن الكمال كله والتمام أجمعه، فهو الحي الدائم الذي لا أول لحياته ولا آخر، وكذلك بقاؤه ودوامه وقيوميته وعظمته وعلمه وعلياؤه وكرمه حلمه وكبرياؤه وجبروته، هكذا إلى ذكر جميع الأشياء والصفات، هو الكامل الناهي في الشرف والسؤدد والإلهية والربوبية، دون أول أن يكون له في ذلك يكون بدؤه عنه أو آخر يوجد له يقطعه سبحانه وله الحمد.

وهذا كله أيضًا عبارة عن اسم الأحد عن جلاله، ومن ذلك قوله عز من قائل: ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:4]، وجملة معاني الصمدية والأحدية تستنظمها سورة الإخلاص تعلم خاصة كل واحدٍ منها فيها بأيسر نظر وجملة شرح لاسمه الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، واستعير للمخلوق من مجاز هذا الاسم بعض ما هو إشارة إليه، فقيل: صمد إذا كان ملجأ يلجأ إليه فيما ينوب ويرغب، وقد يقال له صمد؛ لشرفه وتناهيه في ذلك، وهو إذا كان سيدًا طيب النجر كريم السلف، حسن الظاهر زكي الباطن، وهذه كلها شاكلة المربوب، وإنما نجتلبها لتقريب الفهم، وأما الصمد الحق -

=

فلان أي: قَصَدت، فالصَّمد هو السيِّد الغني الذي يقصده كل واحد وهو غير محتاج إلى أحد. وقيل: الصَّمَد المريد لأفعاله، فلا يكون إلا ما يشاء.

عزّ جلاله - فالغنى المطلق من جميع وجوهه والكمال المطلق من جميع معانيه، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3-4].

ولم يكن له ظاهر يفتقر منه إلى باطن ولا باطن يفتقر منه إلى ظاهر إنما هو ليس كهو إلا هو تعالى عن اضطرار الآباء وافتقار الأبناء واتخاذ الصاحبة والأولاد أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وأنى تكون له صاحبة، ولم يكن له كفوًا ولا شبيه ولا مثيل.

واعلم - وفقنا الله وإياك - أن هذه صفة خاصة لا يتصف بحقيقتها سواه ألبتة؛ إذ حقيقة الصمدانية[1] من له الوجود المطلق والدوام الواجب المتوالي بشاكلة الألوهية ومعاني الربوبية دون تغير وتحول مع توهم وجوه ذلك في سواه، وبعدم جواز ذلك عليه ثبت بقاؤه هو سبحانه وله الحمد كيف يعدو عليه صنعه أو يغلبه ملكه.

وتتحقق علم ذلك بأنه متى منع أحدًا من المخلوقين أن يكون له أول وآخر

(1) قال الشيخ الأكبر: **وقال في الكلام على اسمه تعالى الصمد:** اعلم أن هذه الحضرة هي حضرة الالتجاء والاستناد التي لجأ إليه واستند كل فقير إلى أمر ما لعلمه أن ذلك الأمر الذي افتقر إليه من هذه الحضرة معناها، والله غني عن العالمين، وأطال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر:21].

ثم قال: وإذا علمت أن الخزائن عنده تعالى فأنت الخزائن وأنت عنده، وقد وسعه قلبك فهو عندك وأنت عنده، وأنت عندك، فلك من الصمدية قسط؛ لأنه لا يكون المعرفة بالله الحادثة إلاّ بك، فأنت الصمد فيما لا يظهر إلاّ بك من هذه الحضرة، ولكن قف عند نهي ربك وتدّبر فيما قال على لسان رسوله في الشيء الذي يستتر به عند الصلاة في قبلتك أنك تميل به نحو اليمين أو الشمال قليلاً ولا تصمد إليه صمدًا، فهذا من الغيرة الإلهية التي إنْ تصمد إلى غيره صمدًا، وفيه إثبات الصمدية في الكون بوجه ما، فذلك القدر الذي أشار إليه الشارع يكون حظ المؤمن من الصمدية، والجاهل يصمد إلى الأسباب صمدًا، ويجعل حكم الميل إلى اليمين أو الشمال لصمدية الحق عكس القضية، والشارع إنما شرع في السترة الميل إلى اليمين أو الشمال لينبّه على السبب القوي باليمين، وعلى السبب الضعيف بالشمال، فمن لاح له بارقة من الحق ضعف اعتماده على السبب القوي باليمين، وعلى السبب الضعيف بالشمال، فجعله من الجانب الأضعف، إذ لا بدّ من إثبات السبب فهو لا يصمد إلاّ إلى الله صمدًا. [مختصر الفتوحات المكية للشعراني 1331/2 بترقيمي].

وظاهر وباطن لم يدخل في باب الكون والوجود قطعًا، ومتى أوجده منها اثنتين وهما: الأولية، والآخرية، فخرج إلى الكون كانتا دليلاً على فنائه، ولم يكن وجوده إلا بالاثنتين الآخرتين، فمتى سلب هاتين الاثنتين أو أحدهما الظاهر والباطن انعدم جملة ولم يحتمل هذه الصفة مثال ذلك الذي يورث كلالة، وهو الذي كل نسبه فتكلله العدم عن أوله وآخره، فلم يلحق لذلك أبًا ولم يتخلف ابنًا، وسلب باطنه وذهب ظاهره فانعدم وصار بجملته إلى الصمد الحق.

الاعتبار

اعلم - علمنا الله وإياك من علمه - أنه يدخل في الاعتبار بهذا الاسم الكريم إيجاده الأشياء لا من شيء سوى أنه أبدعها واخترعها، ووضعه الأشياء كلها لا على شيء سوى أمره وأيده، وإقرارها على ذلك مع هذا موجود العبرة بمقتضاه صمود الأشياء كلها وتوجهها نحوه وإقبالها شطر أمره قانية لعلياؤه وعظمته، وهذا موضع عبرة العارفين، ومجال أوهام العلماء الموقنين، ومن نظر في القرآن على حقيقة النظر وتابع الفكر في الموجودات انكشف له من الحقائق أكثر مما عسى أن يسطر في كتاب، فقد تقدم الإعلام أنه ليس من علم الصحف، والقلب حي، والقلم ميت، واللسان لهذا السبب أقرب إلى التبيين من الكتاب، وإنما كتب هذه المعاني تنبيهًا من الغفلة، وإشارة إلى الغرض وتطريق للمريد، نسأل الله الهداية إلى ما يرضيه، والتسديد إلى مجابة في العقد والعمل، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأقرب طريق إلى ذلك اعلمه - إن شاء الله - أن تقصد قصد نفسك، فتسكن حركاتها باطنًا، ثم تسكن حركات جسمك ظاهرًا، وتفرغ قلبك من ذكر كل شيء إلى ما قصدت إليه من حالك هذه التي أصفها لك، فهذا هو صمودك أنت إليه وتوجهك نحوه من هذه الجهة، وطلب حوائجك منه، وأخصها قربًا وأعظمها قدرًا طلب معرفته والعلم بمصنعه وتعرف الحكمة فيه والحق المخلوق به في وجوده، وإن أمكنك أن تكون بموضع تشرف منه على موجودات كثيرة قريبة وبعيدة فذلك أعون لك على ما تريده، فإن لم يمكنك ذلك فتوهمه، ثم ارم ببصرك إلى سماء وأرض وهواء ونبات وحيوان وغير ذلك مما تعلمه وما لا تعلمه، واقض بما رأيت على أمثاله مما لم تره.

واذكر قول عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: سبحانك ما أعظم ما أرى

سلطانك، وما أصغره في جنب ما لم أر، ثم أجمع العالم كله في عقدك ومثله بسفينة مشحونة في البحر تجري عليه قد اكتنفها ما يحملها مما ليس بسفينة من رياح وماء وأمر، أو كشخص مائل وظل قائم متناهي الأقطار محصور النواحي والجهات، ثم أعد النظر فيه فتبصر ما المراد منه وما له، سخره خالقه بعقلك ونور إيمانك فتراه قائمًا بذلك بأمر ربه، تحفه القدرة ويحتوشه الحول، وتجول فيه الروح بالقوة فيتحرك بالنفس بما يرد عليه من القدرة على ما يقتضيه الأمر النازل عليه من علو، وتبصره ببصيرتك قائمًا لمن توجه إليه، صامدًا لمن أقبل عليه خاشعًا لمدبره مستسلمًا لأمره، لا يتحرك من ذاته، ولا يعمل ما يعمله من تلقاء نفسه، واحدًا موحدًا متحدًا بين يدي واحدًا أحد صمد ليس كمثله أحد، وحده مدبره لا من شيء موجود؛ إذ لو كان كذلك التسلسل الوجود والإيجاد إلى ما لانهاية له فإذا أوجده إبداعًا واخترعه اختراعًا على ما هو موجود في سابق علمه وعلى مشيئته أقره على أيده وأقامه بأمره اقتدارًا منفقًا في اختلافه، ساكنًا في اتفاق حركته على اختلافها وسكونه خارج ذلك على حكم المشيئة العالية والعلم المحيط، فهو يسبحه ويحمده ويهلله ويكبره، ويذكره بأذكار ما أوجده فيه، واستودعه إياه من مقتضى سبحات أسمائه وصفاته بألسنة شتى عدد الخلائق كلهم جملة وتفصيلاً، صغير ذلك وكبيره علوه وسفله بأجزاء ذلك وأجزاء أجزائه إلى منتهى تحصيل الله ﷻ لذلك، متعبد له في إسلامه إليه، مصليًا بجميع أحواله لديه، صلاته زمان وجوده، ومسجده موضع قيامه، قبلته العرش الكريم، ومعبوده العلي العظيم، فتلوم - رحمك الله - عند ذلك على فهمك، وقف على ما تفرع له قلبك واحمد ربك واسأله المزيد من فضله، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114] فستهجم بك الفطنة بتأييد مولاك - عز وجهه - على العلم الرفيع، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع الأمر كله.

التعبد

فإذا تحققت ذلك بعقلك فتقرر علمه في إيمانك، فاعلم أن ذلك هو المراد منك، وإن اعترضك دون ذلك معترض من هوى أو غيره فكابده واصطبر على ما به أمرت، ولا تطغ فما عفا لك عنه مما هو دون ذلك، إنما هو فضل وتخفيف عنك من ربك ﷻ، فتوجه إليه بأمورك كلها، واصمد إليه بكليتك، ولا تبق من نفسك باقية في جميع

أحوالك وكل أحيانك، أخطط بساحته رجلك، وألق بفنائه كنفك، وإياك أن توجه بشيء من أمرك إلى سواه إلا أن تكون في حالتك تلك معلق القلب بربك ناظرًا إليه سائلاً إياه، وإلا حرمك بركة هذا الاسم الكريم، وخيب غناءك وأبطل رجاءك، وربما قضاك من حوائجك في حياتك هذه لتنال فيها نصيبك من الكتاب، وفي الآخرة يبدو لك الوعيد.

ولا تغفل أن تتطلب في حال فكرتك التي تقدم ذكرها مقتضى الدوام والبقاء، فقد قيل في معنى الصمد ذلك، فتعرف الباقي والدائم من الفاني المعدوم بعد وجوده، فإذا وقفت على ذلك بإيمانك وعقلك فتذكر أنك من الفاني بعد وجودك هذا، ثم أنت معاد إلى البقاء؛ لأنك موجود بإيجاد الدائم والباقي، وأنه لا يصحبك إلى قرار فوزك ومعدن حبورك إلا العمل بطاعة الأحد الصمد والإيمان به والإسلام له، فقدر نفسك على الفناء ووجوب الارتحال كما قال عز من قائل: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ**﴾ [الأعراف:185] وكذلك فإن هدفي خطابك، وأكرم نفسك عن التهالك على متاعها.

فإذا وقفت على ذلك فلا ترغب في حلالها فضلاً عن حرامها، وكذلك إذا وقفت بنور إيمانك وحقيقة معقولك على أنه يَطعم ولا يُطعم، فتوجه إليه برغائبك، ووحده في حال طلاب رزقك وتصرفك في جميع مآربك، وتوكل عليه في جميع حاجاتك، فإن الذي تحتاج إلى ما تحتاج أنت إليه من مطعم وملبس يفتقر إلى ما يقوم به فقره كفقرك، يشح عليك لحاجته، ويمنعك مرغوبك لأجله إليه، فاشك بثَّك، واصمد إليه في جميع حوائجك، وإليه فافزع عند فاقتك، وتملق له في تضرعك، وتقرب إليه بكل توسلك.

وكذلك فاقصده في بيوته، وزره في مواطن محابه، فقد جعل ﷺ زيارة المسلم أخاه المسلم من ممدوح الأعمال، وإذا كان ذلك كذلك فزيارته أعلى وقصده فيما أمر به أكرم وأسنى.

وإذا أقامك الله مقامًا تتسع فيه إلى أن تكون ملجًأ للملهوف وغياثًا للمكروب في جاه أو ذات يد فصدقت في ذلك وبرزت فقد أخذت من مقتضى هذا الاسم الكريم بحظ وفزت منه بنصيب، واحمد الله وسارع في الخيرات «**فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ**

مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1]، أقامنا الله وإياك على المنهاج القويم بمنه ورحمته وأقرب سبيل إلى ذلك اعلمه وفيه النجاح والظفر وبه تطيب لك العاجلة وتنال الأمن والفوز في الآجلة إسقاط الاختيار واجتناب الدعوى.

وبالجملة فإنه يدخل من العبادات بمعنى هذا الاسم الكريم مبادئ الأعمال كلها وتوجيه النيات، وتسديد الإرادات إلى مالك حوائج العاملين، فافهم فهمنا الله وإياك عنه، ولا حرمناها وإياك من خصلة في الدنيا ولا في الآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اسمه الفرد جلّ جلاله

يقال: فرد وفرد، كما يقال: وحد ووحد، ومعنى الفرد: المزايل لما سواه من كل الجهات، والمباين لما عداه بكل المعاني، وخاصته من اسم الأحد أن الأحد يفهم من غير توهم مغاير، ولا يفهم معنى الفرد إلا مع توهم مغاير؛ كخالق ورازق يفهم معناهما إلا بتوهم معنى الخلق والرزق، وكذلك الفرد لا يفهم إلا بتوهم منفرد عنه لما كان من المعلوم العلي أن يخلق المزدوجات كالخير والشر، والنفع والضر، والأضداد كلها والأغيار وأن تضاد بين المتضادات، ويزاوج بين المزدوجات، كان في واجب الوجود العَلي أن يكون من أسمائه الفرد، وقد جاء في مذكور الأسماء والوجود إبان ذلك من صفاته العَلي والفرد بأسمائه الحسنى، وجعل تعاقب المتعاقبات فازدواج المزدوجات وتخالف المتخالفات وتناهي المتناهيات دلائل عليه وآيات تسير إليه، فمضادته بينها دليل على ألا ضد له، وتعاقبها دليل على ألا عاقب له ولا خالف، وتناهيها دليل على ألا نهاية له، وسمها بسمات الحدث والصنع، وانفرد عنها بصفات السلام والكمال.

شبهة

ولا ينبغي أن يتوهم متوهم أنه إنما تسمى بالفرد بعد إيجاده المغاير وبالخالق

(1) رواه البخاري (35/9)، ومسلم (209/12).

بعد إيجاد الخلق وكذلك الرازق وأسماء الأفعال كلها بل لم يزل بجميع أسمائه وصفاته فالأحد الحق عن جلاله اتصف بالفردانية في أحديته، كما يتصف بالأحدية في فرديته، وكذلك الخالق والرازق؛ إذ المنفرد عنه والمخلوق والمرزوق وجميع المعلومات كانت موجودة في سابق علمه، وعلى وجوده منطوية في مشيئته، مدركة بإدراكه، مشاهدة منه بمشاهدته، مرئية له برؤيته مكملة بتكليمه إياها مسموعة له بسمعه، لم يزده إيجاده إياها علمًا ولا أكسبه ظهورها بعضها لبعض رؤيته ولا وصفًا لم يكن له من قبل فلذلك لم يكتسب اسمًا ولا ازداد صفة، وإلى هذا فقد يقع اسم الفرد على كل واحد من الزوجين إذا أفردته بالنظر فيه دون غيره الذي هو زوج له ليتميز منه، فإذا أخبرت عنهما من وجهة الاقتران لم يكن إلا الزوج، وقد تقدم من الاعتبار فيما مضى وما يأتي إن شاء الله تعالى ما يشرف بذوي الألباب على أن الأمثل له والأشبه له والأعدل فإذن لا كفوًا له، فإذن لا زوج له، فإذن هو الفرد الحق، إذ الانفراد هو البينونة بما بان به عمّا سواه.

شبهة

وتثبت في معنى المباينة والانفراد فإن بينونة الفرد الحق بينونة تمييز لا بينونة اعتزال - تعالى عن ذلك - واللغة بما هي تضيق عن العبارة عن معاني هذه المعالي، وعلى ذلك جاء خطاب القرآن وحديث الرسول ﷺ من التساهل وقد تقدمت من ذلك مقدمة.

الاعتبار

وأما عبرته فموجود ذلك كثير، فإذا قد علمت معاني الانفراد فأعقل أن الفرد الحق - جَلَّ ذِكْرُهُ - انفرد بالملك دون المملوك، وبالربوبية دون المربوب، وبالألوهية دون المألوه، وكذلك أفرد الجنة من النار بخاصيتهما، وما أوجد كل واحد منهما له أفرد المؤمنين بإكرامه، والمجرمين بإهانته، وأفرد كل ذي شكل بشكله، وكل ذي صورة بصورته وخاصة بخاصته وحاله بحالته؛ إفرادًا منه للأشياء، وتمييزًا لذواتها وأحوالها، لولا ذلك ما انفرد شيء بشيء، ولا امتاز شكل من شكل، ولكان الاختلاط والأشكال فكنا لا نعرف أبنائنا من أبنائنا ولا من غيرهم، ولا أمهاتنا من أزواجنا ولا من غيرهن، ولا كان لمنازلنا حلال فنبت فيه ولا حرام فنتقيه، ولا كان يكون لأحدنا اختصاص

بشيء سوى اللبس والعمى لا علم ولا معلوم ولله ﷻ التدبير المبرم والقضاء المحكم، وفي الذي أومأنا إليه من هذا الباب كفاية لأولى الفهم.

التعبد

قد علمت - وفقك الله - أن الله ﷻ هو الفرد الحق لا نسبة بينه وبين المخلوق، ولا شبهة بينه وبين المحدث من جهة الحدث والخلق البتة باطنًا ولا ظاهرًا، كما ليس بين المخلوق وبينه نسبة ولا شبهة من جهة الفردانية يأتيهم بصفاته وأسمائه فردًا كما باينوه بما جعل لهم من سمات الحدث وآثار الصنع خلقًا، فإذا تحقق هذا عندك تحقيقًا لا لبس فيه، فاحرص على أن تفرد له عملك كله كما أفردك أنت به، خلقك ورزقك وسواك وعدلك وجعل لك السمع والبصر والفؤاد والقوة باطنًا والجوارح ظاهرًا أفرد بذلك كله ولم يشرك معك فيها أحدًا فأفرده أنت بما جعله لك، وأوجبه عليك من أعمال أمرك بها ونعم أنعم بها عليك.

واعلم أنه قد أفرد لك عنده نعيمًا تامًا كاملاً خالصًا من نكد المنكدين، سالمًا من ذي التنغيص، فصل لك أقله، وأجمل جله؛ لأنك لا تحيط بعلمه، ولا تبلغ آمالك مع انبساطها إلى بعضه، كذلك أفرد لك عذابًا عاريًا من أقل الراحة، مسلوبًا من أدنى الترفيه، لا يحيط به علمك، ولا يقوم لأدناه صبرك، زوجان: نعيم وعذاب لزوجين: طاعة وعصيان، فذلك أفرد لك الأعمال بعضها من بعض جعل لها من صفاتها وميزها به من سماتها تعرف بعضها من بعض بما أفرد به كل نوع منها، فأفرد ذلك الصلاة من الصوم، والصوم من الحج، والحج من الزكاة، والزكاة من غيرها من الأعمال بصفاتها وأسمائها، فليس لك أن تجعل لها صفة ولا حدًا سوى ما أفردها به الفرد الحق، فإن لكل واحد من ذلك ضدًا نهاك عنه، وحدًّا حذرك مجاوزته.

واعلم أنك وعدوك زوجان، فمتى جعلت عملك لنفسك أو لعدوك أو لغيركما من الأغيار فإنها عملت لأحد الزوجين أولهما ولم تتوجه بذلك أعمالك له بعزته؛ لأنه لا يقبل إلا عملاً مفردًا له خالصًا، فبطلت عنك فائدة هذا الاسم الكريم، وخبث من بركته، ووكلت في الحساب العاجل والآجل إلى من عملت له، ولا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع.

اسمه الوتر تفرد وتعالى

هو أيضًا من باب الوحدة، والوتر هو: الجامع بين الشيئين الذين هما الشفع، وهو العائد عليهما بفائدتهما من ذلك وتر القوس؛ لأنه جمع بين الشيئين وهما طرفا القوس، فقامت الفائدة بذلك منه وتر البيت منه، وهي خشبة يجعل من قطر البيت إلى القطر الآخر تجمع بينهما وخاصته من خاصة الفرد أن الفرد يفهم من معنى الزوج ويفهم الوتر من معنى الشفيع، والشفع ضم شيء إلى شيء يخرجه من معنى الوحدة إلى التثنية، والوتر واحدها الزوج لزوجه موجود لمعنى السكن كل واحد منهما إلى زوجه، وتتحصل الفائدة وأما أوجد الله بينهما بإيجاد الفرد الحق لذلك واستخراجه ذلك عنهما وبهما، والشفع موجود للتعاون والتوازن على إتمام المراد بهما، فيتمم الوتر ذلك لهما منهما به، وسيأتي ذكر الشفع والشفاعة في أولى المواضع بذلك إن شاء الله تعالى[1].

ثم سبحانه الفرد بحكم الفردانية عن العدل والنظير والشبه والمثل والكفء ونحو ذلك، وسبحة الوتر هي عمّا يلحق المصنوع من نقائص الحدث وافتقار الصنع وعن العدد ولواحقه، ومن لحقه الصنع لحقه العدد[2].

---

(1) قال القاشاني: الوِتْرُ هو اعتبار الذات من حيث سقوط جميع الاعتبارات.

سمي هذا الاعتبار بالوتر لأن الذات بحسب هذا الاعتبار لا يصح أن يشفعها شيء، لأن اعتبار أحدية الذات، الذي لا يصح على الذات باعتبار أن يكون لها نسبة إلى شيء أصلاً، وأن ينسب إليها شيء بوجه.

وذلك بخلاف الشفع، الذي باعتباره تعينت حقائق الأسماء والخلائق بظهور أحكام الاسم الخالق والرازق وغيرهما.

(2) قال الشيخ الشعراني: «أنه تعالى إنما أحب الوتر طلبًا لأخذ الثأر من الشفع الذي نازعه في ألوهيته، فجاء تعالى بالوتر الذي يطلب الثأر؛ ليفنى المنازع، وينفرد الحق تعالى بالأحدية أحدية الذات لا أحدية الكثرة التي هي أحدية الأسماء؛ لأن الأسماء شفعت الواحد؛ لأن الله كان من حيث ذاته ولا شيء معه، فما يشفع أحديته إلا أحديته الخلق، فظهر الشفع، والله تعالى أعلم» [مختصر الفتوحات المكية 1349/2] بترقيمي في النسخة التي حققتها لأول مرة في عالم الطباعة.

الاعتبار

اعلم - وفقك الله - أن العدد يبسط على كل محدث مصنوع إن كان من المركبات فمن جهة ضم جزء إلى جزء وتمييز هذا من هذا وضم جملة إلى جملة، وإن كان غير المركبات فمن ضم الشيء منها إلى شيء آخر من جنسه أو من غير جنسه، والواحد بما هو واحد ليس بعدد، وإنما يظهر أنه ليس بواحد على الحقيقة، ومتى وجد له ثانٍ فيظهر فيه الصنع بضم ثانيه إليه، ويظهر نقيضه عن معنى الواحد بوجدان مثل له، لكن له من معنى الوحدة أنه لم يلحقه العدد قبل وجود ثان له أو مثل يماثله، ثم ذلك المعنى من الوحدة باقٍ عليه من جهة ما حيث ما كان، وسيبدو لك في أثناء الاعتبار إن شاء الله تعالى.

اعلم أن الواحد مادة العدد وعنه تركب، وليس بعدد في نفسه، وهو من العدد من حيث هو مادة له، وذلك من آيات الواحد الحق ﷻ فإنه أوجد الموجودات جمعاء وليست كهي، كما أن واحد العدد عنه تركبت الأعداد كلها بواحد من واحد إلى واحد يتقدمها، وعلى ذلك فهي لم تتكرر ولا تضاعفت من هذه الجهة، وإنما كانت الكثرة والتضاعف فيها من جهة الصنع ووجود مثل له ومضاف إليه، ألا ترى أن كل عدد تضربه في واحد أو واحدًا فيه فإنه واحد بواحد واحد يتضاعف ذلك العدد أبدًا، فنقول: واحد في اثنين باثنين، هكذا إلى سائر العدد كله، الاثنان شفع والثلاثة هو العدد؛ لأنها تركبت من واحد إلى واحد هما بضم أحدهما إلى الآخر شفع أوترهما واحد ثم عليها؛ أعني: الثلاثة يدور العدد، وعنهما يتركب، وكما دارت الثلاثة على الواحد وتركبت عنه كذلك دارت الأعداد على الثلاثة وتركبت عنها من جهة هم واحد إلى شافع له ثم إلى وتر لهما، فالموجودات كلها شفع ووتر، ولعموم هذه أعني وجود واحد العدد ثم شافعه ثم وترهما، قال رسول الله ﷺ: «**من قال في دبر كل صلاة وحين يأوي إلى فراشه سبحان الله عدد الشفع والوتر وكلمات ربي الطيبات المباركات ثلاثًا والله أكبر عدد الشفع والوتر وكلمات ربي الطيبات المباركات ثلاثًا كن له نورًا في قبره، ونورًا على الحشر حتى تدخله الجنة**»[1].

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (32/6، رقم 29256).

فالموجودات كلها شفع ووتر، والوتر أصله الواحد والشفع أصله الاثنان، ثم جميع ما يأتي بعد هذا تركيب عليه بتغاير أسماء على ما يوجبه تغاير الأعداد والاثنان: أول التركيب الواحد، والأربعة: أصل التركيب الشفع، والستة: أصل التركيب الوتر، ثم ما بعد هذا تركيب عليه، وها هنا قال من قال: إن الستة أصل العدد؛ لأن التركيب انتهى عنده إلى الستة كما تقدم.

ومن زعم أن أصل العدد ثلاثة فللمعنى الذي ذكرناه قبل وجود الموجودات كلها، شفع ووتر وقد وجدا من ثلاثة، فما جاء بعد هذا فهو عنده تكرارًا، فإذا تمهيد هذا فانظر إلى الاثنين حال تثنيتهما تجدهما شفعًا كل واحد منهما شافع لصاحبه، فظهرت الصنعة والمصنوع في إضافة بعضها إلى بعض وبقي الصانع فجئت بوترهما آية عليه وهو الثالث، وتلك بقية بقيت عليه من معنى الأحدية قبل الصنع فالأحدية الموجودة به قبل ظهور الإشفاع للصنعة بإضافة ثانيه إليه كان جانبها، أعني: الأحدية قائمًا بها يؤثر الواحد الانتفاع وللصنعة فيها أثرها بها شفع شافعه؛ لأنك تجد كل واحد من الثلاثة يصلح أن يكون وتر الشفعة كما يصلح أن يكون ثانيًا لصاحبه وشافعًا له، فإذا أضفت إلى الثالث رابعًا صار الثالث من جهة الصنعة البادية فيه بإضافته إلى العدد شافعًا للمضاف إليه، فشفع من حيث الصنعة، وأوتر من حيث الوحدة، فإذا أضفت للرابع خامسًا أوتر من جهة وحدته وخمس الجميع من جهة دخوله في العدد، فإذا أضفت إليه سادسًا قام مقامه في الوتر وشفع سادسه على ما تقدم.

والستة قامت من ثلاثة أشفاع: شفع من وتر ثلاثة، ووتر من شفع اثنان اثنان اثنان، فهي لذلك ثلاثة أشفاع ووتران، فمن جهة ما أضيفا شفعًا، ومن جهة ما توحدا وترًا، فانظر إلى سريان حكم الوحدة فيه على جهتها مع سريان الصنعة على جهتها، واقض بذلك على جميع المخلوقات، فإنه من الحق المخلوق به السماوات والأرض، فتطلب إثارة ذلك في الموجودات تجده، وإنما ظهر ذلك في العدد بأيسر نظر لقربه، بل هو الأول في كل شيء والآخر والظاهر والباطن في كل موجود، قال الله ﷻ: ﴿**خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ [العنكبوت:44] ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر:75] فعليك بتعرف هذا الحق فقد لعمري فتحت لك الأبواب، وجعلت من

اليقين على مثل مُخْرَفَةِ النَّعَمِ[1].

فإن أضفت أيضًا إلى السادس سابعًا أوتر شفعه، وصار هذا الوتر عظيم القدر جليل الخطر، ذلك لأنه وتر لعدد كله شفع من وتر ووتر من شفع، ولذلك جاءت أكثر رءوس المخلوقات على عدد الثلاثة والسبعة، وأما الخامس فهو وتر لعدد هو أصل لتركيب الشفع كله يسبح الله في جهته ويحمده في مقامه، ﴿**إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء:16].

ثم كذلك إن أضفت إليه ثامنًا قام مقامه في الوتر وشفع ثامنه، فإن أضفت إليه تاسعًا أوتر شفعه، وكان تمامًا لعدد تكرر فيه الوتر إلى عدد هو الوتر ثلاثة ثلاثة ثلاثة، فأشبه الثلاثة؛ إذ تركب من واحد إلى واحد أوترها واحد.

ثم كان ما أضيف إلى التاسع قائمًا مقام واحد العدد شفع تاسعه قام مقامه في الوحدة بتركيب الأعداد به إليه بواسطة الآحاد والأشفاع والأوتار، وعند هذا العاشر تمت أسماء العدد فعظم قدر التاسع؛ لأنه أوتر شفعه وشفع عددًا هو في نفسه واحد، ثم هو على نحو ما تقدم إلى التسعين كل عشرة منها بمنزلة الواحد في نفسه، والتسعون بمنزلة التسعة ويترقى إليها من واحد إلى واحد يقدمه واحد بتركب أعدادها منها بالآحاد شفع منها ووتر، وثبت أسماء تركيب الأعداد في تسعة وتسعين، ثم اسم المائة عبارة عن محض الكثرة، وهو مشتق من اسم الماء المخلوق عنه كل شيء حي، فلا تعد بعد المائة اسمًا لعدد سوى تكرار ما قد مضى إلا التأليف المئين والمئون كذلك شفع ووتر إلى ألف وآلاف الآلاف الألف كل في مقامه الآحاد تسعى إلى العشرات والعشرات تسعى إلى المئين، والمئون إلى الآلاف كذلك ما زاد شفعًا ووترًا هكذا سريان الوحدة بالوتر كما تراه على ذلك أوجد أفعاله وأظهر لنا صنعه في الدنيا

---

(1) المَخْرَفَةُ كمَرْحَلَةٍ: الْبُسْتَانُ، نَقَلَهُ الجَوْهَرِيُّ وقَيَّدَهُ بعضُهُم مِن النَّخْلِ. وقال شَمِرٌ: المَخْرَفَةُ: سِكَّةٌ بيْن صَفَّيْنِ مِن نَخْلٍ يَخْتَرِفُ الْمُخْتَرِفُ مِن أَيِّهِمَا شَاءَ، أَي: يَجْتَنِي، وبهٖ فُسِّرَ حديثُ ثَوْبانَ ﷺ رَفَعَهُ: «عَائِدُ المَرِيضِ علَى مَخْرَفَةِ الجَنَّةِ - ويُرْوَى: مَخَارِفِ الجَنَّةِ- حَتَّى يَرْجِعَ» أي: أَنَّ العائدَ فيما يَحُوزُهُ مِن الثَّوَابِ كأَنَّهُ على نَخْلِ الجَنَّةِ يَخْتَرِفُ ثِمارَهَا، قَالَهُ ابنُ الأَثِيرِ. انظر: «تاج العروس» (5792/1).

والآخرة، وعلى ذلك شرع شرائعه وأعلمنا من عدد أسمائه قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ لِله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، إِنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ»**[1].

فاقض - وفقك الله - بهديه وبمثله مع اتساع النظر، وكثرة ترداد التدبر على ذم الوتر الحق جميع الموجودات هذا الزم وربطه جميع الخلائق هذا الربط؛ فإنه ما من موجود سواه - جَلَّ ذِكْرُهُ - إلا العدد منه بحصره بقول الله ﷻ: ﴿**وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**﴾ [الجن:28]، وكذلك كل اسم، ومقتضاه من العالم فلا يشد شيء من الخلق والأمر هو الواحد الموجود الآحاد وما تركبت إليه وبه، وهو الوتر الموجد الإشفاع، وأظهر بذلك منافعها وأفعالها الموجدة وهو الفرد الموجد الأزواج، وهو مظهر فوائد ذلك المنزه عن النظير والعديل والشبيه انفرد بالتدبير دون شريك ولا نظير، وكما اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس للتبليغ عنه كذلك اصطفى من خليقته رسلاً إلى العقول للتبليغ عنه، فافهم لا إله إلا هو العلي الكبير.

التعبد

أول التعبد كل اسم طلب علمه، فإن كنت - وفقك الله - وفقت بعقلك على ما تقدم ذكره ورأيته بنور إيمانك فاعمل نفسك للوتر الحق فإنك وعملك شفع، والوتر هو المظهر لفائدتكما، المزكي لكما بحسن التوجه وخالص النية فلا توجه عملك لسواه فيزايل عملك معناه، وما وجه له تجيب من بركة الوتر الحق ويدخل في العمل مقتضاه الإصلاح بين المؤمنين فإن اختلافهم فوقه وبالإصلاح بينهم تكون الوحدة، ويدخل في ذلك أيضًا السعي في حاجة المؤمن، قال رسول الله ﷺ: **«اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا»**[2].

ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء، فكل عمل يكون بين اثنين تكون حاجتهما فيه إلى غيرهما، وتمامها إليه فهو من مقتضى هذا الاسم الكريم؛ إذ كل اثنين شفع والمكمل لحاجتهما والقاضي لهما وتر.

ثم احرص على أن تختم أعمالك بوتر لما رأيته من بركة الوتر، قال رسول الله

(1) رواه البخاري (85/10)، ومسلم (259/17).

(2) رواه البخاري (147/20)، ومسلم (105/17)..

ﷺ: **«الله وتر ويحب الوتر»**[1].

إذا أحبه أعطى عليه ما لا يعطي على سواه، وأحب العامل به، وحسبك بها درجة من الله بها علينا وعليك، ورزقنا علمًا نافعًا وفرقانًا نيرًا وعملاً خالصًا مرضيًا برحمته.

اسمه «هُو» الأول والآخر والظاهر والباطن عزّ وجل

هذه جملة تشتمل بأركانها الأربعة على التوحيد أجمعه، وإشارة باطنة إلى موجود أحد مشار إليه سواه كل مشار سواه واقع تحت وجوده؛ لاشتمال هذه الأركان الأربعة على معاني الوجود أجمعه بكل حال وبكل وجه، ومعنى فهو الأول في آخريته بأوليته هي صفته وهو الآخر في أوليته بآخرية هي نعته، وهو الباطن في ظهوره بباطنيته هي قربه، وهو الظاهر في باطنيته بظهور هو علوه، لم يزل كذلك أولاً ولا يزال كذلك أبدًا، ولا يتوجه إليه التضاد ولا تجري عليه الحوادث ولا الآباد، ولا ينتقص ولا يزداد، لا إدراك لحضوره ولا حيطة لحيطته، ولا يحجبه شيء عن شيء ولا يبعد عليه قريب من كل شيء بوصفه، وهو القدرة والدرك والأشياء مبعدة بأوصافها، وهو البعد والحجب والبعد والإبعاد حكم مشيئته غير متصل بالخلق ولا مفارق، وغير مماس

---

(1) حديث ابن مسعود: أخرجه ابن ماجه (370/1، رقم 1170)، ومحمد بن نصر في الوتر كما في مختصره للمقريزي (ص3، رقم 2)، والطبراني (145/10، رقم 10263)، والبيهقي (468/2، رقم 4244). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (404/8، رقم 4987)، والديلمي (158/1، رقم 581).
حديث علي: أخرجه الترمذي (316/2، رقم 453) وقال: حديث حسن. ومحمد بن نصر في الوتر كما في مختصره للمقريزي (ص 3، رقم 1)، وأخرجه أيضًا: الطيالسي (ص 15، رقم 88)، وأحمد (143/1، رقم 1213)، والنسائي في الكبرى (171/1، رقم 440)، وأبو يعلى (1/ 439، رقم 585). حديث أبي هريرة: أخرجه الخطيب (44/2).

للكون ولا متباعد، بل منفرد بنفسه متحد بوصفه لا يزدوج إلى شيء ولا يقترن به شيء.

احتجب عن العيون والأبصار، ورفع ذاته عن العقول والأفكار، فلم يتخيله عقل، ولم يصوره وهم، كيف يعقله العقل وهو عاقل العقل؟! أم كيف يدرك بوهم وهو مالك الوهم؟! هو المحيط بكل شيء بحيطة هي نعته، ومع كل شيء وفوق كل شيء وأمام كل شيء ووراء كل شيء بعلو ودنو هو قربه هو وراء الحول الذي هو من وراء جملة العرش، وهو أقرب من الوريد إلى القلب ومن الروح المماس للجسم، وهو مع ذلك فوق كل شيء، ويحيط بكل شيء، وليس يحيط به شيء ولا مكان له شيء، و﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:11] في كل هذا شيء، سبوح قدوس ليس لمجرى القول فيه بيان، ولا في المسألة عنه جواب.

اسمه الأول ﷻ

الأول: يقال على أنحاء من ذلك أولية التقدم، وهي تنقسم إلى قسمين: تقدم زمان، وتقدم مرتبة، وينقسم تقدم المرتبة إلى قسمين: تقدم شرف وفضيلة، وتقدم مبدأ، وسبب فله من أقسام الأولية القدم لا إلى أول، وله أولية الشرف والفضل ذلك؛ لأنه حاز الأسماء الحسنى كلها بحقائقها، واتصف بالصفات العلا على كمالها، وله الأولية في المراتب كلها وذلك ما عبر عنه قوله الحق: ﴿**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ**﴾ [غافر: 15]، فهو الذي لا صفة كصفاته ولا اسم كأسمائه، ولا مكانة كمكانته، وهو أيضًا رفيع الدرجات بأنه إليه المنتهى، هو الأول لطالبيه بالآيات والدلائل عليه والبينات، كما هو الآخر في المنتهى بالعلم واليقين ثم بالرؤية في الدار الآخرة كل علم يتحصل لطالبيه في التعرف به، فهو مرقاه، ودرجه إلى اليقين به، وعنده المنزل الأقصى ونهاية المنتهى؛

لأنه المطلوب الأكبر والمبتغى العَليّ الأعلى[1].

اسمه الآخر ﷻ

هو الذي أول الأول وآخر الآخر في الوجود والسبب المراتب وغير ذلك، وعلى هذا يكونان من أسماء الأفعال، كما قال رسول الله ﷺ: «**أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**»[2].

وفي ذلك شهادة له بما هو أهله، أي أن الذي يبدو لكم في آثار صنعه في المقدم والمؤخر ليسا باثنين ولا بأصلين كما زعم الضالون عن سواء السبيل، بل هو واحد أحد لا ثان معه، يعلم بذلك أن مفعولاته كثيرة الوجود مختلفة الأجناس والأنواع، وإن فاعلها واحد أحد تسمى بالمعنى الذي في المقدم والمؤخر من صنعه وفعله.

ووجه آخر: أن يكون معناه هو إله الأولين وإله لا يمكن الغناء عنها والآخرين، هو الأول في ذلك، والآخر لم يلحقه حول ولا تغير.

ووجه آخر: هو الأول بوجوده في الأزل وقبل الابتداء، والآخر بوجوده في الأبد وقبل الابتداء، والآخر بوجوده في الأبد وبعد الانتهاء، وعلى هذا يكونان من أسماء

---

(1) قال الشيخ الأكبر: **وقال على اسمه تعالى الأول**: اعلم أن هذه الحضرة بها ظهر كل أول من أشخاص كل نوع كآدم من نوع الإنسان، وكجنة عدن من الجنان، وكالعقل الأول من الأرواح، وكالعرش من الأجسام، وكالماء من الأركان، وكالشكل المستدير من الأشكال ثم تنزَّل الأمر إلى جزئيات العالم، فيقال أول من تكلم بالقدر بالبصرة معبد الجهني، وأول من رمى بسهم في سبيل الله سعد بن أبي وقاص، وأول شعر قيل في العالم الإنساني:

تغيرتِ البلادُ ومَنْ عليهَا ... فوجهُ الأرضِ مغبرٌ قبيحُ

ويعزى هذا لآدم ﷺ، وأول قاتل من بني آدم قابيل، وأول مقتول أخوه هابيل، وأول اسم إلهي في الرتبة الاسم الحي، وقال: ولنا في الأوليات جزء حسن، انتهى.

(2) رواه البخاري (383/4)، ومسلم (163/5).

الذات له الأولية بالبداية والآخرية وبالنهاية، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، في كل ما يوصف به بدأ الخلق ثم يعيده، فلا يوصف بأنه سبب لمسبب ولا علة لمعلول، بل له من معنى الأولية أن الأول له، ومن معنى الآخرية ألا آخر له، ومن معنى التقدم ألا قبل له، ومن معنى المبدأ البداية من معنى الوجود وجوب الوجود واستمراره ودوام البقاء مع عدم الاستحالة والتغير(1).

---

(1) قال الشعراني **وقال الشيخ في الكلام على اسمه تعالى الآخر:** اعلم أن حد الآخر من الثاني الذي يلي الأول إلى ما تحته فهو المسمى بالأخر؛ لأن له حكم التأخر عن الأولية بلا شك، وأن هذا المتأخر فما تأخر عن الأول إلاَّ الأمر أثبته في الزمان؛ لأن وجود الأهلية فيه من جميع الوجوه، فالحكم في تأخيره وتقدم غيره للزمان لا الأفضلية في الحقيقة لخلافة أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ رضوان الله عليهم أجمعين، فما من واحد منهم إلاَّ وهو مترسخ للتقدم والخلافة مؤهل لها، فلم يبق حكم لتقدم بعضهم على بعض فيما عند الله تعالى بفضل علم تطلبه الخلافة، وما كان إلاَّ الزمان فلمَّا كان في علم الله أن أبا بكر يموت قبل عمر، وعمر يموت قبل عثمان، وعثمان يموت قبل علي، والكل له حرمة عند الله، فقدم من علم أن أجله يسبق أجل غيره من هؤلاء الأربعة، فما قدَّم من قدَّم منهم لكونه أكثر أهلية من المتأخر منهم في علمنا، فلم يبق إلاَّ حكم الآجال والعناية، والله أعلم في الحديث: «**إذا بويع الخليفتان فاقتلوا الآخر منهما**» فلو بايع الناس أحد الثلاثة دون أبي بكر فلا بد لأبي بكر أن يكون خليفة وخليفتان لا يجتمعان، فإنْ خلع أحد الثلاثة وولَّى أبو بكر كان عدم احترام في حق المخلوع، ونسب الساعي في خلعه إلى أنه خلع عن الخلافة من يستحقها، ونسب إلى الهوى والظلم والتعدي في حقه، ولو لم يخلع لمات أبو بكر في أيامه دون أن يكون خليفة، ولا بد له من الخلافة أن يليها في علم الله، فلا بد من تقدمه لتقدم أجله قبل صاحبه، وكذلك تقدم عمر بن الخطاب وعثمان وعلي والحسين، فما تقدم من تقدم لكونه أحق بها من هؤلاء الباقين، ولا تأخر من تأخر منهم عنها لعدم الأهلية، وما علم الناس ذلك إلاَّ بعد أن بين الله ذلك بآجالهم وموتهم واحدًا بعد آخر، إذ التقدم إنَّما كان بسبب الآجال عندنا، وفي نظرنا الظاهر أو بأمر آخر في علم الله لم نقف عليه، وحفظ الله المرتبة عليهم رضي الله عنهم، فهذا من حكم التأخر والتقدم ولله الأولية؛ لأنه موجد كل شيء، ولله الآخرية لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:123].

اسمه الظاهر ﷻ

وتعالى علاؤه وشأنه الظهور، يكون بمعنى الغلبة من قولهم: ظهر فلان على فلان أي: غلبه وأظهر الارتفاع والعلو، من قولهم: ظهرت الشمس إذا ارتفعت وظهور البيان والوضوح من قولهم: ظهر لي المعنى، أي: تبين ووضح، والأوجه الثلاثة متقاربة، فمعناه - والله أعلم - هو الظاهر في مخلوقاته على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها[1].

---

(1) **قال في الكلام على اسمه تعالى الظاهر:** اعلم أنه تعالى ظاهر لنفسه في الحقيقة لا لخلقه، فلا يدركه سواه أصلاً، والذي تعطينا هذه الحضرة إنّما هو ظهور أحكام أسمائه الحسنى، وظهور أحكام أعيانها في وجود الخلق، وهو تعالى من ورائنا ظهر، فلا أعياننا تدرك رؤية، ولا عين الحق تدرك رؤية، ولا عين أسمائه تدرك رؤية، ونحن لا نشك أنا قد أردنا رؤية أمر ما وهو الذي تشهده الأبصار منّا وتدركه، وما ذاك إلاّ الأحكام الذي لأعياننا ظهرت لنا في الوجود الحق، فكان مظهرًا لها؛ فظهرت أعيننا فيه ظهور الصور في المرأى ما هي عين الرأي لما فيها من حكم المجلي، ولا هي عين المتجلي لما فيها مما يخالف حكم المتجلي، وما ثمّ أمر ثالث من خارج يقع عليه الإدراك وقد وقع، فما هو هذا المدرك ومن هو هذا المدرك، فمن العالم، ومن الحق، ومن الظاهر، ومن المظهر، فإن كانت النسب فالنسب أمور عدمية سلمنا أن المعدوم يرى فمن الرائي؟.

قال: فالأمر واحد فقد حرنا فينا وفيه، فمن نحن؟ومن هو؟ وقد قال له بعضنا: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف:143]، وقال: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:14] فاعلم أن بعض العالم يعلم أن الله يرى، ثم قال استدراكًا فعطف: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:143] ثم تجلى ربه للجبل فاندك الجبل فلا أدري عن رؤية أو عن مقدم رؤية، وصعق موسى عن تلك المقدمة، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ أي: رجعت إلى الحالة التي لم أكن سألتك فيها الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: 143] أي: المصدقين بقولك: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:143] فإنه ما نزل هذا القول ابتداءً إلاّ عليّ، فأنا أول المؤمنين به، ثم يتبعني في الإيمان به من سمعه إلى يوم القيامة التي هي محل الرؤية بلا شك، فما ظهر تعالى لطالب الرؤية ولا للجبل؛ لأنه لو رآه الجبل وموسى لثبت، ولم يندك ولم =

اسمه الباطن ﷻ

مأخوذ من بطن الشيء يبطن إذا خفي، ومنه سمي البطن، والظهر والبطن من جهة المعاني متضادان؛ كالأولية والآخرية، لكنهما لمن هما اسمان له متصادقين متعاضدين فمعناه - والله اعلم - الظاهر بآياته ودلائله المشاهدة له بوجوده على ما هو عليه من علا أسمائه وصفاته، وهو الباطن، أي: المحتجب عن عقول قوم جحدوه ولم يتحققوا بوجوده[1].

=

يصعق؛ فإنه تعالى الوجود فلا يعطي إلاَّ الوجود؛ لأن الخير كله بيده، الوجود هو الخير كله، فما لم يكن مرئيًا أثر الصعق والاندكاك، وهي أحوال فناء، والفناء شبيه بالعدم، والحق لا يعدم عدم العين، وإنَّما يكون عنه العدم الإضافي وهو الذهاب والانتقال، فينقلك أو يذهبك من حال إلى حال مع وجود عينك في الحالتين، ومن مكان إلى مكان مع وجود عينك في كل واحد منهما وبينهما.

(1) **وقال:** في **الكلام على اسمه تعالى: الباطن** قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:3] فالبطون تختص بنا كما يختص به الظهور، وإنْ كان له البطون فليس هو باطن لنفسه ولا عن نفسه، كما أنه ليس ظاهرًا لنا، فالبطون الذي وصف نفسه به إنَّما هو في حقنا، فلا يزال باطنًا أبدًا عن إدراكنا إياه حسًا ومعنى إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:11] ولا يدرك إلاَّ الأمثال التي نهينا أن نضربها لله لجهلنا بالنسيب.

قال: ولما كانت البطون محال للتكوين والولادة، وعنها ظهرت أعيان المولدات، اتصف الحق بالباطن، يقول أنه من حيث كونه باطنًا ظهر العالم عنه، فنحن كنا مبطونين في علمه فخذ ذلك عقلاً لا وهمًا، فإنك إن أخذته عقلاً قبله العلم الصحيح، وإنْ أخذته خيالا ووهمًا رد عليك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص:3] فإذا أخذته عقلاً دون تخيل وقفت على غير الأمر؛ فإنه لا بدّ لنا من مستند نستند إليه لوجودنا لما أعطاه إمكاننا من وجود المرجح الذي رجح وجودنا على عدمنا، إلاَّ أنه باطن عنا لعدم المناسبة بيننا، فنحن بعيننا وجملتنا وتفصيلنا محكوم علينا بالإمكان وهو واجب لنفسه، وارتفعت المناسبة، فلو ناسبناه في أمرنا وذلك الأمر محكوم عليه بالإمكان لكان الحق محكومًا عليه، أي: بالإمكان وهو محال، وإذا لم يناسبنا سبحانه وتعالى كذلك لم نناسبه، فلنا الاستناد إليه لعدم المناسبة، وأطال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ

=

وقد يكون اسمه الأول إخبارًا عن قدمه، والآخر إعلامًا باستحالة عدمه، والظاهر إخبارًا عن قدرته، والباطن إعلامًا بعلمه وحكمه، وقد يعبر عن هذين الاسمين بأنه ظاهر للقلوب بحكم البرهان، وباطن عن العيان، وهو الأول بالإيجاد والآخر بالإرشاد، وهو الظاهر فيما أظهره والباطن فيما أبطنه، فاعلموا ذلك وألزموا قلوبكم بمعرفته، والعبودية على ذلك.

التعبد

اطلب- وفقك الله- علم هذه الأسماء فهي أركان العلم، وعمد المعرفة، وابحث عنها جدًّا، فإنه وإن حجب عنك علم ما هو أولك وما هو آخرك وما ظاهر أمرك وباطنه، فقد جعل لك سبيلاً إلى معرفة من الأول والآخر الظاهر والباطن وهو خير لك وأبقى.

واعلم أن كل شيء منك سواك ليس له أول وآخر وظاهر وباطن حتى الخطرة واللحظة والتنفس وأدنى من ذلك وأكثر، وهو محيط بذلك منك ومن سواك، شهيد عليه لا يغادر من ذلك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؛ فاعمل على ذلك، وحافظ على محابه حتى يصل الظاهر منك الباطن والأول والآخر، إنه من عرف قدر هذه الأسماء فمن لديه ألا يدخر من ظاهره وباطنه، وسره وعلانيته، وقلبه وبدنه، وروحه وجسده، ودقه وجله شيئًا من أمره وحكمه، وأن يصل آخره بأوله ويظهر آخره بأوله من ظاهر الإثم وباطنه، لم لا وهو منشئ أوائل أمره ومحسن أواخر حكمه، والمتولي لأمور ظاهره، والعالم بسرائر باطنه، ألم ير الإنسان ضعفه ونقصان عقله، وتشتيت رأيه، وشدة جهله، وتناقص تدبيره وتضايق المذاهب عليه، ويرى مع ذلك أصناف الضلال، وكثرة المحال، واشتباك مغاليط الناس في البدع والأهواء، وما تشعب بكل فريق من مختلف النحل والآراء، ويرى مع ذلك خالص يقينه وقوة استبصاره في تعبده، وصحة تدينه، وخالص توحيده، ونباهة يقينه من حيرة الشكوك وظلمة الشرك؛ فيعلم بذلك إنما به من نعمة وما يجده من علم ومعرفة ليس بحوله ولا قوته، بل ذلك برحمة من الله وسابق فضله.

=

ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام:103].

فصل

إن من أرفع التعبد بمعنى هذه الأسماء العلم بها، وقد تقدم الكلام في كل اسم من هذه الأربعة على الانفراد حسب الوسع، والله نسأله المزيد من فضله ونعمته، وتبقى علينا أن نشير إلى معتقد جملتها الذي هو المراد منها والمعبر عنه بها، قال الله ﷻ وذكر اسمه الله ﷻ الذي يسبح له كل شيء، وأنه الذي اقتدر على كل شيء، وله كل شيء، وله ملك السماوات والأرض، وأنه الذي يحيي ويميت، وأنه العزيز الحكيم، ثم أجمل ذلك وكل اسم هو له وكل معنى عبر عنه أو عرض به، فقال وقوله الحق: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾ [الحديد:3]، فعطف بالواو في الثلاثة الأسماء على قوله هو مجاز الكلام هو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن وهو هكذا إلى نهاية ما تسمى به وامتدح من أجله، وقال رسول الله ﷺ: «**هو الأول فليس قبله شيء وهو الآخر فليس بعده شيء وهو الظاهر فليس فوقه شيء وهو الباطن فليس دونه شيء**»[1].

تكاثرت الإشارات وتوجد المشار إليه بجميع ما تسمى به واتصف، فمن أدب الداعي بهذا الاسم العظيم أن تقدم بين يدي دعائه حمد الله والثناء عليه والتمجيد له وذكر آلائه ونعمة الصلاة على رسوله وعلى جميع المرسلين والملائكة أجمعين، ثم يدعو بأسمه الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - ويكرره بلسانه حتى يقف على صحيح التذكار جناته، ثم يقول: يا من هو الأول والآخر والظاهر والباطن، يا من ليس كمثله شيء وله المثل الأعلى في السماوات والأرض افعل بي كذا، قال الله ﷻ فيما حكاه لنا عن جبريل ﵇ والله أعلم بما ينزل: قد كان استبطأه رسول الله ﷺ وقال له: ما حبسك عني؟ فأنزل الله ﷻ عليه[2]: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ**﴾ [مريم: 64].

وإنما للشخص خلف وأمام، فالأمام العلو والوجه واليمين والخلف والسفل والوراء والشمال، فهذه حيطة شاملة عبر عنها بقوله: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا**

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه البخاري (3046)، والترمذي (3153)، والنسائي (11319).

بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم:64].

ثم إذا تحصلت المعرفة بذلك، فإن قوله: **﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾** [مريم: 64]، قد أحاط بالجهات الست جملة، فإن الذي ما بين ذلك الشخص الذي له الخلف والأمام ونفس الخلف، فالذي بين ذلك باطن الشخص فهو العبد، قد أحاط به ربه ﷻ بجميع أوصافه وشمله ظاهرًا وباطنًا، ثم أقضى بذلك على كل موجود من سماء وأرض، ونبات وجماد، وحيوان وإنسان، وجان، وملك إلى جميع الجملة التي أحاط بها ملكًا وخلقًا وأمرًا ظاهرًا وباطنًا كما تقدم في إحاطته بالشخص المضروب به المثل، فله ما بين يدي المخلوق الذي هو كل شيء وما خلفه **﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾** [مريم:64].

كل ذلك معلوم بعلمه مشيئًا بمشيئته مزموم في كتابه، وجملة ذلك أنه لو توهم لله الأول والآخر والظاهر والباطن ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه إعراض أو غيبة أو عدم أو سِنة أو نوم سبحانه وتعالى عن ذلك لوجب على ذلك توهم تذكرك الجملة بأسرها ووجوب زوال السماوات والأرض، وجميع ما عدم حفظه وإمساكه إياه، وإذا حققت النظر في تحقيق الأولية فالأول ما هو أول حق لا آخر له؛ لأن القديم الحق لا يجوز عدمه ومن لا يجوز عدمه فهو الأول وآخر، وإذا كان ذلك كذلك فهو الظاهر الحق في كونه الأول المعبر عنه بقول رسول الله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**»[1].

وكذلك هو الباطن يومئذٍ بما كان في علمه ومشيئته وقدرته ووجوده العلي إيجاده قبل أن يظهر منه بالإيجاد ما شاء إظهاره، وهو المبطن أيضًا بما أبطن من ذلك لما هو المظهر بما أظهره بالإيجاد، وعلى هذا يكون معنى قوله الظاهر والباطن بمعنى المظهر والمبطن، كما يقال خالق ورازق على بناء اسم الفاعل، وأما الآن بعد إيجاد ما أوجده فهو الظاهر للبصائر والألباب ألباب الباطن الأبصار بحكم العيان إلا ما شاء من ذلك، ويكون الظهور بمعنى القهر والغلبة والعلو، ونحو هذا يتناوله غير هذا من

(1) رواه البخاري (2699/6).

الأسماء[1].

---

(1) فائدة مباركة: قال سيدي الديريني: قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3]، فالأَوَّلُ: هو القديم الأزلي الذي ليس لوجوده بداية، والآخِرُ: الذي لم يزل دائمًا باقيًا ليس لبقائه نهاية، ومعنى الوارِثُ أي: الباقي بعد فناء خلقه فلا يبقى لأحد مُلْك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم:40]. ويقال: الأول صانع المخلوقات فأول ما يسبق إلى العقول السليمة رؤية فعله وتدبيره، الآخر الذي وصل العقل إلى إثباته ووقع الاكتفاء به فلم يطلب معه صانعًا آخرًا إذ ليس وراء الله منتهى.

ويقال: الأول السابق بالفعل، والآخِر الذي لا يحتاج إلى معين في أفعاله، ولا يقدر أحد أن يفعل كفعله.

ويقال: الأول الذي بدأ الخلق، والآخِر الذي إليه المرجع والحكم، وعد المؤمنين بالثواب وتوعد الكافرين بالعقاب الآخر محقق وعده للمؤمنين بفضله ومحق كلمة العذاب على الكافرين بعدله.

ويقال: الأول المعطي قبل السؤال، والآخِر مكمل النعم ومتمم النوال الظاهر المعقول، فيعرف وجوده بصنعته، البَاطِن عن الأوهام، فلا تحيط بحقيقته معرفة القلوب بالإلهية. ويقال: الظَّاهِر الذي تدركه الحواس البَاطِن الذي لا يقاس بالناس ظهر فقهر، والباطن الذي لا يقصد بالضرر.

ويقال: الظَّاهِر معطي النعم الظَّاهِرة، البَاطِنُ معطي النعم الباطنة.

ويقال: الظَّاهِر معطي السؤال، البَاطِنُ معطي ما لا يخطر ببال.

ويقال: الظَّاهِر مدبر الملك الظاهر، البَاطِنُ مدبر الملكوت الباطن.

ويقال: الظَّاهِر القادر القاهر البَاطِنُ العالم بالسرائر.

ويقال: الظَّاهِر للمؤمنين حتى عَرَفوه، والبَاطِنُ عن الكفار حتى جحدوه.

ويقال: الظَّاهِر مُعْطي النعم، البَاطِنُ دافع النقم.

وروى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنْ الْفَقْرِ**».

ويقال: الأوَّل بِوِدِّه لك أبدًا، فلولا أنه بدأك بسابق ودّه لما أخلصت في عقده وعهد أين كنت حين كان نصب لك الدلائل والأعلام، وزينك بزينة الإيمان، وخلع عليك خُلْعَة الإسلام، وحرسك من الشرك والبدع، وألقى في قلبك حُسْن الرَّجَاء والطمع.

ويُروى أن العبد إذا اعتذر إلى الله تعالى يقول الله له: «يا عبدي لو لم أقبل عذرك لما وفقتك للاعتذار».

واعلم وفقك الله أنَّ من تَفكَّر في صُنوف الضَّلال وطُرق المحال ثم تَفكَّر في ضَعف عقله،

=

=

وكيف خَلَّصه الله واصطفاه من ظُلْمة جهله، فرأى خالص نفسه وسره، واستبصاره في دينه ونقَّى وجه توحيده عن غَبْرة الشِرك، وصَفَّى عين عِرْفانه عن وهَج الشَّك عَلِم أنَّ ذلك ليس من طاقته ولا بجهده وكَدِّه واحتياله وجَدّه، بل بمِنَّة ربه وفَضْله فالواجبُ على من عَرَف ربَّه وما مَنَّ عليه به ألا يَدَّخر من سرّه وعلانيته وبدنه وقلبه وروحه شيئًا من أمر الله وحكمه ويبذل الكل لمن له الكل. ويقال: من غلب على قلبه اسمه تعالى الأوّل كان غالب فكره في السابقة، فإن العبد لا يدري ما سبق له في علم الله وإرادته، فإن من أقصته القِسْمة السابقة لم تُدْنه الخدمة اللاحقة، ومن قَعَد به جِدُّه لم ينهض به جَدُّه، ومن لم يكن له في السعادة الأزلية نصيب لم ينفعه الوجه الأصْفَر ولا الكُم المقصّر ولا الذَّيْل المشمَّر، ولا الدَّمْع المقَطَّر؛لأن أحكام العزيز المجيد لا تتغير باكتساب العبيد، ومن غلب على قلبه اسمه تعالى الآخِر كان غالب فكره في خاتمته وحيرته في إبهام عاقبته، فكم مغرور بصفاء الأوقات بَرَزت له من فنون الآفات عظيم القوات. وكم من فقير ظهرت عليه آثار الإرادة ولاحَت عليه أنوار السعادة، وظَنَّ الناس أنه من جملة الأولياء وأن له حظًّا في قِسْمة الأصفياء، ثم أصاب ربيع أنسه ورتع قلبه إعصار فيه بار فبدل صفاءه بالوحشة وضياءه بالظلمة، وكم من عبد أُلْبِس لباس الأشقياء، ثم أُزِيل عنه وخُلِع عليه خُلْعة السُّعداء الأصْفِياء ﴿**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [الرعد: 39]. وحُكي عن عبد الواحد بن زيد أنه قال: ركبنا البحر مدة فوصلنا إلى جزيرة فوجدنا رجلاً فيها يعبد صنمًا وهو يفقه كلام العرب، فقلت له: إن هذا الصنم لا ينفع ولا يدفع، قال: فمن تعبدون أنتم؟ قلت: نعبد الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، قال: فمن أعلمكم بهذا؟ قلت: بعث إلينا رسولاً اسمه محمد ﷺ، وأنزل عليه كتابًا فآمنا وصدقنا به وتوفي، توفاه الله إليه، وهذا الكتاب عندنا، فقال: أوقفني عليه، فإن كتاب الملك لا يكون إلا كتابًا حسنًا فقرأت عليه شيئًا من القرآن فبكى، وقال: أنا أشهد أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، فحملناه معنا في السفينة وعلمناه الصلاة وقواعد الإسلام وكان معنا إلى الليل فأخذنا مضاجعنا للنوم، فقال: هذا الإله الذي دللتموني عليه هل ينام؟ قلنا: بل هو حيٌّ قيوم لا ينام، فقال: بِئْس العبيد أنتم عبيد ينامون عن خدمة مولاهم وهو قَيُّوم لا ينام، ثم قام فصلى الليل كله، فلم يزل كذلك حتى وصلنا إلى البلد التي نقصدها، فجمعنا له دراهم وأتينا بها إليه، وقلنا له: خُذْ هذه الدراهِم لتستعين بها على مصالحك، فقال: سبحان الله كيف تدلوني على الطريق وأنتم لم تسلكوها إني كنت أعبد غيره وهو يرزقني من الغيب، فكيف يضيعني وأنا أعبده، ثم لزم العبادة أيامًا ومرض، فأتيته وقلت له: ألك حاجة فأقضيها لك؟ فقال: قَضَى حاجتي الذي جاء بكم إلى الجزيرة وكنت لا أعرفه فقعدت عنده ساعة فأخذتني سِنَةٌ من النوم فرأيت حورية على السرير وهي تقول سألتكم بالله إلا ما عَجَّلتم به عليَّ فقد اشتد شوقي إليه ففتحت عيني، فإذا هو ميت فجهزته ودفنته فرأيته في النوم وهو في قبة على سرير والحور بجانبه، وهو يقرأ في قوله تعالى: ﴿**وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد:23، 24].

=

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:172]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا﴾ [الأعراف:189]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:1] فكان آدم ؈ نفسًا واحدة وكان في وجوده زوجه وجميع ذريته أحدًا ما لم يتوهم له ثانيًا، ولما أوجد الله ﷻ عنه زوجه وجميع ذريته فكان في نفسه واحدًا فصل عنه جميع ما سبقه العلم العلي في وجوده فكان ؈أولاً لما وجد عنه، ولم يكن في قوته وتحقيق وجوده أن يكون لكل ما كان عنه آخرًا إلا بحكم الانقراض والتمام، فذلك آخر له لما كان له أول كان له آخر، وكان ظاهرًا فيما أوجد عنه بحكم الوراثة والنسل والشبه والتصوير وغير ذلك، وكان باطنًا فيهم بما عبر عنه رسول الله ﷺ في قوله لعائشة - رضي الله عنها - وقد حاضت في حال سيرها إلى الحج: «**إنما أنت امرأة من بنات آدم فانقضي رأسك وامتشطي وافعلي ما يفعله الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت**»[1].

فألزمها ميراث الشبه بأمها حواء - عليها السلام- وقال: «**فجحد آدم فجحدت ذريته وغوى آدم فغوت ذريته**»[2].

وقال الله جل من قائل: ﴿عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ

=

ومَنْ غَلَب على قلبه اسمه تعالى الظَّاهِر اشتغل بإصلاح وقته الذي هو فيه بقطعه عن الفكر في الماضي والمستقبل، وكان اهتمامه شُكر مولاه فيما يتحف به في كل وقتٍ، ومَنْ غَلَب على قلبه اسمه تعالى البَاطِن كان مُشْتغِلاً بربه عن وقته وعن الفكر في حديث نفسه وكل مُحِبٍ مُشْتغل بحبيبه عن حظه ونصِيبه.

(1) رواه البخاري (15/2)، ومسلم (19/8).

(2) رواه الترمذي (330/11).

وَهَدَى﴾ [طه:121-122] فلما عصى ﷺ عصت ذريته، ولما تاب التائبون من ذريته، وإذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يقول الله جل من قائل:« **يا آدم، ابعث بعث النار، فيقول: وما ذاك يارب؟ فيقول: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين وواحدًا إلى الجنة**»[1] كما قال له أولاً يأمر الكون أن يخرج إلى الدنيا استودعه في ظهره، وكما يقال له ابعث بعث النار كذلك يقال له ابعث بعث الجنة، وذلك في فحوى قول رسول الله ﷺ: إلى تمام الحديث، قال: «**فيومئذ يشيب الوليد وتضع كل ذات حملها فقال أصحابه: وما قدر واحد من ألف يا رسول الله؟ قال: منكم واحد ومن يأجوج مأجوج مائة وتسعة وتسعون وما أنتم في الأمم إلا كالرقمة في ذراع الحمام**»[2] فهذه آية على ما تقدم ذكره ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض.

اسمه الحي تبارك اسمه وتعالى جده

الحي من له الحياة، والحياة فينا معنى باطن متصل بمعنى الإلهي بائن عنه تتصل عن ذلك المعنى أنواع الحركة ظاهرًا وباطنًا، وأصله على استقراء معاني اللغة الاجتماع، تقول من ذلك: حييت بكذا أحيا حياة، وحييت من كذا أحيا حياة، أصل ذلك وإن تفرق إلى وجوهه الاجتماع من ذلك قالوا للمطر: حيًّا؛ إذ عنه يكون كل ذي حياة، وقيل: للقبيلة تجتمع بيوتها بموضع واحد حي لاجتماع أشخاصهم وبيوتهم وأمرهم كله هناك، ومنه حيا الناقة مجتمع فم الرحم منها، وسمي الحي حيًّا لاجتماع أمره كله وأسمائه وصفاته بالحياة، والحياة معنى باطن يدل عليه الأسماء والصفات؛ كالعلم

(1) رواه أحمد (432/4)، والنسائي في «الكبرى» (410/6).

(2) أخرجه عبد بن حميد (ص 358، رقم 1187)، وأبو يعلى (430/5، رقم 3122).

والقدرة والإرادة وغير ذلك وما استتر من الأسماء عنها[1].

الاعتبار

الحي على الإطلاق، وهو المتصف بجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا بنهاياتها وحقائقها على الكمال الأقصى على معاني الربوبية، وسمات الألوهية ليست بمجهولة ولا معقولة بل هي موجودة به وجودًا اختصاصيًّا ذاتيًا، واستحقاقًا نفسيًا إنما يوجد التغير فيها ويعدم الإطلاق فيما يتصف المخلوق به منها، وحقيقته فيها حقيقة الملك والعبودية المحضة، وفي هذه يكون التفاضل، وفيها تجول الأوهام، وفي وصفها يكثر الكلام، والعليا منزهة عن ذلك تبارك وتعالى ربنا علوًا كبيرًا، فما جاز للمتصف منا من مجاز هذا الاسم الكريم استحقه في درجته.

واعلم أنهم وصفوا بالحياة ما دلت على صفة الحياة فيه أفعالها وهي الحياة الأدنى، بذلك جاء القرآن وحديث رسول الله ﷺ، والمتعارف فأقل ما قيل فيه حي النبات والأرض بعد غيثها بالمطر، وكل شيء أيضًا في حال إقباله وصعوده إلى غايته، ووقوفه عليها يجري عليه هذا الاسم ثم في حال انحداره غايته وانحطاطه يبقى عليه من هذا الاسم بقدر ما بقي عليه من النضارة، أو المعنى الذي هو قيام له لكن على ما ذكرناه من التقصير عن معنى الاسم حتى ينزل إلى منزلة نهاية مبدئه قبل فتلك آخر درجة الحياة، فإن نزل عنها انتقل عنه الاسم جملة وخلفه ضده الموت، وقد يوصف بها ما لا حركة به سوى استحالات توجد عنها أو فيها هي غافلة عنها مضطرة إليها؛ كالأرض والجماد والنبات مما يكون عن مزواجات الأشياء بعضها ببعض، وجعل

---

(1) قال الشيخ الأكبر: وكون الحياة شرطاً في جميع وجود النسب المنسوبة إلى الله وهذه النسبة أوجبت له سبحانه أن يكون له اسمه الحي فجميع الأسماء الإلهية موقوفة عليه ومشروطة به حتى الاسم الله فالاسم الله هو المهيمن على جميع الأسماء التي من جملتها الحي ونسبة الاسم الحي لها المهيمنة على جميع النسب الأسمائية حتى نسبة الألوهة التي بها تسمى الله الله..». [الفتوحات المكية (351/5)].

وفى «التأويلات النجمية» إنما أشير في معنى الاسم الأعظم إلى هذين الاسمين وهما الحي والقيوم لأن اسمه الحي مشتمل على جميع أسمائه وصفاته، فإن من لوازم الحي أن يكون قادرا عالمًا سميعا بصيرا متكلما مريدًا باقيًا.

بعضها على بعض فتكون منها أو عنها أشياء ليست لها حقيقة، فيقال فيها: إنها فاعلة مجازًا، واتساعًا اختصارًا لذكر الفاعل ثم تصعد من ذلك الحيوان ذي الروح فيكون أقربه إلى المنزلة السفلى وأبعده من استحقاق هذا الاسم ما لم يكن له من الحركة زائد على التعدي المعهود للنبات أكثر من الحسن أفعال تكون على نحو القصد إلى أخذ الغذاء ومحاولة النسل، واجتناب بعض المؤذيات، فيكون هذا النوع في منزلته أحق باسم الحياة مما قصر به عن تلك المنزلة، ثم هكذا حتى يصعد إلى نوع من الحيوان هو الإنسان تكون أفعاله على نحو القصد الاختياري والتمييز العقلي، فيكون هذا أحق بهذا الاسم مما قصر به عن هذه المنزلة.

وهذه الحياة في هذا النوع من شأنها أن يتعقبها السهو والذهول والنسيان وغير ذلك، وذلك نزول عن حقيقة الحياة، فبقدر وجود ذلك منه يستحق الاسم كما يقدر كثرة ذلك منه بقصر به عنه، ثم كذلك حتى يصعد بنا النظر إلى من يخرج أفعاله من هذا الجنس وغيره زائدًا على ما تقدم على رضا بارئه من إتيان ما أمر به وانتهاء ما نهى عنه، طائعًا له بذلك، متوجهًا إليه به وحده لا شريك له، فيخرج أفعاله وعلومه لتميز قدره من قدر من أوجده، وتفصيل من فضله، وشكر من أنعم عليه، وعلى نحو كل ما يوجبه الإيمان والإسلام لله لا شريك له فيكون هذا الشرف حياة، وأحق تحقيقًا في اسم الحياة وصفتها من جميع ما تقدم وبقدر مقامه على الإيمان والتصديق والنظر في آيات الله ﷻ، فبقدر صدقه في ذلك يستحق الاسم كما بقدر تقصيره يقصر به عنه، وحياة هؤلاء أشرف من حياة من دونهم، ومن عرى منها استحق أن يوصف بالموت بدلاً من الاتصاف بالحياة.

وهنا سبيل صالحه لتعرف حياة الشهداء، فاسم الحياة إذا معناها ثبات الأسماء الحسنى والصفات المحمودة، وإذا أوقعنا اسم الحياة على من وجدت منه الأفعال، وهو عنها ساهٍ غافل وسميناه من أجل ذلك فاعلاً، وسميناه القاصر والمضطر إليها فاعلاً، وسمينا المؤمن بالله جَلَّ ذِكْرُهُ وبآياته ورسوله وكتبه حيًّا فاعلاً، فالذي اضطر المضطرين واستعمل الساهين والغافلين والذي خلق الآيات وأرسل الرسل وأنزل الكتب واستعمل العاملين له، وخلق فيهم الحياة وجميع أوصافها، وما نصح الحياة وما تبطل بوجوده أولى بأن نسميه حيًّا وفاعلاً، وأحق بذلك بلا نهاية.

وإذا كان ظهور الأفعال دليلاً على الحياة فواهب الحياة والإيمان أولى باسم الحي على الإطلاق، وإذا كان من يخرج أفعاله على حكم العدل وسنن الحكمة وسبيل الإيمان أولى الأحياء بأمر الحياة، فالذي أوجد الأشياء كلها وأحكم كل شيء خلقه صنعًا وحكمة وأحاطها بها علمًا وقدرة، والذي عن نوره كان الإيمان وبتأيد الروح القدس الذي منه كان شهود اليقين أولى باسم الحياة دون نهاية تجد ولا غاية إليها تبلغ.

التعبد

فمبدأ ذلك أن يتحقق العلم به مقدار وسعك كي يوقن بعظيم منفعته وجزيل حظه في الغنى، فتبذل من وسعك في طلبه بقدر ما يكفي خطره عندك، فإن الطالب إذا عرف قدر ما يطلب هان عليه قدر ما يبذل فيه، وفرق بين الحياتين، فبينهما فرقان بين ولكل واحدة من الحياتين موت، فتفهم معنى الحياتين والموتتين.

واعلم أن إحداهما: دينية روحانية، والأخرى: جسمانية حيوانية، ولم يكلف اكتساب الحيوانية الجسمانية إنما كلفنا اكتساب الدينية، قال الله ﷻ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ**﴾ [الحج:66] هذه الجسمانية التي هي الحيوانية وموتتها، وقال عز من قائل: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ [الأنعام:122]، وقال أيضًا ﷻ: ﴿**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**﴾ [المجادلة:22].

وهذه الدينية وموتتها وهي من روح القدس يخص الله بها من يشاء، فما يجد صاحبها روح اليقين وبها يتجلى عنه ظلمات الشكوك وتنفتح له المسالك وتكتنف العصمة ويحتويه النور عند ذلك، ثم يمازج لحمه ودمه فيسمع من بعد الصمم ويبصر من بعد العمى، وينطق من بعد البكم ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:46].

ولقد وصف الله الصادق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أقوامًا بالموت وبالصمم وبالعمى، وبأنهم لا يعقلون، ما كانوا في ظواهرهم بأموات ولا بصم ولا بعمى، ولكن عميت قلوبهم وصمت وبكمت وماتت فلم تنفعهم حياتهم الظاهرة وصفاتهم حين منعوا بركتها؛ لعدم بركة بواطنهم، فكانوا بذلك خاسرين، وأما البُصراء العقلاء الأحياء

من عباد الله بحياة الإيمان فهم المفلحون، وذلك أن حياة الأجسام وصفاتها بالروح الحيواني الإنساني في ذلك وجميع البهائم سواء هذه هي الحياة الدنيوية.

أما حياة الآخرة فقد انقسمت إلى قسمين لا يدخل أحد القسمين في الآخر، وكل قسم منها أبدى على ما يكون عليه، أما الأحياء هنا بحياة الإيمان فترفع حياتهم إلى حياة لا يحسون بها إلا نعيمًا وفرحًا وسرورًا وحبورًا، ولا يجدون فيها إلا العز والإجلال ولذة القرب والجاه والخير كله تقسط بينهم هذه الحياة على حظوظ وجدان الحبور والسرور، ويقسم ذلك على قدر رفعة الدرجات والقرب، والحظوة أرفعهم درجة وأنبلهم جسمًا وأكثرهم وجدانًا لله، وما هو فيه وغبطته بمكانته، وعلى قدر رفع الحق إياهم.

وأما الأموات بعدم صفات الإيمان فحياتهم هناك حياة لا يجدون معها سوى الآلام والهوان والخزي والعلم بما فاتهم من كريم جوار ربهم، والندم الصريح على ما فرطوا فيه من طاعة ربهم، فهو لذلك يبغضون أنفسهم ويلعنون أنفسهم ويلعن بعضهم بعضًا، لم يرزقوا من الحياة إلا ما يحسون به ضروب التنكيل والخزي والهون، أعرقهم في ذلك أشدهم إحساسًا لما به يضاعف لهم حسهم لذلك ووجدانهم على قدر ما بين الدنيا والآخرة، منعوا كل حسن محمود وسلط عليهم كل كريه مذموم، فهم على ذلك في بقاء دائم لا يجدون روح العافية ولا يحسون ببرد الرضا ولا يموتون فيستريحون.

فنسأل الله البر الرحيم حياة طيبة في الدنيا والآخرة وفيما بين ذلك فعليون تعلو بالمقربين وهم الأعلون والله معهم، وحياتهم هذه الموجودة بهم في هذه الدار، أعني: حياة الإيمان ترفع لهم إلى عين اليقين والمشاهدة، ورؤية الحي القيوم وسماع كلامه.

والعلم بأسماء هناك وصفات ومحامد تقضيها لم تبلغ حياتهم الدنيا لامتزاجها ونقصها إلى أن يتوهم أكثر ما هنالك من قدر وحبور وسرور إنما طابت الحياة بالرضا والمحبة مع العافية والعلم بالله جَلَّ ذِكْرُهُ والإيمان به، فلذلك فاضرع إلى ربك ﷻ وتعالى علاؤه أن يحل سخيمة قلبك، وأن يحييه وأن يكشف لك عن بصرك غطاءه، وعن سمعك وقره، حتى تبصر حظك وتنظر إلى آيات ربك وتسمع شهادة شواهده، تجيب نداءه بقلب سليم.

واعلم أنك إن حييت هذه الحياة في هذه الدار لم تمت أبدًا إلا الموتة التي

كتبت عليك؛ للنقلة من دار إلى دار ثم تصير إلى حياة دائمة وملك لا تحسن أن تتوهمه فكيف أن تصفه، وإن حرمت هذه الحياة في هذه الدار بقيت فيها إلينا لك نصيبك من الكتاب تضاهي البهائم والأنعام، حتى إذا حان حمامك وفرغت إيمانك أخرجت نفسك من جسدك فحصل لك بذلك موتتان: الموتة التي كنت فيها دار الدنيا؛ وهذه الموتة التي فارقتها بها ثم يعيدك بعد لا كرماتك عليه، بل ليجزيك لغفلتك وسوء فعلك.

يا أخي إن الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - لم يشترط التذكر إلا لمن يخشاه، وهو الذي نفعه علمه، وإنما خشية الله بالعلم النافع وقوة الإيمان.

واعلم أن صلاح قلبك هو المراد منك وعليه مدار أمرك، ففرغه لما أمرت به، فجميع طرقك مفتقرة إلى تفريغ قلبك وطلب صلاحه، وهو الذي لا يتم لك بينك وبين ربك شيء إلا به، فإن وهبته لم تسأل ما حرمت من كثير من العمل، قال رسول الله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب**»[1] وذلك موجود في قول الله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:46]، وقوله ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ**﴾ [المائدة:41] مَنّ الله علينا وعليك بذلك أنه ولي ذلك لا شريك له.

اسمه الحق ﷻ

معناه - والله أعلم - واجب الوجود بالبقاء الدائم والدوام المتوالي، الجامع للخير والمحامد كلها، والمجد والثناء الحسن والأسماء الحسنى والصفات العلا، وعلى الإطلاق بالتمام الأعلى والكمال الأرفع، ولا يليق به غير ذلك، ولا يجوز عليه سواه، وربما عن هذا أخذ الحق؛ لأنه جامع لما ضمه داخله، ومعنى قولنا واجب

---

(1) تقدم تخريجه.

الوجود: إنه اضطر جميع الموجودات إلى معرفته وجوده وألزمها إيجاده إياها، قال الله ﷻ وقد ذكر دلائله واستشهاده ببيناته: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الحج:6]، المعنى إلى آخره، فأوجب عن كل واجب وجوده أنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، وأن وجود كل ذي وجود عن وجوب وجوده، ثم قال: ﴿**وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ**﴾ [الحج:62]، أي: لا وجود له؛ إذ ليس له في الوجود وجود ألبتة، فاستحال كذلك لذلك وجوده، وما كان كذلك وجب استمرار عدمه وتوالى فقره، وإذا كان على ما عبر عنه قول رسول الله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء قبله وهو لا قبل له**»[1] أي: أنه في أزليته أحدية ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه كان الحق، ولما أظهره جملة المخلوقات خلقها بالحق وللحق، قال عزّ من قائل: ﴿**خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [العنكبوت:44]، فظهر الحق بعضه لبعض ودل عليه به.

ثم هو ينشئ هذا الحق في الدار الآخرة إلى الرؤية وإلى ما عبر عنه قوله الحق: ﴿**يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ**﴾ [النور:25] فيكون فيما هنالك ما هو الشمس والقمر والليل والنهار بما هما عليه والفتح والفيح وجميع الموجودات فيما ها هنا آية عليه فيما هنالك، فيتبين بذلك الحق المخلوق به السموات والأرض وما بين ذلك، وهو اليوم المبين ذلك الألباب المتفكرين بما أوجده من الحق آياته على ذلك ودلائله[2].

---

(1) تقدم.

(2) **قال الشيخ في الكلام على الاسم الحق:** قال تعالى: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ**﴾ [يونس: 32] وليس إلاَّ الخلق والضلال والحيرة، وبالخلق ظهر حكم الضلال.

قال: وإنما انفرد الحق باسم الحق لأن له وجوب الوجود بنفسه بخلاف الخلق له وجوب الوجود به تعالى، لا أقول بغيره، فإن الغير ما له عين، وإن كان له حكم كالسبب لا عين لها، ولها الحكم وأطال في ذلك.

ثم قال: ومن هذه الحضرة ثبت أن الباطل شيء قذف بالحق عليه فدمغه، فإذا الباطل زاهق، ولا يزهق إلاَّ من له عين أو ما تخيل أن له عينًا فلا بد له من رتبة وجودية خيالا كانت أو غير خيال، =

الاعتبار

الحق أرفع الأسماء وأعفها وأشرفها، إليه تنتهي جميع الأحكام والعلوم كلها قاطبة، عنه تنفصل وإليه تعود، وإليه تتحاكم العقول، وبه تخاصم الألباب، وعنه تأخذ شواهدها بما في الشاهد المشهود من الحق، وإليه ترجع على اختلافها، وكل ما يعبر عنه به فلن يخرج عنه أو بغيره فهو المغني به، فلا تتخلص عنه من جهة اللغة عبارة، ولا تستطيع العقول الخروج عن حكمه متى دامت ذلك سلبها التوفيق وعزلها بالحكم الواجب عن كونها أن تكون عقولاً وألبابًا، كيف وإنما هي في إيجاده وعلى وجوده وفي شمول حكمه، فلتحقق حقيقته في جميع خليقته، اتسع بالألباب القضاء، وانضغط بها زم القضاء، فعبرت به وأوقعت الإشارات منها إليها عنه به؛ إذ حقيقة كل شيء مأخوذة من الحق وإلى الحق قربت المتفهم في الأشياء التي يطلب فيها الحق، فالله لا إله إلا هو الحق المبين، وجوده الحق، وقوله الحق، وقدرته الحق، وعلمه الحق، وإرادته الحق، وصفاته العلى الحق، وأسماؤه كلها الحق على ما تقدم من وجوب الوجود واستمرار البقاء وثبوت الدوام المستولى في أبد الأبد لا إلى أبد، أوجد فعله الحق بكلمته الحق وقدرته، فإرادته وعلمه ودبره بحكمة الحق، وأوجد عن صفاته الحق في فعله الحق حقًّا باطنًا عن قلوب العارفين جعله سعيرًا بينه وبين قلوب عباده ومؤديًا عنه شهاداته، وما استودعه من الحق عند الألباب التي أنارها بنور الحق، فبلغ إليها عنه ما استودعه، ويسل بينها وبينه بما أفهمها عنه، قال الله ﷻ: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الدخان:38، 39].

ثم إنه ﷻ أرسل رسوله الحق بدينه الحق؛ ليعم بدعوته الحق جميع المكلفين،

=

ثم من أعظم الحيرة في الخلق أن الحق تعالى له الوجود الصرف فله الثبوت، وصور التجلي حق بلا شك وما لها ثبوت وما لها بقاء ولا تكرار، وليس الزهوق سوى عين الذهاب فأين تذهبون؟ وهل في الحق باطل وما أذهب الصورة إلاَّ قذف الصورة الأخرى وهي تذهب ذهاب أختها فهي من حيث ورودها حق، ومن حيث زهوقها باطل، فهي الدامغة المدموغة وهذا من أشكل الأمور.

ويقطع بذلك جدل الخصمين، ويدحض حجج المعاندين، ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:22].

فالحق - وفقك الله بوجوب وجوده وعموم حقيقته - قد ملأ أركان الوجود كلها وشمل نواحي العلم وأطبق على أقطار التفكير، فلم يكن للباطل من الوجود نصيب، ولا من الحقيقة حظ من حيث إن الحق العلي الكبير لا ضد له من حيث هو، ولما أوجد ما أوجده من الحق سواه أظهر للوهم ضدًا هو الباطل عبر عنه بالنفي قبل الاستثناء من كلمة التوحيد قوله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وذلك توهم لا وجود في وجود ألبتة، قال الله ﷻ ذلك: ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [الحج:62].

ثم إن الله ﷻ هو الواحد الحق أوجد عن هذا الوجود الحق العدم، فإنه - جَلَّ ذِكْرُهُ - موجد العدم كما هو موجد الوجود، ثم أظهر الوهم المعدوم وجوده الشيطان والفتن كلها، وما جر إلى الباطل امتحانًا منه للعقول، فذلك -أعني الشيطان - وعمله وما يدعو إليه باطل وعمله باطل يدعو إلى باطل لا حقيقة له في محبة الحق المبين سبحانه ولا في رضاه؛ لأنه لم تكن له حقيقة في الوجود العلي الأول الأزلي، وإن كان قد أحاط به قدرة مشيئته، وإن كان قد شاء إيجاده علة المحنة، ثم أظهر ذلك في الوجود بحكمة الافتان، ثم في خليقته بالاكتساب منهم والله خالق كل شيء وموجود على الحقيقة، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ:21] وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد:3].

وهذا الباطل يدل على الحق موجود من حيث إن موجوده حق، وأن مبطله ليس بباطل، وجاعله ليس بمجعول، لا إله إلا هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، له الكلمات التامات والحمد وله المجد كله، فلكون الباطل في الأزل لا حقيقة لوجوده في الوجود بل وهمًا، كان عند من يدعوه من دون الله دعوى وحدسًا وظنًا لا تحقيق لذلك، قال الله ﷻ: ﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:66].

ولما كان من موجود العَليّ الكبير أن يكون له رضا وحب وسخط وبغض، وجب في وجوده أن يكون له أمر ونهي، ولما كان ذلك كذلك لم يكن للأمر بد من مؤتمر، وللنهي من راكب له، ومن مخالف إليه، وكان في حكمه الحق على سنن الحكمة استعمال المحبوب بما يحبه ويرضاه، واستعمال المبغض بما يبغض فعله، وكان من تمام الحكمة ووجود الحكم الحق أن يجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وعلى هذا سمى به ما أطيع به وأحبه واجب عليه، وما أمر به حقًا، وسمى ما كره فعله وما قدر أن يكون فعله عصيانًا له باطلاً، وقد وسط لذلك عاملاً به ومن يناله وهو الشيطان، أقطعه عمالة ذلك لعنًا له وطردًا عن جواره، وإلا فهو كله حق وجوده بإيجاد من الحق المبين له.

التعبد

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن إصابة الحق في العقد والقول والعمل تنال شرف الدنيا والآخرة، وباتِّباع صاحب الحق تنال معرفته، فاعمل نفسك - وفقك الله - في طلب معرفة ربك تبارك وتعالى، إنه الحق الذي به وبأمره خلق كل شيء، وبه أقام كل شيء، وأراد إقامته، وبه نفذ حكمه وتدبيره وقدرته وعدله ورحمته وفضله، وبه عذب وعفا، وبه أضل وهدى، وبه أمات وأحيا، وبه أمر ونهى، وقرب واصطفى، وبه ابتلى وعافى، وبه تبرأ ووالى، وبه شهد واستشهد، وبه حمد نفسه واستحمد، فألزم حقه نفسك حتى يتحقق عندك إن حقه لازم لك في ظاهرك وباطنك، في أولك وآخرك، وهو الذي خلقك وصورك فأحسن صورتك وعدلك وسواك وأنشأك ورباك وحرسك من الآفات، فنعمه عليك سابقة وفيك ظاهرة، وفي شئونك كلها شائعة، وحقه عَليك في كل نعمة جاد بها عليك واجب.

فالتزم حق عبوديتك بكل ذلك؛ إذ إليه شكر ما ألزمك من عبوديتك بكل ذلك؛ إذ إليه شكر ما ألزمك من حقه في قلبك وأدواته من فهمك وفكرك وذكرك وعملك وعقلك، فلا تشغل شعبه من ذلك في غير طاعة ربك، فمن حقه عليك أن تطيعه ولا تعصيه، ومن حقه عليك: أن تخافه ولا تخاف عدوه، ومن حقه عليك: أن تجل مقامه وجلاله وتعظمه بعظمته وكبريائه، ومن حقه عليك أن تشفق من غضبه وسخطه وإبعاده، ومن حقه عليك أن تعرفه بإحاطة علمه وقدرته وإلوهيته ووحدانيته

وصمدانيته، ومن حقه عليك أن تعرفه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، ومن حقه عليك: أن تعرف نفسك بعبوديتك وذاتك ومسكنتك وفقرك واضطرارك إليه، ومن حقه عليك: أن تعرف إحسانه إليك وفضله عليك واستحماده وتودده إليك، ومن حقه عليك: أن تنظر في صنعه، وكريم ما خلقه من شيء وتتصفح حكمته وتنظر في كلامه، وتتلو كتابه حق تلاوته وتحبه بكل قلبك وحقيقة ذاته، ومن حقه عليك: أن تظهر حقه في جميعك ظاهرًا وباطنًا وفي إيمانك ونفسك وإسلامك واستسلامك وصدقك وإخلاصك وذكرك وجميع أحوالك.

واعلم أن حق الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - ينقسم في باطنك أربعة أقسام:

أولها: حق الله على القلب أن يصدق اللسان أن يعبر عمّا صدق به القلب، واستسلم إليه وهو الإقرار لله ﷻ بصدق لا يخالطه كذب ولا ريبة ولا شك إن الله إله واحد لا شريك له ولا شيء مثله، ولا شيء إلا بمشيئته وقدرته، له الخلق وله الأمر وله المثل الأعلى وأن حكمه الحق والعدل في الدنيا وفي الآخرة، وأن له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العلا.

والقسم الثاني: حق الله ﷻ على العقل، وهو معرفته بأسمائه وصفاته ومعرفة قدرته وعظمته وإحاطة علمه وقدرته وجلاله وكبريائه ومعرفة ما أنزل بكتبه وأرسل به رسله من أمره ونهيه ووعده ووعيده وملائكته وكتبه ورسله وما جاءوا به.

القسم الثالث: حق الله ﷻ على الروح، وهو الاستسلام لله تبارك وتعالى بطاعته وعبادته والإخلاص لله وحده بطاعته، وألا تشرك بعبادته ربك أحدًا.

القسم الرابع: حق الله ﷻ على النفس، وهو الخضوع والخشوع له والتواضع بين يديه بالصبر له على منابذة السوء، ولزوم التقوى والخوف والحذر من الله تعالى والرهبة والوجل والرغبة والمحبة فيما عنده، والنقد بإيصال الرجاء بوعده والنصح لعباده.

فصل

اعلم أنك وإن كنت موجودًا حقًّا فلست حقًّا لنفسك، وكذلك وجود كل ذي وجود سوى الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - وإنما يكون الموجود حقًّا من جهة، باطلاً من جهة أخرى، فوجوده الحق هو وجود بالله ولله، ووجوده لذات نفسه باطل من هذه الجهة؛ إذ الله موجده يملك نفسه وروحه وحياته وتركيب أجزائه ومعاني وجوده كلها وتوابعه،

فوجوده مستفاد من موجده ﷻ، قال ﷻ: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:88]، ثم لما كان موجده هو الباقي الدائم كان هو دائم الوجود عند الإعادة، قال جل من قائل: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:26]، ﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن:27].

وعلى تبليغ العبرة هذا المبلغ يكون الوجود سوى الله حقًّا، وكمال التحقيق في وصف الله للحق جَلَّ ذِكْرُهُ؛ لأنه يملك السمع والأبصار والأفئدة والذوات وتركيب الأشباح والوجود كله بتوابعه وحقائقه.

وقد تدخل ضروب المغالط على البعض عند مراء بعض هذه المشاهدات، فيظن بعض من غلب عليه ذكر الله تعالى واستغرقه بأنه الحق وإنما يكون الحق بأن يعلم أنه عبد للحق فيومئذ يتولاه الحق المبين، وتتحقق الـ«أل» في هذا العبد بوصف العبودية، فيكون عبدًا حقًّا بالحق المبين قال الله ﷻ: ﴿**لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ**﴾ [آل عمران:28] أي: بالولاية وتحقيق العبودية، قال الله ﷻ: ﴿**فَانكِحُوهُنَّ**﴾ [النساء:25]، يعني: الإماء ﴿**بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ**﴾ [النساء:25] يريد مواليهن وساداتهن، قال رسول الله ﷺ: «**موالي القوم منهم**»(1).

وأما ما أجراه أهل التحقيق من المتصوفين على ألسنتهم من أسماء الله اسم الحق، فإنما ذلك لأجل مشاهدتهم الحق المبين في الحق المخلوق به السماوات والأرض، وربما عبروا عن هذا الحق المثبت في السماوات والأرض باسم الحق العَليّ، فإن كان ذلك عن معرفة حقيقته فلأجل مشاهدتهم الفاعل دون المفعول،

---

(1) أخرجه الترمذي (46/3، رقم 657)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (107/5، رقم 2612)، والحاكم (561/1، رقم 1468)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (32/7، رقم 13021). وأخرجه أيضًا: الطيالسي (ص 131، رقم 972)، وأحمد (10/6، رقم 23923).

وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (530/6، رقم 33579)، وأحمد (295/5، رقم 22568) وابن ماجه (931/2، رقم 2784)، وأبو داود (332/4، رقم 5123)، والديلمي (341/4، رقم 6988).

ورؤيتهم الحق في المحقق، ويجري ذلك مجرى قول الله جلّ من قائل: «**ابن آدم، مرضت فلم تزرني وجعت فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني، وكنت عريانًا فلم تكسني، قال: يا رب متى كنت مريضًا فأزورك وجائعًا فأطعمك وعريانًا فأكسوك؟ فيقول: أما إنك لو فعلت ذلك بعبدي فعلته بي**»[1] كقوله جلّ من قائل: «**إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكرى إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ورجله التي يمشى بها ويده التي تبطش بها**»[2].

فعلى هذا ونحوه يجوز قول القائل منهم إنه الحق، وهذا مقام من ينظر إلى وجود الموجودات بوجود الموجود العَليّ ومرتبتهم من الذكر قوله ﷺ: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص1-4]، و﴿**هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ [الحشر: 22] ﴿**وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ**﴾ [الأنعام:3].

فيذكرون اسمه الله العَليّ بمعرفة وشاهدة، ثم يخبرون بما سواه عنه، وربما كان هؤلاء المخاطبون بقوله: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت:53].

وأما المتعرفون له الطالبون العلم به على سنن الحق المخلوق به السماوات والأرض فهم المخاطبون بقوله جل قوله: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [يونس:101]، ﴿**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأعراف:185]،

---

(1) رواه مسلم (437/16) بلفظ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي».

(2) تقدم تخريجه.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:191]، ونحو هذا.

وهؤلاء هم الذين تعرف إليهم بصنعه في مصانعه، وبما نصبه من دلائله، واستشعر به من شواهده وأعلى من هذه درجة الذين تعرف إليهم بصفاته، كقوله جلّ كمن قائل:﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:61]، وكقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس:61]، وكقوله جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:7].

وأرفع من هؤلاء درجة من تقدم ذكرهم، وهم الصديقون الشهداء عند ربهم، ويحك، تب وحقق التوبة والإنابة إليه ولا تخادع نفسك بذلك وحقق التذلل، اخضع وحقق الخضوع تطلب معرفته والعلم به، وتحقق في ذلك أظهر حقيقة العبودية بالتزامها في ظاهرك وباطنك، إياك أن تقول قولاً بلا حقيقة فيمقتك لذلك، إنما تظهر الحقائق عند ثمرات الأعمال في حقائق اليقين.

ثم اعلم أن الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - قد أوجب عيك حقوقًا لغيرك لا تصل إلى رضاه إلا بأن تؤدي إلى كل ذي حق حقه؛ كحق الرسول المرسل إليك، وحق صحابته الذين آزروه ونصروه وبلغوا عنه ما أرسل به، وحق الأنبياء والملائكة، وحق الأبوين والابن والزوج وذي الرحم والضيف والإمام، وولاة الأمر، وحق الجار والمسكين، وما ملكت يمينك، وحق المعاش وحقوق المسلمين عامة، وكإجابة الداعي وتشميت العاطس، وتجهيز الميت، والصلاة على الجنائز، ورد السلام وغير ذلك، فآت كل ذي حق حقه أعاننا الله جميعًا على أداء حقوقه إقامة لوازمه بمنه وطوله، إنه ولي ذلك لا شريك له.

اسمه المبين ﷻ

يجوز أن يكون المبين هنا نعتًا لاسمه الحق ﷻ وصفة له في قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:25] وإن ظاهره كظاهر قوله: ﴿وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:15] ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:29]، فيكون معناه المبين عن نفسه بما أظهر من دلائله، وبين من شواهده المبينة للحق الدامغة للباطل، وهو مقيم البرهان ومصحح الحجاج، ومميز الحق من الباطل وموضحه، وهو محقق الحق في القلوب، ومحل النفس في ذوات المتقين، وحارسه من دغل الشك ولحاق الريب، وهو المبين لعقولهم من شواهد الوحدانية وعلوم الألوهية ما لم يخطر ببال لا مثل لناظر ولا هاجس بنفس، ولا ينبغي للحدس أن يبلغه ولا للمفكر أن يتوهمه، وأن يكون من الأسماء المعدودة أولى فيقال فيه: إنه هو الله المبين، كما يقال: الله الحي، والله القيوم، والله الحق، فيكون معناه: الجاعل الشيء البيّن بيّنًا لا خفاء به على متأمليه، فهو الذي يوضح الحق بإقامة البرهان.

وقد يكون بمعنى القاطع والفاصل من قولهم: أبان السيف يبين فهو مبين إذا قطع، وأبان الحاكم في حكمه، أي: فصل بحكمه بين الحق والباطل، فقد يكون معنى إدخال الحق المقصود بذلك في البيان كقولهم: أنجد إذا دخل نجد، وأتهم إذا دخل تهامة.

وهذه الوجوه بأسرها مبعثها واحد، وهو معنى الفرقان، أبان الحق من الباطل، أي: فرق، ومنه البيّن، سمي بذلك لتفريقه، وقد يكون أنبلته وألبنته؛ أي: جعلته ذا لبن ونبل، فيكون معناه المعطي البيان لذي البيان، والجاعل البيان مُبيّنًا والمبيّن مُبيّنًا.

وجماع هذا كله المفرق بين الحق والباطل، والبيان والتبيين ركن ظاهر من العلم جليل قدره من الوجود طرقه ظاهره وآثاره مشهورة، فلذلك لا بد من وجود اسم من الأسماء ظاهر يدل عليه، وقد وجدناه، وجاءت به الرواية، فلا بد من إفراد الكلام فيه كغيره، وإنما دخلت الشبهة علينا لأجل مجيئه أبدًا تابعًا، ولم يأت ذكره منفردًا على أنه قد يأتي الإتباع في الأسماء، وإن لم يأت فيها كلزومه في اسم المبين.

الاعتبار

اعلم - رحمك الله - أن العباد لما قصرت أفهامهم عن إدراك كنه بارئهم سبحانه

مع ما توجه عليهم من وجوب معرفته، وبين لهم تعالى صفاته، وأظهرها لهم بأسمائه ثم دلهم على أسمائه بآياته، ودلت صفاته على معرفة ذاته، ثم ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ**﴾ [البقرة:255] ، فلأسمائه آثار في كل ما خلق، وفي خلقه دلائل على كل ما يسمى به ووصف به نفسه، فحيث ما وجد بيان على وجوهه فالمبين الحق أوجده، وبهذا الاسم دلّ عليه، وبه عرفت خاصيته، أبان كل شيء خلقه بما خصّه به، وأفرده فأنزل كتابه الحكيم مبيّنًا عن مراده من عباده، وأرسل رسله تبيانًا لما في كتبه، وما أنزله حتى أظهر الحق من الباطل وبين الشبهة من الحقيقة بالعلامات التي نصبها والدلالات التي جعلها، وأنه ليس من مكنونات العزم ودقائق آثار الحكمة وعجائب متعلقات القدرة وفرقان خصائص الأسماء في مفترقات المعقولات، ثم اختصت به كل معنى من ذلك مما يزيل به الشبهة ويعلى الحجة.

فانظر - وفقك الله - وتثبت حتى يتبين لك أن أسماءه وصفاته ملائمة لنظام تدبيره لملكوته، وكيف تدبير ملكوته ينتظم بها، وكيف هي منتظمة بتدبير العالم كله، وكيف العالم مشير بأجزائه وجملته إلى الأسماء والصفات، وكيف تسير الأسماء والصفات إليه ﷻ حتى يتبين لك الطريق ويستبين لك السبيل، ولا قوة إلا بالله العَليّ العظيم.

التعبد

اعلم - وفقك الله - أن الله هو الحق الثابت الوجود المستحيل انتفاؤه وعدمه سبحانه وله الحمد، وأن البيان والتبيين رفع عبادًا له في المعرفة من شهود الأفعال، أي: شهود معرفة أسمائه - جلّ وعلا - ثم من شهود الأسماء إلى شهود الصفات، ثم من شهود الصفات إلى شهود الذات ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، لذلك أكثر ما يجري على ألسنتهم اسم الحق ﷻ؛ لثبوت وجد أن الذكر قلوبهم فعليك بطلب اليقين والمثابرة على الاعتبار؛ ليعرف البيان في معرفته، ومعرفة أمره من نهيه، ووعده من وعيده، وحلاله من حرامه، ومواعظه من أحكامه.

فإنه وله الحمد بيّن ذلك تبينًا، وفصله تفصيلاً، ثم اتبع في ذلك رضاه بين صفت خلقه من صفاته - جلّ وعلا - حتى تكون على بينة من ربك، وعلم نفسك ولا تقدم على شيء حتى تتبين عافيته، فإن كان لله فيه رضًا فامضه، وإن كان غير ذلك فأمسك فهي وصية نبيك ﷺ، بذلك تقل سقطاتك، وتستوجب العصمة من ربك ﷻ، واستكثر

من الشواهد في معرفة بارئك، فبذلك تظهر على خصمك، وتدحض حجة عدوك، وتستريح نفسك بشاهد العلم، ويتم أمرك إن شاء الله.

وقد رأيت ما نصبه من البينات وأقامه من الشواهد وما أنزله من الكتب وأرسله من الرسل، كل ذلك ليبين لعباده مراده منهم، فتبين أنت أنه كما بيَّن الله لك ورسوله، وعلمت مما علمك الله، وتأدب في ذلك بأدب الله ورسوله فإنه ما أخذ منك فيما علمك نوالاً، ولا ضرب عليك لذلك مغرمًا بل جعل أجر ذلك عائدًا عليك، وثوابه راجعًا إليك؛ لتحشر في زمرة العلماء، وتلو الأنبياء شاهدًا على الناس مع الشهداء، وإياك والكتمان لما تبين لك من معرفته، مما لا بد منه ولا غنى عنه، ووجدت له سائلاً وألقيت له طالبًا وتبينت له موضعًا، وفقنا الله وإياك لما يرضاه بمنه وطوله.

اسمه الباقي ﷻ

يقال: بقي الشيء بقاءً إذا طالت مدة وجوده، وهي البُقيا والبقية، وقد يكون الباقي: بمعنى الرقيب، يقال من ذلك: بقيت الشيء ببصري أبقيه إذا نظرت إليه، وحقيقته ثبوت الوجود وضده الفناء، وحقيقة الفناء قطع مدة البقاء بالعدم، ومفهوم البقاء بتوهم الفناء، وأما بقاء الباقي الحق فهو واجب، أي: واجب البقاء، كما تقدم في وجوب الوجود، وأنه اضطر الموجودات إلى معرفة بقائه، والإقرار بوجوب وجوده دون توهم فناء.

اعتباره: يتعرف البقاء أولاً بالمعهود من الموجودات، ثم يصعد بالاعتبار علوًا، فاعلم أن كل من اتصف بمجاز هذا الاسم من موجود ما كائنًا ما كان فإنما هو ممكن البقاء لا واجب بقاؤه لوجوه:

منها: أنه باقٍ بين عدمين: عدم أول قبل إيجاد موجوده إياه، وفناء بعد وجوده هذا، وهو في حالة وجود ممكن فناؤه، والباقي الحق - عزّ جلاله - لا يجوز وصفه بهذه الأوصاف سبحانه وتعالى، وما كان من موجودات العالم يوصف بالبقاء فهو في بقائه بمرصد فناء، وعلى ذلك فإنه تتعاقبه الأعراض، وتعتوره الأوصاف بتجديد من الموجد الحق نازل إليه أبدًا ما ثبت في بقائه ذلك، فعلى هذا إنما هو باقٍ بإبقاء مُبق له

يخلف المثل، فمتى أراد تغيره أخلف الشيء غيره، وإذا أراد فناءه أخلف الشيء ضده، فعلى هذا فانظر إلى جميع ما يقع عليه من جميع الموجودات اعتبارك.

ثم اعتبر بعقلك من وجودها إلى فنائها؛ لمعرفتك بأن كل شيء يعود إلى أوله، وقد كان كل شيء عدمًا، فسوف إذن يعود جميعه إلى فناء كأوله، فقد كان كل شيء من سماء وأرض وما بين ذلك ماء، وعرش الرحمن - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - على الماء، والرياح تحول على المياه وتموجها، كما أنه قد كان قبل، ولا شيء سواه مذكورًا ولا موجودًا، ثم أوجد ما أوجده لا في موجود كان قبل، فخلق المكان والزمان لا في زمان ولا في مكان، كذلك خلق الخلق كله لا من شيء، خلق ما خلق ولا على مثال موجود سبق، خلا علمه المحيط به ومشيئته العالية فيه وقدرته القاهرة وأمره العَليّ ليظهر للألباب حكمته وخفي لطفه، وليظهر ما أظهره من بديع صنعته، ولتشهد له الألباب بما هو عليه من أسماء وصفات، ثم سوف يفترق الجميع ويتفتق الرتق، و﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:88].

هذا وجه حق وعبرة صواب محكم قد فرغ منه وجفت الأقلام بما كان وما هو كائن، قال عزّ من قائل: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:26]، وقال أيضًا تبارك وتعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:88].

وبوجه آخر من الاعتبار فإنه لما كان هو الباقي الحق لم يكن ليوجد ما أوجده لمحض الفناء؛ إذ الفناء ليس بصفة له، ولا تسمى منه باسم تعالى عن ذلك، بل هو الباقي الحق، وما فعله فالبقاء فعله، فإنه لما أرى الألباب عظيم قدرته على الإيجاد، ولطيف حكمته في إتقان الصنع؛ لأنه الموجود أوجد الموجودات؛ ولأنه الملك الباقي الحق، استأثر بالبقاء الحق لعزة الربوبية وعظمة الملك، وأعطى الموجد من الوجود من صفة البقاء ما دلّ به على إمكان البقاء للحدث، وعلى ما استأثر هو به من وجوب بقائه ونزاهته عن تخلل الفناء، ثم أفناهم تفرقة بين عزته وذلتهم؛ إذ هو المالك وهم المملوكون؛ ثم هو يوجدهم إظهارًا لقدرته وتدركًا منه لمفعوله بوصف فعله، فإنهم الموجودون عن قدرة الباقي الحق، فسبقهم فيما سبق لهم في علمه على مقتضى أسماء له وصفات، قال الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا**

لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 115-116]، فنزه نفسه ﷻ بعلوه عن أن يشاوره في بقائه دون فناء، وعن أن يفعل فعلاً للفناء الأبدي وهو الباقي، فيخرج بذلك عن أسمائه وصفاته، وهو الحق لا إله إلا هو وهذا على تأويل من وقف في قوله:﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى﴾ [الرحمن:26،27] على أنها جملة قائمة كل من عليها فان ويبقى خبره، وذكر الفناء؛ لأنه لا بد من الإعادة والبقاء في الجزاء الباقي ويكون قوله جلّ وعز: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:27]، جملة المراد بها: التنزيه عما يلحق الموجودين في الإيجاد والإفناء من التقليب وفي التقليب من التنجنيس، وكذلك قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:88]، على هذا التأويل لصحته فمعناه: كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه، فظهر الصدق في قوله: هالك في بعض الموجودات من وجهين:

أحدهما: هالك بمعنى فان، كقوله: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ ﴾ [النساء:176] أي: مات.

الثاني: هالك بمعنى مغضوب عليه غير مرضي عنه، كقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج:45]، ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان:37]، فكل موجود مخلوق يتطرق إليه الفناء سواه، وكل ما لم يرد به وجه الله فهالك غير مكرم، وإن كان باقيًا في الهون.

التعبد

تحقق - رضي الله عنّا وعنك - حقيقة البقاء حتى يخلص لك بقاء الباقي على الإطلاق من بقاء الباقي على التقييد، فبقاء البقاء الأعلى هو الحقيقة؛ إذ ليس لبقائه ضد يخلفه ولا ضد للقديم عزّ جلاله، إنما الأضداد للمحدثات، فلذلك تطرق إليها الفناء بحكم المشيئة العالية، ويوجد لها المثل والعدل، وتلحقها الآفات لعلة الحدث اللازمة لها، ثم إذا تحقق ذلك عندك فاعمل له بكل جهدك ولا تستبق من نفسك باقية في العمل له بطاعته، بأنك إنما تطلب بقاء لا فناء بعده حتى تبقى ببقاء الباقي الحق ذي الجلال والإكرام.

واعلم أنك للبقاء خلقت ولم تخلق للفناء، وإنما تُنقل من دار إلى دار لتُجزى

بعملك، والفناء الذي يعتريك في جنب البقاء الذي أُهلت له كالعارية المؤداة، فأعقل من أنت، وعبد مَن أنت؟ ولم خلقت؟ وما الذي أريد منك؟ لقد أُهلت لأمر عظيم ومقام كريم وملك لا يفنى إن عملت له.

وإن جعلته منك بظهر ورغبت عنه؛ فاعلم أنك لا بد باق في عذاب أليم لا يبيد ولا يفنى، لا تموت فيه ولا تحيى، فالله الله في نفسك التي لا نفس لك سواها، فعليها والله تدور هذه الدوائر بوعد حق وأمر محكم، ألا ترى أن الله ﷻ قد ركبك أيها الإنسان على أربع صفات: عقل، وجهل، وعفة، شهوة، فالعقل يغالب الجهل، والعفة تغالب الشهوة، والشهوة تغالب العفة، وقد جعل الله لك مع ذلك بواسطة العقل والتثبيت وصدق الملجأ إليه سلطانًا على مشيئتك، فإن عملت خيرًا، وحافظت على توصية ربك، وكنت من حزبه، زادك معونة وأصحبك تأييدًا وقوة على عدوك، وجازاك على ذلك كأنك المنفرد بالعقل المبتدع له، وإن جنحت إلى شهوتك، وآثرت هواك وتصاممت عن ندائه، وأبيت إلا مضيًا وإقبالاً على شأنك جازاك على فعلك.

واعلم أن الحكمة سُلَّم العالم إلى نجاته، ومعراجه إلى محل القرب من ربه ونال رضوانه، فمن عدمها أو عدم العمل بها عدم القرب من ربه، ومن لم يكن حكيمًا ولا محبًا للحكمة التي أرسل الله بها رسله وأنزل بها كتبه وخلق بها السماوات والأرض وما بينهما لم يزل ينزل سفلاً في شأنه علمًا وعملاً.

يا أخي، فالبقاء في الجنة العالية خير من البقاء في النار الحامية، والبقاء غدًا في النعيم المقيم خير من البقاء في العذاب الأليم، والبقاء في جوار الرحمن ورضوانه خير من البقاء في البعد عنه وفي سخطه، ﴿**وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا**﴾ [النساء: 38]، فأسرع إلى ربك ﷻ واسأله به لا بسواه عساه يفني عنك ذنوبك وعيوبك، ويقطع ما يقطعك عن طاعته ويصدك عن سبيله، وأن يبقي فيك ما يقربك منه ويزلفك عنده وتحظى لديه، نسأل الله المنان المتطول لنا ولك علمًا نافعًا وعملاً مخلصًا وتوبة صادقة وزادًا مبلغًا وسبيلاً قاصده إليه، وخاتمة طيبة بمنه ولطف صنعه إنه على ما يشاء قدير.

اسمه الدائم ﷻ

يقال من ذلك: دام يدوم دومًا وديمومة فهو دائم، وهو من أسماء القدم كاسم الباقي والقائم على بعض وجوهه، واسمه الأول، غير أن اسمه الباقي يشير إلى اسمه الآخر ببعض معانيه، وكذلك قالوا: هو الباقي بعد فناء المخلوقات، وجاء دائم وقائم وباق على بناء اسم الفاعل دلالة على صفات هي الدوام والبقاء والقيام، فهو إذن الدائم بدوام هو صفته، وكذلك الباقي والدائم، وكل دائم سواه وباق وقائم وباق على بناء اسم الفاعل دلالة على صفات هي الدوام والبقاء والقيام، لذا فهو الدائم القائم بدوام هو صفته، وكذلك الباقي والدائم، وكل دائم سواه، وباق وقائم فإبقاء وأدامه وإقامة من القائم الدائم الباقي الحق سبحانه وله الحمد.

وحقيقة الدوام اللزوم والثبوت على حالة واحدة، وأسماؤه وصفاته الأصل الذي عنه انتُزِع كل معنى، وإنما شرحنا تقريب المعاني وتفهيم الأغراض، والعلة في ذلك قصورنا عن معرفة حقائق الأسماء في معانيها، وجهلنا بما انتزع منها الأقرب فالأقرب، فربما سبق إلينا أو إلى البعض المنتزع إلا بعد قبل الأقرب، فقربنا بالشرح بألفاظ قد سبقت إلى أفهامنا هي أقرب إلى ما أردنا شرحه أو نظن بها ذلك، فيتطرق مع ذلك إلى ما حاولنا بيانه بعض الإلباس على قوم دون قوم، لكن ضرورة ما ذكرناه دفعت إلى ذلك، فهو الباقي ﷻ والدائم والقائم على صفات الألوهية ومعاني الوحدانية والربوبية وشاكلة الصمدانية والقيومية.

والديمة: مطر يدوم يومًا وليلة، ودوم الطائر إذا حلق في الهواء أو رفرف قائمًا في الجو في حقيقة ذلك ولم ينهض على وجهه، ودومت الشمس إذا كانت في كبد السماء، فلم يتبين سيرها كبير تبين، قال الشاعر:

وَالشَّمْسُ حَمرَاء لَهَا فِي الجَو تَدويم

وقالوا: دومت الدوامة، سميت بذلك؛ لأنها تستدير في حركتها ولا تبرح عن مكانها وقد قيل في قول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:23] أنهم إذا قاموا إليها ثبتوا على أحاكمها، ولم تبسط جوارحهم لشيء خارج عنها، كما روي

عن بعضهم أنه كان إذا قام إلى الصلاة كأنه وتد، وعن آخر كأنه جزع منتصب، وعن آخر ثوب ملقى، وقد يكون المراد بوصف الدوام عليها المحافظة على أوقاتها وأحكامها والبعد عن تضييعها، رضوان الله على جميعهم، وجعلنا منهم ومعهم.

فمعنى الدوام إذن عدم الحيلولة والزوال، أي: هو على ما لم يزل ولا يزال على ما هو سبحانه وله الحمد، وقيل للجلد المدبوغ: أديم؛ لأن ذلك أدوم له؛ إذ الدباغ يذهب رطوبته التي إليها يسرع الفساد والتغير، وقيل: لما يؤتدم به في أكل الخبز إدام؛ لأن ذلك أطيب في المذاق وأسرع للمأكول وأحرى لاستصحاب الأكل واستدامته، وقد قال رسول الله ﷺ: **«من كان في نفسه خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينهما»**[1].

الاعتبار

اعتباره قريب القرابة من الاعتبار باسمه الباقي، فإن الباقي الحق ﷻ له ما شاء إبقاء الموجود أبقاه إلى أمده بإبقاء من إيجاده، فإذا قطع عنه الإيجاد أفناه أيضًا فإفناء كذلك الدوام والإدامة غير أن البقاء ضده الفناء، والدوام يعلم بالثبوت على حال البقاء هذا في صفات المحدثين، وتعالت على ذلك صفات الرحمن رب العالمين، فالباقي في حال بقائه دائم في ذلك البقاء.

التعبد

اعلم - وفقنا الله وإياك لمحابه والعمل بمرضاته- أنه جل وعز يحب أسمائه ويجب أن ينجلى بها عباده على ما يحبه من ذلك ويرضاه، فعليك بالمداومة على طاعته ولزوم سبيل محابه، والقليل من العبادة مع المداومة خير من كثيرها مع القطع والسآمة بعدها، قال رسول الله ﷺ: **«أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ وَإِنْ**

---

(1) أخرجه ابن ماجه (599/1، رقم 1865)، قال البوصيري (100/2): إسناد صحيح رجاله ثقات. وعبد بن حميد (ص 375، رقم 1254)، وأبو يعلى (158/6، رقم 3438)، وابن الجارود (ص 170، رقم 676)، والدارقطني (253/3)، وابن حبان (351/9، رقم 4043)، والحاكم (179/2، رقم 2697) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (84/7، رقم 13266)، والضياء (169/5، رقم 1789).

قَلَّ»[1].

وقال: «اكْلَفُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»[2].

وقال عزّ من قائل: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:23]، وقال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت:38]، وكان ﷺ إذا عمل عملاً أثبته، وكان عمله ديمة، وكان يحب القيد في الرؤيا، ويكره الغل ويقول: «الْقَيْدُ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ»[3].

ومن انقطع عنه الدوام في عمل البر خسر إن كان في الأصل حبط عمله، وإن كان في الفزع انقطع عنه معروف وجزاء كان يجزي عليه.

يا أخي، فكما يداوم عليك إحسانه ويتابع عليك عواقبه فداوم أنت على شكره والعمل بطاعته وسؤاله، وتضرع إليه دائمًا أن يديم عليك ذلك ويزيدك من نعمائه بالدوام على خدمته والثبات على طاعته، قال الله جلّ من قائل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ [النجم:33-34] أي: عمل قليلاً، وقطع إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم:39] وكثيرًا ما كان رسول الله ﷺ يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[4] وفي أخرى: «على طاعتك» وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَأَسْأَلُكَ عَزِيمَةَ الرُّشْدِ»[5].

فسدد - رحمك الله - وقارب ولازم وداوم، ثم استعذ بالله - جَلَّ ذِكْرُهُ- يعينك، وادعه وسله ذلك تجده قريبًا مجيبًا، مَنَّ اللهُ بها علينا برحمة منه.

---

(1) رواه مسلم (293/7)، وأحمد (292/54).

(2) رواه البخاري (376/19)، ومسلم (293/7).

(3) رواه البخاري (174/23)، ومسلم (132/15).

(4) رواه أحمد (469/25)، والترمذي (280/8).

(5) رواه أحمد (45/37)، والترمذي (321/12).

اسمه القائم والقيّام والقيّم والقيوم ﷻ

وتعالى علاؤه وشأنه، قد يكون معنى القائم القيام الذي هو الثبوت والدوام على أحد وجوهه، كقوله جل قوله: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة:20] أي: ثبتوا وقطعوا المشي، وكقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران:75].

فإذا كان هكذا فهو قريب المعنى من معنى اسم الدائم والقائم كما تقدم، والباقي يعلم بتوهم الاستحالة والتغير وانتفاء ما يخالف الوجود المتوالي، والقائم على هذا يعلم بمعنى الثبوت واللزوم من جهة ما مع انتفاء ما يخالف ذلك، كقولهم: لم يزل ولا يزال على ما لم يزل، وهنا يجتمع اسم الدائم والقائم، فإنه من هو قائم على ما لم يزل عليه ولا يزال كذلك فهو الدائم على ذلك أيضًا، ويختص بعد ذلك القائم بمعنى القوام، وينضم إلى ذلك من أوصافه وأفعاله ما يعبر عنه بالعدل، وضده في صفات المحدثين الاعوجاج، فهو على ذلك بمعنى الاستقامة والقوام، كذلك قالوا: دينار قائم، والجميع قيّم وقوّم، أي: لزمت موضع العدل والقوام، وقائم السيف قبضه؛ لأنه منبعث استقامته، ومنه قامة الإنسان وغيره، والقامة: رجل يبني على البئر توضع عليها البكرة، ومنه قوام الرمح والسهم والغصن، ويقال: قامت الحرب على ساقها إذا استوت بين الفريقين، ومنه: القيام الذي هو ضد القعود، قيل له ذلك؛ لأنه صعود إلى كمال الخلقة واستوائها، ومن ذلك: دين القيمة، وملة قيمة، أي: مستقيمة على سنن العدل لا عوج فيها، فعلى هذا هو من أسماء الذات تبارك وتعالى، قال هود ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:56]، ثم قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل:90]، ثم قال عزّ من قائل: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90] أي: يعظكم بسبيله ويرغبكم في الاقتداء بمعاني أسمائه وسلوك آثارهما، كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً .وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:268]، وقال: ﴿إِن

تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فإن اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:149].

وسمى جَلَّ ذِكْرُهُ امتثال ما يأمر به، ومجانبة ما ينهى عنه، والعمل بمعاني أسمائه حكمة بقوله: **﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾** [البقرة:269]، وبالجملة فإن معاني أسمائه وصفاته ومقتضى أوامره حكمة، وهي القيمة والقوام، فهو إذن القائم على الصراط المستقيم الذي هو الحكمة والعدل والقوام والإحسان دون قطع منه لذلك ولا حول بل لا يجوز عليه ذلك ويستحيل لديه.

الاعتبار

هو الله الذي لا إله إلا هو القائم على كل نفس بما كسبت رقبةً وخلقًا وأمرًا، كل استواء واعتدال وعدل وثبوت وقوام فهو موجده، وبه عرف وهو السلام ﷻ القائم على الصراط المستقيم الدين القيم دين القيمة وهو موجد القيمة، المقيمين للدين القيم غرزه في جبلتها، وعجن به طينتها وجمع عنه خلقتها من مختلف أمشاجها ومتوحد ذواتها، فأبرزه في ظهورها، وأطلعه في كونها، فكل له قانتون، خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، فلأجل ذلك كل شيء له مستسلم ولعزته خاضع ولكبريائه متصاغر.

فهم القيمة وهذا الدين القيم، هو القائم على كل شيء بجميع معاني وجوده، والقائم على كل نفس مكلفة إقامة الدين القيم بما كسبت، وهي المراقبة، قال رسول الله ﷺ: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً، صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَعَلَى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلاَ تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعِي يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يفْتَحَ شيئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ**»[1]، ثم قال ﷺ: «**فالصراط سبيل الله**»، وفي أخرى: «**الإسلام والأبواب محارم الله والسور حدود الله وذلك الداعي الذي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوقه عظة الله في قلوب كل مسلم**»[2] مصداق هذا في قوله ﷻ: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا**

---

(1) رواه أحمد (137/38)، والحاكم في «المستدرك» (144/1).

(2) أخرجه أحمد (182/4، رقم 17671)، والحاكم (144/1، رقم 245) والبيهقي في شعب الإيمان =

فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:153]، مع قوله: **﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [يونس:25].

وأما القيوم والقيّم والقيّام ﷻ فقد يكون القيوم بمعنى القائم وفعله القيام، ويبالغ بقيم ويبالغ في قيم وقيوم وقيام، والعرب تقول: من يقوم لهذا الأمر، أي: من يطيقه، من يقدر عليه فهو القائم للخلائق بجميع معاني وجودها، قال الله جلّ من قائل: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾** [الروم:25]، وقال الله ﷻ: **﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾**(1) [البقرة:255]، فالحي على الإطلاق لا يجوز عليه النوم ولا ما قاربه،

=

(445/5، رقم 7216). وأخرجه أيضًا: الترمذي (144/5، رقم 2859) والنسائي في الكبرى (361/6، رقم 11233).

(1) قال البقلي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قطع بما أبدء من وصف أُلوهيته عن قلوب عباده أسباب العبودية؛ لأن العبودية تكون عرفان الربوبية، لأجل ذلك ذكر نفسه في أول إظهار وجوده، وأيضًا كشف عن نفسه بوصفه لعباده حتى أثبتهم ببروز سلطنته في قلوبهم عند خطرات الهجران عند قوله، وأيضًا دعا الخلق بنفسه إلى نفسه قبل ذكر الأسباب حتى حيرهم به فيه، وأيضًا رسخ أشجار المحبة في سواقي أسرار أهل المعرفة بذكره أُلوهيته قبل كل شيء، ثم ذكر ليحيرهم في سراب العدم، ثم كشف لهم عن جمال القدم، وأيضًا أفرد قدمه عن العدم، وأيضًا ضرب سرادق التنزيه على سواحل بحر التوحيد قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أزال العلل عن قدس الأزل، وكشف بالأزل عن الأزل.

سُئل ابن منصور رحمة الله عليه عن هذه الآية؛ فقال: لا إله إلا الله يقتضي شيئين: إزالة العلة عن الربوبية، وتنزيه الحق عن الدرك.

وقال ابن عطاء: صدق قبول لا إله إلا الله الصبر، وبه ثبت على إيمانه والصدق، وبه اجتهد في الطاعات لربه في سره وإعلانه وإنفاق من ماله مبتغيًا به رضاه حتى لا يبقى لنفسه مدخرًا غير خالقه، والخلوة بربه في الأسحار وإظهار الافتقار بلسان الاستغفار نادمًا على عصيانه خائفًا من هجرانه.

وقال أيضًا: يحتاج مع قائل لا إله إلا الله ثلاثة أنوار نور الهداية، ونور الكفاية، ونور العناية؛ فمتى منَّ الله عليه بنور الهداية فهو من خواصه، ومتى منَّ عليه بأنوار الكفاية فهو معصوم من الكبائر والفواحش؛ ومتى منَّ عليه بأنوار العناية فهو محفوظ من الخطرات الفاسدة.

وقال بعضهم: يحتاج قائل لا إله إلا الله إلى أربع خصال: تصديق، وتعظيم، وحلاوة، وحرمه،

=

والقيوم لا ينبغي له أن ينام، كيف وهو القائم بجملة الخليقة بجميع وجودها جملةً وتفصيلاً؟! ووجودها كذلك مشاهد لنا على الدوام، والسِنة والغفلة والثبوت وما يقتضي ذلك وما قاربه معدوم في موجود قيوميته، وموجود قيام الخلائق بأمره، وقال عز من قائل: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ [البقرة:255]، فوصف الكرسي بما دونه من الخلائق ظاهر أمره في قيامه بها، قال رسول الله ﷺ «**الكرسي موضع القدمين**»[1].

ﷻ ربنا وتعالى علاؤه وشأنه، ثم عبر عن نزاهته عن لحاق اللغوب، ومثال النَصَب بقوله: ﴿**وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ [البقرة:255]، كيف بأن يناله شيء من ذلك وهو العَلِيّ العظيم، فقيوم وقيام بمعنى كما يقال: ما في الربع ديور ولا ديار، وهما للمبالغة من قائم، وتختص قائم بمعاني هي أظهر، عبّر عن ذلك قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ [الرعد:33]، ثم قد يتناولهما مبالغة.

=

فمَنْ لم يكن له تصديق فهو منافق، ومَنْ لم يكن له تعظيم فهو مبتدع، ومَنْ لم يكن له حلاوة فهو مرائي، ومَنْ لم يكن له حرمة فهو فاسق. قيل لأبي الحسن النووي: لمَا لا تقول لا إله إلا الله، قال: بل أقول الله، ولا أبقي به ضدًا. وقال بعضهم: مَنْ قالها وفي قلبه رغبة أو رهبة أو طمع أو سؤال فهو مشرك.

﴿**ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ**﴾ الحي الذي قامت به الأحياء، و﴿**ٱلۡقَيُّومُ**﴾ الذي يحيي بقيوميته الأموات، وأيضًا ﴿**ٱلۡحَيُّ**﴾ الذي تتهمهم به الأنفاس، و﴿**ٱلۡقَيُّومُ**﴾ الذي تقوم بكفاية الأشخاص، والحياة من صفاته الخاصة في العدم وعامة فيما أوجد الخلق من العدم، والقيومية صفته التي لم يزل كان موصوفًا بها، ويحصلها أنه استقبل بنفسه في أزليته وأبديته، و﴿**ٱلۡحَيُّ**﴾ الذي ليس حياته أسرار الموحدين فتوحدوا به له، و﴿**ٱلۡقَيُّومُ**﴾ الذي يربي بتجلّي الصفات وكشف الذات أرواح العارفين، ففنوا في ذاته، واحترقوا بنور كبريائه. وقيل في قوله: ﴿**ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ**﴾ أجعله مراقبًا في قيوميته عليك وعلى جميع العالم. قيل: أنه قيوم بحفظ أذكاره على أسرار أهل صفوته.

وقال سهل: ﴿**ٱلۡقَيُّومُ**﴾ قائم على خلقه بكل شيء، وآجالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم.

وقال الخواص: مَنْ عرفه بأنه ﴿**ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ**﴾ ألزمه معرفته له طلب كل شيء منه، وترك القيام بشيء من أموره لقيامٍ بها. وقيل: وصف نفسه بالامتناع عن اعتراض القواطع والعلل.

(1) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (301/2)، والسيوطي في «الجامع» (131/36).

اسمه القيوم والقيام والقيم

عبّر عن ذلك قوله: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ [البقرة:255]، إلى قوله الحق: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة:255]، ومعنى الكسب المذكور في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:33]، كل ما هو في السماوات وما في الأرض ووصف الكرسي يتناول وصف العرش بوصف الملك والأمر فافهم.

فاسم الحي الحق يتناول بالشمول جميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلا على مقتضى الحياتين، وهو اسم للذات ﷻ، ثم اسم القيومية يتناول القيامين كله من لدن الأمر إلى منتهى وجود الموجود، وهو اسم للفعل كله، وبالحمد لله رب العالمين تتم الصالحات، ويحق ما قال رسول الله ﷺ: «**اسم الله الأعظم الحي القيوم**»[1] ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:17]، ثم بذكر التوحيد مع المشاهدة والحضور بحقيقة المعرفة والعمل بما يُرضي الله تتحقق إن شاء الله.

التعبد

اعلم أن مفتاح التعبد بكل اسم طلب علمه، فتحقق - رحمك الله - حقيقة معناه حسب الاستطاعة، وإياك والقناعة بأوائل العلم، ثم استقر مجاريه في الموجودات، وتتبع آثاره في العالم حتى يبلغ درجة اليقين من معرفته، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فإنك إن فعلت ما ذكرته لك تجده قوّم كل مقوم من دين أو دنيا، هو صَوّر الصور فأحسن تصويرها، وأقام الأعلام وشرع السبل إلى مقاصدها، وأقام الصراط المستقيم، وقوّام بإطلاقه عبارة عن العدل كله والحسن كله والقصد القويم كله، تيقظ لاستقراء ذلك كل حيث وجدته، وتطلبه في مظانه.

ثم استعمل نفسك بموجبه ظاهرًا وباطنًا حتى تصدق فيه علمًا وعملاً، فهو الدين القيم والصراط المستقيم، وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها، وفطر عليها السماوات

(1) ذكره حقي في تفسيره (57/2).

والأرض، وهي ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً**﴾ [البقرة:138]، لقوم يعلمون ولذلك كل شيء له عابد، ولعزته خاضع.

أمرنا ﷻ أن نلتزم ذلك عقلاً وشرعًا كما ألزمناه في أصل القضية وجملة الخليقة جبله وكونه ليتصل منا ظاهر التكليف بباطن التكوين، والأمر الآخر الذي هو الشرع بالأمر الأول الذي هو من الفطرة والكون، والواصلون إلى ذلك هم الذين وصلوا ما أمر الله به أن يوصل، وهو الوصل الأعلى والقوام الأرفع، وهم الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، وهم الذين لهم عقبى الدار، وما بين هذه المنزلة من منازل الاستقامة وبين منزلة من صدق بشهادة قلبه ولسانه شهادة فطرته منازل لا يعلم حقائقها إلا الله جَلَّ ذِكْرُهُ، وهذه آخر منازل الاستقامة، وأدنى وصل الواصلين، فافهم.

عبّر عن ذلك بقوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت:30].

وقال رسول الله ﷺ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ**»[1].

وبها عبر لنا من جملة الخبر في أم الكتاب التي جعلها مفتاحًا لعبادتنا ومثناه في صلواتنا.

وأجمل لنا فيها المطلوب كما بقوله: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة:6].

ثم اعلم بعد ذلك أن هذا الصراط المطلوب هو صراط الذين أنعم عليهم لا صراط من غضب عليهم ولعنهم، وإنما يدور القرآن وحديث رسول الله ﷺ ووجود الموجودات بما هي عليه على طريق الاستقامة وتفسيره، وما تفاوت الناس إلا في درجات الاستقامة علمًا وعملاً فقوم له نفسك وأهلك وولدك وأتباعك، وتذكر قول الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم:6] ثم ناصح الأقارب في ذلك، وقوم من شأنهم ما استطعت، ثم عامة المسلمين، ثم الأباعد حسب الطاقة في المواصلة في الله، والمناصحة في سبيل الاستقامة، وفقنا الله وإياك لما يرضيه بمنه ورحمته.

---

(1) رواه أحمد (413/3)، والنسائي (458/6)، والبيهقي في «الشعب» (235/4).

اسمه الكبير ﷻ

كبر كل شيء مقدمه ومعظمه موضع جملته المشار إليه منه، وقيل للأقعد من الأهل بالولاء كبر؛ لتقدمه على غيره وقيامه بالأولاد دونهم، ومنه: قيل للشرف الأكبر لما فيه من التقدم، ويقولون: ورثنا المجد كابرًا عن كابر، وقيل: شيخ كبير؛ لتقدمه على من هو أحدث منه سنًا، والكبر مصدر الكبير والكبار، والكبر والكبرياء ما يجده المتكبر منا في نفسه، وهو جماع تعزز وتعاظم مع استصغار لمن تتكبر عليه، قال الله جلّ من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ**﴾ [غافر:56] أي: هم من العلو والعتو ما تنقضي منه نهمتهم.

الاعتبار

الكبير في الوجود على أنحاء، والذي يليق به ﷻ من أوصاف ذلك كبر القدر والخطر والمرتبة، وفي الأسماء الحسنى، واستحقاق الصفات العلا، وقد تقدم أن أسماء الله تعالى هي الأصل في وجود الموجودات كلها، ومنها انتزعت أسماؤها، وعنها تتفرع علوم المعلومات، فسميت المسميات على ظواهرها عندنا بما قارب معانيها فيما هناك وبما وجدت عنه منها.

شبهة

وربما استمروا على تسمية أشياء مع كثرة الاستعمال، وإن عدمت المقارنة التي لأجلها سمي ذلك المسمى كما فعلوا في باب اسم العَليّ، قالوا في دعاء بعضهم لبعض: تعالى وكان الأصل في ذلك أن يقول من في العلو لمن هو في السفل: تعالى، ثم كثر استعمال ذلك حتى ربما قال من في السفل لمن في العلو: تعالى، وكالذي فعلوه في المطمئن من الأرض وهو الغائط، وشبهة ذلك فلذلك بعدت بعض أسماء المعلومات من مبادئها وأنكرت تسميتها إلى مبعثها.

واعلم أنهم لم يخرجوا بذلك عن المعنى؛ إذ كل معنى يقع عليه أسماء الله ﷻ فإن ذلك المعنى وخلافه وضده وما دار حوله تحتوي عليه الأسماء المشيرة إليها الواقعة عليها، غير أنه ليست لأسماء الله ﷻ أضداد، كما أنه ليس له ضد جل عن ذلك،

وهو القاهر فوق كل شيء خالق الموجودات وأضدادها، ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:16]، فكل كبير وصغير موجود في العالم كله فهو موجود بإيجاد الكبير الحق، ومأخوذ من حقيقة اسمه، ومعلوم من علمه، كذلك ذوات الموجودات أجمعها هو خالقها وموجدها، وأضدادها وما خالفها، وما توسط بالوصف بين أوصافها، هو الواحد القهار وليس وصف الكبير والكبرياء والتكبر إلا إخبارًا عن استحقاقه نعوت الجلال والمعالم القدسية المنزهة عن الآفات والنقائض، فكل ذلك إعلام بوجود ذاته كذلك، فاعلم ذلك؛ إذ ليست معاني الأسماء مدركة إلا ببصائر القلوب.

وأما مدارك الأبصار التي في الرءوس فإنما يقع على الأماكن، وما تقدر تقدير الأماكن، وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك.

فصل

فكبرياء الله شرفه في نفسه، وتكبره هو لإكباره وهو لم يزل كبيرًا، ولم يزل متكبرًا كذلك لم يزل عَليًّا ولم يزل مُتعاليًا، كما لم يزل عزيزًا ولم يزل مسبحًا نفسه، كما أنه لم يزل سبوحًا كذلك لم يزل مُتباركًا كما أنه لم يزل مباركًا وقدوسًا، وكل شريف سواه وكبير فإنما كبر قدره وشرفه بغيره.

التعبد

اعلم - وفقك الله - أن إعلاء الله العَليّ قدره وإكباره وتكبيره وتبريكه نفسه وإجلاله نفسه وإعزازه ومدحه نفسه، وتقديسه نفسه وتنزيهه عدل منه وحكمة وقسط وصدق، أعطى نفسه قسطه الذي هو له أهل، فعدل في ذلك وأقسط وصدق وقال الحق وفعله وأفضل به على عباده وهو العَلي الكبير، وما استعبد به خلقه من ذلك فهو من مَنّه عليهم وفضل أفضل به وآتاهم إياه، ونعم أنعم بها عليهم وجب عليهم شكرها والقيام بحقها، فحقت عليهم بذلك الخدمة بالجوارح شكرًا له، وحق عليهم إشغال القلوب بحبه وتفريقها عن الأغيار إلى ما يرضيه ويقرب منه، وذلك أوجب لهم القرب منه لقربهم من صفاته، وطلبهم في ذلك سبيل مرضاته، وبالأخرى التي هي خدمة الجوارح واستعمال الأركان بوظائف الأعمال أوجب لهم جنته والراحة العظمى من عذابه؛ لإجهاد أنفسهم واستعمال أركانهم فيما يرضيه.

فإذا التعبد له بهذا الاسم الكريم التصاغر لكبريائه، وترك الإباء عن المسارعة في طاعته، وترك الاستكبار، هذا في الباطن، وأما في الظاهر فالمسارعة وتمريغ الخدود في التراب ذلاً بين يديه، وصغارًا ومجانبة لكل ما يكرهه، كما قيل:

هِـي الـنّفوْس قَلِـيْلُ العِـزِّ يُبْطِـرُهَا فَلَـنْ يَـنَال العُـلا مَـنْ لاَ يُعَفِّـرُهَا

ولكثر هذه الصفة العالية قال ﷺ: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعنيهما قصمته**»[1]. فمن أجل ذلك كان استشعار صغر قدر النفس في التعبد وقلتها أثر شيء في العبادة وأكثره عناء وقربه وبالضد، وكذلك كان ثوابه في الدار الآخرة إكبار قدر العبد، وإجزال الحظ في القرب من الله جَلَّ ذِكْرُهُ، وكان موضعه من العقاب المقت والإعراض وتصغير القدر وعدم الحظ، قال رسول الله ﷺ: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة على صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم تصغر لهم أجسادهم في المحشر حين يضرهم صغرها ويعظم لهم في النار حين يضرهم عظمها**»[2] نسأل الله معافاته ومغفرته.

فمن الحق الواجب على من عرف أن الله هو الكبير أن يلزم نفسه التصاغر فيسلك بها سنن التذلل، وقد خلق الله عباده أطوارًا فمنهم من يستقيم حاله على الغنى وقضاء الحاجات والإفضال عليه، ومنهم من يستقيم حاله على الفقر وإلزام الابتلاء إياه، والتعزز عليه، وإرخاء الحجاب دونه، ولذلك ما قد تجد عيش بعضهم مع تعززه عليهم واحتجابه عنهم أحسن، وقلبه لربه أصفى، كلما ضربه بالبلاء ازداد له حبًا وإثره، وبالضد في الطور الآخر إذ كان بعباده خبيرًا بصيرًا، فأسرع إليه - وفقك الله وإيانا - بصغار منك، وخضوع في تحقق مقتضاه منك، فإن العمل بمقتضاه أصل الطاعة كلها؛ إذ الكبر أصل لأخلاق الشر كلها، فالتواضع إذن أصل أخلاق الخير كلها، كما أن حب الدعة أصل لتضييع العمل كله، ومن أجل الكبر وجدت الدعة والاستنكاف الموجودان في النفس، فلأجل ذلك فرض الأمر والنهي، فاحرص - هداك الله - على ألا يظهر منك الكبر في هيئة ولا خلق، ولا تساعد نفسك على ما جر إليه، وأقرب منه وخذها بالرياضة إلى كل ما يخضعها ويكسر سورتها ولا يتركها وما يريد منه، ولذلك قيل:

---

(1) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (1/133)، والحاكم في «المستدرك» (1/84).

(2) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (225)، والبيهقي في الشعب (8185).

حَــذَّرتُكَ الكِبــرَ لا يَعلَقَــكَ ميــصَمُهُ فَإِنَّـــــهُ مَلـــــبَسٌ نازَعـــــتُهُ اللهَ
يــا بُــؤسَ جِلــدٍ عَلــى عَظــمٍ مُخَــرَّقَةٍ فــــيهِ الخُــــروقُ إِذا كَلَّمــــتَهُ تاهَـــا
إِنّـــي لَأَمقُـــتُ نَفــسِي عِــندَ نَخــوَتِها فَكَـــيفَ آمَـــنُ مَقــتَ اللهِ إِيّاهـــا

فصل

قد يوجد منك الكبر محمودًا ومذمومًا، فمذمومه: التكبر على الناس والاستنكاف عن عبادة الله وطاعة من تجب طاعته، قال رسول الله ﷺ: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[1] ومحموده: التكبر على أعداء الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - والأخذ بالأغلاط عليهم.

واعلم أن تصاغرك بين يدي ربك شرفك عنده، وتصاغرك بين يدي من يلزمك طاعته طاعة لربك، وزين لك عنده وعند أبناء جنسك، كما أن تصاغرك لذي دنيا لدنياه هدم لديك وتصغير لقدرك عند الله.

واعلم أن من غمط الناس ازدراهم ومن ازدراهم رد الحق على قائله، وهو أصل العصيان كله، والحكمة ضالة المؤمن من حيث وجدها عقلها، فلا تردن حقًّا على قائله، ولا تنظرن إلى أحدٍ بعين الاستصغار، وإياك ومشية الخيلاء وهي جر فضول الثياب وهز الأعطاف بطرًا والتخصر، ومشية الْمُطَيْطاءِ وجانب الكبر كله وما تولد عنه، وفقنا الله وإياك لما يرضيه.

اسمه العَليّ تبارك وتعالى

يقال من ذلك علا الشيء يعلو إذا ارتفع وأعجز من رامه، وحقيقة العلو من وراء الرفعة والسمو؛ لأن السامي والمرتفع إنما يفعل ذلك ليعلو، وموجود العلو فيما هاهنا هو الرفعة في اعتدال وحسن قوام، ومنه قيل للقناة: عالية، ولجميعها: عوالي، ومنه

(1) رواه مسلم (327/1).

علاء الشرف وكسبه، يقال لذلك المعلاة؛ لأنه يكسب بالأمور المحمودة والسير القويمة، ويقال: فلان من علية الناس إذا كان رفيعًا فيهم، ويقال: جئت من عَلٍ ومن عل بمعنى من فوق، وقيل للرأس: العلاوة لعلوه فوق الجسد، وقيل لما يُعلى به فوق الحمل علاوة، ولم يأت من سما يسمو اسم له ﷻ، ولا من معنى الرفعة على قوله: رفيع الدرجات، وذلك وصف لدرجات فمجازة كقولك: الله رفيع الدرجات، كما يقال الله الكريم العفو، وحروف العلو والعلاء بأطباعها تعطي معاني العلو لمن تأملها، وهو باب فتح وسبيل قصد إلى تعرف معاني ما عبر عنهما بها تطلب ذلك فيها هذا سبيله تصب البُغية إن شاء الله.

وأتى من سما اسم الأسماء، فقولك: باسم الله عند كل بداية، أي: أبدأ بذكر علو الله، وقد تقدمت إلى ذلك إشارة في بابها، ويمكن أن تكون إنما سميت الأسماء بأسماء المعنى السمو لسموها في أفهامنا، وتساميها في تطريقها لنا في الإعلام لنا بها؛ لترقينا في تعلم معانيها من سفل إلى علو؛ ولسموها أيضًا في أنفسها بالإضافة إلينا، فإن أسماء الله - جَلَّ ذِكْرُهُ- أظهر في الدار الآخرة منها في هذه الدار لصغر هذه، بالإضافة إلى تلك، وذلك على مقادير عقول الطالبين لمعرفتها لكمال العقول فيما هنالك في أنفسها وتفرعها يطلب علمها يومئذ، وإنما يتجلى ﷻ في سماء علائه لعقل العاقلين عنه على مقادير، جعله إياها ثم هو يظهرها في دار البرزخ أبين بيان وأجلى تجلية، ثم يظهرها يوم القيامة أفخم ظهورًا وأوضح، لكنه يبقى إشكالاً في حق المنافقين، ومن كان يعتقده في الدنيا على ما ليس به ثم في دار القرار لا تزال معارفهم تسمو، وسمو أسمائه العلا في حقهم تعلو بهم، وهو لا يزال يبدي لهم منها ما لم يتوهمه وهم ولا خطر على قلب بشر، ثم هو هكذا أبدًا في تجريد ومن يد فهو العَليّ الأعلى، وأسماؤه تسمى بهم أبدًا.

الاعتبار

سبحة اسم العلاء - والله أعلم - لنفي الأنداد والتنزيه عن الأشكال والأشباه والأمثال، وقد تقدم في صدر الكتاب من ذلك ما يغني عن الإطالة والإسهاب، فكل علو أو علاء فهذا الاسم دال عليه، وهو مأخوذ منه، وكل متصف به سوى العَليّ الحق فله منه مجازه، وإنما حقيقته للعَليّ الأعلى - تبارك وتعالى - والعلو في وجود

المخلوقين ضده السفل، قال الله ﷻ: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: 18]، وقال في قوم آخرين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:5]، وقال: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى﴾ [طه:4]، فذكر الأرض وأحال بذلك على السفل كله، وذكر العلو أحال على العلو المجعول كله، ووصف نفسه العَليّ ﷻ بالاستواء من العلو على العرش، وهو أعلى مجعول، ووصف بشمول ملكه جميع ما في العُلَى إلى أسفل سافلين، وهو ما تحت الثرى، كما قال جل قوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين:18-19]، ثم أعْلَم بأنها قرار المقربين، وقال: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين:7-8].

ثم اعْلَم بأنها موضع جزاء المكذبين ودار قرارهم، وهي أسفل سافلين في أبعد البعد عن موضع القرب موضع سجنهم، وهؤلاء هم أهل النار بالذين هم أهلها ليسوا منها أبدًا بمخرجين، وأعْلَم أن أصحاب اليمين في علو الجنات بقوله الحق: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الإسراء:71]، إلى قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة:21-22]، وجنات أصحاب اليمين جمعها: عوال، والمقربون هم في عليين، وجمع جنات أصحاب عليين علال واحدتهن علية، قال بعضهم رضي الله عنهم جميعًا:

أَلا يَـــا عَيْنِــــي وَيْحَـــكِ أَسْــــعَدتنِي   بِغَـــزرِ الدمـــعِ فِـــي ظُلَــمِ الليالِـــي
لَعلـــكِ فِــــي القِـــيامِ أَن تَفُــــوزِي   بِخَيـــرِ الدّهْـــرِ فِـــي تَلْـــكَ العَلالِـــي

وأصحاب عليين جلساء الرحمن - عز جلاله - وهم أصحاب المنابر من النور في المقعد الصدق، وهم الأعلون تعلو بهم عليون أبدًا في علو علوها بأنعم ما سمت بهم أسماؤه ﷻ وتعالى علاؤه وأسماؤه وشأنه.

التعبد

مفتاح التعبد بأسمائه طلب علمها، فعليك بطلب حقيقة المعرفة به، وطالب أعلى درجات ذلك فإنه العَليّ المتعالي بالسناء والبهاء والمجد والمحامد كلها والأسماء الحسنى والصفات العلا، سبحانه وله الحمد، ليس له عديل ولا مثل، لا تتقلب به الأحوال ولا تضرب له الأمثال، وإذا تحققت ذلك وأبصرته ببصر قلبك ونور

إيمانك فارجع النظر إلى نفسك، وزن لها بميزان العدل، فتستشرف بذلك على حقيقة المعرفة بها، وتبين لك حطيطة منزلها وسفال درجتها، فتقرب إلى الله بالخشوع والخضوع، وأكثر له من السجود باستشعار صغر القدر وسفال المنزلة، وترك طلب العلو ومحبة ذهاب الصيت والزهد في رفعة الذكر في الناس، وشياع الثناء، ثم راجع العمل فيما بينك وبينه بطلب معالي الأخلاق والتجلي بمقتضى أسمائه على ما يحب من ذلك ويرضاه، ونافس في عُلا الدرجات من ذلك، وسابق إلى ذلك وسارع فيه وتفرغ إليه، وترضه بالرضا عنه، وقطع التعرض في شيء من أحكامه بالتسليم، وأرض منه باليسير من عطائه يرضى عنك بيسير ما تأتي به، وكما علوت بإيمانك إليه فوحدته دون شريك أو ظهير أو مثيل فوجده أنت في قصدك إليه، واعلُ بهمتك صعدًا إلى التقرب منه والتخلق بمعاني أسمائه والعمل بمعاني صفاته؛ ليكون ذلك وصفًا لك عنده على سبيل شاكلة العبودية والخضوع لعزة الربوبية، فإنه ﷻ **«يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلاَقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»**[1]، وسله بإخلاص من قلبك وجد من عزمك أن ييسر ذلك عليك، وكلما نهيت عن استعماله فيما بينك وبين ربك سبحانه والمؤمنين فالتزمه في أهل الكفر والعناد والجحد له.

والذين يطلبون العلو والفساد في الأرض والنفاق في دين الله وأبغض من أبغضه الله، وأحب من أحبه الله؛ فإن الله يحب المؤمنين التوابين المتطهرين الذين يقضون بالحق وبه يعلون به، واسلك سبيل مرضاة ربك وسنة نبيك ﷺ، وقابل كل فريق منهم من ذلك بقدر ما زاغ عن السبيل وحاد عن الطريق، والسلام على من اتبع الهدى، ولا تدع أن تسأله الرفيق الأعلى واللحاق بالذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وقل: ﴿**رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه:114]، وقل: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران:8]، وقل: ﴿**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان:74]، وبالجملة فإن موضع التعبد بهذا الاسم الكريم من الثواب هو رفع الذكر وإعلاء

(1) رواه البيهقي (191/10)، والحاكم في «المستدرك» (66/1).

المنازل والتقريب بعد التقريب، مَنَّ الله بذلك علينا وعليك وحسن استجابتنا عنه وفضله، إنه ولي ذلك لا شريك له ولا مسئول سواه.

اسمه العظيم ﷻ

وتعالى علاؤه وشأنه عظم الشيء فيما هاهنا أكثره وموضع جملته ومنبعث مادنه وقوته، ومنه عظمة الذراع للنصف الذي يلي المرفق منه؛ لأنه المالك لما بعده من المرفق إلى الكف وحامله ومعظمه، ومنه العظم المعروف، سمي بذلك لبقائه على الشدائد وصبره على الأغلب، وهو حامل جملة جسمه وغيره، ألا ترى أن الجسم ليس له قيام إلا به، وهو بالإضافة إلى جميع مؤلفات الجسم أكثر بقاء وأشد عارضه، لذلك قيل لخشب الرجل: عظم لقيام عليه واعتماده، وحروفه أيضًا بأطباعها تدل على ما عبّر عنه.

الاعتبار

العظيم مضاده: الحقير، وقد تقدم أن وصفه بالكبر والعلو ليس يوصف لكثرة أجزائه ولا ذهاب في الجهات ولا علو مكان، فكذلك العظم إنما وصفه بهذه الأوصاف لعظم القدر وعلو الوصف واستحقاقه نعوت الجلال والتعالي وأوصاف القدم، وأنه يقدر على جميع المقدورات بقدرة واحدة، ويعلم جميع المعلومات بعلم واحد، ويريد جميع المرادات بإرادة واحدة، ويكون جميع الكائنات إذا شاء ذلك بكلمة واحدة، وجميع المتناولات تناولاً واحدًا، لم يعجزه قط شيء ولا فاته فائت ولا تعذر عليه متعذر.

ومن أوصاف عظمته أنه قريب من كل شيء بقرب هو وصفه، لا يبعد عنه شيء من العرش العظيم في أعلى العُلىَ إلى منتهى المنتهى، وهو مع كل شيء، وإلى هذا فإن خاصة العظم من الكبر إلى الإعلاء أن الكبير يعرف من طريق صفة القدم والدوام والبقاء في الأزل والأبد، لا إلى أمد مع صفة الشرف والسؤدد، فلا سؤدد أبلغ من سؤدد من له الغنى المطلق من كل وجه وعلى كل معنى، وله المجد والكلام بكل وجه

وكل معنى، كما أنه لا شرف يبلغ شرف ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3،4]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11].

والعلاء يعرف من طريق سني المراتب ورفيع الدرجات، ولا أسنى ممن له الأسماء الحسنى والصفات العُلا بحقائقها على الكمال الأقصى والتمام الأرفع، ولا أرفع درجة ممن لا يقدر قدره ولا يبلغ كنهه، السبوح القدوس والعظم، والعظمة صفة له. والإعظام والتعظيم حال المعظم له يصيبه عند مشاهدته معاني العلاء والكبرياء والعظمة والجلال، فيجل قلبه إكبار له وإعلاء وإجلال، فربما عبر عن جملة ذلك ممن حال العبد بتعظيم، وإعظام لعظيم ما شاهده وما يرد عليه من ذلك، فالعظيم إذن هو المهيب المهول؛ لأنه الناهي في الشرف والسؤدد مع سعة الملك وشمول وجوده، المملكة لا يعزب عنه منها مثقال ذرة ولا أدنى من ذلك ولا أكبر إلا هو معهم أينما كانوا، وهو الرقيب الشهيد، هذا إلى ما تقتضيه الأسماء الحسنى والصفات العلا، وصفته التي هي العظمة تبدو فيما أوجده من عظائم مخلوقاته؛ كإيجاده السماوات العُلىَ والأرضين السفلى، وما بين ذلك إلى ما تحت الثرى، ثم إلى المنتهى علوًا وسفلاً، ثم ما بين ذلك من عظيم موجوداته وأعاجيب مبتدعاته، وكيف أقل الجملة بقدرته وعمرها بقوته وحفها بحوله ودبرها بأمره! وأمسكها بأيده دون علائق من فوقها تمسكها ولا دعائم من تحتها تقلها خلا عظمته وعظيم قدرته بإحاطة قيموميته! وكيف أودع ما شاء من الجملة ضروب التغاير، ووسم ذلك بسمات النقص! أودعها دلائل الحدث بما جعل فيها من انقيادها لخالقها وخضوعها لعظمته من قبولها بما وسمها به من ذلك وعجزها عن التخلص والاقتصار على ما قصرها عليه، ثم شهدت له بالقدم وعلى نفسها بالحدوث، وشهدت له بالعظمة وعلى نفسها بالحقارة، وشهدت له بالعزة وعلى نفسها بالذلة، وشهدت له بما شهدت به لنفسه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وشهدت على نفسها بما شهد لها به وعليها، وكيف رماها بالنقص والافتقار بعضها لبعض حتى أحوج الأعلى إلى الأسفل كما أحوج الأسفل إلى الأعلى، وافتقر الكل منها إلى كلها وسخر البعض منها إلى بعضها، والروح من أمره يتخللها وبحكمته يجري مصالحها، وبما يسخره منها لها جملة بما انهارت قط، ولا انهار منها جانب ولا انهدم منها جانب ولا انتقلت عن مكانها. الكلي الذي لا مكان لها سواه موجود،

والانتقال والتغير والحراك ولوازم الحدث وعوارض التصريف في سواء الجملة مقصود، وقد يظهر اسمه العظيم ﷻ في أفعال يحدثها وأحكام في هذه الجملة يوجدها؛ كتجليه للجبل فصار دكًا من جلاله وما شاهده من عظمته، قال الله جل من قائل: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [الشورى:4]، ثم قال عزّ من قائل وقوله الحق: ﴿**تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ**﴾ [الشورى:5] أي: لما يرد عليهن من علو جلال العظمة وعلاء الأمر، فقائل ذلك من عظمته برأفة منه في حكمته، ﴿**وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**﴾ أي: مكان من لم يسبح من هؤلاء يستغفرون لمن لا يستغفر منهم حتى يأتي أمر الله، فذلك الذي يرد على السماوات من فوقهن، وما عبّر به عنه من معنى هذا الخطاب هو متى ظهر لشيء أو أظهر من ظهوره لشيء ما شاء من ذلك كيف شاء، فهي آية وآيات لعظمته التي هي صفة ذاته ﷻ ربنا وتعالى علاؤه وشأنه.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لاَ يَكْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ**»[1] ولكن إذا تجلى الله لشيء من مخلوقاته خضع له فعظمته يظهرها لعباده في عظيم قدرته وعظيم مشيئته وعظيم كلامه وعظيم نظره وعظيم سلطانه وعظيم ملكه وملكوته، وكل ذلك موجود في عظمة ذاته ذو الجلال والإكرام، فسبحانه وله الحمد، ما أعظم ما ترى من سلطانه وما أصغره في جنب ما لم تر[2].

---

(1) رواه مسلم (14/6)، والبيهقي (377/2).

(2) قال الديريني: ويقال: العظيم الملك القادر على الإطلاق، فلا يعجزه شيء.

ويقال: العظيم المستحق لأوصاف الكمال. ويقال: العظيم الذي هو المستحق للطاعة، فيجب التذلل والخضوع لعزه. ويقال: العظيم الذي يلتجئ إليه المنقطعون ويفتخر. ويقال: العظيم المستحق للربوبية المنفرد بالإلهية، فلا يحتاج إلى أنصار، ولا أعوان، ولا يحده الزمان، ولا يحويه مكان. ويقال: العظيم الذي لا يرتقي وهم إلى تصويره، ولا يطمع فهيم في تقديره.

ومن عرف أن الله تعالى هو العلي العظيم امتلأ قلبه بتعظيمه، وإجلاله، وهيبته، وتنظيم أوامره ونواهيه، والتعظيم معنى في القلب زائد على العلم بوجود الله تعالى.

وقد ورد في الحديث: «**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله فإنكم لا تقدرون قدره**» معناه: لن تصل عقولكم إلى إدراك عظمته فتفكروا في صنعته، قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ**

=

=

﴿وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190].

وقيل: إن إسرافيل عليه السلام له اثنا عشر جناحًا ستة منها بالمشرق وستة منها بالمغرب، والعرش على كاهله ورجلاه تحت الأرض السابعة، وأنه ليتضاءل أحيانًا من هيبة الله ﷻ حتى يصير مثل الوصع وهو العصفور، وأنه إذا رفع صوته بالتسبيح عطل على الملائكة تسبيحهم من حسن صوته وطيب نغمته.

وقيل: إن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح كلها مرصعة بالدر والياقوت وقلائد الذهب محشوة بالمسك لكل جلجل صوت لا يشبه الآخر لو نشر منها جناح لسد الخافقين.

وروي أن العرش له ألف لسان يسبح الله تعالى بألف نوع من التسبيح، وأن نور العرش لو بدا لضعف نور الشمس معه، كما يضعف السراج في الشمس. وقال كَعْبُ الأَحْبَارِ: ما من عبد في الأرض إلا وله مثال تحت العرش على الحالة التي يكون عليها في الأرض وعلى عمل سيئة أرخى الستر عليها إكرامًا من الله تعالى، فسبحان من أظهر الجميل وستر القبيح.

ورُوي أن: ملكًا من الملائكة سأل الله تعالى أن يريه العرش، فخلق له ثلاثين ألف جناح، فطار ثلاثين ألف سنة ولم يقطع قائمة من قوائم العرش، فسأل الله تعالى أن يرده إلى مكانه، فرده إلى مكانه وتسبيح هذا الملك «سبحان ربي الأعلى». ورُوي أن ملكًا من ملائكة الله يسمى الروح له ألف وجه في كل وجه ألف لسان، كل لسان يسبح الله بسبعين ألف لغة، لو سمع تسبيحه أهل الأرض لذهبت أرواحهم ولو سلط على السماوات والأرض لابتلعها من أحد شدقيه، إذا ذكر الله تعالى خرج من فيه قطع من النور كأمثال الجبال العظام مسيرة ما بين قدميه سبعة آلاف سنة له ألف جناح، يقوم يوم القيامة وحده، والملائكة وحدهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ [النبأ:38].

واعلم أن من غلب على عقله تعظيم الله خضع لهيبته، ورضي بقسمته ولم يرض بدونه عوضًا ولم ينازع له اختيارًا، ولم يرد عليه حقًّا، ولم يرددونه شيئًا، وكان لأهل الخيام كتراب الأقدام، وتحمل في طاعته كل مقدور، وبذل في رضاه كل ميسور.

قيل: جاء رجل إلى إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وكان واقفًا يحصد، فقال له: إني كنت عبدًا من عبيد أبيك، فهربت منه واكتسبت عشرة آلاف درهم، واشتريت جارية واستولدتها وقد رزقت منها أولادًا والجارية والأولاد والمال ملك لك، فقال له إِبْرَاهِيمُ: إن كنت صادقًا، فكلكم أحرار لوجه الله تعالى، والمال صدقة عليكم، ثم بقي على حصاده يكتسب ويأكل منه.

وحُكي عن دَاوُدِ الطَّائِيِّ أنه لما مات وقف عليه ابْنُ السَّمَّاكِ فقال: يرحم الله أبا سُلَيْمَان نظر بقلبه إلى ما بين يديه من آخرته، فأغشى بصر القلب بصر العين، فكان لا ينظر إلى ما إليه ينظرون يا داود ما كان أعجب شأنك بين أهل زمانك، أهنت نفسك وإنما أردت إكرامها، وأتعبتها وإنما أردت راحتها وأمنها قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تقبر تفقهت، وتركت الناس يفتون، وسمعت الحديث وتركتهم يحدثون، وسكت عن القول وتركتهم ينطقون لم تكن تجسد

=

=

الأخيار، ولا تغتاب الأشرار، ولا تقبل من سلطان عطية، ولا من الإخوان هدية، أقرب ما تكون إذا كنت بالله خاليًا، وأبعد ما تكون إذا كانت من الناس حاضرًا، سجنت نفسك في بيتك، فلا جليس عندك ولا فراش في بيتك ولا ستر على بابك، يا داود لم تكن لتشتهي من الطعام أطيبه، ولا من اللباس ألينه، ولكن خدمت ووجدت ما بين يديك فما أصغر ما بذلت في جنب ما أملت، ولا أراك إلا قد ظفرت بما طلبت، فرحمة الله ورضوانه عليك.

فكلما قوي تعظيم الله في القلب استصغر العبد نفسه واستقل عمله، لأن الله إذا تجلى لشيء خشع له وكان أكابر السلف ﷺ أصحاب خوف وانكسار كانوا إذا حضروا جنازة، فلا يعرف صاحب الميت بينهم.

وقيل: كان الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ على الدوام، كأنه قريب العهد بمصيبة.

وقيل: كان عطاء إذا أصاب أهل البصرة بلاء يقول: هذا بذنوبي لو مات عطاء لاستراح أهل البصرة.

وحكي عن مَسْرُوق أنه سمع قارئًا يقرأ: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً**﴾ [مريم:85، 86]، فاضطرب، وقال للقارئ: أعد عليَّ، فما زال يعيد عليه حتى وقع ميتًا، فهو من قتلى القرآن. وقيل: إن بعضهم كان يقد تحت قدر، فقالت ابنته: يا أبت قد اسودَّ وجهك، فوقع مغشيًا عليه. وحكي عن مَالِك بْنِ دِينَارَ ﷺ أنه خرج ومعه محمد بن واسع وثابت البناني وحبيب العجمي وصالح المري ﷺ متوجهين إلى الجبانة لزيارة مسعود الضرير، فقال صالح لنا: قفوا، فوقفنا على باب المسجد حتى جاء مسعود فأذَّن بصوت ضعيف. ثم دخل فصلى وصلينا معه، ثم جلس كهيئة المهموم، فتقدم إليه محمد بن واسع فسلم عليه. وقال: أنا محمد بن واسع، فقال له: مرحبًا وأهلاً أنت ومن معك الذين يزعمون هؤلاء إنك أفضلهم يعني أهل البصرة إني قمت بشكر ذلك لله أجلس، فتقدم ثابت البناني فسلم عليه، وقال له: أنا ثابت البناني، فقال له: مرحبًا أنت الذي يزعم هؤلاء إنك أكثرهم صلاة اجلس فلقد كنت أتمناك على ربي، فتقدم إليه حبيب العجمي وسلم عليه، وقال: أنا حبيب العجمي، فقال: مرحبًا يا حبيب أنت الذي يزعمون هؤلاء إنك لا تسأل الله شيئًا إلا أعطاك إياه اجلس يرحمك الله وأخذ بيده فأجلسه إلى جانبه فتقدم إليه مالك بن دينار فسلم عليه وقال له: أنا مالك بن دينار، فقال له: أنت الذي كما يقولون ما أنت مالك وإلا مملوك اجلس الآن تمت أمنيتي على ربي، ثم قال: انظروا كيف تكونون في مجمع القيامة بين يدي الله ﷻ، قال صالح المري: فتقدمت إليه وسلمت عليه، وقلت له: أنا صالح المري، فقال: أنت الفتى القارئ قلت: نعم، قال: اقرأ يا صالح، فلقد كنت أتمناك من الله وأحب أسمع قراءتك، قال صالح: فحضرني ما كنت قد نسيته، وقرأت قوله تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً**﴾ [الفرقان:23]، فما أتممت الآية حتى وقع مغشيًا عليه، ثم جلس وبقي باهتًا فاتحًا فاه، فقرأت قوله تعالى:

=

﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَراً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ [الفرقان:24]، فصاح صيحة واضطرب ساعة، ثم سكن فحركناه فإذا هو ميت قد فارق الدنيا- رحمة الله عليه.

قال مُحَمَّدُ بْنُ مَيْسَرَةَ ﷺ: خرجت يومًا طالبًا بعض الأدوية، فإذا أنا برجل عليه لباس المتعبدين وهو جالس إلى جانب صخرة كأنه يخاطب أحدًا، فسلمت عليه فرد عليّ السلام، ثم أطرق كهيئة المهموم، فجلست إلى جانبه فقام وتركني، فقلت: يرحمك الله أسألك عن شيء، فقال: يا هذا إن المسائل كثيرة فرغ منها من كان قبلنا، وما بقي علينا نحن إلا العمل، فاستغن بقليل الموعظة عن كثيرها، ثم قال: استغفر الله لقد أكثرنا الكلام، وإن إكثار الكلام من أسباب القطيعة، فقلت له: أوصني، فقال: أوصيك بطاعة الله فيما فرض عليك، وأنهاك عن معصية الله فيما نهاك عنه، فإذا عملت حسنة فردها إلى الله واشكره على تيسيرها، وإذا عملت سيئة فتضرع إلى الله واسأله الصفح عنها، وإذا رأيت نعم الله قد أقبلت إليك فاصرفها فيما أمرت به وخذ في الشكر عليها، وإذا رأيت الضراء قد أقبلت إليك فاستقبلها بالصبر والتضرع إلى الله، فإنه المالك لكشفها وكن خائفًا من الله في جميع أمورك والسلام، ثم مضى وتركني.

وقيل: إنَّ بِشْرًا الْحَافِيَّ ﷺ قال: لقيت رجلاً في طريق الشام عليه عباءة وهو كالوحش، فقلت له: من أين أنت؟ فقال: من عنده، قلت: وإلى أين تريد؟ قال: إليه، قلت: فبم تكون النجاة يرحمك الله، قال: في التقوى والمراقبة، قلت: أوصني، قال: فر منهم ولا تأنس بهم ولا تتعرض إلى الدنيا فإنها تعرضك للغضب، فإن أولياءه عرفوه فاستأنسوا به، فالأمر بينهم وبينه سليم، قال بشر: فسألته الصحبة فأبى، وقال: إنني لا أنساك فلا تنساني، ثم مضى وتركني.

قال أبو سليمان الداراني ﷺ: بينما أنا سائر في بعض جبال بيت المقدس، وإذا أنا برجل على رأس جبل فصعدت إليه، وإذا هو ساجد وهو يقول: إليك خشعت قلوب العارفين، وعليك عكفت رهبة الخائفين، وبك استجارت أفئدة المقصرين، فيا ولي المؤمنين، ويا مأمل الراجين، ويا راحم العاصين ارحم عبيدك إذا بعثرت القبور وكشفت الأمور وهتكت الستور، فوقفت حتى رفع رأسه وجلس وسلم، فسلمت عليه فرد عليَّ السلام، فقلت له: إذا كنت أنت تقول هكذا فكيف بأصحاب الذنوب؟ فقال: إليك عني يا هذا فما رأيت شيئًا أنفع للغريق من الدعاء، ولا أبلغ لصلاح القلوب من ترك الدنيا، ثم قال: اعلم أن قول المرء اليوم داء ليس له دواء، فبادر التفريط بالندم، وكابد التسويف بالعزم على العمل، واهرب من الخلق والسلام.

وحكي عن بعضهم إنه مر بعابد في رأس جبل، فقال له: متى تخلو القلوب من حب الدنيا، فقال: والله لا يخلو القلب من حب الدنيا والعين تنظر أهل الدنيا، والأذن تسمع كلامهم حتى يهرب المريد إلى الجبال، ويشارك الوحوش في مراعيها ومواردها، فلا يرى أن نعمة من نعم الدنيا أتم مما هو فيه.

وحكي أن أُوَيْسًا القَرْنِيّ ﷺ مرَّ بعابد في صَوْمَعة، فقال له: لم لزمت الوحدة؟ فقال: يافتى لو ذقت حلاوة الوحدة لاستأنست إليها الوحدة رأس العبادة، وأقل ما يجد العبد في الوحدة الراحة

=

من مدارة الناس والسلامة من شرهم، قال: قلت له فأين الطريق إلى الراحة؟ قال: في مخالفة الهوى، قلت: بم يقطع العابدون الأوقات؟ قال: بالسهر الدائم والظمأ في الهواجر، قلت: فمتى يجد العبد الراحة؟ قال: إذا وضع قدمه في الجنة، قلت: فلم هربت من الناس؟ قال: إنهم يسرقون العقول، قلت: بم يستعان على الزهد في الدنيا؟ قال: بقصر الأمل وذكر الموت ودوام العمل، قلت: فكيف يرتحل حب الدنيا عن القلب؟ قال: بهروب العبد إلى الفَلَوات وأطراف الجبال ورضاه بمرابط الوحش، قلت: فمتى تسكن الحكمة القلب؟ قال: حين يراك الله حرًّا من رق الشهوات.

وحُكي عن هرم بن حيان ﷺ أنه كان يقول: لم يكن بي هم إلا طلب أويس القرني حتى وجدته على شاطئ الفرات في وسط النهار وهو يتوضأ فعرفته بما كان وصف لي من شكله، وكان أسمر اللون كث اللحية عليه مهابة وهو صغير جدًا، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا أويس، فقال: عليك السلام يا ابن حيان، من دلك عليَّ؟ فقلت: الله، فقال: لا إله إلا الله سبحان ربنا إن كان وعد ربنا مفعولا، قلت: ومن أين عرفتني؟ قال: نبأني العليم الخبير، فعرفت روحي روحك، فقلت له: حدثني عن رسول الله ﷺ حديثًا أحفظه عنك، فقال: إني لم أكن بأرض رسول الله ﷺ، ولم يكن لي معه صحبة، ولكني رأيت رجالاً كانوا يصحبونه، وقد رأوه موقد بلغني من حديثه مثل ما بلغك، وما أحب أن أفتح عليَّ هذا الباب يا هرم بن حيان في النفس شغل عن الناس، قلت: فاتلُ عليَّ من آيات كتاب الله وأوصني فتعوذ وبسمل وبكى، ثم قال: قال ربي وأحق القول قول ربي، وحسن الكلام كلام ربي تعالى، وقرأ قوله تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** [الدخان:38، 39]، وشهق وأطرق مغشيًا عليه، ثم أفاق وقال: يا هرم بن حيان توفي رسول الله وتوفي أبو بكر الصديق [وولي] عمر بن الخطاب، وكان ذلك في آخر خلافة عمر، فقلت: أما عمر فهو حي، قال: إن ربي ﷻ قد نعاه إلى أن كنت تفهم، وأنا وأنت في الموتى، ثم صلى على النبي ﷺ ودعا بدعوات خفيفة، ثم قال: أوصيك بكتاب الله وسنة رسوله وبقايا الصالحين ولصلاة على رسول الله، وذكر الموت واستودعتك لله والسلام عليك، ثم ولى فسألته أن أمشي معه ساعة فأبى، وقال لي: أحب الوحدة وأكره العشرة، ففارقته ولم أره بعد ذلك ولم أسمع له خبرًا.

قال بعض الحكماء: مررت بصومعة بها راهب، فقلت له: يا راهب ما معبودك؟ فقال: الذي خلقني وخلقك، فقلت: هو عظيم؟ فقال: عظيم في المنزلة لا في الجسم؛ لأنه ليس كمثله شيء، قلت: فما الذي قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوا والذي وصل بهم إليه بعد أن جهلوا؟ قال: قطعهم عنه حب الدنيا؛ لأنها أصل المعاصي، وأوصلهم إليه تركها، قال: تركها ثلاث منازل:

أولها: العفة عن الحرام من القول والفعل والعزم على ذلك حتى تطع الله فيمن عصاه، ويعتدل عندك الصديق والعدو ويصيران في الحق واحد، فعند ذلك تنفجر ينابيع الحكمة من صدرك

=

التعبد

قال الله جلّ من قائل: ﴿**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:185]، فأولى العبادات وأرفعها قدرًا التفكر والنظر، وقد أخبر الصادق الحق ﷻ أن النظر من العبد والفكر يسع السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء إذا سلك بنظره صواب القصد، وهذا من أخص الشواهد على عظيم عظمة ربنا ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أن يجعل همة عبده العارف تتسع لجملة المخلوقات علوها وسفلها، ويسر لعلمه أن يحيط بها خاطره دون زمان محصل، فسبحانه وله الحمد، ما أعظم شأنه، وإذا كان تعظيم العبد ربَّه عن عظيم القدر بمعرفة عظمة ربه وعظمة صفاته رأى عظمة الله في كل شيء دق أو جل؛ لأنه يعظم عنده قدر اللطيف من حيث لطف لما شاءه حتى أتم فيه مشيئته، كما يعظم قدره عنده بإيجاده العظيم من مخلوقاته، والجسيم من جليل موجوداته.

وإذن كل ما نظر فيه المعتبر ببصره أو يقع عليه همه فعظمة الله ﷻ تبدو له فيه وشاهدها، فكيف به أن فتح لوهمه باب الممكن الجائز، بل هو الواجب وجوده، وذلك أن العلم قد تحصل بأنه ﷻ لا تتناهى مقدوراته ولا تضيق مشيئته عن أن يشاء لما شاء، فإنه لو شاء أن يوجد أمثال ما قد أوجده من عوالم على عدد ذرات ما أوجده فيما أوجده، وأضعاف مقادير مثاقيل الذر عوالم، كذلك أوجد على تضاعيف ما تقدم لم يكن ذلك عليه بأعظم إيجاد خردلة أو مثقال ذرة من ذرات، وهذا العالم كذلك، ليست الذرة بأهون عنده من إيجاد أضعاف أضعاف ذرات ما أوجد عوالم، سبحانه وتعالى عن مس النصب واللغوب، و﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ**

=

وتتداعى بصائر الهدى بنور الإيمان عليك.

الثاني: ترك فضول الحلال من المقال والمنازل والفعال حتى ترحم من ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك وهي الفضيلة.

الثالث: العبادة، وترك العلو والرياسة وصحة الصحبة، وحسن اليقين بالتوبة، والتواضع وثمرته العمل.

فقلت: الله صبرك على الوحدة، وأعانك على طاعته والسلام عليك، فقال لي: وعليك السلام، فتركته وانصرفت عنه والسلام. [المقصد الأسنى ص 84] بتحقيقنا.

لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:82].

«قد جاء أن جبريل عليه السلام أرى رسول الله ﷺ نفسه على خلقته التي خلقه الله عليها سادًا أعظم خلقة ما بين المشرق والمغرب، له ستمائة جناح، فهال رسول الله ﷺ ما رآه من خلقه واستعظمه فقال: كيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه لتحت تخوم الأرضين، وإنه على ذلك ليتضاءل أحيانًا من عظمة الله حتى يصير كالوَصَعِ»[1] يعني: العصفور الصغير.

فهذا عبد من عباده فما ظنكم بخالقه العَليّ العظيم رب العرش العظيم، فلذلك فاعبده على ذلك، واستقم كما أمرت، ولا تطغ، وميز صفاته العلا من صفاتك الحقيرة، فصفاته: العظمة والعلاء والكبرياء والألوهية، وصفاتك: المحدثة المخلوقة المربوبة المملوكة، وقرر نفسك على ذلك حتى يصح ذلك منك علمًا وعملاً به.

عَظّم قدره جَلَّ ذِكْرُهُ وعَظّم أسماءه وعَظّم صفاته، فلا تذكره عند لهوك ولعبك وأباطيلك إلا ذكر تعظيم لشأنه وتوقيرًا لمقامه وهيبة له، حتى ينهاك ذكره عن الفحشاء والمنكر، وعظم اطلاعه عليك ونظره إليك، فإنه ناظر إليك أبدًا، حتى كأنه ما خلق خلقًا سواك ولا يراقب غيرك، فعظم عظيم نظره إليك ومشاهدته إياك، ولا تقصه إلا بحيث لا يراك، ولا تخالف أمره إلا في أمر لا يطلع عليك فيه ولا يشاهده منك، وتحقق في ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «**أحيوا قلوبكم بقلة الضحك، وطهورها بالجوع تنظروا إلى عظمة الله، قيل له: يا رسول الله، ينظر إلى عظمة الله؟ قال: من جاع عظم قلبه وعظمت فكرته**»[2]، وقال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من السوء لا يلقي لها بالاً**»[3] **وفي** أخرى: «**يريد أن يضحك بها أصحابه يهوي بها في سخط الله أبعد ما**

---

(1) رواه ابن مبارك في «الزهد» (ص232).

(2) رواه أبو نعيم في «الحلية» (10/186).

(3) أخرجه الترمذي (4/557، رقم 2314). وابن ماجه (2/1313، رقم 3970). والحاكم (4/640 رقم 8769).

بين السماء والأرض»[1] وقال الله ﷻ: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:46]، ﴿**فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران:175] ﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة:197].

وكذلك عَظّم كتبه وعَظّم رسله وملائكته وأولياءه وعَظّم المؤمنين، وعَظّم طاعته وعَظّم حرماته، وعَظّم مناسكه وشعائره[2].

---

(1) أخرجه الترمذي (557/4، رقم 2314) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (1313/2، رقم 3970).

(2) **تتمة جليلة:** قال الأستاذ مصطفى البكري: **وأما اسمه تعالى العظيم**، فقال صاحب «دقائق الإشارات» قال: عز من قائل، وهو العلي العظيم، وعنه ﷺ أنه كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا هو الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرضين ورب العرش العظيم**» أخرجاه في «الصحيحين»، ومعناه: أنه الذي لا يمكن الامتناع عليه على الإطلاق؛ لأن عظيم القوم إنما يكون مالك أمورهم الذي لا يقدرون على مقاومته ومخالفته؛ إلا أن يدخل عليه العجز وما مات فيه؛ فيدخل عليه العجز فيما في يده فيضعفه، ويستطاع مقاومته.

والله تعالى قادر لا يعجزه شيء، ولا يمكن أن يعصي كرهًا، ويخالف أمره قسرًا؛ فهو العظيم إذا حقًا وصدقًا، وغيره لا يصح وصفه به، قال الخطابي: العظيم ذو العظمة والجلال، ومعياره وينصرف إلى عظم الشأن وجلالة القدر دون العظيم الذي هو من نعوت الأجسام، انتهى.

وقال سيدي محمد القونوي رحمه الله تعالى: العظيم بعلو شأنه في قلوب العارفين الذي عجزت الأبصار عن إدراك سرادق عزه وكلّت الألسن عن جلال قدره. اعلم أن الواقف في مقام العظمة إما مؤمن وإما صاحب شهود، وذلك أن الأمر يعظم بقدر ما ينيب إليه من التفرد بالاقتدار ونعوت الأحكام؛ فإذا كان الكبرياء والاقتدار بحيث لا اقتدار لأحد على رد حكمها، ولا يقف شيء لأمرها؛ لعظمة وقوعها في القلوب حتى ينتهي إلى الحيرة والدهش، فظهور عظمة الحق تعالى وكبرياؤه في قلوب أهل الإيمان إنما هو بحب معرفتهم آثار الأسماء الإلهية، فمن كانت معرفته بصفات الحق أكمل كانت سطوة تجليات العظمة عنده أتم، ولذلك كان ﷺ يقول: «**أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه**». وأما صاحب الشهود فلا تحصل له صورة العظمة إلا التجليات الجلالية من غير أن يخطر له شيء من تأثيرات الأسماء والأحكام الإلهية؛ بل بمجرد التجلي تحصل العظمة في نفس من يشاهده، وشهود هذه العظمة لا تحصل إلا لمن يكون الحق سمعه وبصره، لا لمن شاهد بنفسه؛ لأن شهود كل شاهد بحسب عقله، وما يفضي دليله المفيد، فعلى هذا ما عبد الله قط من حيث ما هو عليه، وإنما عبد من حيث ما هو مجهول في نفس العابد =

واعمل في ذلك كله بما يرضي العظيم الحق ﷻ، قدم من ذلك كله ما قدمه وأخر ما أخره، وعظم حدوده أن تتعداها، ﴿**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [البقرة:229].

وكذلك فحقر ما حقر الله، تعاظم على أعدائه وأهل مشاقته على السبيل التي يرضاها، وقابل كلاً بما يستأهله على قدر خروجه من الهدى واتباعه مهالك الردى، تكن بذلك من حزبه وأوليائه، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم اجعلني حربًا لمن حاربت، وسلمًا لمن سالمت**»[1].

=

بحسب اعتقاده في الله، ولهذا السر أقام الحق عذر عباده بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ** ﴾ [الأنعام:91]؛ لاشتراك الكل في الجهل وتقييد المدة، فلا شهود أعظم مما ارتبطت عليه أفئدة العارفين من العقائد الذين يشهدونها من غير تقييد، فلا يلحق عظمتهم عظمة معظم أصلاً، انتهى. قال الجيلي -رحمه الله- في «الكمالات»: اسمه تعالى العظيم: هو الذي علت مكانته فعزت ذاته، وتجاوزت حد النهاية في الجلال والكبرياء من صفاته، وهذا الاسم من أسماء الصفات، وصفة هذا الاسم العظمة، وهي عبارة عن تجلٍّ إلهي يشمل الكمالات الإلهية تجليًا لا يطيقه غيره للمقتضى الذاتي؛ فإن هذا التجلي اقتضت الذات لذاتها، وقد بينا الفرق بين التجليات التي تقتضيها الصفات لصفاتها في كتابنا المسمى بـ «الإنسان الكامل»، فلا حاجة إلى تكراره هنا، انتهى. وقال سيدي محيي الدين -قدس الله روحه- في «شرح الأسماء» للاسم العظيم: التعلق بافتقارك إليه في أن تكون عظيمًا عنده لا عند الأكوان؛ إلا أن تكون مبَلِّغًا عن الله أمرًا، فتحب أن تقابل بالاحترام وتثبت عظمتك في قلوب السامعين ليُتَلقى أمر الله بالحرمة، فتكون في هذا الطلب والافتقار إليه ساعيًا فيه في تعظيم الحق عند الكون، لا في تعظيم نفسك.

التحقق: العظمة على الإطلاق لا تكون إلا لمن استحق الاسم الإلهي، وما سوى هذا فتعظيم إضافي.

التخلق: العظمة حال يقوم بنفس المعظم بتلك المنزلة، وقد لا يكون، قال أمير المؤمنين هارون الرشيد: من هذا الباب ملك الثلاث الإنسان عناني وخلقه من قلبي بكل مكاني مالي تطاوعني البرية كلها، وأطيعهن ولهن في عصياني ما زال؛ إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني، انتهى.

(1) ذكره نصر بن مزاحم في «وقعة صفين» (ص93) من قول سهل بن حنيف لأمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله وجهه.

اسمه الجليل ﷻ

قد يستعمل في الظاهر على جريان العوائد، الجلال بمعنى العلو، فمن ذلك تسميتهم غطاء الدابة جلاً، وجلال كل شيء غطاؤه، وجللت فلانًا بالسيف أي: علوته به، وقد يستعمل فيما يقاربه بمعنى الظهور، من ذلك قولهم: أمر جلي؛ أي: ظاهر بيّن، وجلا القوم من ديارهم، أي: ظهروا في غيرها، ومنه: رجل أجلى الجبين؛ لظهور أعلى الجبهة بعد انحسار الشعر، وكذلك قولهم: جلوت العروس، أي: أظهرتها، ولذلك بأن تجعلها على منصة ليكون ذلك أظهر لها، وجلوت السيف والمرآة إذا أزلت صداهما وأظهرت صقلتهما، ومنه قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:143] أي: ظهر له، أو أظهر له من آياته، وأمره ما شاء، وقد يستعمل بمعنى الخيرورة، من ذلك قولهم: خذ جليل هذا، أي: أفضله، ورجل جليل من ذلك أيضًا، وقد تستعمل بمعنى العظم والكبر، ومن قولهم جللت الشيء: أخذت جلاله وهو كبيره وجليله، وقد يكون من الأضداد في هذا الباب فيقع على الصغير كما يقع على الكبير، هذا حكاه نقلة اللغة والأصل المتفرع منه، هذا ما تقدم ذكره أنه من الجلل والكبر والعظم. وعندي - والله أعلم - أن هذا الاسم متردد بين هذه المعاني المتقاربة، أعني: العلو والظهور والكبر والعظم والخيرورة، ولذلك ما أشكل فعبر عن كل واحد منهما مقاربةً وتجوزًا، غير أنه يتبين بما تركب من حروفه على الأكثر والأغلب من ذلك فأكثر ما يكون وأبين وقوعه بمعنى الظهور إذا تركب مع الجيم واللام حرف جوفي أو صدري فيكون من الكلمة بموضع اللام من الفعل؛ كالجلي والأجلة والأجلى، وقد قالوا: الأجلح كجلاء العروس والسيف والمرآة، فإذا تركبت الأصليتان الجيم واللام، ثم تكررت اللام في الكلمة في موضع العين واللام منها كان ذلك عبارة عن معنى العظم كقولهم: خطر جليل وجلل، وكذلك في الأمر وأمور جلّى وجلية، وجل الشيء معظمه، وتارة عن معنى الظهور؛ كجلال البدن وجللته بالسيف، وتارة عن معنى العلو في القدر؛ كقولهم رجل جليل من قوم جلة، والإجلال والإعظام إذا جامع معاني الخير والعلو والعظم والكبر والظهور هو صفة للجليل، والإجلال والإعظام حالتان للمعظم والمجل لازمتان

عن العظمة والجلال ضرورة.

الاعتبار

يقال: فعلت ذلك من أجلك، ومن جللك، ومن جلالك، أي: بك وبسببك على يديك ونحو هذا ويقرب منه الآجال كلها على تصرفها، وإنما ضربت الآجال لتفضيل القضايا عند حلولها فيكون الكائن من أجل حلول الأمر الذي أحل الأجل ولكل شيء أجل؛ لأن كل كتاب أجل وكل أجل له كتاب قال الله ﷻ: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ**﴾ [يس:12] ﴿**وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ**﴾ [القمر:53]، كما قال: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف:34]، وكل كائن فمزموم بزمامه مجدود بآجاله، مقادير الخلائق كلها قد فرغ الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - منها، فهي مسطورة في أم الكتاب على مساطيرها المقدرة في المشيئة العالية والعلم المحيط، ثم هي مرتبة في الإيجاد بالأمر النازل المتقيد على مراتبها؛ فيفصل بالأمر العلي عند انقضاء الأجل المضروب والوقت المحدود ما أراده على ما سبق المتقيد على مراتبها فيفصل بالأمر العلي عند انقضاء الأجل المضروب والوقت المحدود ما أراده على ما سبق في علمه السابق خطه القلم بإذنه في اللوح المحفوظ، ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [النحل:40]، ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾ [الإسراء:12].

فإذن كل شيء حادث يحدث أو أمر ينزل أو قضاء يفصل أو عمل يصعد أو كائن يكون فلجلال ذي الجلال يكون؛ إذ الجلال وجود نعوت التعالي، والإجلال حال تلزم نفس المجل ضرورة، فلأجله يكون الانفعال في الكائنات، والطاعة لمن لأجله تكون طاعة، والله أعلم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**أَلِظُّوا بِيَاذَا الجلال والإكرام**»[1].

وعلى معاني الإجلال والإعظام والإكبار أنبتت حقيقة الصلاة، فالقيام للإجلال، والركوع للإعظام، والسجود للإعلاء، والافتتاح والخفض والرفع للإكبار، وما بين ذلك معنى قوله ﷺ: «**لو يعلم المصلي ما يناجي ما التفت**»[2].

---

(1) رواه أحمد (177/4)، وأبو يعلى في «مسنده» (445/6).

(2) أخرجه عبد الرزاق (49/1، رقم 150)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (146)، وابن أبي الدنيا =

وعلى معاني هذه الأسماء والصفات ونحو هذا مما يقابل صفات العبد قسم الله ﷻ الصلاة، فقال: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1] إلى ما يعرض في أثناء الصلاة من اختلاف الأغراض والمطلوبات من سؤال محبوب وتعوذ من مرهوب، أو تعداد نعم يجب عليها الشكر أو امتنان منه ﷻ، يتعرف به إلى العبد يجب عليه الإيمان به والشكر والحمد عليه، ثم جميع أعمال الطاعات والانتهاء عن جميع المنهيات متابعة للصلاة، وعلى هذه المعاني أبنيت مع ما يختص به كل من معناه الخاص به على ما سيأتي ذكره إن شاء الله، فاعلم ذلك.

التعبد

أيها العبد - وفقك الله - أجل ربك ﷻ وأجل مقامه ونظره إليك وتهيبه، والزم الوقار والسكينة والحياء بين يديه، واضرع بخضوع واستكانة وخشوع بجلاله، واسأله به أن يرحمك ويعافيك ويعصمك، عساه أن ينظر لضعفك ويرحم فاقتك ويجبر كسرك ويقوي ضعفك ويشجع جبنك ويصلح لك جميع أمورك، فقد قال رسول الله ﷺ: «**أَلِظُّوا بِيَاذَا الجلال والإكرام**»[2].

وكذلك فأحل ما أحل الله، والتزم إجلال أسمائه وكتبه وملائكته ورسله وأنبيائه، واسلك في ذلك كله مسلكًا يرضيه عنك، تنبه لمحابه وتأدب له بما أدبك من آدابه، إنه فرض عليك الوضوء للصلاة، والغسل من الجنابة؛ إجلالاً لمناجاته والوقوف بين يديه، وإجلالاً لكلامه وكتابه أن تتلوه على غير طهارة، وذلك عزم منه عليك على ظهر باطنك بالتوبة النصوح، وكذلك حضك على السواك يعرض لك في ذلك المحافظة على غاية الطهارة والنظافة في جسمك وقلبك ونفسك، قال رسول الله ﷺ: «**لا يصلي أحدكم بحضرة الطعام ولا وهو يدافعه الأخبثان**»[3] إجلالاً لجلاله ﷻ أن يقف أحدنا

=

في التهجد وقيام الليل (418) بنحوه.

(1) رواه مسلم (94/3)، وأبو داود (105/3)، والترمذي (177/11).

(2) تقدم.

(3) رواه ابن حبان (135/9).

بين يديه وهو مشتغل بسواه غير مقبل عليه ولا مفرغ قلبه لتفهم كلامه وتعرف معاني خطابه، وهو أيضًا إجلال لمن توجهت بعملك إليه، يعرض لك في ذلك بقطع العلائق ونبذ الشواغل والتجرد لخدمته وتفريغ السر لذكره، قال الله جل قوله: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ**﴾ [النساء:13]، أي: على كل أحيانكم وعلى جميع أحوالكم، ومن يتعبد بمقتضاه طول القيام له على الأقدام والقصد له في بيوته وعمارتها بما يرضيه ويقرب منه ومن ذلك طول المراقبة له في السر والعلانية وترك الالتفات إلى سواه.

وحقيقة المقصود في ذلك أن يصير الغالب على قلبك ذكره، فإنه شاهدك ورقيبك مطلع عليك فترجع إليه في كل حال وتخاف من سطوته في كل نفس، سئل بعضهم: بم يستعين المرء على حفظ بصره عن المحظورات؟ فقال: بعلمه أن نظر الرقيب سابق نظره إلى تلك المحظورات.

واحرص كل الحرص على أن يجعل عملك كله له ولأجله؛ لأنه الله الذي لا إله إلا هو ذو الجلال والإكرام، ولما يستحقه من عبادة، لا لثواب ترجيه ولا لعقاب تتقيه، فتكون حينئذ كالمتطوع بعبادتك، وإلى هذه الدرجة انتهت عبادة العابدين وعنها انبعثت، وهو المراد الأول بها لما لم يكن لكل المكلفين تناول هذه الدرجة فضلها لهم على درجات رأفة بهم ورحمة، فعبده قوم لأجل مخافته، وآخرون لأجل رجائه، وآخرون لأجل جلاله؛ لأنه الله ذو الجلال يستحق من عباده الإكرام فتذوق من طعم العبادة مذاقًا لا تحسن أن تتوهمه فكيف أن تصفه! واحذر ثم احذر أن تجل نفسك أو تطلب لها ذلك، واسمع إلى قول رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[1].

وروى أنس بن مالك ﷺقال: «**مَا كَانَ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ رُؤْيَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ**»[2].

(1) رواه أبو داود (142/15)، والبيهقي في «الآداب» (144/1).

(2) رواه أحمد (6/29)، والترمذي (90/5).

«وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه جالسًا، وقد جحش شقه الأيمن، فقاموا خلفه فأومأ إليهم أن اجلسوا، فلما فرغ قال: كدتم أن تفعلوا كما تفعل الأعاجم تقوم على ملوكها، إنما جعل الإمام ليؤتم به»[1].

ثلاث أكرم الله ﷻ بهن الإسلام والحمد لله رب العالمين: لا يسجد أحد إلا لله جَلَّ ذِكْرُهُ، وتحية التعظيم وهو الركوع لا يفعل ذلك من آمن بالله ورسوله إلا لله، وتحية الإجلال نهى المجل أن يرضاها وأن ينتظرها وندب المجل أن يفعلها إكرامًا ليبتلي الله كلاً في مقامه ويختبره في درجته.

قال رسول الله ﷺ للأنصار وقد جيء بسعد بن معاذ مريضًا بين وسادتين من ليف ليحكم في بني قريظة: **«قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»**[2].

اسمه ذو الجلال عز ذكره

يقال: جل يجل جلالاً وجلالة وهو جليل، والله جَلَّ ذِكْرُهُ جل بنعوت التعالي، وعلى الصفات وكريم الأسماء وعظيم العظمة ونزاهة وجوده، الرفيع عن جميع نقائص المحدثين وحالات المخلوقين ومقارنة المقارنين، وهو ذو الجلال بمعنى أن له الجلال، وقد تقدم الكلام في معنى اسمه الجليل فأغنى عن الترداد.

---

(1) أخرجه عبد الرزاق (460/2، رقم 4078)، والطيالسي (ص 280، رقم 2090)، وابن أبي شيبة (286/7، رقم 36134)، وأحمد (110/3، رقم 12095)، والبخاري (257/1، رقم 699)، ومسلم (308/1، رقم 411)، والترمذي (194/2، رقم 361)، والنسائي (83/2، رقم 794)، وابن ماجه (392/1، رقم 1238)، وابن حبان (460/5، رقم 2102).

(2) رواه البخاري (280/9)، ومسلم (41/12).

اسمه الرفيع الدرجات سبحانه وله الحمد

هذا الاسم معناه من معنى اسم العَلي ﷻ أي: رفيع درجاته، كما يقال: حسن الوجه، أي: حسن وجهه، وجزيل العطاء، أي: جزيل عطاؤه، ويكون رفيع بمعنى رافع والله أعلم، كرحيم بمعنى راحم.

اسمه العزيز ﷻ

العزة: المنعة، لذلك قيل: إنها بمعنى الغلبة والقهر، قيل للمغالبة المعازة، قال الله ﷻ حكاية عن أحد الخصمين إلى داود ﵇: ﴿**وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾ [ص:23] ويقال أيضًا للشدة المعازة، من ذلك عازني فلان فعززته بمعنى غالبني فغلبته وشادني فشددته، قال الله جل قوله: ﴿**فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**﴾ [يس:14] أي: شددناهم وقويناهم، والشديد منيع، ومنه قولهم عن الشيء: عزازة إذا قل وكل منها عبارة عن المنعة، والعزوز من أسماء فرج المرأة البكر، قيل للشاة الضيقة الأحاليل: عزوز؛ لامتناع خروج الدر عنها إلا بجهد وعسر وشدة على متناوله، وقيل الأرض الصلبة: عزاز؛ لامتناعها على من أراد يحفرها، وقد عزز المطر الأرض إذا لبدها فاشتدت لذلك، وقالوا: العزاء السنة الشديدة، ويقولون: أعززت بما أصابك، أي: اشتد على ذلك وعظم، ويقولون: ملك أعز، أي: منيع، وأعززنا في الأرض إعزازًا إذ أوقفوا بلدًا غليظًا، وعاز الرجل غنمه إذا كانت مراضًا لا ترعى فيتجشم أن يحتش لها، من ذلك أيضًا لشدة ذلك عليه وصعوبته، وقالوا: أعززت الرجل إذا وددته، ومن ذلك قولهم: أنت عزيز عَليّ، أي: امتنع عَليّ وجود مثلك واشتد عليّ ما أصابك، ومن أمثالهم: من عزيز، أي: امتنع وجود مثله، أو عذب لقاؤه، ارتفع قدره، والرفيع من المتاع يقال له بز، ومن كرم في قومه فامتنع عليهم وجود مثله، أو العوض منه، فهو لذلك عزيز عليهم رفيع

القدر لديهم.

العبرة

ينبغي لنا أن نتطرق إلى الاعتبار لمعنى العزة باعتبار الوجود، فهو جزيل النفع كثير الغنى في هذا السبيل؛ إذ الوجود عبارة عن وجود الموجود بمعانيه كلها بأسمائه وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل لديه، فهو الموجد الواجد والموجود أيضًا بمعنى، يقال من ذلك: وجدت الشيء بمعنى أصبته، أجده وجدًا ووجودًا ووجدانًا وجدةً، وقالوا: وجدت وجدًا وجده بمعنى استغنيت، ووجدت في الحزن أجد وجدًا وموجدة في الغضب، والاسم في ذلك الواجد، وقد قيل الواجد اسم من أسماء الله ﷻ، وهو بمعنى الغني والله أعلم، وسيأتي الكلام على اسم الغني في رسمه إن شاء الله تعالى.

ومن العبرة بما يقارب ذلك الجَدي وهو الغنى، تقول: ما يجدي عليك هذا، أي: ما يغني، ويقال جدى عليه يجدوا أعطاه، وهي الجدوى والجدي معنى هذا كله الغناء، وكذلك هو الموجد بمعنى المعطي بمعنى الإيجاد، وهو إخراج الموجودات من العدم إلى الوجود، وقد قيل: إن الموجد هو من الأسماء والله أعلم.

فهو إذن الموجد لكل موجود بإيجاده إياه، يقال من ذلك أوجد يوجد إيجادًا فهو موجد وأجاد في إيجاده فهو مجيد، وكذلك هو الموجود لمن طلبه بما نصب على معرفته من الآيات، وأقام على سبيل معالمه من الدلالات، وهو أيضًا الموجود لمن طلبه لطاعته والعمل بمرضاته، قال الله ﷻ: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء:110]، وقال عز من قائل: ﴿**وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**﴾ [النور:39].

وإنما يعلم وجود الموجودات سواه من وجود الحق، كما يتحقق وجوده الحق من وجود مفعولاته، فهو إذن الواجب الوجود وما سواه ممكن وجوده، وإنما دخل وجود الأغيار في الإمكان من حيث مشيئته العالية وقدرته النافذة وعلمه المحيط، ما شاء من الإيجاد أوجده وما لم يشأ لم يكن له وجود وسيأتي ذكر هذا إن شاء الله تعالى، فالعزيز إذن هو الغالب الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يقهر، والمانع الذي لا يمنع.

ويقال: عَز يعز برفع العين إذا غلب كقول القائل: ﴿**وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ**﴾ [ص:

23]، أي: ملك الخطاب دوني فمنعني المحاجة، وقد قيل: العزيز هو الذي لا مثل له، ويقال عِز يعز بكسر العين في المستقبل، أي: صار عزيزًا، ويقال: عَز الشيء إذا قل وجوده، وإذا كان الذي يقل وجوده عزيزًا، فالذي لا يجوز أن يوجد له مثل ولا شبيه أولى بذلك جدًّا، وقد قيل العزيز في وصفه هو بمعنى القادر القوي، يقال منه: عَز يعز بفتح العين في المستقبل إذا اشتد، وإذا كان ما يتعذر الوصول إليه مع جوازه يسمى عزيزًا، فالذي يستحيل الوجود إليه أولى بأن يكون عزيزًا.

والعزة فينا ضدها الذلة، وكل متصف بهذه الصفة سوى العزيز الحق فإنما له منها مجازها وله ﷻ منها حقيقتها على الإطلاق، فهو العزيز الذي لا يضام جاره ولا يذل أنصاره، وهو المنيع الذي امتنع عن الأبصار أن تدركه وعن الأوهام أن تكفيه، وهو القوي الذي لا يغالب، والقادر الذي لا يناهض، وهو الذي لا يعجزه شيء ولا يتعذر عليه، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، لا تدركه الألماس ولا يقاس بالناس، تعالى في علائه وتقدس في كبريائه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم فعله، أمضى القضايا دون راد لها، وإنفاذ الأحكام دون متعقب فيها، هو الذي رتب المرتبات على جريانها، وقسم الأقسام على متقاسماتها، وصرف الأمور في متصرفاتها، وأجرى التدابير في حكمته على أحكامها، فأحل أهل الخصوص عنده في أعالي الدرجات وأسفل بآخرين إلى أسفل الدركات، ويسير جميعهم لما سبق في سابق علمه فيهم، ولكل درجات مما عملوا بخفض القسط ويرفعه، لا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، ما عازه أمر قط، ولا عزه ولا شاده أمر ولا أعجزه، ولا أراد شيئًا إلا شيأه له، تقاصد البعيد ولان الشديد وتذلل الصعب وظهر الغيب، كيف فكل غيب فهو غيبه وهو مشاهده وكل صعب فهو الذي كذلك أوجده وكل هارب عنه ففي قبضته يتغلب وكل شارد عنه، فإليه يذهب عزّ العقول فلا تتصوره، وجل عن الإشارات فلا تثبته، ألبس الجبابرة عزته فذلت، وصب على الوجوه مخافة سطوته فعنت، ورمى الغلب من الرقاب بهيبته فخضعت، عز فلا يذل ولا يغلب، وقدر فلا يتكلف ولا ينصب، كيف يجوز عليه النصب أو اللغوب **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [يس:82]، الحدود لا تقطعه والأعداد لا تحصره، ليس لذاته تكيف ولا لفعله تكليف.

فاستصحب - هداك الله - النظر بصحيح الفكر فإنك تجده ﷻ عزيزًا منيعًا معزًا

لأوليائه مانعًا لهم وعنهم، قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحج:38]، ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾ [البقرة:251]، المعنى إلى آخره وكذلك فانظر إلى أنواع المخلوقات على تباينها فما امتنع الممتنع ولا انتصر المنتصر ولا شاد المشاد على اختلاف ذلك كله إلا بمقتضى ما عبر عنه هذا الاسم الكريم وموضعه من الأعمال، الطاعات لله كلها على الصراط المستقيم وموضعه من الثواب العافية والجنة؛ إذ العافية كلها نصر والجنة ظفر، كما موضعه من العقاب العذاب كله ولخاصة الإذلال والخزي والهون كله، ولذلك كانت هذه الصفة وما عبر عنه هذا الاسم جامع.

التعبد

اعلم - هداك الله - أن العزيز الحق ﷻ حرم على عباده العلى والتكبر والتعزز في الأرض بغير الحق، فقال ﷻ: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص:83]، وقال ﷻ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ**﴾ [البقرة:206]، وقال جل قوله: «**الكبرياء ردائي والعزة إزاري**»[1] وفي أخرى: «**العظمة**» مكان العزة «**من نازعنيهما قصمته**»[2].

وإنه ﷻ للذين سبق في سابق علمه وأراد من إنفاذ حكمه الذي جعله ابتلاءً واختبارًا لعباده عن فهم بأنفسهم ليعرفوه إحسانًا منه إليهم وامتنانًا عليهم، فأعلمهم مما خلقهم وفيم أنشأهم ليعرفهم بقدرهم ويوقفهم عند خطهم ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾ [الأنفال:42] فقال ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ**﴾ [المؤمنون:12،13]، وقال جل قوله: ﴿**وَبَدَأَ**

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه أحمد (414/2، رقم 9348)، وهناد في الزهد (421/2، رقم 825)، وأبو داود (59/4، رقم 4090)، وابن ماجه (1397/2، رقم 4174). وأخرجه أيضا: ابن حبان (486/12، رقم 5671).

خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة:7-8]، ومثله في القرآن كثير شائع، فأعلمه أنه جعل أصله من التراب الذي جعله للأقدام مداسًا وللنعال موطئًا، ثم جعل خلقه بعد من ماء مهين لا حراك به ولا انتصار له، تقدره نفس الإنسان وتغسل منه الثياب، وأكد ذلك عنده بأن أوجب عليه غسل بدنه كله من ذلك لعلة خروجها منه؛ إعلامًا له بأصله وتنبيهًا بقدره.

خطب رسول الله ﷺ يومًا فقال في خطبته وبصق في كفه يقول الله ﷻ: «**أتعجزني يا ابن آدم وإنما خلقتك من مثل هذا**»[1].

ثم أبرزه بعد ذلك وأقره في قرار وجمعه في وعاء وغذاه بغذاء لو أبصره بعينه وشاهده بعقله لسخنت بذلك عينه وانزوت عند ذلك نفسه، ثم قدر خروجه عن مستقره ذلك من حيث يعلم لا يستطيع إنكار شيء من ذلك، ولا يمكنه جحده كان أبو بكر الصديق ﷺ كثيرًا ما كان يقول في خطبته: أيتكبر أحدكم وقد خرج من مخرج البول مرتين.

ثم بعد هذا ألزمه ذلك ذل الفقر إليه فلا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن من ذات نفسه بل بمعونة من بارئه ﷻ، وهو مع ذلك تنقض عزائمه وترد إرادته وتنعقب أعماله وتترقب أحواله وتحصى أنفاسه، مزموم بزمام القدر مثقف بإلزام مقتضى الأمر والنهي، مملوك الأولية والآخرية، مصور الظاهر على غير اختياره، مجهول الباطن قد ألزمه الذل العتيد والفقر القعيد ذل الفقر إلى الطعام والشراب وذل إخراجه، ويكفي بذلك ذلاً مهيبًا، ثم جعله يتنخم على فيه شيئًا إذا نظر إلى ما خرج من فيه قذارة وأشاح بوجهه عنه نزاهة منه وإبعادًا له، وإلى هذا جعل المخاط على فمه في وسط وجهه الذي هو أعز الأعضاء عليه، وجعل الوسخ في أظافره والوضوء على جلده، والقلح في أسنانه، والشعث في شعره، والسهك في بشرته ما لم ينظف، والقذى في عينيه إلى غير ذلك من أقذاره.

وكذلك أذله بالخوف اللازم لا يكاد يخلو منه على حال ما كان معدودًا في أهل

(1) رواه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (869)، والإمام أحمد في «المسند» (17576)، والطبراني في «مسند الشاميين» (1080).

التمييز؛ لأنه إن لم يهتم بآخرته اهتم لدنياه ولا محالة، وأذله أيضًا بالمرض وبالموت وبالفقر فهو يتغلب ولا يأمن مخافته طرفة عين يتوقع أبدًا ميتة تفاجئه أو بَليّة تنزل به أو فتنة تضله ومحبوبًا يفقده أو مطلوبًا يفوته، وكل مكروه يتوقعه قد جعل لكل هذا عرضًا إلا ما دفع الله كل ذلك من الله عليه؛ ليعرفه قدره فينبه على رشده، وجعل هذا كله آيات على مكروهات تصيبه إن لم تحطه رعاية من ربه جَلَّ ذِكْرُهُ.

ذكر بعض المعتبرين: عجبًا لابن آدم بكل مرصد له عدو، إنه ليغلق بيته على أعداء ذوي عدد أولها: نفسه المضلة له وهي أكبر أعدائه وأضرهم عليه، وشيطانه، وزوجته، وولده، وماله، وحية تكون في بيته من عوامر البيوت، والوزغ والفأر والقمل والبق والبراغيث، وصدق رحمة الله عليه.

وإذا أمعنت النظر وتابعت التدبر وجدت كل شيء في الدنيا له عدو إلا ما كان من ذكر الله أو أوى إليه، ألا ترى أن كل مأمول عنده ومرغوب فيه كل تقصير عنه له مود وكل إفراط منه مضر، وكذلك إن حققت النظر وجدت جميع أحوال بني آدم في متقلبهم ومثواهم وتحركهم وسكونهم مبنية على التعذيب والنكد، وإنما معنى الراحة فيها خاطر طارئ، لو قيل له: اقعد أبدًا، أو كن متكئًا أبدًا دهرك كله أو مضجعًا أو قاعدًا أو قائمًا، أو اسكن في مكان مقصورًا عليه لا تصير منه إلى غيره، أو ارتحل أبدًا، لكان قد كلفه ما لا صبر له عليه، فتحقق بذلك ما ذكرناه، وإنما الراحة بالتحول من حال إلى حال، ثم ترجع حاله إلى ما أنبتت عليه، وهي حقيقة قول رسول الله ﷺ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»[1] من حيث إن الإيمان قيد الفتك في حق المؤمن، فهو لا يتقلب في كل شهواته ولا ينطلق إلا على ما أبيح له من مطلوباته، والكافر بضد ذلك.

فمتى أردت - وفقك الله - العز الأكبر والخير الأكمل والشرف الأرفع ففر من هواك إلى ربك، ومن نفسك إلى ربك، ومن عدوك إلى ذي النصر العزيز والحرز المنيع، واطلب العزة عنده وصابر على ذلك ورابط وأصدق في طلبها لديه تجدها عنده - إن شاء الله- غير ممنوعة ولا محجور عليها، وإياك أن تطلبها إلى سواه فيكلك إلى من طلبها عنده، فإنه جعل هذه الصفة الرفيعة خالصة لمن طلبها عنده، فقال عز من

---

(1) رواه مسلم (492/18)، وأحمد (63/15).

قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّه العِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:10]، وذكر قومًا طلبوا العزة عند من سواه فقال جل قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:139]، فأنباك نصًّا صريحًا لا إشكال فيه أن العزة له يعز بها من يشاء ويذل من يشاء، والذين خصَّهم بالعزة من بين خلقته في الدنيا والآخرة هم أهل طاعته، قال الله جل من قائل: ﴿فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:10]، وقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء:88].

وتذلل - هداك الله - لعزته الذل كله وتضاءل لعظمته التضاؤل كله، وتضرع إليه في خلوتك، وسله ﷻ عساه ينظر إليك نظر عطف ورحمة، فيهب خدك للتراب ذلاً بين يديه، ويدخلك في أوليائه والعالمين بطاعته، فذلك يقضى بك إن وهبك إلى عز لا ذل بصحبه وشرف، لا ضعة تتخلله حيث يدوم العز والشرف مع ما يعجله لك من ذلك في دار الدنيا، ثم تذلل لأوليائه وأهل طاعته، فبذلك أمر نبيه ﷺ حيث يقول: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: 88]، ومدح أقوامًا بذلك رضي الله عنهم وعنا، رضي فعلهم فقال جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:54].

وتعزز على المنافقين والكافرين والعصاة واغلظ عليهم، وقابل كل طائفة من ذلك بقدر بعده عن الحق وخروجه عن سواء القصد، فقد مدح ﷻ أقوامًا ﷺ فقال: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:54]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:73].

اسمه الصادق ﷻ

يقال منه صدق يصدق صدقًا فهو صادق، وصدوق مبالغة، والصدِّيق الكثير الصدق، فمن صدق الآيات وأتمم بالدلالات وأجال فكره في الملكوت ولا يمر

بخاطره ذكر آية من آيات الله إلا ازداد بها إيمانًا وتصديقًا، وصدق الله فيما عاهده عليه ووفى فهو صديق، وقد يقال لمن كثر صدقه صدِّيق أيضًا.

واسمه الصادق - جَلَّ ذِكْرُهُ - قريب معناه من اسم الحق، فالصدق ضده الكذب، والحق ضده الباطل، وكما أن الباطل ليس يرجع إلى حقيقة يعتقد كذلك الكذب ليست له حقيقة يقع عليها الخبر؛ لأنه خبر عن مخبر ليس به، ألا ترى أن حقيقة الصادق وخاصته التي يختص بها - والله أعلم - هي من صدرت عنه أفعاله وأقواله عن هذا المعنى المسمى بالحق والصدق حقيقته استواء الظاهر والباطن في حكم الحق من قوله: عود صدق إذا فجئته فوجدت ظاهره مساويًا في الصلابة لباطنه، ومنه الصديق، يقال منه صديق بين الصداقة إذا محض الود صديقه، فمحضه الود ظاهرًا وباطنًا.

ويقال من ذلك: رجل صدق، وامرأة صدق، وصدقه إذا كانا كاملين في الوداد والخير، ومن ذلك قوله في الفرس: إنه لذو صدق إذا كان جريا صادق الجملة، وجاء الصديق على وزن فعيل لكثرة ذلك منه مثل فكّير وضرّيب وشرّيب؛ لأن الصديق صدق الله في آياته وشواهده ودلائله وأسمائه وصفاته وأفعاله وحكمته وكلماته، وارتقاء بالتصديق للغيب في درجات المعرفة واليقين، قال الله ﷻ يصف نبيه ﷺ: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ [الأعراف:158].

ولا يقع عليه اسم صديق حتى يوافق بتصديقه ذلك الحق بتوفيق من الله ﷻ له إلى الذي هو عنده الحق، ويقال: رجل صادق إذا صدق في وعده ووفى بعهده، وصدوق إذا أكثر ذلك منه؛ كضروب وقتول، ومنه الصَداق والصِداق والصدقة وهو المهر، قيل له ذلك لأن كل واحد من الزوجين أقضى منه إلى صاحبه وأخذ عليه الميثاق والعهد بحسن الصحبة وجميل العشرة في ذلك لما جعله الله ﷻ من أجله بينهما من المودة والرحمة، ومنه الصدقة قيل لها ذلك؛ لأن صاحبها يصدق بها ضميره المغيب.

اعتبار

اعلم - رحمك الله - أن الطرق إلى معرفة هذا الاسم العَليّ من جهة الاعتبار كثيرة جدًّا، وهو عظيم النفع كثير الغنى في سبل الإيمان؛ لأن منه خرج وعنه أخذ، وهو

لا محالة موجود في معاقد كلماته الصادقة من عهده ووعده ومجاري أحكامه، وفضل قضاياه من مبدعاته ومن منشآته، فتدبير أمره من تكوين الأكوان والمحو والإثبات، فأنت إذا حققت النظر وتابعت الفكر واستصحبت الاعتبار راغبًا في ذلك كله إلى الحق أن ييسر لك الصدق ويلحقك بالصادقين ويقصد بك قصد الحق تجد أوائل الأشياء كلها التي هي مبادئ لما تحتها تتصادق على مقدار تقاربها، وتتجاذب على أوزان تشابهها، ثم تجده تعالى ابتدع البدائع أصنافًا وقدَّرها أنواعًا مؤلفًا بين متباعداتها، مفاوتًا بين أوقاتها، مباعدًا بين ذواتها، ملائمًا بين أخلافها وأدواتها، كلٌّ لكلٍّ مفارق، وبعضٌ لبعضٍ مقارن، مختلفات في اتساقهن، متفقات في اختلافهن، جعلها سبحانه - وله الحمد - دلائل على أنه الواحد الأحد خلق كل شيء وقدره وقهره شواهد على قدرته، نواطق عن صدقه.

وسأضرب من ذلك أمثلة يستدل بها على سواها، فيبدأ أولاً بطرق الاختراع والإنشاء في أوائل الوجود فإني أرجو لمن تمهد له طريقها أن يشرف بها بعون الله تعالى على ما تحتها؛ إذ الكتاب لا يحتمل الإكثار والأمر أوسع من أن يوقف على خفاياه عيانًا، فإيثار الاختصار إذن أولى، ومن استهدى فسيهتدي، من ذلك ما أخبرنا به الصادق الحق - جَلَّ ذِكْرُهُ - من خلقه آدم ﷺ، ومما خلقه؟ وأين أسكنه؟ ولما أخرجه من مسكنه؟ وإلى أين أهبطه؟ وقصصه كله من أوله إلى آخره، كيف صدقت كلمته في ذلك كله في أعمالنا وفي أطباعنا ومواريثنا منه؟! وكيف صدقت الكلمة فيه وفي مواريثه مما خلق منه؟! قال رسول الله ﷺ: « **إن الله لما خلق آدم واستخرج منه ذريته رأى أحد ذريته عليه نور كثير، قال: رب من هذا من ذريتي؟ قال: هذا ابنك داود، قال: رب كم قدرت له من عمر؟ قال: ستين، قال: زد في عمره، قال: ذلك الذي كتبت له، قال: رب زد من عمري في عمره أربعين سنة، قال: فأنت وذلك، فكتب عليه يومئذ كتابًا فلما أهبطه الله إلى الأرض جعل يعد لنفسه حتى أتاه ملك الموت قال: إنه لم يأن لي بعد، قال: إنك قد وهبت ابنك داود أربعين سنة، قال: ما كان ذلك، فأخرج له كتابًا كتبه عليه يومئذٍ، قال رسول الله ﷺ: فجحد آدم فجحدت ذريته، وغوى آدم**

فغوت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته»[1].

وذكر في بعض الآثار: «إن الله ﷻ لما أراد خلق آدم قبض من الأرض قبضة فكان من الأرض الحزن والسهل والأبيض والأحمر والأسود والطيب والخبيث، فخرج بنوه على مثل ذلك»[2].

فانظر إلى صدق الكلمة التامة في ذريته منه من جهة الشبه، وفي الأرض من جهة الأولية والمبدأ، وكذلك أيضًا لما كان من الأرض ما يخرج نباته طيبًا بإذن ربه؛ كالزرع والزيتون والرمان والنخيل والأعناب والثمرات الطيبة كان من ذريته المؤمن والمسلم والطائع والشاكر، ولما كان من الأرض ما لا ينبت كالسباخ ورءوس الشواهق الجردة والبقاع الجدبة كان من ذريته الكافر، ولما كان من المرار ما منظره حسن وريحه طيب ومن الشائكات، كذلك وقد يطلع القبيح المنظر منها زهرًا وينضح ثمرًا كان من ذريته المنافق والمرائي بعمله، ونحو هذا تتبع هذا بحسن الاستقراء - هداك الله - بتصحيح النظر والاعتبار تجده يفترق بافتراق الأشخاص والنبات والحيوان كله، حتى أن العاقل اللبيب ليرى شبهه ويعرف ألفه بينهما ماثلاً في شخص منها أو مفترقًا في أشخاص من وأنواع عدة.

فانظر إلى سريان صدق الكلمة بالحكمة في هذا كله، وكثير ما جاء هذا التمثيل في القرآن العزيز وحديث رسول الله ﷺ تنبيهًا على الاعتبار وتحريضًا على الأذكار، وذُكر أيضًا في بعض الآثار: «**إنه كان بين أخذ القبضة وبين نفخ الروح فيه مائة وعشرون سنة**» والله أعلم.

فإن كان عن نقل يقطع العذر ويزيل الريب، فما أشبهه بالأصول فإن الاعتبار يعضده منها، إن ذريته يجمع خلق أحدهم في بطن أمه نطفة أربعين يومًا، ثم علقة أربعين، ثم مضغة أربعين، ثم ينفخ فيه الروح عند تمام الأجل الثالث وأول الرابع وهو مائة وعشرون يومًا، وأشبهت السنة اليوم من حيث إن اليوم مدة دورة الشمس من

---

(1) رواه عبد بن حميد في المنتخب (164/2)، والبيهقي (3/9)، وأبو نعيم في المعرفة (3964)، بتحقيقنا.

(2) رواه أحمد (336/5)، والبيهقي (146/10).

المطلع إلى المغرب، ثم إلى مطلعها من الغد، إن السنة مدة قطع الشمس الدائرة كلها إلى مطلعها الذي منه أولها، وإن اليوم تمام فعل ما، وفي الخبر: «**إن الله جَلَّ ذِكْرُهُ لما خلق آدم** ﷺ **وصوره تركه كذلك أربعين سنة**» وهذا الخبر يعضده الاعتبار المتقدم، فأشبه ذلك مكث أحدهم نطفة أربعين يومًا، ثم علقة أربعين يومًا، ثم مضغة أربعين، ثم ينفخ فيه الروح على رأس مائة وعشرين يومًا، وأشبه ذريته به الذكور لقربهم منه بحال الذكورة، فإن أحدهم يصور على رأس أربعين يومًا عند انتقاله إلى كونه علقة، أما الإناث من ذريته فإنهن لا يصورن إلا عند آخر الأجل الثالث في أخريات كونها فبعدن من شبهه بقدر ما بعدن عنه بالأنوثة، وأيضًا فإن حواء خُلقت بعد آدم فلهذا فانظر إلى سريان صدق كلماته ﷻ وتمامها صدقًا وعدلاً، وكذلك فانظر في معنى قول رسول الله ﷺ: «**خلق الله الملائكة من نور وخلق الجان من نار السموم وخلق آدم من طين**»[1] كيف أشبه كل جنس أوله الذي عنه خلق ومنه كُوِّن، فردد الفكر وتابع التذكر، واستصحب الاعتبار، وداوم على البحث والنظر تظفر ببغيتك إن شاء الله تعالى.

واعلم أن على مطلوبك هذا يدور الطالبون، وهو مدار الإيمان واليقين، فربما وجده من لا يعرفه، وربما سمعه من لا يجده، وإنما عمي الأكثر عن مذاهبهم فأخطئوا وجود مطالبهم؛ لأنهم خلف بعد سلف، مستأنف بعد سالف، فالمدرك الشادي ربما حاجز عن ذات نفسه وكاتم بينات صدره؛ طمعًا في تشويق الأتباع وحرصًا على تعطيشهم، أو خوفًا منه على نفسه أن يتناولوا قوله بعد التأويل ثم يتقولوا عليه الأقاويل، فنبذوا المعرفة وأطرحوا التجربة وأضاعوا الحزم، وفرطوا في العزم، فعدتهم عن حظوظهم عوادي الدهر، وتحفهم دونها نوائب الأحداث، فأعيتهم عند ذلك المهالك، وانقطعت بهم المسالك، والداعي ينادى بهم لا يقلع، والمنادي يفصح بالمراد فيها لو يسمع والمحل لو تعلمون أمم شمل الرغائب قريب ملتئم سهل الحجاب موطئ الأكناف، وفي دون ما ذكرناه دليل على ما إليه أومأنا، وطريق معرفة صدق كلماته في إطباق خليقته وتدابير أمره، ولولا مخافة التطويل لأكثرنا منها، وفيما تقدم غنية لمن فيهم، وهو الصادق الحق لا يكذب صادقًا، ولا يصدق كاذبًا، فمن أخلص طاعة ربه

---

(1) رواه الفريابي في «القدر» (386).

وصدق الله في طلبه لن يخلفه وعده، والله أسرع إلى عبده المريد من العبد إليه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التعبد

اعلم - رحمك الله - أن أسماء الله تعالى يختلف التعبد بها لاختلاف ما تحتوي عليه من المعاني والأعراض.

فمنها: ما منع التسمّي به وأوجب التجلي؛ كاسم الله الرحمن.

ومنها: ما منعه تجلّيًا وأباحه تسمّيًا ووصفًا لكن على شريطة الإضافة واعتقاد المجاز فيه لمن وصف به وإن حقيقته لله ﷻ؛ كاسمه الرب والكبير والعَليّ والكبير والعظيم والجليل ونحو هذا، أما شرطه الإضافة كقولهم: رب الدار، ورب المال، وكقولهم: هذا أكبر من هذا وأجل منه، وكذلك ما جرى هذا المجرى.

ومنها: ما أوجبه تجلّيًا على شرط التزام العبودية وأباحه تسمّيًا بشرط السلامة من إرادة التزكي؛ كاسم الظاهر والطيب والعدل والبر وما يجري نحو هذا.

ومنها: ما أباحه تسمّيًا فأوجبه تجلّيًا على شرط التماس رضاه في التجلي به؛ كاسمه الولي المولى المغيث ونحوه.

ومنها: ما أوجبه تسمّيًا ندب إلى التجلّي به، كقوله: العفو الغفور ذو الفضل العظيم ونحوه.

ومنها: ما أوجبه تسميًا وتجلّيًا؛ كأسمه المؤمن التواب الصادق ونحو هذا، فاعمل نفسك - وفقك الله - في معرفة هذا الاسم حتى تعلم أنه الصادق الحق وأن الصدق صفة من صفاته لا يجوز عليه مفارقتها له يستحيل عليه ضدها، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وكذلك هو الصادق في خبره وقصصه ووعده ووعيده، وأن كلماته تامات من كل جهة صادقات من كل وجه، وأن رسله وملائكته صادقون، وأن كتابه صادق كما أنزله، وأن حديث رسوله صادق كما حدثه، فعليك بالصدق في المواطن كلها في إيمانك وأعمالك.

واعلم أن الصدق صفة رفيعة وحيلة سنية، وأنه ليبلغ من شرف الصدق أن الصدوق ربما كذب فيصدق، وأنه ليبلغ من صفة الكذوب ربما صدق فيكذب، ومن أمثالهم الكذوب لا يؤمن صدقه، والصدق أصل بكل حال وأُس لكل مقال ومقام،

وقوام الصدق بالصبر، وقوام الصبر بالاستعانة، فكل من صدق الله تعالى وتحقق في صدقه نجا، فإذا كان أساس معرفتك على أصل عقد للصدق بالعلم والتقوى فزت وظفرت، ولم يبق عليك إلا خوف الخاتمة، وكلمة جامعة جميع الطاعات لا تخلو أن تكون ظاهرة بادية على الجوارح أو باطنة في القلب، فحكم الجوارح المسارعة إلا ما يرضى خالقها جَلَّ ذِكْرُهُ.

وصحة ذلك صدق النية في إنفاذه وإخلاص السريرة في توجيهه، وحكم ما بطن في القلب تصديق عقد الإيمان، وصدق النية في التقى والخوف والوجل والخشية والإشفاق، وكفى بهذا شرفًا ورفعةً، وما هلك من هلك إلا بالكذب، وما نجا من نجا إلا بالصدق.

والصدق يحتاج المؤمن إلى استصحابه من بدء إيمانه إلى أن يرتقي إلى أعلى درجات الصديقين، ويصحب النبي في نبوته، والصديق في صديقيته، والرسول في رسالته، والمؤمن في إيمانه، والمسلم في إسلامه، والعامل لله في عمله، وكل ذي مقام ودرجة في مقامه ودرجته كلما ارتفعت درجته كان الصدق أصله وأولى به؛ لأن العبد إذا عبد ربه بالصدق أوصله ذلك إلى العلم، والعلم يوصله إلى التوكل، وصدق التوكل يورثه الغنى والرضا، وأيضًا فإن أصل الوصول إلى اليقين الصدق، والصدق يوصل إلى البر، والبر يوصل إلى الإخلاص، والإخلاص يوصل إلى اليقين، واليقين يوصل بالطمأنينة، والطمأنينة حال السكون إلى الله ﷻ، والسكون إليه موصل بالرضا عنه، فأصل كل حال هو الصدق، وكلما ارتقى العبد درجة من الصدق نزل عليه من العزيمة بقدر صدقه، فإذا أوقعت العزيمة ارتحل حب الدنيا من القلب وارتفع إلى ملكوت السماوات والأرض، وإذا لم تقع العزيمة اضطرب القلب ورجع إلى محبته، والصادقون هم الذين أعطوا ربهم جهدهم فيما بينهم وبينه بالصدق، «**وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا**»[1].

وإذا فتح على الصادق باب الفطنة احتوشه نور الهداية، وقام على جوارحه ولسانه شاهد الصدق، وبدت له فتوحات الإلمام بشواهد الحق، فحينئذٍ ارتفع قلبه إلى

---

(1) رواه مسلم (36/17)، وأحمد (500/8).

الملكوت، وجال في الجبروت، وسرح في الحجب، وكوشف بمجاري القدرة، فعلم ما يدخل على أهل التوحيد من الأشكال والمغالط، ورأى انتصاب الهوى في مشاهد الردى حيث لا يرى إلا في المنتهى كأنه ناظر إليه بوجود إيمانه، لا ينظر عقله؛ لأن العقل في ذاته محدود والإيمان ليس بمحدود، فيجد عند ذلك لذيذ طعم الأذكار في شاهد الأسرار، ويرى حلول الأنوار في القلوب ومحلها في الصدور، فانجلت عنه غاية الفتنة، واكتنفته العصمة، وهو مع ذلك لا يفارق الإشفاق، ولا يأمن الجور، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[1].

ونقيض الصديقية الزندقة، توجد معها من بدء الإيمان إلى رفيع درجاتها وجود خلاف ومناقضة كوجود الشك في موجود اليقين، قال رسول الله ﷺ: «**الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة المظلمة**»[2].

غير أن الصديقية كلما ارتفعت درجات الصديقية في مقاماتها دقت معارضة الزندقة لها وخفيت مناقضتها حتى تكون معها كالشرك مع الإخلاص في بابه، وهي كلمة مولّدة مركبة من معنيين حقيقتها الخروج عن الحق في سر واختفاء، وهو شيء يخلف الكفر في الأمم الموحدة يسري مسراه ويسلك مسلكه في بواطنهم حتى يعود كفرًا ظاهرًا بعد كونه باطنًا، فأوَّل الزندقة جحد ما لله ﷻ من الأسماء والصفات والطعن في النبوة واستقلال علمها والإصرار على رد ما جاءت به الرسل، كما أن أول الصديقية: إثبات ما لله من الأسماء والصفات، وإثبات النبوة واستعظام علمها والإيمان بها، والمسارعة إلى ما أتى به الرسول ﷺ، والحب لله والرسل، فإن الله ﷻ: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾ [الحديد: 19] أي: لشهادتهم وأعمالهم بما أمروا ونورهم لإيمانهم وصديقتهم، وحذر الله ﷻ المؤمنين من ترك استشعار الذكر لله وتعظيم ما نزله من الحق من عنده أن يجرهم ذلك إلى ترك الخشوع، وترك الخشوع إلى الغفلة، والغفلة إلى الإصرار على تعطيل شيء من أحكام الله ﷻ ورسوله، فقال ﷻ: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ**

---

(1) تقدم.

(2) رواه أبو نعيم في «الحلية» (253/9).

وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ﴾ [الحديد:16] أي: الغفلة وترك تعظيم أسماء الله ﷻ وشعائره، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:16]، ثم دلَّ ﷻ على موضع الدواء بقوله الحق: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:17] أي: بذكره ولزوم العمل بطاعته واستشعار تعظيم أسمائه وصفاته وكتبه ورسله وما جاء من عنده، ثم قال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:17].

واعلم أن كل من ادعى علم معرفة الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - وخالف ما جاء به الرسول ﷺ ردًّا له واستغنى عنه فهو عدو لله زنديق في مكر به وضل عن سواء السبيل، وهو الإصرار على تعطيل أحكام الله ﷻ ورسوله ﷺ، وربما قال: استعنت بالله عن الكتاب والرسول، وربما قال: العلم يبطل في المعرفة، والمعرفة تسقط الأحكام، وأنه من عرف الله ﷻ أبيح له ما كان حظر عليه من قبل، أو خرج عن رق العبودية، فهذه كلها زندقة.

واعلم أن كل من ادعى علم المعرفة وضيع أحكام العلم صارت المعرفة عليه حجة، بل الصادق هو الذي عرف الله ﷻ بشاهد الربوبية، وعبده بالوحدانية، ورد عقله إلى العلم واستعمله بموافقة السنة، قائل الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر، والمعرفة يكشفها العلم ويدل عليها، والمعرفة أصل العلم واسم لليقين، والعلم اسم الدين وأصل الدين العلم والعلم هو التوحيد، وما جاء به الكتاب والسنة، وكمال المعرفة الإخلاص باليقين على شهادة الإيمان بالغيب، وكمال العلم الخشية لله بالغيب، فمن قال بهذا فهو صادق، وهو على هدى من ربه، وأصل من عمله؛ لأن العلم أصله الكتاب والسنة، إلا أنه من صدق الله صدقه وأنجزه ما وعده، ألا وإن الصدق نبذ الشواغل وقطع العلائق والتشمير والجد وإعطاء المجهود في ابتغاء المقصود على سبيل الحق، ومن أسرع سبق من أبطأ بُطِئ به، ولحق من خفف نجا لخفة ظهره، ومن ثقل رَزَم بحمله وأسره عدوه، من صافى صوفي، ومن خلط علق، ولم ينل سرورًا، خشوع الجوارح من خشوع القلب، سيرى على الوجوه ما تضمر القلوب فضول اللسان من فضول القلب مع العزم تكون المعونة ومع الجزع والتثبط يكون الخذلان.

يا أخي، عليك بالصدق في المواطن كلها تظفر وتغلب، إن الله ﷻ لا يكذب صادقًا ولا يصدق كاذبًا مَنّ الله بها علينا وعليك ولا حرمناها وإياك برحمته، ﴿**إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [فصلت:39].

اسمه الكريم ﷻ

يقال منه رجل كريم وكرام، وقوم كرام وكرم، رجل كرم أيضًا وامرأة كرم، وامرأتان كرم ونساء كرم، الرجل والأنثى والتثنية والجمع سواه، هذا اسم متردد بين أن يكون من أسماء الذات وبين أن يكون من أسماء الأفعال، والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لم يزل كريمًا ولا يزال، كذلك ووصفه بأنه كريم هو بمعنى نفي النقائص عنه ووصفه بجميع المحامد، وعلى هذا الوصف يكون من أسماء الذات جَلَّ ذِكْرُهُ؛ إذ الشيء الخطير النفيس يوصف بأنه كريم، قال الله ﷻ: ﴿**وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا**﴾ [الأحزاب: 44]، قالوا: ثوابًا حسنًا لا نكد فيه ولا تنغيص ولا انقطاع له، منه قوله ﷻ: ﴿**وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**﴾ [الدخان:17]، ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:13]، ويئول هذا في وصف الله تعالى إلى استحقاقه صفات الجلال ونعوت التعالي، وقد يكون الكرم عبارة عن العفو وإيثار الصفح عن الجاني والإحسان للمسيء والسبق بالإنعام، فيوصف بأنه كريم السجايا جزيل العطايا، لذلك قالوا: أرض كريمة إذا كانت كثيرة النبات طيبة المرعى، وقالوا للسخي: كريم، ولا أكرم عفوًا من الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وصفحًا ولا أجزل إحسانًا وإنعامًا، فهو المحسن الحق المنعم على خلقه من غير استحقاق، وهو الأخذ بأيديهم في الضرورات من غير استيجاب، وما عهد كرم وحسن فعال وإجزال إنعام وإفضال وعدل أحكام وتجاوز عن الذنوب العظام من مستحقي ذلك وغير مستحقيه إلا من كريم الذات كريم السجايا، لذلك كرمت أفعاله، ومن قولهم: لا تطيب الفروع إلا إذا زكت تربة الأصول، وقد يكون الكرم عبارة على الجاه والسؤدد الذين يكونان عن بذل المعروف، وانتحال المحسود من أخلاق

وصفات من ذلك قولهم: فلان كريم عند الملك، وكريم في قومه، ومن هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿**وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**﴾ [الدخان:17]، ﴿**وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا**﴾ [الأحزاب: 69]، ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:13]، بمعنى أقربهم وآثرهم عنده، قال رسول الله ﷺ: «**أنا أكرم ولد آدم لا فخر**»[1].

ثم ذكر ما أكرمه الله به من مقامه المحمود وشفاعته وحوضه الممدود، وقد يكون الوصف بالكرم عبارة عن طيب النجر وعلو النسب، من ذلك قولهم: فرس كريم إذا كان جيد الخبرة حسن التأني للمراد منه قد ورث ذلك على سلف له متقدم، وهو العتيق أيضًا، قيل له ذلك من حيث إن له قدمًا وسلفًا علي ذلك، «**وسُئل رسول الله ﷺ فقيل له من أكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف نبي الله ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله، فأوجب له الكرم صلوات الله وسلامه على جمعيهم بما كانوا عليه من النبوة والتقى، وحسن المناقب والقرب من الله جَلَّ ذِكْرُهُ، وبما سلف لهم من ذلك، وورثوه كابرًا عن كابر، فقيل له: يا رسول الله، ليس عن هذا نسألك، فقال: أعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[2].

وليس معنى ذكر السلف هنا إلا أن الخير كثير أما يوجد في معدنه ذلك ما قدره الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - من وراثة الشبه وإذا كان الكرم من هذه الجهة فضده اللوم، وإذا كان الكرم من جهة السخاء وضده الشح والبخل، وقد يكون وصف الكرم عبارة عن حسن التأني للخيرات وانتحال المحمودات فعالاً ومقالاً، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:13]، وقول رسول الله ﷺ: «**لا كرم إلا بالتقوى، الناس لآدم، وآدم من تراب**»[3].

---

(1) رواه البيهقي في «الشعب» (21/4)، والحاكم في «المستدرك» (465/9).

(2) رواه البخاري (20/12)، ومسلم (129/17).

(3) رواه ابن منده في التوحيد (110)، وابن وهب في الجامع (28)، والمعافى في الزهد (145)، والحاكم في المعرفة (412).

لما كان التقى قد أحسن الاستجابة وأسرع في الطاعة، ولذلك قالوا للحجارة المنقادة: كرم؛ لتيسر انقيادها، وقيل للقلادة: كرم لما فيها من الذخائر، وقيل للحبلة كرم لطيب طعم ما يؤخذ منها وتأتي قطاف ثمره من غير تجشم مشقة ارتقاء كالنخل وغيره وليس له شوك يعقر جانبه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن أولى بهذه التسمية»**[1]؛ إذ قبله كثير التأتي لمعرفة الله ﷻ ولعمارته بالذكر والحب والوداد له والخشية والحياء والمراقبة.

وعن قلب المؤمن تنبعث أنواع الطاعات إلى جوارحه وتكلموا في الكريم من هو؟ وما هو؟ وبما يسمى كريمًا؟ فمن قائل يقول: الكريم هو الذي لا يحوجك إلى وسيلة، ومن قائل يقول: الكريم هو الذي لا يسألني من أعطى وإلى من أحسن، ومن قائل يقول: الكريم هو الذي يرى المنة لمن يقبل عطاءه على نفسه، وقيل: الكريم لا يستقصي، وقيل: الكريم الذي لا يحوج أن ترفع إليه الحوائج، وقيل: الكريم الذي لا يضيع من توسل إليه ولا يترك من التجأ إليه، وقيل: الكريم إذا أبصر خللاً جبره وما أظهره، وإذا أولى فضلاً أجزله ثم ستره، وقيل: الكريم الذي إذا أذنبت اعتذر عنك، وإذا هجرت وصلك، وإذا مرضت عادك، وإذا وافيت من سفر زارك، وإذا افتقرت أحسن إليك ببقية ماله، وقيل: الكريم هو الذي إذا رفعت إليه حاجة عاتب نفسه كيف لم يبادر إلى قضائها قبل أن يسألها، وقيل: الكريم الذي إذا عفا عن عبد عفا عمن عمل بتلك المعصية وعمن كان سميًا له، وكلامهم هذا - رحمة الله على جميعهم - في جزئيات معنى الكرم، وهي مأخوذة كلها من كرم الله ﷻ موجودات عن عَليّ صفته ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:11].

الاعتبار

ولما كان معنى الكرم ما تقدم ذكره فطرق اعتباره كثيرة جدًا، والحمد لله رب العالمين، فابحث عنه إن كنت له طالبًا في مظان الجاه والشرف والحلم والصبر والشكر وعلى الإيمان والمغفرة والعفو والصفح والبر والإحسان والإكرام والإفضال وسبل المعروف كلها من حسن التجاوز وجميل المعاملة إلى غير ذلك من وجود

---

(1) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (10/11).

الأسماء والصفات.

وأما اعتباره من طريق الحسب والشرف، فما من كريم أكرم كرمًا من الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:3-4]، من لم تنقله الأصلاب، ولم تحوه الأرحام، ولا يُذم بذميم ولا يُعاب بمعيب، بل هو الأول لكل أول ولا أول له، والآخر لكل آخر ولا آخر له، الخير كله بيديه والشر ليس إليه، خالق كل شيء ومقدره، ورازق كل مرزوق ومدبره، لم ير قط إحسان إلا من عنده، ولا عهد الدهر بزمن سواه له الأسماء الحسنى والأمثال العلى، وأما طريقة من غير هذه الجهة، فإن كرم الكرماء بأسره انتهى إلى كرم المحسن إلى من انتهى إليه مع وجود القدرة منه على مجازاته ذلك، واحدنا في ذلك لا يخلو في ذلك من ابتغاء منفعة يجرها إلى نفسه أو مضرة يدفعها عنها.

والكريم الحق ﷻ يحسن إلى من يكذبه ويكذب رسله وكتبه ويكذب على الله ورسله وكتبه وأوليائه يرد أمره وهو البريء النزيه عن استجلاب المنافع ودفع المضار على وجه من الوجوه سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، قال رسول الله ﷺ: «**لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ**»[1].

إنهم يسبونه، ويجعلون له الصاحبة والولد وهو على ذلك يعافيهم ويرزقهم وأظهر من هذا كرمًا أنه ما عادى إبليس لعنه الله، ولا تبرأ منه إلا من أجلهم لما أبي عن السجود لآدم ﵇ واستكبر عليه واحتقره وفاخره بأصل الخلقة لعنه وطرده وأبلسه من رحمته واتخذه عدوًا، ثم أعلم آدم وزوجه عليهما السلام وذريتهما موضع عداوته بقوله تعالى: ﴿**يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾ [طه: 117]، وقوله: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**﴾ [الأعراف:27] إلى آخر القصة، وأمرهم أن يتخذوه عدوًا فقال: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر:6]، يسمع في ذلك كله بالنداء ويبالغ في النصيحة بلطف

---

(1) رواه البخاري (206/24)، ومسلم (82/18).

المأخذ وأبلغ المواعظ، وهو عن ذلك كله غني لا افتقار به شيء من ذلك سوى فضل وجوده وعظيم كرمه جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، ثم إلا على نفسه ﷻ أنه من تبعه منهم ليعادينه وليقطعنه وليدخلنه مدخله في دار لعنته وعذابه ومن عداه منهم وتبرأ منه أدخله دار أمنه وأحله منزلة كرامته؛ تأكيدًا للقطيعة وإبلاغًا منه في العداوة، وإلى هذا انتهى البعض والولاية فعلى هذا ما دخل أهل الجنة الجنةَ، وأهل النار النارَ إلا بفضل كرمه، فافهم.

ثم لا تسأل عن حسن تجاوزه وجميل معاملاته، ألا تراه جَلَّ ذِكْرُهُ كيف يرد المولين إليه تفضلاً ويقبل بالشاردين إليه كرمًا حتى أن أحدهم ليمكث في عصيانه والكفر به مائة سنة يتوب إليه قبل موته بيومين ويوم أو ساعة من نهار فيقبله يغفر له ويحبه ويدخله في أوليائه ويبوئه جنته، فهل رأيت مثل هذا كرمًا؟!

وجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين إلى سبعمائة وإلى ما لا يحصيه المخلوق، والسيئة بمثلها ويغفر وبمحوها بضدها، فهل رأيت مثل كرمه كرمًا؟! والحمد لله كثيرًا لا إله إلا هو الحليم الكريم، فتتبع معاني كرمه في سبلها فإنك تجد من ذلك إلى ما لا تصل منه إلى غاية، ولا تبلغ من معرفته إلى نهاية، فكل شيء يأتي عليه الإحصاء والفناء، وصفاته وكلماته ومقدوراته لا تبيد ولا تفنى، وإنما ارتجلنا هذا القدر تنبيهًا للمبتدئ، والعارفون بربهم ﷻ قد استغنوا بما وهب لهم من معرفته وفتح عليهم من العلم به عمّا نحن بسبيله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

التعبد

عليك - وفقك الله - بعد التحقق بمعرفة هذا الاسم الكريم حتى تعرف أنه الكريم الحق من جميع الوجوه، وأن كل كرم موجود أو متوهم على أي وجه كان، فعن كرمه وجد ومنه عرف، فاجتهد أن تعمل نفسك بمقتضاه جهدك، ففي ذلك بلوغ مرضاته وحصول محبته وحسن اتباع رسوله إن شاء الله تعالى، فإنه يحب معالي الأخلاق ويرضى مكارم الفعال، ويحب العاملين بها والمؤثرين لها، وبذلك أنزل كتبه وبعث رسوله، والتعبد بمعاني أسماء الله جَلَّ ذِكْرُهُ هو الدين القيم وهو الحق المخلوق

به السماوات والأرض، قال رسول الله ﷺ: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَق**»[1] أو قال: «**معالي الأخلاق**»[2] فلن يكرم أحد نفسه بمثل طاعة الكريم الحق عزّ جلاله، ولن يهينها بمثل معصيته، فعليك بالطاعة ولزوم السنة والجماعة، فإن الذي جاءت به الكتب والرسل معبر عن معاني أسماء الله فصفاته، فحافظ على ذلك تظفر ببغيتك إن شاء الله وتفز بحظك، أدِ إليه ما افترضه عليك بوجه طلق ونية سمحة، واجتنب الشح والبخل جهدك وتعوذ بالله منهما، فقد قال عز من قائل: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر:9]، وقال رسول الله ﷺ: «**وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ**»[3].

وكذلك فعامل أبناء حسنك، أد إلى كل ذي حق حقه تفضلاً ووفاء وسخاء نفس وسلامة صدر، وإن كنت ذا حق وجب لك على أحد فتعذر عليك أخذ جميعه فلا يكن همك في استقصائه، وابق للتكرم موضعًا، فقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كفى بالمرء لومًا أن يقول أخذ حقي كله**»[4].

ومن أمثالهم ما استقصى كريم قط، وقال رسول الله ﷺ: «**كان فيمن كان قبلكم رجل لم يعمل خيرًا قط غير أنه كان يعامل الناس، فكان ينظر المعسر ويتجاوز في السكة**»[5]، وفي أخري: «**كان يقول لغلمانه: أنظروا الموسر، وتجاوزوا عن المعسر**

---

(1) رواه البيهقي (192/10)، والحاكم في «المستدرك» (670/2).

(2) وبلفظ: «حسن الأخلاق» عن ابن سعد عن مالك بن أنس بلاغا أخرجه مالك في «الموطأ» (2/ 904، رقم 1609). وبلفظ: «صالح الأخلاق» عن أبي هريرة أخرجه أحمد (381/2، رقم 8939)، وابن سعد (192/1). وفي حديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق ويبغض سفسافها» أخرجه البيهقي من حديث سهل بن سعد متصلاً [إحياء علوم الدين ومعه تخريج الحافظ العراقي (401/3)].

(3) رواه البخاري (131/14)، وأحمد (307/3).

(4) أخرجه الحاكم (25/2، رقم 2196)، وقال: صحيح. وأخرجه أيضًا: الديلمي (286/3، رقم 4858).

(5) أخرجه النسائي (318/7، رقم 4694)، وابن حبان (422/11، رقم 5043)، والحاكم (33/2، رقم 2223) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأبو نعيم في الحلية (326/8). وأخرجه أيضًا:
=

لعل الله يتجاوز عنا فلما مات قيل له ما كان عملك قال: كنت أنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر، فقال الله جل قوله: نحن أولى بذلك منه، تجاوزوا عن عبدي»[1].

وأنت - وفقك الله - فاعتمد الناس في معاملتك إياهم بمثل ما اعتمدك به الكريم الحق ﷻ في معاملته، إياك حيث لم تكلفك إلا بعض وسعك، ثم رد نفع ذلك عليك، وأعاد عائده عليك، وعفا لك عن الكثير، تقدم إليك بالنعم من عنده قبل أن يكلفك أولاً في تسميتك بالإسلام، وجعلك من أهل الإيمان، وكان لك في القدم حيث لم تكن أنت لنفسك، ثم ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ [الانفطار:7،8] كامل الأعضاء سليم الحواس، يوصل إليك لطفه جنينًا في ظلمات ثلاث حيث لا يصل إليك لطف الآباء ولا إحسان المحسنين إليك سواه، ثم أخرجك بخفي لطفه وكريم رفقه إلى ما قد أعده لك في هذه الدار نزلاً بنقلك في ذلك منقلة، ورزقك السمع والبصر واللسان.

وعلَّمك البيان وركب فيك العقل والفهم والذكر والفكر وجميع صفاتك، من الذي شفع لك في القدم حتى عافاك في الدنيا من السجود إلى الصنم؟ من الذي عافاك من الإخداج والشَّين؟

ألا تراه كيف يصل من قطع الوصلة بينه وبينه، وييسر عليهم العسر في طرقاتهم، ويفتح عليهم وعلى جميع خلقه من رحمته؟ فإنه ليستر عليهم وهم المجاهدون، كما يحسن إليهم وهم المسيئون، هذا مع شدة سلطانه وعظيم اقتداره وجلال كبريائه.

وندب إلى الإتمام به معاملته الكرام من عباده في مواضع من كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فقال عزّ من قائل: ﴿**وَلاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [فصلت:34].

ثم بين لنا حسن عائداتها، وأرانا موضع الراحة من المكابدة في خلافها بقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت:34] ثم رفع قدرها

=

أحمد (361/2، رقم 8715)، والبيهقي في شعب الإيمان (533/7، رقم 11244).

(1) رواه أحمد (13/37) بنحوه، والبيهقي (356/5).

من خصلة وعظم شأنها من درجة بقوله ﷻ: ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [فصلت:35]، وقال رسول الله ﷺ: «**صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**»[1].

عوّد - هداك الله - نفسك السخاء، ويدك الإعطاء، وخلقك المكارم والتصاون عن دنيات الأمور، وتنزه عن اللوم والدقة وترفع عن الاستقصاء بمجانبة الرغبة، وإياك والمداقة في الكيل والوزن.

احرص على أن يكون إعطاؤك أوفر من أخذك، فهو أسلم لدينك وأوفر لعرضك، لا تجازي مسيئًا بإساءته، اصفح عن المعتذر، واعف عن الجاني، واسم بهمتك علوًا إلى المكرمات، اشكر الصنيعة، واجتهد أن تقابل المحسن بأكثر من إحسانه، وإذا أسديت يدًا إلى أحد فليصغر في نفسك ما أسديته فبذلك، يعظم المعروف عند المسدي إليه، وإذا أسدى إليك إسداءً فليكبر في نفسك ما أسداه إليك، فذلك ركن عظيم من مكارم الأخلاق، وباب لطيف من الشكر، وتذكر في ذلك قول القائل:

زَادَ مَعْرُوْفَكَ عِنْدِيْ عِظَمًا ... أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتُورٌ حَقِيْرُ
تَتَنَاْسَاْهُ كَأَن لَم تأتِهِ ... وَهوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ خَطِيْرُ

ثم لا تكن عذابًا على أهلك وولدك إذا أنت فرغت من تقويمهم على سبيل دينهم فأقبل بعد ذلك من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم، وتناوم عن عثراتهم، وتغافل عن الكثير من زلاتهم، فقد كان يقال: يعرف كرم الرجل في سوء أدب غلمانه، وإنما ذلك لأنه لا يطالبهم بحقه كله عندهم فينبسطون لذلك ينزلون إلى بعض شهواتهم، وإنك لتجد ذلك في عباد الله الكريم الحق جل ثناؤه، فما أسوأ أدبهم بين يديه مع عظيم سلطانه، ولزوم مشاهدته وبعده عن الغفلة عما هم به عاملون، لكن حلمه وكرمه مبسوط لهم حتى يخرجهم ذلك إلى عصيانه جهارًا وركوب المحظور عليهم عيانًا ذلك لقلة مطالبته إياهم بكل حقه وكثرة صفحه عن زللهم بقول الله جلّ قوله في ذلك: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ**﴾ [النحل:61] أعاننا الله وإياك على

---

(1) رواه أحمد (287/37)، والبيهقي في «الشعب» (261/6).

طاعته، والعمل بما يقرب منه ويزلف عنده بمنه ورحمته.

اسمه ذو الإكرام ﷻ

قد تقدم الكلام في بعض معاني وجوه الكرم فأغنى ذلك عن إعادته، غير أن الاسم فيما ها هنا في قوله: ﴿**ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن:27]، فعله، وذو اسم بشير إلى الذات ويقتضي باستحقاقه ما أضيف إليه، والإكرام صفة فعل يخص الكريم الحق ﷻ بها من يشاء من عباده، والكرم صفة شائعة معناها في صفات الذات، والفعل بتقلب في مقتضاها الطائع والعاصي والمؤمن والكافر وجميع الخليقة والإكرام منه خاص لعباده وأوليائه، فهو لا يكرم بإكرامه وهو الإيمان والإسلام والعمل بطاعته وابتغاء مرضاته على إتمام النعمة والموافاة عليها، وأيضًا لها بدار الآخرة إلا من يحبه ويرضاه، وما ظهر من ذلك ما يشبه الإكرام على الكافر والعاصي من حيث عصيانه، فليس بإكرام لكنه الاستدراج والإملاء والمكر والمخادعة والاستهزاء، وعلى نحو ما يأتي من ذلك جزاء لأعمالهم ليأخذهم على أوفر ما جنوه وأكبر ما آتوه، قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿**وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا**﴾ [آل عمران:178].

التعبد

تعلم - وفقك الله - معنى هذا الاسم حتى تقف على خاصته بقلبك، ثم اعمل نفسك بمقتضاه أكرم الكريم الحق ذا الجلال والإكرام، إياك أن تجعله أهون الناظرين إليك تستتر من سواه ولا تبالي به باطلاعه عليك أكرم أسماءه وصفاته تستوجب بذلك محبته، وقدم مراده على مرادك تكن لك منة خاصة، أكرم من أكرمه الله ﷻ وعز أكرم ملائكته ورسله وأنبياءه وكتابه وعباده المؤمنين أكرم المؤمن العالم فإنه جاء - والله أعلم- أنه تبارك وتعالى يقول يوم القيامة للعلماء من عباده: «**إني ما وضعت حكمتي في**

صدوركم وأنا أريد أن أعذبكم»[1] ومصداقه قوله ﷻ: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه:2-3] فكذلك من تذكر بالقرآن وخشي منزله فله بحكم التبعية للمنزل عليه ألا يشقى، وأبين من هذا قوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ﴾ [طه: 123] أي: في الدنيا ﴿وَلاَ يَشْقَى﴾ [طه:123] أي: في الآخرة، وربما كان ذلك فيها، وقال الله تعالى في فضيلة العلم والعلماء: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:86]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:9].

وكذلك فأكرم ذا الشيبة المؤمن فقد جاء في بعض الآثار - والله أعلم- أنه يقول: «إني لأستحيي أن أعذب ذا شيبة شابت في الإسلام»[2].

وكذلك فأكرم نعمه بأن تشكرها، ومن إكرامها ألا تضعها في غير موضعها، وأن تسلك بها سنة الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، ألا ترى أنه تبارك وتعالى سخر لها بركات السماوات والأرض، وذلك عن كرمه الذي عم به جميع الخليقة، وكذلك فأكرم أبويك وذوي قرابتك وجيرانك ومن أمرت بإكرامه، نسأل الله البر الرحيم الحليم الكريم الذي لا إله إلا هو أن يجعلنا ممن خصّه بإكرامه وتغمده برحمته، إنه على كل شيء قدير.

اسمه النور ﷻ

معنى النور الإشراق والإبصار ظاهرًا والهداية به إلى المقصود باطنًا، وأصل مفهوم لفظه النور من جهة اللغة والله أعلم: النفور عن السوء والبعد عنه، من ذلك قولهم: نارت المرأة تنور نورًا إذا نفرت عن الفاحشة، وامرأة نوار من نساء نور إذا

(1) أخرجه ابن عدي (162/5 ترجمة 1322 عثمان بن عبد الرحمن الجمحي) وابن عساكر (43/7) والرافعي (17/4) بنحوه.

(2) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (244/1).

نافرت السوء وبعدت عنه، وناورت المرأة باعدت ذلك ونافرته، ونُرتها أنا إذا نفرتها، فقولهم: إذا نار النور، وأنار معناه نفر الظلام والضلال عمّا أناره وأبعده عنه، فقولهم: إذا نار النور وأنار معناه نفر الظلام عما أناره وأبعده عنك، ومن ذلك سميت النار لإضاءتها ما حولها عند إيقادها فتطرد الظلام عمّا هنالك، منه سميت النورة لإماطتها الأذى من الشعر وغيره وإبعادها إياه، ومن ذلك قولهم: نرت الدابة إذا وسمتها فجعلت عليها بذلك علمًا تعرف به؛ لأن ذلك يباعد الجهل بها فمفهوم النور من جهة المعنى أنه المنزه عن الأدناس المبتعد عن الآفات، كما أن ظاهره منفر لإجراء الظلام كلها على اختلاف أنواعها.

اعتباره

النور من أسماء الله ﷻ، نطق به القرآن وجاءت به الروايات، قيل: معناه منور السماوات والأرض، وإنما قالوا ذلك؛ لأنه على تحقيق العلم والمشاهدة نور الأنوار، قالوا: والعرب تسمى الشيء باسم شيء إذا كان منه بسبب؛ كتسميتهم المقبل بالإقبال، والمدبر بالإدبار، واحتجوا على ذلك بقول الشاعر:

ترتَعُ ما رَتَعَت حَتّى إذا اِدَّكَرَت ... فَإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وَإِدبارُ

وهذا وجه صحيح يعضده الوجود، هو النور لأن منه النور، وعلى هذا فهو بمعنى اسم البارئ والمبين والمرشد؛ لأنه يهدي بالنور الظاهر الأبصار إلى المبصرات الظاهرة، ويهدي بالنور الباطن البصائر الباطنة إلى المعارف الباطنة، فهو إذن منور السماوات والأرض، وهو النور الذي أنار كل شيء ظاهرًا وباطنًا، قال الله ﷻ: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [الجاثية:13].

ثم أعلم جَلَّ ذِكْرُهُ بأنه يوصل ذلك بالنور الباطن في الصفات الباطنة بقوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الرعد:3]، وفي مثل هذا المعنى قال بعض القائلين:

إن بيتًا أنت ساكِنُهُ ... غيرُ محتاجٍ إلى السُرجِ

وجهُك المأمولُ حجَّتُنا ... يومَ يأتي النّاسُ بالحُجَجِ

لا أتاحَ اللهُ لي فَرَجًا ... يوم أدعو منك بالفرجِ

وإذا كان هو النور؛ لأن منه النور بالنور بصر البصائر والأبصار وأنار الآفاق

والأقطار وأبعد الفواحش والظلام فهو صفة فعل وصفات الأفعال يئول العلم بها إلى التوحد بأنها صفة الذات العَليّ ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه؛ كخالق ورازق وكافي ونحو هذا.

ولم يتسم بالخلق والرزق والكفاية؛ لأنه خلق ورزق فقط، بل لأنه لم يزل على صفة لا يتعذر عليه الخلق والكفاية إذا شاء ذلك لما شاء وكيف شاء، فعلى هذا فالنور إذا اسم علم له لا يقال فيه إنه هو بوجه ما ولا هو غيره بوجه ما، وكل مفعول فهو له غير لا محالة، فهو النور الحق استحق ذلك استحقاقًا نفيسًا، قال رسول الله ﷺ وقد سُئل: «**هل رأيت ربك يا رسول الله؟ قال: نور أنى أراه، رأيت نورًا**»[1].

فرؤيته النور الذي أخبر بأنه رآه هو ما قيل فيه أن محمدًا رأى ربه ﷻ، وربما إلى هذا المقام العَليّ الإشارة في قوله جل قوله: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾ [النجم:17]، فربما وقعت رؤية البصر على ذلك النور العَليّ القريب منه وهو ما أخبر عنه بقوله: ﴿**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾ [النجم:18]، وقوله: «**نور أنى أراه** » هو وصف له بأنه النور حسب لا مجال في العلم به للعقول، خلا أنه النور ﷻ يهدي الله إليه بالإيمان من يشاء من عباده فيعبرون إليه من شهادة إلى غيب وكما أن العلم يتفاضل في درجات معرفة هذا النور كذلك يتفاضلون في دار الآخرة في رؤيته، فعامة أهل الجنة يرون الله هو الحق المبين، أي: المبين هذا الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بين ذلك، وهم أيضًا في رؤيته على درجات على قدر ارتقائهم في مشاهدته فيما ها هنا فهذا لهم على تفاضلهم فيه على الدوام قال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون الشمس ضحى ليس دونها سحاب وكما ترون القمر ليلة البدر**»[2].

وقد تقدم في هذا بيان لمن تحقق إيمانه ثم هم في زيارته جَلَّ ذِكْرُهُ يرونه بنوره القريب العَليّ الخاص به وهم على ذلك في درجات، ويراه رسول الله ﷺ، ومن شاء الله ذلك له بنوره منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض.

---

(1) رواه مسلم (51/2)، والطبراني في «الأوسط» (111/18)، وأحمد (425/46).

(2) رواه البخاري (360/3) بنحوه، ومسلم (63/2).

فصل

قد تقدم أن النور منه ظاهر ومنه باطن، فباطنه متى حل بباطن العبد كان انشراحًا وانفساحًا، فاتسع العلم وظهر اليقين ونزلت المعونة، وكان النشاط في النفس والجوارح وخفت المؤنة في العمل بالطاعة، ثم كان العمل الوارد عن ذلك على سنن الإخلاص وطريق العلم وخلق الحلم والتواضع وهيئة الخشوع؛ لأنه جماع معنى الهداية والإرشاد، والتسديد والتوفيق، والتبيين والمعونة، وهو أصل العلم والحلم والحكمة والإخلاص والصبر والخير كله، قال رسول الله ﷺ: «**الصَّلاةُ نُورٌ**»[1].

وكل سبيل يؤدي إلى مقصود ظاهر أو باطن من الخير أو دليل يبلغ إلى مطلوب كريم فهو عن النور، فالقرآن والعلم وآيات الله كلها نور، وقد جاء عن رسول الله أنه قال ﷺ: «**يؤمكم أكثركم نورًا**»[2] كما جاء في غيرها أنه قال: «**أكثركم قرآنًا وأقرؤكم لكتاب الله ويؤم القوم أفقههم وأعلمهم**»[3].

ومتى حل ظاهره بجسم ظاهر رقيق شفاف طرد عنه الظلام، وأبعد عنه الكدرة، فإن زاد ذلك الجسم أن يكون صقيلاً أو ما يقوم مقامه أشرق وكان سراجًا فأضاء به ما حوله، وكذلك متى حل بصورة كان حسنًا، ومتى حل بجسم كان زهرة وجمالاً وبهاء وكمالاً ونحو ذلك، وقد تقدم أن لهذا النور الظاهر والباطن نورًا هو العَلي عنه وبه وله كل نور، صفاته وأسماؤه كلها نور وخير وبركة وحمد وأسماؤه وعبارات عما هو النور العَليّ الأعلى، ولهذا النور الظاهر الشمس والقمر والنيران نور ظاهر كان هذا الظاهر المشاهد عنه هو نور الكرسي والعرش والحجب وذلك كله عن نوره الكثيف الحق المبين العلي النزيه الرفيع، وهذا النور العلي ليس له ضد من حيث إنه نوره؛ لأن القديم لا ضد له إنما الأضداد حيث الخلق، فإنه لما أوجد الحق ضاده بالباطل، قال الله

---

(1) رواه مسلم (23/1)، والبيهقي (124/14).

(2) لم أقف عليه هكذا والذي أخرجه الخطيب (245/2). وأخرجه أيضًا: ابن سعد (337/1)، وأحمد (71/5، رقم 20706)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (61/5، رقم 2597)، والنسائي في الكبرى (282/1، رقم 864) بلفظ: «أكثركم قرآنا».

(3) تقدم في سابقه.

جل من قائل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:49].

ولما أوجد ﷻ النور أوجد الظلام فطرد النور الظلام إلى نهاية أنهاه إليها، فخلق بين الحدين برزخًا؛ كالشبهة بين الحلال والحرام، وكالعشاء بين انتهاء النهار وابتداء الظلام بالليل، وكالغبش عند انتهاء الليل وابتداء النهار، وكاللوى بين الرمل والجدد، وكالحيف بين السهل والجبل، وكالبرزخ بين الدنيا والآخرة، وشبه هذا في الوجود كثير شائع لحكمةٍ لازمة في التدبير بحب الإيمان بها، وربما جاء هذا في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى، ولما إن جعل النور والظلمة طرد النور الظلمة إلى حد انتهائه وابتداء ضده حدثت بين حديهما النار للعلة المتقدمة الذكر، كما حدث الشفتان بين الحدين في الانتهائيين والابتدائيين من الليل والنهار؛ وكالحمرة والخضرة والغبرة في الألوان، فإنها عن مثل ذلك تركبت فاكتسبت النار لقربها من النور لازمة بين الحدين من بياض النور ضياء، ومن زهوته وإشراقه وصفائه لمعانًا وبريقًا وإصلاحًا ونفعًا، وأكتسبت عن الظلام الحمرة والكدرة والإفساد، لكن الظلام أصلها إن أفسدت، والنور أصلها إن نفعت، ولم يخلق الله جَلَّ ذِكْرُهُ على علمي من خالص الظلام خلقًا ظاهرًا، إنما خلق منه البواطن كالجهل والكفر والكذب، ونحو هذا من الأخلاق المذمومة، لذلك كانت جهنم أعاذنا الله منها برحمته منها سوداء مظلمة.

وخلق تبارك وتعالى من النور العرش، والكرسي، والحجب، والملائكة عليهم السلام، والجنة وسكانها، وخلق أيضًا من النار الجان، وهو قبيل من الملائكة عليهم السلام، خُلِقوا من النار السموم أصل الله ﷻ بينهم إبليس فلعنه وطرده من ملكوت السماء وعزله من عمالة الملائكة، فمن كان من خالص النور جعله خيرًا كله يدعوا إلى الخير ويلهم إليه ويعين عليه، ومن كان مخلوقًا من النار أعني الملائكة منهم - عليهم السلام - جعل على يديه عقاب من كذَّب وكفر وعتا على الله وشرد عن طاعته وطاعة رسوله وجعل إبليس وأتباعه - لعنهم الله - يدعون إلى النار، وإلى ما هو من قبيل خالص الظلام، ومن كان مخلوقًا من الممتزج كالأرض والنار والماء والهواء وجعل أعمالهم ممزوجة إلا ما رحم ربك فمنهم الشقي والسعيد والمقرّب والبعيد والخيّر والشرير ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ [هود:43].

فكان ما خلق من الطين أقرب إلى التوفيق لصحبة الماء له، ولو شاء لهداهم

أجمعين فجعلهم أمة واحدة لكنه ﷻ جعل أحكامه على حكم لا تنثلم، وأجرى قضاياه على سبيل لا يختلف؛ ليبين للمعتبرين حكم الأحكام باتساق النظام، وهو اللطيف الخبير لما يشاء، فهذا أصل النار التي غلط فيها المجوس، وحقيقة النور والظلام الذين ضل بهما أهل التثنية بأجمعهم، كما قيل غلط فيها رئيسهم فضَلّ الضال المضل الملعون في قوله: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [الأعراف:12].

والله أعلم حيث يجعل رسالاته وهو العليم الحكيم، ذلك بأنهم قالوا: إن فاعل العالم أصلان قديمان، أحدهما: نور، والآخر: ظلام، فكذبوا هاهنا، وضلوا وعدلوا بربهم، وإنما صانع العالم كله وأعد هو النور الحق نور الأنوار الحق الأول ﷻ هو ﴿**الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ [الأنعام:1] قالوا: فالنور خير بطبعه، والظلام شرير بطبعه، وليس بينهم خلاف في أن النور هو الله ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:43] ومنهم من يقول: إن الشيطان حدث عن النور عن فكرة فكرها أو شكة شكها، تعالى الله عن إفكهم وضلالهم، ولهم على ذلك حكايات وأخبار يطول وصفها.

وفي انقسام العالم إلى الخير والشر وتنازع النور والظلام وبزعمهم كلام شبيه أنواع ضلالاتهم أضربنا عن ذكرها لسخافتها، وإن كان ذكرها يدل بأول وهلة على ركاكة منتحليها رأينا تنزيه كتابنا هذا عن دنس استعراضها صوابًا، وإنما أوقعهم غلطهم هذا استقراؤهم الموجودات عند عدم التوفيق لما لم يتكلموا عن كتاب منزل، ولا لجئوا إلى أصل وثيق، ولا نظروا بنور نبوة نبيه؛ فوجدوا العالم لا يخلو من خير وشر، وصفاء وكدرة، ونور وظلمة، فقالوا لذلك: كل جسم شفاف يصف ما وراءه، أو صقيل يضيء ما حوله، أو خفيف لا يوهن حامله، ولا يعتمد على ما تحته فهو من قبيل النور، وقالوا: وكل جسم هو على ضد ذلك فهو من قبيل الظلام، واستمر لهم ذلك في الموجودات الدنيوية حيث مرج الله البحرين لم يصعدوا بالعلم إلى السماوات العلى، ولا إلى ما علا عند سدرة المنتهى وجنة المأوى ولا إلى الأفق المبين والعرش العظيم، ولا نزلوا بالعلم إلى الأرضيين السفلى ولا إلى ما تحت الثرى من سجّين وأسفل السافلين، فدانوا لجهلهم بعبادة النور تضنيًا وضلالاً، والظن لا يغني من الحق شيئًا،

وكان أقرب موجوداتهم فيما ها هنا النار والنيران، ولم يحسنوا التفرقة بين النور والنار، فعبدوا النار وعظَّموا النيران، وأثبتوا لذلك الهياكل، واتخذوا للنار بيوتًا أوقعوا لها الأوقاف وأجروا لها الجرايات وقدموا لها السدنة، سموا بيوت النار التوبهارات، واحدها: توبهارت، وسموا زعيمها: البرمك، ثم اتخذوا لها الشرائع، وسنوا من أجلها السنن وبعدوا بذلك عن النور الحق عز جلاله بعدًا عظيمًا، نسأل الله التوفيق في النظر إلى ما هو الحق عنده والصواب ونضرع إليه في التسديد لطيب القول والعمل.

وقد ذكر الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مصداق ما أردنا في كتابه العزيز فقال جل قوله يبين سوء ما ذهبت إليه الثنوية وهم المجوس: ﴿**الْحَمْدُ لِله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ [الأنعام:1].

ثم أعلم جَلَّ ذِكْرُهُ بأنهم عبدوا المجعول دون الجاعل، وعدلوا المربوب دون الرب، فقال: ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام:1]، وأعلم أن النار تنقسم إلى ما انقسم إليه النور من ظاهر وباطن، فباطنها متى حل بقلب أفسده، وغير ما به من نعمة حتى يصير عليه شبهة، ويقينه ظنًا وانشراحه تزيينًا، وخلقه عجبًا وكبرًا، فلا يزال به حق يرده إلى الظلام الذي هو أصله فيعوضه الجهل بعد العلم، والكذب بعد الصدق. والكفر بعد الشكر، قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر:6]، متى حل ظاهرها بجسم ظاهر أفسده وأعدمه ولم تكن لشيء معها بقاء لولا الضد الذي جعل الله جَلَّ ذِكْرُهُ لها من رحمته في الموجودات مقاومًا لها، والأصل الذي منه منبعث ظاهرها جهنم أعاذنا الله برحمته، قال رسول الله ﷺ: «**وَاشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ**»[1] وقال ﷺ :«**ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، قالوا: يا رسول الله، كانت كافية، قال: ما إنها لتزيد عليها تسعة وستين جزءًا غير أنها ضُربت**

(1) رواه البخاري (419/2)، ومسلم (197/4).

بالماء مرتين، لولا ذلك ما كان لبني آدم فيها نفع»[1].

وذلك كان جهنم - أعاذنا الله منها برحمته - تفيح بسعيرها فيعم ذلك منها الجو وتملأ الهواء، ثم يرسل الله ﷻ الرياح في الهواء نشرًا بين يدي رحمته فيخلق فيه الماء ويرسل به السحاب إلى حيث شاء من أرضه، فهذا إحدى الضربتين ثم ينبت من الأرض ما شاء عن ذلك الماء من نبات وشجر فهذه ضربة أخرى، قال جل من قائل: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾ [يس:80]، فهذه النار التي عبدها الجاهلون وعظَّمها الضالون؛ ليصيرهم في الدار الآخرة إليها، كما في هذه أنشأهم عنها وخلقهم من ممزوجها، وحقت فيهم كلمته الحق، ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ**﴾ [طه:55]، ولو عبدوا خالقها ودانوا لجاعلها ومالكها لأصابوا، فأعتقهم منها ولكنهم لا يعلمون.

ولنرجع بالكلام إلى ما كنا بسبيله فقد تقدم في صدر الباب أن أصل النار الظلام، وأن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أوجدها يوم أوجد الضدين النور والظلام، وللنور وجود في الصفات العلا، وليس للظلام وجود فيما هنالك تعالى الكبير، بل الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - خلقه بقدره، وجعله آية على النور برحمته، والله خالق العدم، كما هو خالق الوجود الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ولظاهر هذه النار المشاهدة نار ظاهرة هي لهذا أصل في ظاهر الوجود هي الشمس وأكثر النيران أما البريق والمعاني والنفع فيها فمما يرد عليها من علو، وأما الحرارة والإحراق والإفساد فمما يصعد إليها من سفل بحكم الفيح، ونحن في هذا العالم في موضع الشبهة الكائنة بين الحدين - كما تقدم - من ذكر البرزخ الكائن من الموجودات كالغبشين بين الليل والنهار ونحوهما، جعل ما ها هنا سجنًا لنا عقوبةً للمعصية المتقدمة، أما ما فوقنا فنور ساطع وجوده على التدريج، وأما ما تحتنا فظلام مطلق، كذلك ونحن فيما بين ذلك في موضع يضيء بالنيران، فمن عمل بطاعة الله رفع إلى موضع النور وحكمه، ومن أساء فعمل بمعنى الظلام أسفل به إلى حقيقته، وأصل النار اليبس؛ لأنه أصل الإعدام فيما ها هنا، متى حل اليبس مع الحر كانت النار، متى حل مع البرد كان الزمهرير، وكلاهما

---

(1) رواه ابن حبان (450/30).

مفسد بذاته ما لم يجعل الله ضدًا من رحمته يقاومه، فنار جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - أصل وجود النار في هذه الدار، وأصل نار جهنم نار الحجاب والله أعلم.

قال رسول الله ﷺ يصف ربه ﷻ «**حِجَابُهُ النُّورُ**»[1] وفي أخرى: «**حِجَابُهُ النَّارُ لَوْ كَشَفَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ**»[2].

وفيما يذكر أنه من الكتب المنزلة ويوافق ما جاء به القرآن وحديث رسول الله ﷺ، ويدل دلالتها، وهو أن الله هو القيوم ملأت العالم عزته ووسع السماوات والأرض كرسيه، وأحاط بجميع ذلك عرشه الذي خدامه الآلاف الآلاف الآلاف ولا يحصى من خدامه، ولا من جيوشه إلا ما شاء، جنوده نيران تلتهب وأودية اللهيب جارية قدامه. وكل مرعوب من أسمائه وجازع من هيبته وحذره المختبئ عن الأبصار الغمام ستره. والظلام سرادقه، والضياء بين يديه، والنور أمامه، قال الله ﷻ: ﴿**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾ [الحجر:27]، هذا إبليس وقبيله من الملائكة وخلق الجان من مارج من نار هؤلاء ولد إبليس لما لعنه الله وأهبطه إلى الأرض وجعله ينسل خلق ما أنسله مما ها هنا فتح وفيح المارج المختلط، ﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ**﴾ [الرحمن:19،20] وفيها اجتلبناه دلالة على ما تركناه.

فانظر - هداك الله - إلى كل نماء وبركة وخير وفضل وعلم وحلم وطهارة وذكاء فهو عن النور، وكل جهل وكفر وقبيح وكذب وفجور ونحو هذا فهو عن الظلام، والنور الحق ﷻ خالق كل شيء هو الواحد القهار، ويهدي ولا يسرد ولا يوفق ولا ينمي ولا يزكي سواه، العالم كله دليل عليه شاهد قائم له بما هو أهله نور ساطع لأبصار العقول وضياء واضح لبصائر الفهوم مع زوال آفاتها المفضية لسبل الهدى، والصارفة لها عن سنن الهدى، إنما العالم كله بنور الله ﷻ المشرق فيه ظاهرًا وباطنًا كالبيت ملأ سروجًا، وكالهواء في الضحى والشمس عزلة ضاحية، فهكذا إشراق العالم بنور ربه ﷻ، قال ﷻ: ﴿**وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا**

---

(1) رواه مسلم (2/54)، وأحمد (42/460).

(2) رواه أحمد (42/414).

كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:22]، فهذا للعقول نور يضيء لها كما تقدم، وقال عز من قائل: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور:35]، إلى آخر المعنى، والبيت على هذه العبرة هو العالم، والزجاجة على ذلك فهو منبعث النور من الأفق المبين، ومن تدبر بإيمان وعقل وجد مصداق ما ذكرناه في قوله من لدن افتتاح سورة الجاثية: ﴿حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ﴾ [الجاثية:1- 3] إلى قوله: ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية:11] قال تبارك وتعالى: ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:12، 13]، فأنبأك نصًا لا تعريضًا أن بالفكرة يعلم أنه ليس في الوجود شيء إلا الله ﷻ، وإنابة المسيرة إليه الشاهدة له بما هو أهله، فإنه هو نور الأنوار كلها، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11] فمن لم يجعل له نور الأنوار نورًا من نوره فما له من نور، فالله ﷻ هو النور الحق نور السماوات والأرض وهو منورها.

واعلم - وفقك الله - أنه كما ليس كمثله شيء كذلك ليس كنوره نور، فالمتذكر يصعد بفكره في معارفه، ويرتقي في الأسباب بمعونة بارئه، ويبصر الهدى بنور الحق المصور المثبوت في عالمه، فإذا وصل بنور إيمانه إلى النور الحق أغشى بصره ذلك النور المبين، وسطع على كل نور عهده.

التعبد

تحقق - وفقك الله - حقيقة الأنوار فبذلك تصل بالفهم إلى النور الحق، وتعرف النور الظاهر من الباطن ومواضعه وطرقاته في العالم بحقائق ذلك كله فهو الله لا إله إلا هو نور النور منور الأنوار كلها باطنًا وظاهرًا ومنور الآفاق بالنجوم والأنوار والنيرات، ومنور الوجود كله بمسالك معاني الأسماء الحسنى والصفات العلا والمحقق في طلب ربه المتصبح بمصباح اليقين هو كما قال الشاعر:

يذكر فيك الخير والشر والذي أخاف وأرجو والذي أتوقع

ومنور القلوب والصدور بالإيمان والإسلام وخالص الإخلاص بيات وصوف العلوم وأنواع الدلالات والحجج البينات ومنور الأبدان بأنواع العبادات وضروب الطاعات ومنور الأسرار بمحاسن الأخلاق وإيثار الحقائق ومنور العالم كله بما نصب على معرفته من الدلائل وأقامه على حقيقته من الشواهد.

واعلم أن الذي تصل به إلى معرفة ذلك ورؤيته هو صفاء له القلب من جميع ما تراكم عليه من ظلمات الجهل بالعلم والمعرفة ومن الذنوب بغسول التوبة والندم والعزم على ترك المناهي كلها ثم العمل بما يرضى الله جَلَّ ذِكْرُهُ فعليك بالتوبة من كل ذنب والمباعدة من كل دنس والنفور عن كل ريبة والظهور من كل مكروه والتطيب بكل محبوب عند الله ﷻ ولكن شعارك تقوى الله والعمل بطاعته فيه تنال النور في قلبك وجوارحك مع أعمال الفكر وتدائب الذكر فيقوي صدقك ويتحقق إيمانك ويحتوشك النور ظاهرًا وباطنًا.

واعلم أن النور ليس شيئًا يكتسب، ولا يتناول بل هو من قبيل العطايا والمواهب، وهو ميراث عن التقرب إلى الله ﷻ، والتزكي، وذلك أن الله جعل لهذه الأمور الرفيعة عن الاكتساب مفاتيح من أمور مكتسبة لولا ذلك لم ينل والمفتاح الذي يحتاج إليه عند كل درجة ومقام يقوى الله ﷻ، والدعاء والتضرع، ألا تسمع إلى قوله جل من قائل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ**﴾ [الحديد:28] فجعل النور والرحمة ثمنًا للتقوى والإيمان، وذكر قومًا ملازمهم هذا النور وملازمونه، فوصفهم بأنهم: ﴿**رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾ [النور:37].

فجعل ﷻ الخوف والتقوى والعمل الصالح أصلاً لملازمة النور واكتسابه، فعلى قدر تقوى الله تكون الطهارة من الأدناس والأرجاس، وعلى قدر ذلك يُقتبس النور في بصر القلب حتى يمتلئ نورًا، ثم تضيء الجوارح، فتبصر بالنور، وتسمع بالنور، وتتكلم بالنور، وتعمل به وتمشي به وتقوم وتقعد وتؤخر وتقدم، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم اجعل لي نورًا في سمعي ونورًا في بصري ونورًا في قلبي ونورًا في**

فؤادي ونورًا في قبري ونورًا في شعري ونورًا في بشري ونورًا عن أمامي ونورًا عن شمالي، اللهم ارزقني نورًا، اللهم أعظم لي نورًا»[1] وربما قال: «**اللهم اجعلني نورًا**»

---

(1) رواه الترمذي (482/5)، وابن خزيمة (165/2)، وبنحوه أخرجه الطيالسي (ص 353، رقم 2706)، وأحمد (352/1، رقم 3301)، والبخاري (2327/5، رقم 5957)، ومسلم (1/ 529، رقم 763)، والنسائي (218/2، رقم 1121). وابن أبي شيبة (29/6، رقم 29231)، وابن حبان (362/6، رقم 2636).

قلت: فائدة ذكرها الأستاذ البكري عن العلامة أبي طالب المكي: قال: وهذه الأنوار التي سألها ﷺ في كل جزء من أجزائه؛ إنما هو دوام النظر من نور النور يشاهد القيومية في كل حركة وسكون يتولاه بحيطته، ولكلا ومنتظره ويستقيم له بحفظه، انتهى.

فإن قلت: إذا كان السيد المختار أصل الأنوار، ومركز الأدوار، وينبوع الأطوار، ومحمودية الأسرار، وهو البحث الظاهر عن نوره كل نور في الطول والعرض، ويشهد لتخليصه من العوارض البشرية، وكونه نورًا صرفًا عدم وقوع ظله على الأرض، فما حقيقة هذا السؤال؟

قلنا: الكامل يقبل الكمال، وفيض الحق غير متناه بحال، وما من مقام إلا وفوقه ما هو أعلا منه في رتبتي الجلال والكمال، فطلبه ﷺ بالجعل جعلاً خاصًا، ومددًا كليًا هاميًا على المورد الأكمل ناصًا والنور كاشف، والمكاشف لما يكشفه النور راشف، وهو ﷺ مأمور بطلب الزيادة من العلم ولا نهاية له، بل غاية وصولنا فيه لمرتبة الفخر؛ كما أشار إليه حديث: « **سبحانك ما عرفناك حق معرفتك**»، فالمعنى على هذا: اللهم اجعل لي نورًا خاصًا أسمع به من خطابك الأقدس ما لا يسمع، وأبصر به ما لا يبصر ويدرك به شعري ما لا ينال، وبشرى ما لا يتفوه به، ولا يقال ويقف به لحمي على السر المصون المحتمى، وعظامي تدرك به في الكنز المظلم السامي، وأدرك به ما احتوت عليه الجهات إدراكاً لا يماثله إدراك في سائر الأنات، وأشهد به في قلبي ما لا يشهد، وفي قبري ما لا يعهد، ثم طلب الزيادة منه، وهذا مقتضى أدب العبودة التي تأخذ عنه، فحضرة هذا النور الخاص هي حضرة، قاب أو أدنى التي اختص به ﷺ دون غيره، فليس لسواه الولوج؛ كولوجه فيها، ولا العروج كعروجه، ووقوفه على خوافيها، وللنور حضرات لا تنحصر، وأعلاها حضره الحضرة الإلهية المختصة بأرفع تجلي لاسم الله المخصوص ذلك برسول الله، ,حبيب الله:وله ثلاث درجات: درجة عامة، وخاصة وخاصة الخاصة، وكل درجة لها بداية، وتوسط وغاية؛ ولكل منها ذوق وشرب ورأي، ولكل منها قال وحال، وما لا يقال، ولكل جمود وخمود، وكهود ولكل تدلي، وتولي وتعلي، ولكل خبون وفنون وسكون، والدخول في أول حضرة من حضرات النور يكشف عن هذه النظورات السطور، وكلما ارتقى المريد عالمًا نورانيًا شاهد أمرًا وجدانيًا، وأدرك الأشياء على ما هي عليها عيانًا، وانجلت عليها عرائس الحقائق، فأدركها إيقانًا. [الضياء الشمسي 103/1] بتحقيقنا.

وهذا تفسير قول الله جل من قائل: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**»[1].

واعلم أنك إن بالغت في الطهارة والعبادة ولم تتفرغ للنظر والتدبر والفكر لم يتم لك هذا الأمر، ولم ترتفع عن درجة عموم المؤمنين إلى درجة العلماء الناظرين في ملكوت الله سبحانه، فإذا واصلت التقوى والطهارة بالتفرغ للنظر والتدبر، ولم يشغلك ظاهر العلم عن باطنه، ولم تستجز بعلم اللسان ولا آثرته على علم القلب، بل إذا سمعت العلم رسخت بفهمك إلى باطنه، وتطلبت وجوهه، والمراد به اتصل بك الحبل واستنار لك السبيل؛ لأن صفاء النور بقدر طهارتك وتقواك وحده بصر عقلك بقدر تفرغك وظهور الفوائد بقدر العناية بالتفكر والتدبر وإصابة الصواب بقدر اللجوء إلى الله ﷻ وطلب المعونة منه والتبرؤ إليه من الحول والقوة وعلى قدر الصدق فيه تكون المعونة.

فصل

وإذا وصلت بنوره الذي هو الحق المخلوق به السماوات والأرض وما بين ذلك بالعلم إلى الحقيقة الذي هو النور المبين نورا الأنوار ﷻ وتعالى علاؤه وثناثه، فاسجد له واعبده وحده لا شريك له، واستشعر الإعظام له والإجلال والخضوع له والخشوع لعظمته وكبريائه، وكبره تكبيرا، وقل: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:5] فهو الحليم الكريم لا إله إلا هو العَليّ العظيم.

وإن العارفين من أوليائه لما أعطوا المهود في موافقته ازدادوا كلفًا بذكره وحبًا لمناجاته وشغفًا بالعلم به والمعرفة له، فذكروه في سرائرهم، وناجوه بخفي ضمائرهم، وقرءوا كتابه الحكيم، فوقعوا منه على حسن أنبائه وكريم قصصه عليهم، ونصائحه لهم سموا بمعارف ألبابهم إليه، وهيجتهم دواعي اليقين، وبسطهم طوارق إيمانهم وصادق تصديقهم فإنه يرى في الآخرة، فربما هجم بهم من حيث هم الشوق المزعج، وبسطهم كريم المؤانسة إلى أن كاد أحدهم توهمًا بنظر عيني بمقارنة الإعظام والإجلال.

وما يقترن بذلك من هواجس الإيمان فلا يكاد يقع ذلك منهم من حيث هم

(1) تقدم تخريجه.

الأعلى حداء، وكيف وربما زاحم ذلك وقوع الذهن على صفة مدركة ممثلة قد عبر عنها ظاهر الوحي بالمعهود المشهود، فمن أراد الله ﷻ عصمته عاد عليه برحمته من حيث هو، فمنعه عند ذلك من الخطأ، وحماه من الغلط بأن يؤنس سره عن نيل ما انبسط إليه، ويردع قلبه فيكر بهمه ناكصًا على عقبيه، راجعًا حسيرًا مستحيئا مجلّاً له، قد بهرته طوارق العظمة، وأذهلته هيبة الجلال.

تلك سُنة الله جل ثناؤه في عباده الذين وصلوا إليه بصحيح المعرفة، وناجوه بحقيقة المناجاة شغفًا به كلفًا بقربه، أخبر بذلك عز جلاله فيما تلاه علينا من نبأ موسى - صلوات الله وسلامه عليه - ومواعدته ربه رجَلَّ ذِكْرُهُ ومجيئه للميقات وكلامه إياه، وإن من هؤلاء لمن يوجب الحال له أن يرجع مما هنالك بأجناس من الفهم وغرائب من العلم بالله جَلَّ ذِكْرُهُ، وإن منهم لمن يرجع بخشية وخوف ورجاء وخجل، ومنهم الراجع باقشعرار وانقباض وفزع وفرق، ومنهم الراجع بصعقة وصيحة وصرعة وغشية وسكتة أو بزفير وأنين وأحزان وأشجان وغصة وحسرة وكمد وبآلام وأسقام وأوجاع وأمراض، أو تائه في المهامة سائح في البلاد لا يُقر به قرار ولا يأوي إلى مكان، أو مستلب العقل مختلس الفهم يعنيه الذي بدا له عن الذي بعده، وكان موسى ﷺ مثلاً لهؤلاء.

ثم لا بد ولا محالة أن يكون منهم الراجع ثابت العقل رابط الجأش شاهدًا لما بدا له، عارفًا بالذي ورد عليه ثابت النفس في العبارة عما حل به مخبرًا إن سأله سائل، أو فرحًا مسرورًا متنعمًا بما وصل إليه، قرير العين بما عجز عنه، عارفًا بالنعمة شاكرًا لها بما أورده عليه الفهم، طالبًا للمزيد من المواهب حامدًا له، إن كان ربه، هكذا يقول: ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾ [الأعراف:43]، وشهدت لنا شواهده بالحق، وكان رسول الله ﷺ وعلى جميع الأنبياء والأولياء والمرسلين مثلاً لهؤلاء.

واعلم أن ما يرجع به أهل الفهم عن الله جَلَّ ذِكْرُهُ أكثر من أن يوصف، وأما ما يقع لأولي الأمر السقيم من المغالط والفساد التي تعدوهم من صفة الجهل، فكثير جدًّا نسأل الله العصمة، وأن يبارك لأهل الإيمان في حظهم من لقائه، إنه واهب ذلك وميسره.

اسمه الطاهر سبحانه وله الحمد

الطهارة بكمالها البعد عن الأدناس كلها والبراءة من الآفات أجمعها، وقيل للمرأة إذا انقطع عنها دم الحيض: طهرت فهي طاهر، وقيل للماء: طهور مبالغة في هذه الصفة من أجل طهارته في نفسه وتطهيره غيره، والمطهرة: إناء يتخذ من آدم للماء ليطهر به، وقيل لأيام النساء اللاتي لا يحضن فيها: أطهار؛ لأنهن قد باعدن فيها أذى الدم.

الاعتبار: ضد الطهارة النجاسة، والنجاسة هنا البعد عن الخير، اتنجس فلان عني أي: بعد، وقد يكون اسمًا للرجس، والرجس عمل الشيطان، قال الله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**﴾ [التوبة: 28] وقال عز من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾ [المائدة:90]، وعمل الشيطان باطل يبطل عند الله ﷻوالطهارة صفة من صفات الله ﷻ وهي الحق، والحق لا يفنى لبقائه، قال الله ﷻ: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد:1]، أضلها وأهلكها؛ لأنها رجس من عمل الشيطان، ثم قال عز من قائل: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**﴾ [محمد:2] أي: طهرهم وأصلح بالهم، أي: طهر بواطنهم من دنيء الأخلاق التي هي من الشيطان، ثم بين تبارك وتعالى العلة من ذلك بقوله: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ [محمد: 3].

فأعلم عز جلاله بما ذكرناه نصًا بينًا، وحامل الرجس هو النجس، ولذلك كان المشرك نجسًا؛ لأنه بعيد عن الله وتولاه الشيطان، فهو يعلم بعمله ويأتمر بأمره، وقال رسول الله ﷺ: «**المؤمن لا ينجس**»[1] أي: لأنه قرب من ربه بالإيمان والإسلام والتعبد

(1) رواه البخاري (495/1)، ومسلم (24/3).

له، وما أصاب المؤمن من بقايا الرجس على وجه الخطأ أو العمد من طريق العصيان مع الشهادة والإقرار طهره بالتوبة والعمل الصالح، فهو لا يكون حاملاً لرجس يكون به نجسًا.

ثم ما أصاب من ذلك أو أمثاله وإبداله مما أباحه مالك الأعيان ﷻ لضرورات الجسد المرتبطة به فقد خرج بذلك عن أن يكون رجسًا، فالمؤمن لا ينجس شرعًا على حال، والحمد لله رب العالمين.

غير أن الله تبارك وتعالى كتب على ابن آدم حظه من الرجس فهو نائله لا محالة بجريان الشيطان منه مجرى الدم، والإثارة غذائه من الأرض وتنفسه في الهواء بواسطة الفيح، ولعقوبات سبقت عن ذنوب تَقدَّمتْها، فللضرورة اللازمة له أبيح له أن يأخذ من ذلك كله على قدر معلوم ورسم مرسوم، وأوجب عليه الطهور بالماء؛ ليطهر به من ذلك المعنى الموجود من الرجس في ذلك الطعام والشراب الذي قد خالطهما من المعنى الجهنمي في الهواء والماء والأرض في حال صنعه، ولذلك كان الأمر الأول من رسول الله ﷺ من الوضوء مما مست النار فعفي الله ﷻ عن ذلك، وأبقاه علينا عند إخراج ثقله، أو صار رجسًا وخبثًا، وخفف عنا الطهور العام واقتصر بنا على غسل الأطراف، ومسح ما لو أمر بغسله لأعنتنا وشق علينا، كل ذلك تخفيف منه ﷻ عن واجبه ورأفة ظاهرة بعباده، وأمر بظهور جميع الجسد عند النكاح؛ إذ شهوة الجماع تستغرق الميز وتستنزف العقل وتغمر الروح بالجملة فإنه إصغاء محض وميل خالص إلى الغير بالمباشرة فقد خفف من ذلك واقتصر بنا على غسل الجوارح.

وجعل الله تبارك وتعالى ذلك للمؤمن شكرًا للنعم التي أباحها له في بلوغ بغيته من قوام بدنه وإيصال نسله ليتطهر بذلك، وكفارة لما أصابها من ذنوب أصلها من عمل الشيطان، قد برئ من اعتقادها قلبه، واجترحتها جوارحه، وإطلاقًا للروح من أذى غمرة الشهوة وعقابيل مباشرة اللذة، وتطيبًا للسر وتأنسًا له ليبسط في المحادثة، وتنزاح عنه حشمة إيثار المباعدة بالميل إلى الغير، فإن السر يتأذى من ذلك ويتدنس به، ألا ترى أنه قد منع من النوم والأكل في حال الجنابة إلا على طهر ولو على طهر الوضوء، ولم يفتح له باب الوصول إلى ربه من جهة الصلاة، ومنع من مس المصحف وقراءة القرآن، وأنه ليفسد بمباشرته كثير من الأشياء فسادًا كثيرًا، وما ذلك إلا لمعنى وصل إلى معنى

الطهارة منه في باطنه فغيره فذلك المعنى يطهره الماء زائدًا إلى ما تقدم، فافهم.

ألا تسمع إلى قول الله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ**﴾ [الأنفال:11]، فهذا تطهر من الذنب بالماء، ويذهب نصيب الشيطان منه، ويشجع الجبن ويثبت زلل الأقدام، أي أن العصمة كثيرًا ما تكون مع الطهارة، وأما الحيض فهو أذى ورجس، كان أوله رجسًا بعث على حواء - عليها السلام - لمكان خطيئتها في الجنة حين أكلت من الشجرة وجرأت عليها آدم ﷺ هذه المرأة التي جعلتها صاحبة لي أعطتني منها فأكلت، قال رسول الله ﷺ: «**لَوْلاَ حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا**»[1] فقال الله ﷻ: «**علي أن أدميها في كل شهر مرة**» وفي بعض الروايات: «**مرتين وأن اجعلها سفيهة فقد كنت خلقتها حليمة، وأن أجعلها تحمل كرها وتضع كرها فقد كنت جعلتها تحمل يسرًا وتضع يسرًا فتلك البلية أصابتها ولكل نساء الدنيا، فقال لآدم** ﷺ: **إذ قد سمعت لامرأتك وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها قد لعنت الأرض لعمارتك إياها، فلا تصيب خيرها إلا بشخوص وسينبت لك البقل والشوك وتأكل عشب الأرض في عرق بدنك وتطعم الخبز إلى أن تصير إلى الأرض التي خلقت منها لأنك غبار وستصير غبارًا**»[2] .

لهذا ولما تقدم ذكره دخل الرجس أطعمة هذه الدار، وعادت أثقالها إلى رجس محض ورجس، فوجب التطهر عنها في أصل المعصية وعفا لنا ربنا عما شاء من ذلك، والطهارة تنقسم إلى ما انقسم إليه المتطهر منه وهو الرجس، والرجس ضربان: ظاهر وباطن، الباطن منه ضربان:

أحدهما: خلق لازم للإنسان كالشح والجبن والبخل والكذب الخلقي والطيش والحمق ونحو هذا مما هذا سبيله، فإنما تطهيره إلى الله ﷻ.

وضرب هو ذنب يعتقده المرء ويصر عليه مما ليس يبدو على الجوارح، وطهور ذلك التوبة على شروطها والرجوع منه إلى أصل إيمانه وإسلامه.

---

(1) رواه مسلم (9/391)، وأحمد (18/353).

(2) لم أقف عليه.

والظاهر منه ضربان:

أحدهما: عمل يخرج على الجوارح يعتقده القلب وتتعهده الإرادة وتنويه النية، فطهور ذلك من جهة القلب التوبة على ما تقدم ذكره، والعمل الصالح يخرجه على الجوارح بدلاً من القبيح الذي بدا عليها في حال المعصية، وأن أمكنه أن يجعل الطاعة مقابلة للمعصية فهو أفضل وأنجح لدواء الداء في مبالغة الطهارة.

والضرب الآخر من الضربين الظاهرين ينقسم قسمين:

أحدهما: عمل بمعصية لإقرار لها في القلب ولم يكن حاولها بقصد، وإنما هو شيء سنح له من غير إرادة متمكنة، ولا عقد في القلب مرتبط، فذلك يكفره إن شاء الله مع حل الإصرار طهر الماء والصلاة والصدقة والصيام وذكر الله، وقد كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يقول في دعائه: «**اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد اللهم اغسلني من الذنوب والخطايا كما يغسل الثوب الأبيض من الدنس**»[1].

والقسم الآخر من هذين القسمين: هو ما يعلو الجسم مما يكون ظاهرًا وهو ما سماه رسول الله ﷺ: الفطرة، فذكر الختان وقص الشارب وحلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظافر وغسل البراجم والسواك والمضمضة والاستنشاق وانتفاض الماء؛ يعني: الاستنجاء فهذا يغالب كل ضرب بما يكون طهرًا له، والأصل في تطهير الماء للرجس مع رحمة الله به أن الماء أصله طاهرًا طهارة مطلقة، قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله الماء طهورًا لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو ريحه أو طعمه**»[2] ومصداق ذلك قول الله ﷻ : ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**﴾ [هود:7] فهذا دليل على أنه طاهر في نفسه، وأما دلالتنا

---

(1) رواه مسلم (316/3)، والبيهقي (5/1).

(2) أخرجه الشافعي (165/1)، وعبد الرزاق (78/1، رقم 255)، وأحمد (86/3، رقم 11833)، وابن أبي شيبة (131/1، رقم 1505)، وأبو داود (18/1، رقم 67)، والترمذي (95/1، رقم 66) وقال: حسن. والنسائي (174/1، رقم 326)، والدارقطني (29/1)، والبيهقي (257/1، رقم 1146). وكذلك أخرجه ابن ماجه (174/1، رقم 521)، والطبراني (104/8، رقم 7503)، والبيهقي في المعرفة (82/2، رقم 1846).

على أنه مطهر لغيره ففي قوله ﷻ: ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا**﴾ [الفرقان:48]، وقوله جل وعز: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء:30]، وأصل وصف الحياة طاهر، ألا تراه أنها تطهير الموات من الموت، فالماء بما هو ما طاهر الذات على الإطلاق مطهر لسواه.

فأراد ربك ﷻ - وهو أعلم- إذا أصاب أحدنا رجس من الشيطان أن يرده بالطهور إلى أصل خلقته، والدليل على صحة هذه العلة انه جعل التراب في ذلك بدلاً من الماء عند عدمه؛ لأنه كان مصاحبا للماء في خلقة آدم ﷺ، والماء أشرف لأنه موضع الرحمة وأصل لكل حي طاهر.

وقال أحد العارفين: خلق الله السماوات والملائكة والجنة والنار وما فيها من نور وأصل ذلك الماء، ثم قرأ: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء:30]، فقام الماء لإزالة الرجس والنجاسة والدَّرن، مقام النور للظلام يطهر منه موضع حلوله، فاتسق الأحكام وظهرت الحكمة وانتظمت الدلائل الأول بالآخر، والظاهر بالباطن، والشرعة بالجبلة، وميثاق النظر ببرهان المشاهدة بتقسيم القسط وزن العدل، والحمد لله رب العالمين، هذا طهور التوبة وطهور الماء، وللطهارة أيضًا طرق كثيرة:

منها: طهارة الصلاة، قال الله عز من قائل: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود:114].

وقال رسول الله ﷺ: «**الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما**»[1] .

وقال ﷺ: «**ما من عبد يسبغ الوضوء كما أمره الله فيصلي الصلاة التي أمره الله إلا غفر الله له**»[2].

وقال: «**إنما مثل الصلوات الخمس كمثل نهر غمر عذب بباب أحدكم ينغمس**

(1) رواه مسلم (186/2)، وأحمد (359/15).

(2) رواه ابن بشران في «أماليه» (735)، والدقاق في «مجلس في رؤية الله» (735)، بنحوه.

فيه كل يوم خمس مرات فما ترون يبقى ذلك من دَرنه»[1].

ومنها: طهر الصيام، قال رسول الله ﷺ: «**رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر**»[2].

ومنها: طهر الصدقة، قال عزّ من قائل: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [التوبة: 103].

ومنها: طهر الحج، قال رسول الله ﷺ: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»[3].

ومنها: طهر الذكر، قال رسول الله ﷺ: «**من قال: سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**»[4] .

وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله**»[5].

ومنها: طهارة الصبر، قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر:10]، إلى غير ذلك من الرضا عن الله ﷻ والتفكر في آياته، وفي وعده ووعيده والرجاء والخوف والحزن والإشفاق والمحبة وغير ذلك، ومن ذلك طهارة الابتلاء بالمصائب كلها؛ كالأمراض والأوصاب وفقدان الأحباب، قال الله جل من قائل: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ**

---

(1) رواه أحمد (61/4).

(2) رواه أحمد (359/15)، والطبراني في «الكبير» (280/5).

(3) رواه مسلم (463/8)، وأحمد (366/15).

(4) أخرجه ابن أبي شيبة (54/6، رقم 29417)، وأحمد (302/2، رقم 7996)، والبخاري (5/ 2352، رقم 6042) ومسلم (2071/4، رقم 2691)، والترمذي (511/5، رقم 3466) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (1253/2، رقم 3812)، وابن حبان (111/3، رقم 829).

(5) رواه مالك (147/2)، وأحمد (179/48).

الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155]، قال رسول الله ﷺ: «**حتى الشوكة يشاكها العبد طهرة له**»[1].

ومنها طهرة الشكر فما من نعمة ينعم بها على عبد مؤمن يشكر الله عليها إلا كانت طهر له من ذنب وكفى لحسابها، وبالجملة فكل طاعة لله ﷻ طهرة، كما كل معروف صدقة، فتتبع هذا شيئًا شيئًا إن شاء الله وهو المستعان، ولا قوة إلا بالله العظيم.

التعبد

فاعلم - رحمك الله - أنه يجب عليك التحقق بصفة الطهارة علمًا وعملاً، فتطهر من المعاصي بمجانبتها، فذلك أفضل لك عند ربك وأيسر مؤنة من طهور التوبة، ومتى ابتليت بمواقعة شيء منها فأسرع إلى التوبة منها فذاك طهورك، ومتى عملت عملاً فأخلص فيه وطهره من الشوائب وخلصه من الآفات، فبذلك تستوجب موعوده، طهر قلبك من كل ما يدنسه بالتوبة النصوح، وطهر خلقك من الآفات، وبصرك من الجنابة، وثيابك من الرجس والدنس، وجسمك عن التفث والدرن، وفاك بالسواك، ولسانك من الكذب والهجر، وبطنك من الحرام، وأسنانك من القلح، وعينيك بالتعاهد من الرمض والقذى وشعرك من الشعث والأذى، وليكن ذلك كله على ما يرضي ربك، وعليك بالتطهر للجمعة فإنك لا تدري بأي أعمالك تستوجب رحمة ربك، قال رسول الله ﷺ: «**غسل الجمعة واجب على كل محتلم**»[2] وفي أخرى: «**حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا، يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ**»[3].

اسمه الطيب سبحانه والحمد

يقال من ذلك: طاب الشيء يطيب طيبًا فهو طيب، والطيب في كل شيء جوهره

---

(1) رواه البخاري (2137/5)، ومسلم (438/16).

(2) رواه أحمد (60/3)، والطبراني في «الصغير» (273/2).

(3) رواه البخاري (2/4)، والبيهقي (188/3).

ونفسيه، وهو ما سلم من الخبث كله ثم ارتفع بعد إلى أرفع درجاته، ومنه قيل للماء: طيّاب إذا كان عذبًا صافيًا مطيب لغيره، أي: مطهر، فهو طيب في مذاقه، حسن المأوى مطيب لغيره، وقيل لشجرة في الجنة: طوبى لطيب عيش في منحها وصفائه من كل كدر وارتفاعه على أرفع غاياته، وقيل للأكل والنكاح: الأطيبان؛ لمحبة النفوس ذلك وميلها إليها، وقيل للخمر: طابة لعشق شرابها إياها ومل نفوسهم إليها وحبهم لها، وسمي المستنجي مستطيبًا لإزالة الخبث عن نفسه بذلك الفعل.

وأرى - والله أعلم - إنما سميت المدينة طابا؛ لأن الله ﷻ أرصدها للهداية وطيبها في نفسها بكونها كطيبة لغيرها من البلاد لدخولهم في دين الإسلام من أجلها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**أمرت بقرية تأكل القرى**»[1] أي: تغلبهم على أمرهم فتردهم إلى أمرها، ولكونها أيضًا في نفسها بالوصف الذي وصفها به رسول الله ﷺ في قوله: «**المدينة كالكير ينفي خبثها وتضع طيبها**»[2]، وهي معدن طيب من هذه الجهة، ومنبعثه منها خرج وإليها يعود، قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان يأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها**»[3] وسمي المسك والرياحين كلها طيبًا؛ لطيب ما يدمها على النفوس من ذكاء الروائح وطيب الأرج.

اعتباره

معنى الطيب قريب القرابة من معنى الطهارة جدًّا يعسر الفصل بينهما إلا بعد إمعان النظر، غير أن الطيب وصف زائد على الطهارة، وذلك أن الطهارة عبارة عن ذهاب الرجس والنجاسة أو عدم ذلك عن المحل المقصود بالوصف، والطيب عبارة عن شيء زائد موجود فيه على الطهارة يظهر للبصر صفاءً وجمالاً، وهو في الشم طيبًا

---

(1) رواه البخاري (2/662)، ومسلم (2/1006).

(2) رواه البخاري (7/152)، ومسلم (9/32).

(3) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (2/286، رقم 7833)، والبخاري (2/663، رقم 1777)، ومسلم (1/131، رقم 147) وابن ماجه (2/1038، رقم 3111)، وابن أبي شيبة (6/406، رقم 32429)، وابن حبان (9/46، رقم 3728)، وأبو عوانة (1/95، رقم 925). وحديث ابن عمر: أخرجه ابن حبان (9/45، رقم 3727).

وأرجى، وفي الذوق لذاذة واستساغا وفي الأفعال جودةً وحسنًا.

فالأفعال الدينية كلها شيء متى ألفت بعاملها رجسًا طهرته، وإن لم تجد ما منه تطهره طيبته فكانت شكرًا، ولذلك قيل لهم عند دخولهم الجنة: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾ [الزمر:7]، وقال الله ﷻ: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل:32]، وقد تقدم أن ضد الطهارة النجاسة التي تكون عن الرجس، كذلك ضد الطيب الخَبث، وهو ثقل الشيء وحثالته ودينه المتعلق به من أصل بنيته، والمتشبث بذاته من سنح معدنه لعلة المزج المتقدم في أصل البنية التي عنها المحنة، فالممتزج بذوات بني آدم من المذموم من جهة المذموم في المزج هو الخَبث؛ كخبث الحديد والنحاس والفضة والذهب والفلز، وذلك المعنى هو حظ الشيطان من أحدنا، لكنه خلق الله جَلَّ ذِكْرُهُ.

ثم ما كان من هذا المشار إليه من تلك الجهة المذمومة من سقم نفساني أو وصب أو مرض، وما كان من ذلك أيضًا من خلق من حرص أو شره أو جبن أو كسل أو حسد أو غيره فهو رجْز، وما كان عن ذلك من عمل فهو رجس؛ لأنه من عمل الشيطان وأمره، ثم ما كان من جزاء عليه فهو رجْز، والممتزج بذلك المذموم من محمود هو خالص ذلك الجوهر وعليه وظاهره وطيبه كجوهر كل فلز بعد خلوصه من خبثه، ثم ما كان من عمل أو خلق عن هذا المشار إليه في هذا الموضع فهو الخير والطيب، وهذا المعنى هو أثر الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - في الإنسان يتحقق بالإيمان ويزكو بابتغاء رضوان الله ويظهر على الجوارح بالتطهر والتوبة، وهو خلق الله جَلَّ ذِكْرُهُ، وهو حظ الملك ﵇ من العبد، وهو المخاطب منه وموضع نظر الله منه، وهو طريق الهداية والتوفيق فيه، فافهم.

وقد كان بعض العلماء - رضي الله عنا وعنهم - يقول في دعائه: «اللهم خلصني من ذنوبي وعيوبي كما تخلص الفضة البيضاء من الخبث في يسر وفي عافية» وقد جاء التنبيه على الطيب والخبيث والطهارة والرجس في القرآن مكررًا مرددًا في مواضع كثيرة؛ لأنهما اجتمعا بالمعنى بهما، والمخبر به عنهما في الحق والباطل، اختصرنا ذكرها لشهرتها، وكان رسول الله ﷺ يقول عند دخول الخلاء: «**اللهم إني أعوذ بك من**

الخبث والخبائث»[1] سمى البول والغائط: الأخبثين، ومنع الصلاة مع مدافعتها.

وقال ﷺ لصاحبه: «**ائتني بثلاثة أحجار**»[2] . وفي أخرى: «**ثلاثة أشياء استنفض بهن ولا تأتني بعظم ولا روث ولا حممة**»[3].

وقال ﷺ لما آتى بها لاستطابه: «**إنها ركس**»[4] أي: أنها أركست من بعد طهارتها إلى الخبث، ومن اعتبر هذه الأحاديث التي جاءت عنه ﷺ في هذه المعاني من الاستطابة، ولم اجتنب الثلاثة أشياء؟ فالذي غير حكمها حتى لم تكن مطيبة وحدانيته في الزكاة، وقد قيل له: «**يا رسول الله، إنا نلقى العدو غدًا، وليس معنا مدى أنذبح القصب فقال ﷺ: كل ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل**»[5] وفي أخرى: «**وأفرى الأوداج ليس السن والظفر وسأحدثكم أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة**»[6] وكالزكاة طهارة وتطيب، والعلة موجودة في الظفر كوجودها في العظم، فافهم.

وكذلك الحديث الذي جاء عنه ﷺ في جوابه وفد نصبين من جن الجزيرة ليلة قرأ عليهم القرآن وعلمهم الإسلام سألوه الزاد فقال: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**» [7].

فانظر - وفقك الله- كيف جعل المطهر الطيب، اسم الله ﷻ، ثم قال: «**فلا تستنجوا بهن فإنها طعام إخوانكم من الجن**» [8].

وأضف إلى هذه الأحاديث التي جاءت في معنى ما تقدم كقوله ﷺ في أمره

---

(1) رواه البخاري (258/1)، ومسلم (43/3).

(2) رواه أحمد (164/9)، وابن ماجه (399/1).

(3) رواه البخاري (283/1)، والبيهقي (107/1).

(4) رواه أحمد (284/8).

(5) رواه البخاري (180/9)، ومسلم (154/13).

(6) رواه الزيلعي في «نصب الراية» (348/11).

(7) رواه ابن حبان (369/6)، وابن خزيمة (151/1).

(8) رواه مسلم (247/3)، والبيهقي (11/1).

بتقليم الأظافر: «**إن الشيطان يقعد على ما طال منها**»[1] إشارة منه إلى الوسخ المجتمع تحت الأظفار مع الغفلة عن تقليمها، وكحضه ﷺ على الاستنشاق والاستنثار، وقال ﷺ: «**إن الشيطان يبيت على خياشيمه فإنما تجده أبدًا يدلك على أن مكان الشيطان موضع الخبث وأن عمله الرجس**»[2] وإنما يعتري الإنسان من كسل أو ملل أو سقم أو مرض في جسمه ونفسه مما تضيق به معيشته أو ما ينزل به من السماء من بلاء أو عذاب جزاء لعمله فهو رجس.

ثم اعلم أنه من أراده الله ﷻ برحمته نقله إلى الخير، وقربت له بمشيئته انصرام أيام البلاء عنه وجه به إليه، سبحانه وله الحمد فيجعل ما كان له من خلق مذموم محمودًا؛ كالشره والحرص والحسد ونحو هذا، فيجعل حسده على الخير والحكمة وبذل النفس والمال والجهد والاجتهاد في ذات الله ﷻ، ثم صير حرصه وكبره وشرهه وفقره وإباءه وبغية إلى غير ذلك من دميم الأخلاق في طاعة ربه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأن يجعل كبره على أعدائه وفقره إليه وإباءه عن معاصيه ومكروهه ونحو ذلك، هكذا يمحصه برحمته ولطفه، فإذا هو قد أبدى له بسيئاته حسنات يحييه بذلك حياة طيبة كما قال عز من قائل: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب:33]، فلا يبقى مع هذا سرة إلا أصلحها ووجه بها وجهته إليه سبحانه، فاستعمله بها فيما يرضيه فاستحالت بذلك حمدًا وخيرًا، وقد كان قبل ذلك في معيشة الضنك أعمى عن الهدى أصم لا يسمع الداعي، وإنما كان كذلك لأجل خبث باطنه ورجس أعماله، نسأل الله الذي لا إله إلا هو معافاته ومغفرته، وقد قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحد إلا وله قرين من الجن، فهو يأمرني إلا بخير**»[3] فأخبرك ﷺ

(1) رواه ابن أبي عاصم في «الجهاد» (13) بنحوه.

(2) أخرجه البخاري (1199/3، رقم 3121)، ومسلم (212/1، رقم 238)، والنسائي (67/1، رقم 90)، وابن خزيمة (77/1، رقم 149). وأخرجه أيضًا: أبو عوانة (209/1، رقم 677)، والبيهقي (49/1، رقم 227) بنحوه.

(3) أخرجه الطبراني (421/20، رقم 1017). وبنحوه أخرجه أحمد (385/1، رقم 3648)، ومسلم (2167/4، رقم 2814)، وأبو يعلى (77/9، رقم 5143). وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة (330/1،
=

بمعنى ما تقدم.

التعبد

فاجهد نفسك - وفقك الله - العلم بأسماء الله ﷻ، واستعمل نفسك بمقتضاها حسب الاستطاعة، ولتعلم أن التطيب من الخبث الخلقي ليس من قبيل الاكتساب إنما ذلك لله تعالى وحده لا شريك له؛ لأنه من أصل الصنعة وتركيب الخلقة، ولا استطاعة للعبد على تغيير الخلقة إنما إصلاح ذلك لله وحده، ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ**﴾ [الأنعام:125]، لكنه تبارك وتعالى ما خلق من داء إلا جعل له دواء، ولا أغلق غلقًا إلا وجد له مفتاحًا، قال رسول الله ﷺ: « **إن لكل داء دواء، فإذا وافق الدواء الداء براء الداء بإذن الله تعالى**»[1].

ومفتاح هذا الغلق الدعاء والتضرع بالاستكانة والتبرؤ من الحول والقوة وانتظار الفرج من عند الله تبارك وتعالى، ودواؤه المجانبة لمظان الريب، والفرار من مواطن المعاصي، والبعد عن مواضع الآثام والفواحش والعزلة وقلة الخلطاء إلا ما يعنيك منهم على مطلبك.

وقطب ذلك كله معرفة النفس ومخالفة الهوى، فتوسل إليه ﷻ بأحسن الوسائل وأحبها إليه، وترقب أوقات الغفلة وتحين أحيان رقة قلبك، وناجيه بلسان الافتقار وتضرع بين يديه بجلال الاضطرار، وابك إذا أتاح لك البكاء واسأله، واشك إليه بثك واعتذر من عجزك، فإنك لا تدري متى تكون الاستجابة وهو الرءوف العطوف ذو المن القديم والفضل العظيم، لا إله إلا هو رب العرش الكريم، منحنا الله وإياك حسن هدايته، ولا حرمنا كريم إجابته، إنه ولي ذلك لا شريك له.

=

رقم 658)، والبزار (254/5، رقم 1871)، وابن حبان (327/14، رقم 6417)، والطبراني (218/10، رقم 10522)، والشاشي (251/2، رقم 824)، والديلمي (37/4، رقم 6115).

(1) رواه النسائي (369/4)، وابن حبان (428/13).

اسمه الزَّكي ﷻ

أصل الزكاء - والله أعلم - هو استواء صفة الشيء الموصوف به في الخير، فإذا استوى في ذلك ظاهره مع باطنه وشماله مع يمينه وآخره مع أوله فذلك الزكاء. والموصوف به زكي، وقيل للفرد خسي، فإذا أفهم للفرد صار زوجًا قيل هو زكي، ومن قال: إنه النماء فلم يبعد من الصواب؛ لأن النهوض إلى الخيرات صعود كما أن النزول إلى الشر سفال، ألا ترى أنك لا تقول في الشر زكاء الكذا ويقال في الخير، ثم ترجع بالكلام إلى أنه تثنية الخير في الموصوف فيه وإعادته عليه، فيقال من ذلك: زكاء الشيء يزكو زكاءً إذا نمى وزاد؛ لأنه كان فردًا في نفسه وواحدًا في ذاته، فعاد بنمائه وسيادته زكاء، وقيل للرجل التقي: زكي من رجال أزكياء، نمت حاله في الصلاح وزادت أسماؤه في معاني الحمد على ما يأتي في الاعتبار بعد إن شاء الله تعالى، وذلك كأن موضع الحدث والرجس منه لحق بموضعه الطيب والطهارة منه.

وزكاة المال مفروضة من ذلك؛ لأنه يذهب خبثه يؤدي بذلك تباعته فيعيد على مخرجها سائر المال مضاعفها أضعافًا في الآخرة مع كونه في الدنيا قال الله ﷻ: ﴿**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأعراف:32].

اعتبار

اعلم - وفقك الله - أن الموضع خصّ بالطهارة والطيب جبلة وفطرة هو موضع اليمين، وضد ذلك في موضع الشمال، وكذلك الأمام من الوراء والفوق مع التحت. ولا يقال لموصوف إنه زكي حتى تجتمع جهتاه في الخير؛ لأن الزكاء صعود في معاني الأسماء الحسنى، ومن أسمائه - جَلَّ ذِكْرُهُ - الواحد والأحد، فإذا صرف العبد جهتيه معًا إلى الخير وجمعهما بمعنى الحمد لحق بالحمد وهو الزكي، غير أنه قد يوصف الموصوف بالزكاء متى وجدت منه بعض هذه الصفة مقاربة وصفحًا للتقصير اللازم لفضل الله ﷻ، ولذلك ما أباح التسمي بمعاني أسمائه على المجاز والمقاربة، والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وصفاته وأسماؤه البريء النزيه عما يلحق المحدثين من حقائق الخبث والرجس، كما هو البريء النزيه الرفيع عن قصور صفات البشر ونقائص

الحدث، وهو معنى قول رسول الله ﷺ: «**وكلتا يدي الرحمن يمين**»[1] يريد أنه لا يوصف بصفة ولا يسمى باسم يخالف معاني اليمين؛ إذ ذلك لا يجوز عليه ولا يليق بنعوت جلاله وصفات تعاليه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

هو الظاهر الطيب في جميع صفاته المحمود منها من كل أسمائه، وهذه هي الصفة العالية في حقيقة الزكاء لا يوصف بها حقيقة سوى الزكي الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ومن سواه من المتصفين بها فمجاز وقصور عن حقيقة الصفة العالية، ومما يزيدك إيضاحًا أن تتصفح بعقلك قوله ﷻ: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ [الزمر:67]، فأضاف السماوات إلى يمينه لطهارتهن وبراءتهن من الخلاف فيما سبيله المناهي، وطهارتهن من الرجس، ونسب الأرض إلى يمينه الأخرى، ولأجل ذلك سبح نفسه وله الحمد ما ينبغي له أن يقدره فيضيف إليه ما يستحيل عليه، بل هو الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات، الزكي القدوس الطاهر الطيب له المثل الأعلى، قال رسول الله ﷺ في حديثه المشهور: «**لما خلق الله آدم ﵇ مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال: هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيده الأخرى وكلتا يديه يمين**»[2] فاشتبه هذا في المعنى تسبيح الله جَلَّ ذِكْرُهُ في الآية المذكورة.

واعلم - فهمنا الله وإياك - عنه أنه لا يكون عن الخير إلا الخير، وأن فعل الله جَلَّ ذِكْرُهُ خير كله، عدل كله، حسن كله، وهو الواحد الحق، خلق آدم ﵇ وخلق منه زوجه وأوجد عنه رجالاً كثيرًا ونساء، كذلك خلق الماء واحدًا ثم أنزله إلى الأرض ثم فضله إلى ما فضله إليه، قال الله جل من قائل: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [الرعد:16]، فتلوم - رحمك الله - يفهمك على هذا الموضع من النظر وتثبته

---

(1) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (423/16)، وأخرجه أحمد (159/2، رقم 6485)، ومسلم (3/ 1458، رقم 1827)، والنسائي (221/8، رقم 5379)، وأخرجه أيضًا: الحاكم (100/4، رقم 7006)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والخطيب (367/5).

(2) رواه مالك (1322/5)، والحاكم في «المستدرك» (80/1)، وتقدم أيضًا في سابقه.

بعقلك وإيمانك، ففيه أشكال كثيرة فإنه مما قيل في بعض ما يذكر أنه من الكتب المتقدمة المنزلة، يا جولة الخاطر تلومي بمقدار ما بين المظنون والمتيقن والواجب من الممكن، ولا تقضين بظاهر القول على باطن الفعل فإن الأشكال في هذا العالم أكثر من الإبانة، وهو كالموضع المظلم الذي لا يستقصي المستعرض فيه فرق ما بين الألوان والأكوان، فإذا خلص لك شيء بمقدار طاقتك فضعيه في موضعه، ولا تتجاوزي به محله، فإن التقصير عنه أسهل من التعدي به ورغبي إلى ممسك عصم الإصابة في تسديدك، واتهمي ما يغلب على إرادتك، فإنها تمسك مع يسير الشبهة إلى معاندة الحقيقة، واعلمي أن ما صدر عنك مثبت في صحائفك ومخلف عنك، فاختاري منه ما جمدت صحبته ووجوب زلفته، فإن الأيام تحد به وأنت مرتهنة بقولك وفعلك.

اعلم أنه مقعد عظيم لعقد خطير ضل عن حقيقته الضالون، من أجله شبه المشبهون فتاهوا وأبطلوا، ولمكانه أشرك المشركون فعدلوا بالله غيره وأكثروا وعَندَ الضالون وألحدوا في أسمائه وصفاته، فسبحانه وله الحمد ما قدروه حق قدره، وهو منبعث المحنة والابتلاء، فالله - جَلَّ ذِكْرُهُ - هو الزكي الطاهر الطيب القدوس من جميع جهات النظر والاعتبار ونواحي التذكر، لا تلحقه الآفات، ولا يليق به نقص، ولسواه من أسمائه وصفاته مجازها، فطيب منهم بوجه أو مرحوم مطهر قاصر الصفات ممكن أن توجد به الآفات إلا ما رحم ربي ليس كمن ليس كمثل ذاته ذات ولا كصفته صفة، أفمن هو جبار لا نقص فيه كمن هو مجبور لا غنا به، أو من هو كبير لم يزل كمن هو حقير لم يكن، كيف تشبه الخليقة الحقيقة أم كيف تماثل القدرة الفطرة؟! الكل أبان بجبروته، وأخبر بدوام ملكوته، وسبح بحمده لطهارة قدسه، أمارات الصنع على الجميع واضحة، ودلائل الحدث على الكل لائحة، ولألباب أولى الألباب بأنها ليست كمثله مناحيه، قال الله عز من قائل: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ**﴾ [النحل:48]، فأعلم ﷺ بأفراد اليمين أنه معمور النور، وأنه يطرد الفيء عنه بقوله عن اليمين، وأن موضع الشمال من كل ذي فيء هو معمور الأفياء، والنور بفيئها عنه سجدًا لله ذاخرة له.

التعبد

اعلم - وفقنا الله وإياك - أنه يجب على كل من ذكر الله جَلَّ ذِكْرُهُ باسم من

أسمائه أو أثنى عليه بنعت من نعوته فإن من آداب ذلك: أن يطالب نفسه بمقتضى ذلك الاسم وموجب ذلك الذكر على ما يرضي المذكور المحمود بذلك الحمد، قال الله جل من قائل: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾ [الأعلى:14،15]، فأعلمك أنه من الواجب المأمور به المفروض على من عرف ربه ألا يقف بنفسه على العلم به دون العمل له والتعبد لجلاله، ﴿**وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ**﴾ [فاطر:18]، وإن من التزكي أن يعمل بطاعة الزكي الحق جَلَّ ذِكْرُهُ ليتزكى عنده ويتقرب منه، ومن التزكي ما هو داخل في المفروض الموجب وهو العمل والتعبد، ومنه من هو خارج عن طاقة البشر اكتسابه، وقد تقدم في اسم الطيب غير أنه يجب عليه أن يكف حسده إلا في الخير، وبغيه إلا عن أعداء الله جَلَّ ذِكْرُهُ على ما أذن له فيه، وإغلاظه وفظاظته وشدته وبطشه وكبره واستهزائه ونحو هذا إلا على وجه أذن له فيه وأبيح له، فعليك بالصعود في درجات الخير وتطلب معاني الأخلاق، فالله جَلَّ ذِكْرُهُ يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها، فما كان بمعنى التطهر من الأدناس والآثام والأرجاس والتطيب بطاعة الله وصالح الأعمال فهذا هو المفروض وهو التزكي، وما كان من نقل الأخلاق المذمومة إلى المحمود منها والهداية لأحسنها والعزيمة عليها والثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، فذلك إلى الله تعالى يوصل إليه بالرغبة والتضرع والسؤال والتعمل والله يمن على من يشاء من عباده، قال رسول الله ﷺ: «**وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ**»[1] .

والمفروض على العبد امتثال ما هو موصل إلى هذا بإذن الله ﷻ، وهو ثواب له وكلمة جامعة متى أردت التزكي فكل خلق في القرآن محمود تفعله وكل خلق في القرآن مذموم تنه عنه فهذا هو التزكي المراد منك، فاعمله وبالله التوفيق.

(1) رواه مسلم (163/5)، والبيهقي (420/2).

اسمه السبّوح ﷻ

جملة المراد بهذا الاسم الكريم اعتقاد بعده ونزاهته عن المكروهات، وبراءته من نقائض المحدثات وافتقار المكنونات، وقد تقدم من شرح ذلك جملة تشرف بذوي الألباب على قصد الصواب، وقد جاء على وزن فعول، وهو غريب للبناء لم يأت في الأسماء فيها نعلمه على بنائه إلا قدوس عن آية البناء في الأسماء أمرًا يأتي لرفعة الذكر، وعلى قدر الذاكر واختصاصه به.

فأما اشتقاقه - والله أعلم - فهو من سبح يسبح، فالسابح متباعد بسبحه عن المكروه من الغرق والهلاك ونحو هذا، وكذلك قولهم: قدس سابح إذا كان خفيف الوطء حسن الجزاء سابقًا إلى غايته فهو متباعد بسبحه ذلك عن موضع ابتداء جزيه ليقرب من غايته، يباعد بذلك أيضًا في جزيه الصفات التي توجب وصف الهجنة، وأما مجيئه على وزن فعلان في التسبيح فذلك متردد بين وجوه لن يخرج عن أن يكون منها إن شاء الله ﷻ، نقول من ذلك: سبح يسبح سبحًا من الجري والعوم كما يقول عدا يعدو عدوًا من الجري، وخطا يخطو خطوًا من الخطى والخطو، وهكذا تأتي مصادر الأفعال الظاهرة من هذا الباب، فإذا أتت المصادر عن الأفعال صدرت عن الباطن جاءت على وزن فعلان، يقال من ذلك: عدا عليّ يعدو عدوانًا من الاعتداء، كذلك سبح عن كذا يسبح سبحانًا إذا كان التباعد عن خلق مذموم فخولف بنائهما في المصادر تفرقه لذلك.

وكلمة سبحان توجد بما هي عبارة عن جميع معان نزهت عظمته عمّا لا يليق به ولا يجوز في نعوت جلاله؛ كقضب وقضبان، وكثب وكثبان، والعرب تأتي بهذا البناء علمًا للجمع وأسماء الجموع في معان مخصوصة كقولهم: قرأت أقرأ قراءة واسم المقروء قرآن، وقطعت أقطع واسم المقطوع قطعان، وقربت أقرب واسم المقرب المبتغى به التقرب قربان، فعلى هذا يكون اسم جمع السبحات المسبح بها سبحان، ويكون واحد هذا الجمع سبحة كما واحد الخطوات خطوة وواحد القربات قربة، ويقال أيضًا: حسبت أحسب حسبانًا، قالوا: وجمع الحساب حسبان، وهذا راجع إلى ما تقدم ذكره، أولى به أن يكون الحسبان من حسبت أحسب تحسيبًا على وزن فعلت

أفعل تفعيلاً، أي: جعلته على حساب، فيكون المحسب حسبانًا كذلك قالوا: سبحت أسبح تسبيحًا، واسم المسبح به سبحان، قال الله ﷻ: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾ [الرحمن:5]، يقال: هذا قربان زيد وقطعان عمرو، ويقول الله ﷻ: «سبحاني سبحاني» ويقول المسبح له: سبحان الله، أي: نزاهة الله عن الأسواء كلها وبعد عن الآفات جمعها، قال الله ﷻ: ﴿**نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [النمل:8]، وقد جاء سبحان الله مدائح الله ومحامده وثناؤه الأعلى، قال الله ﷻ: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ [طه:130]، ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: 44]، فالأولى: سبحة لوجوده العَليّ بما هو عليه من الوجود العَليّ، والثانية: سبحة محامده وثنائه ومدائحه.

الاعتبار

قد مضى فيما تقدم أن الوجود وجودان:

وجود واجب وجوده، ومعنى ذلك أنه لم يزل ولا يزال.

ووجود ممكن وجوده بين عدمين، ومعنى ذلك أنه لم يكن ثم كان، ثم حال كونه بمشيئة تكون إن شاء الله أبقاه بإبقاء منه، فإن شاء أعدمه وأفناه بإعدام منه، والمعتمد في وجود هذا على مشيئة الموجود الحق الواجب الوجود لا إله إلا هو ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، هذا هو المعتقد الأول في الوجود، وأما المعدوم فينقسم أيضًا إلى وجهين:

معدوم معلوم، ومعدوم غير معلوم، والمعدوم المعلوم ينقسم إلى قسمين:

معدوم معلوم لم يكن بعد وسيكون، ومعدوم لم يكن ولا يكون أبدًا.

فالمعلوم منه ما لم يكن بعد؛ كمجيء الساعة وإحياء الموتى والجزاء الأجل كله ونحو هذا.

ومعلوم معدوم كان ثم انقضى؛ كالقرون الماضية والآجال الخالية وكأمس الذاهب وغير ذلك، وغير معلوم ما هو في علم الله لم يطلع عليه أحد، ولله غيب السماوات والأرض ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

والمعلوم المعدوم الذي لم يكن ولا يكون وكونه ممكن هو: ما لم يرد الله عمل

ذكره أن يكونه كخروج أهل النار وأهل الجنة من داري الخلود، وكإمضاء بشفاعة الشافعين التي لم يأذن الله تبارك وتعالى بها ونحو ذلك.

ومعدوم متوهم، متوهمه كاذب ومعدومه صادق، ليست له حقيقة في وجوده بوجه ولا على حال، لا يقع عليه علم ولا يتعلق به عقد صادق، وهو ما لم يكن ولا يكون ولا يجوز أن يكون له وجود ألبتة وهو: وجود إله مع الله سبحانه أو شريك أو ولد أو والد أو شبيه أو مثل أو نظير أو ظهير أو صاحبة أو كفوًا ونحو هذا مما يستحيل وجوده، وصح من جميع المعاني والوجوه كلها عدمه، وهو ما عبرت عنه كلمة: (**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**)، وكذلك عبرت عنه كلمة: (**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**) وكلمة: (**لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**)، وكلمة: (**سبحان الله**) فهذه الكلمات عبرت عن الوجود أجمعه، ولم تبق لعدم في الوجود وجودًا فمن التسبيح.

فاعلم ما يكون تنزيهًا من العدم كله لكنه أظهر تنزيهًا عما يضاد الأحدية والفردانية والصمدانية في الأزل حيث لا ذكر ولا مذكور سواه ﷻ ولا وجود لشيء سواه إلا وجوده، ومنه ما يكون تنزيهًا عن نقائص الموجودات وقصور المحدثات عز على الوجود كما تقدم ذكره في باب اسم العزيز ﷻ، وقد جمع المعنيين رسول الله ﷺ في تسبيحه من قوله: «**سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[1] أي: سبحان الله في وجوده العلي، حيث لا حيث، وحين لا حين، ولا وجود سوى وجوده، عز عن مماثل أو مقارن أو قديم معه أزلي يوجد مع وجوده، وقوله بعد هذا: وبحمده بواو العطف؛ فمعناه: وبحمده أسبحه عن جميع ما لا يجوز عليه من نقائص البشر وآفات المحدث، وكل ما يستحيل عليه.

سبحان الله العظيم إشارة إلى جميع السبحتين، والأولى أن يقال في قوله سبحان الله وبحمده: إنه تسبيح له بمحامده وتنزيه لنعوت جلاله وعلى صفاته وأسمائه عما لا يجوز في وجوده، وقد تقدم من أسمائه ما نطق به كتابه أو أجمع عليه المسلمون أنه الأول والآخر، أي: هو الأول لا أول له وأول معه في أوليته، وهو الآخر ولا آخر له

---

(1) رواه البخاري (127/22)، ومسلم (302/17).

ولا آخر في آخريته يشبهه، أو يكافئه، وعن إثارة هذين الاسمين أوجد لنا الدنيا والآخرة، لكنه - جَلَّ ذِكْرُهُ - لا فصل بين أوليته وآخريته هو، هو عز به جلاله، إنما تغايرت الأسماء من حيث عبارتها وإعلامها بما عنه أعلمت، فأوليته تلك التي لا أولية لها هي التي عبر عنها بصفة العظمة والعلاء والمجد، قال الله جل من قائل: ﴿**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا**﴾ [الجن:3]، والجد يعبر به عن الفردانية التي لم يزل عليها ولا يزال قبل إيجاده الكائنات وإظهاره المخلوقات، وهو ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**» وفي أخرى: «**معه**»[1] مكان «قبله»، ثم كتب في الذكر كل شيء، كذلك كان وجوده العَليّ ولا شيء مذكور سوى وجوده وذكره، فهو الفرد الحق الأحد الذي: ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:3، 4]، كان كل شيء في كتابه العَليّ قدر كونه، ثم كتبه في الذكر في وجوده العَليّ الأعلى قدرة وعلمًا ومشيئته وكلمة، فقوله: كن، وعلمه بالكائنات وقدرته ومشيئته فيها هو المستودع الأعلى وسننه في الموجودات مستقر لها إلى أن أخرجها ﷻ في سبل سننه على ما سبق لها من مشيئته، وذلك أيضًا مستقر للكائنات؛ لأنه لما أظهر ما كان في علمه ومشيئته أن يظهره لم يضل عن ذلك ولا نسي سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، فنظير هذا في الوجود الأسفل كل مستقر له، وكل مستودع في طبقات الوجود، ألا ترى أنه قد أوجب على الولد أن يرزق ابنه حال ضعفه عن الاكتساب وكفالته، كما أوجب ذلك على نفسه جَلَّ ذِكْرُهُ بوعده، وجعل للأم حضانته كأوليته في مشيئته التي لا تبديل لها، ثم أوجب ذلك على الابن طاعة أبويه وبرهما وشكرهما ولو كانا كافرين، وجعل عقوقهما من الابن كفرًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبويه فهو كفر**»[2] وفي أخرى: « **فقد كفر**» وقال: «**من ادعى إلى غير أبيه فقد كفر**» وفي أخرى؛ « **فالجنة عليه حرام**[3] » فهذا كفر معدول من كفره بربه، وخالقه ورازقه

---

(1) تقدم.

(2) أخرجه البخاري (6/2485، رقم 6386)، ومسلم (1/80، رقم 62) بنحوه.

(3) رواه البيهقي (7/403)، والطبراني في «الأوسط» (5/223).

وكافله كما كانت أولية الأب وإحسانه وتعزيته ولطفه وبره موجود ذلك كله عن أولية الحق وإحسانه ورزقه وكفالته وحياطته، فعلى هذا -والله أعلم- جاء في المشروع الأول اسم الأب في أسمائه جَلَ ذِكْرهُ إن صح ذلك عندهم، ولما ضل حاملوه بذلك وأعضل بهم من أجل مفهومه داوهم نسخ عنهم في شرعنا المتبوع به، ونهوا عن الانتساب إليه بالبنوة، وأن ينادونهم بمعنى البنوة والأبوة، وفي اسم الفاطر - جَلَّ ذِكْرهُ - من هذا ما يتبين به ويزداد إيضاحًا -إن شاء الله- وهو المستعان والمستعاذ من الضلال والحيرة.

فمتى أردت التسبيح فاجمع - وفقك الله - من جملة ما تقدم لك ذكره من التنزيه بالوجود العَليّ والتنزيه بالمحامد كلها ما علمت منها وما لم تعلم، ثم أرسل كلمة سبحان الله فإنها تعم ذلك كله، واعتقد في ذلك بعده عن كل ما لا يجوز عليه، فذلك نصف الميزان فإن عارضك العدو بما يلحده إلى ما لا يجوز في وصفه العَليّ فاعتمد على قوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ**﴾ [الشورى:11]، لما قال الملحدون البصير بما لهم وينتفع بمعتقد قوله الحق: ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الروم:27]، فإنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ما أوجد حكمة في الوجود إلا لها منتزع في العَلي، وفي ما ها هنا هو حقيقة المحبة فقد رفع لنا العصمة بقوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:11]، وبقوله الحق: ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الروم:27].

ثم أرسل التحميد مفردًا أو مقرونًا بالتسبيح بأن تقول: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، وكذلك متى وصفته جَلَّ ذِكْرُهُ بالعلاء أو بالعظمة أو بذلك كله فقد أبلغت، وذلك هو ملء الميزان إن شاء الله، وهو يملأ ما بين السماوات والأرض، هو إن شاء الله ملء الميزان ما خلق من شيء، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**سبحان الله العظيم وبحمده ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضا وزنة العرش**»[1]

---

(1) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (635/2)، وعزاه للديلمي ونظام الدين المسعودي في الأربعين.

فأنبأك بما تقدم والحمد لله رب العالمين كثيرًا كما هو أهله، وبهذه الجملة ومعنى ما احتوت عليه التزم بسنن التسبيح ومسالكه، والله المؤيد بنصره والملقن للصواب بفضله ورحمته.

التعبد

انظر - وفقنا الله وإياك - لما يرضيه إلى ما تقدم ذكره في اسم النور - جَلَّ ذِكْرُهُ - والطيب والطاهر والزكي من أضداد موصوف بها في سواه، فينزهه عن ذلك سبحانه وله الحمد، فتجده هو العَليّ الأعلى، فأت كل طبع دركًا، وبوجوده الأزكى وأسمائه الحسنى تعالى عن اللواحق أن تناله عظمة وعلوًا أنى لها ذلك، وكل شيء خلقه وكل وجود سواه إيجاده وصنعه، والتسبيح فاعلم أبعادًا له عن الحدوث وما يقتضيه، ثم التسبيح قد يكون بالقول وتارة بالبيان وبالاعتقاد وتمام البرهان، وهذا لا يصح إلا بعد التوغل في العلم والمعرفة وإكمال التحقق، وهو لا يصح إلا على أصول أهل الحق الذين عبدوا بأوصاف التعالي ونعوت الجلال.

فاعلم أنه لا تصح لمسبح حقيقة التسبيح حتى تنزهه عن أوصافه الذميمة، فينزه نفسه عن الشهوات، ومطعمه عن الحرام والشبهات، وأعماله عن التزيين لأبناء جنسه، إنما يكون عابدًا متى صفت فعالك من المعاصي، كذلك إنما يكون زاهدًا متى صفي ما لك عن الحرام والشبهات، وكان ما قل وكفى خيرًا عندك مما كثر وألهى، ومتى صفيت نفسك وأحوالك عن الأغيار وصلت إن شاء الله تعالى، وسمي التسبيح تسبيحًا؛ لأن المسبح قلبه في بحار الفكر وتسبيح اللسان إذا صدر عن سكينة الإيمان حسن، لكنه ليس كتسبيح صدر عن قلب سائح في بحار عوالم الملكوت؛ لاسيما إذا لم تتلاطم عليه أمواج الشبهة، ولم تزعزعه رياح اليقين والبدع، فإن سلم في سياحته تلك من عجز وملل، ولم تشتمله موادة سلف ولا محبة خلف، ولم تسبق إلى قلب سابق تقليد فيقطعه عن سواء الطريق، وهل فضل الله ورحمته إلى جواهر العلوم ولطائف الفهوم، والناس فاعلم في معرفة تسبيح العجم والصوامت.

وقيل الهوام درجات: أولها: الإيمان بأنها تسبيح، وذلك لعموم المؤمنين، ودرجة أخرى يعلمها أهل الاعتبار وهي شهادتها على نفسها بالنقص ولبارئها بالكمال، فهي تسبحه بكماله في الصفات العلا عن نقائصها، ويقدمه في وجوده الأول الواجب

الأعلى لا إلى أول آخر لا إلى آخر عن حدوثها هي وتكوينها بعد أن لم تكن، وإنها سوف لا تكون بعد أن كانت ولها أيضًا تسبيح باطن يعلمه منها بارئها ﷻ وتقدست أسماؤه، وقد يسمعه تبارك وتعالى من يشاء من عباده، قال الله ﷻ: ﴿**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء:79]، وقال: ﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ**﴾ [ص:18]، وما علمه سليمان ﷺ من منطق الطير والنمل وغير ذلك، ومحمد نبينا ﷺ حنين الجذع وتكليم الذراع وشكوى الجمل وغير ذلك، وقال ﷺ: «**إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ**»[1] ونحو ذلك.

وما بين ذلك درجاتهم من المعرفة والفهم والكشف وعلى نحو ذلك يكون أيضًا في معرفة سجودها وصلاتها وأنواع عباداتها، فسبحان المسبح بكل لسان، المعبود في كل مكان وأوان، سبحانه وبحمده عمّا يقول الملحدون في ربوبيته وخالص وحدانيته وتعالى علوًا كبيرًا.

اختصرنا ذكر مسالك التسبيح في طرقات العلم ومواضع العبادات لكثرة دوره فيما ينبئ به الاعتبار في كل رسم؛ لأنه عبارة عن الاستسلام، والله جَلَّ ذِكْرُهُ قد فطر العالمين على دين الإسلام، والله السلام يدعو عباده على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم وسلامه على جميعهم إلى دار السلام، وأحوال الموجودات تنبئ أيضًا عن ذلك، وهو الصراط المستقيم.

اسمه القدوس سبحانه وله الحمد

القدس الطهارة، وقيل: هو بمعنى البركة، قال الله جل قوله: ﴿**ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ**﴾ [المائدة:21]، وقال: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء:71]، والطاهر مبارك، ويقال للسلطان قدس؛ لأنه يتطهر به، ومنه القادوس

(1) رواه الترمذي (5/592)، والطبراني في «الأوسط» (5/46).

بواحد الأواني التي يستخرج بها الماء من البئر بالسانية.

اعتباره: قال الله ﷻ قوله وتعالى علاؤه وجده: ﴿**هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ**﴾ [الحشر: 23] وقال أيضًا جل قوله: ﴿**يُسَبِّحُ لِله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ**﴾ [الجمعة:1]، كما قال الملك الحق.

وأرى - والله أعلم - أن معنى القدس جامع لمعاني الطهارة والطيب والزكاة والعدل والحمد كله والتنزيه عن الطبع والظلم والمعايب مما لا يليق به سبحانه وتعالى، وإن الفرق بينه وبين اسم السبوح أن معنى السبوح تنزيه لوجوده العَليّ عن المثل والنظير والكفء، وبحمده عن حوادث المخلوقين ونقائص المحدثين، فآية التسبيح الأول التوبة المفروضة والطهارة، وآية التسبيح الثاني الحمد كالصلاة والأعمال التي يصعد بها عاملها في درجات الشكر، والسبوح اسم للمسبح بهذه السبحات كلها ﷻ، ومبالغة في المراد المقصود بالتسبيح، ثم اسم القدوس عبارة عن هذا كله مع اقترانه بالملك وتوابعه، وأنه لا يجوز في تدبيره الظلم ولا في قضائه الحيف، ولذلك - وهو أعلم- أتبع الاسمين قوله: ﴿**السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ**﴾ [الحشر:23]، يقال: سبحت الله وسبحت لله وقدست الله، أي: وصفته بالقدس والطهارة والطيب، وقدست لله بمعنى قدست لله عباده، قالت الملائكة عليهم السلام: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ [البقرة:30] أي: عبادك، وقال عزّ من قائل: ﴿**يُسَبِّحُ لِله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ**﴾ [الجمعة:1]، وقد يعبر بالتقديس عن الصلاة، ثم عن سواها من الأعمال من ذلك قولهم: إن أرضًا لا تقدس صاحبها، إنما يقدس الإنسان عمله، وهذان اسمان جمعا ذكر المحامد كلها، والله أعلم، فقول القائل: سبوح قدوس رب الملائكة والروح شبيهة بقوله ﷻ: ﴿**الْحَمْدُ لِله رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:2].

اسمه النظيف جلّ وعز

النظافة قريب معناها من معنى الطهارة والطيب، غير أن الطيب ضده الخبث والطهارة ضدها النجاسة، والنظافة ضدها الدنس، فكان الطيب مباعدة لعيوب هي فينا لا صفة بأصل الخلقة تضاد الصفات المحمودة، والنظافة مباعدة لعيوبه خارجة عن عين الموصوف غير لا صفة بذاته، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**نظفوا أفنيتكم ونظفوا حاجاتكم، ولا تشبهوا باليهود**»[1]، وقال: «**اليهود أنتن خلق الله عذرة يريد أفنية**»[2] وقال ﷺ **وقد قيل له: الرجل يحب أن يكون نعله حسنًا وثوبه حسنًا**: «**إن الله نظيف يحب النظافة**»[3] وفي أخرى: «**الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»[4].

النظافة فينا إماطة التفث مباعدة الشعث والقلح وافتقاد العينين من الدمس وغسل ظاهر الجسد من الدنس وأشباه هذا، ولذلك قال رسول الله ﷺ وقد اسْتَلْبَثَ[5] الوحي: «**وما له لا يبطئ أو يلبث وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تقلمون أظفاركم ولا تسوكون أسنانكم**» وهو المراد منا بغسل الجمعة، قال رسول الله ﷺ: «**حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يومًا يغسل براجمه وأرقافه وذلك يوم الجمعة**»[6].

وقد كانت علة الأمر بهذه العبادة كونهم ﷺ مهنة أنفسهم، فكانوا على ذلك ينتابون السعي إلى الجمعة في الحر والغبار فيصيبهم العرق فيتصعد عنهم أبخرة مؤذية، فأمرهم بالتنظيف ليومهم ذلك وإن أمكنهم الطيب من ذلك فهو أتم لعبادتهم، وقد تنزه ربنا تبارك وتعالى بسبحات قدسه وعَلي وجوده عن ما يضاد النظافة ربنا في الطيب

---

(1) رواه الترمذي (412/10)، وأبو يعلى (267/2).

(2) رواه وكيع في «الزهد» (287)، بتحقيقنا.

(3) ذكره العجلوني (288/1).

(4) رواه مسلم (327/1)، وأحمد (389/3).

(5) برفع الوحي ومعناه: طال لبث نزوله، وبنصبه ومعناه: استبطأ النبي ﷺ نزوله.

(6) تقدم.

والطهارة، والخيرة كله منه وله وبيده، والشر ليس إليه، والاعتبار والتعبد به مفهوم مما تقدم.

اسمه الجميل ﷻ وتعالى علاؤه وثناؤه

يقال منه: جمل الشيء يجمل فهو جميل، كما قبح فهو قبيح، والجمال مأخوذ من الجملة وهو اجتماع أشياء إلى شيء واحد يكون ذلك الشيء عمادًا لها، وقيل للشحم المذاب جميل من ذلك؛ لأنه جمل، أي: أذيب فتجمعت أجزاؤه بذلك واختلط فعاد بذلك شيئًا واحدًا، ويقال من ذلك: اجتمل فلان إذا أدهن بالجميل، ومنه قيل للحساب الذي قطع على حروف، أي: جاد جمل لاجتماع الأعداد فيها، وقيل لجماعة كل شيء جملة؛ لأنها أبعاض تجمعت فصارت بذلك كالشيء الواحد، وقيل: امرأة جميلة إذا اجتمع لها صفات الحسن، وينطلق عليها اسم حسنًا إذا كانت محسنة الصفات، ولا ينطلق عليه اسم جميلة حتى تكون مع ذلك عبلة الجسم، والله تبارك وتعالى له الأسماء الحسنى بكمالها والصفات العلا جميعًا بإطلاقها دون نهاية متوهمة ولا نهاية مدركة مع استحالة أضدادها كما تقدم ذكره، فهو ذا الجميل الحق ومن سواه فبقال له جميل مجازًا واتساعًا واستعارة من صفته العالية وحقيقته الناهية في الجمال تبارك وتعالى علوًا كبيرًا.

اعتباره

قد تقدم أن حقيقة الجمال المسمى فيما بيننا هو عن اجتماع الأبعاض إلى كلها فتكون بذلك جملة واحدة، فسنن الاعتبار في هذا أن جمال الله جَلَّ ذِكْرُهُ هو اجتماع الأسماء الحسنى والصفات العلا أجمعها ما علمنا من ذلك وما لم نعلم، فوجوده العَليّ على ذلك هو الجمال هذا إلى ما يبدو أوليائه في الجنة من حسن لا يتوهم وصفه، وجمال لا يقدر بقدره، ولا يبلغه العلم اليوم، فهو الجميل بجماله السني البهي، وتحسب ذلك جمال ذاته العَليّ الأعلى في هويته ونعوت جلاله في ظهوره، وإنما يرى جماله في هذه الدار محبوبة فهو ﷻ يكاشفهم في سرائرهم، مرة يوصف جلاله، وتارة

يوصف جماله، ففناؤهم وغيبتهم عن مكاشفة جلاله وارتياحهم عن مكاشفة جماله، ومن مقالاتهم في ذلك أنه من غاب فهو مهيم، ومن طاب فهو متيم، فهو بين حالتين، تارة يحضرهم بلطفه، وتارة يكشفه، فمن أحضره بسطه، ومن أسكره أخذه عما نيط به واستلبه.

وكذلك الحقائق إذا اصطلمت القلوب فلا تبقي ولا تذر، والمعاني العلا إذا استولت على الأسرار فلا عين ولا أثر، قالوا: وللعلوم على قلوب العارفين مطالبات، ولحقائق جماله سلطان يغلب على أقسام الترتيب، آية ذلك غلبة سلطان الهوى على قلوب ذويه، وقهر أحكام العشق على قلوب منتحليه، ودهشتهم عند صدمتها مقام الإبعاد والهجر عما أقام لهم منه أحكام الجلال مكاشفته إياهم، وأما هؤلاء فإنه أقام لهم منه أحكام مكاشفته إياهم بجماله بارتياح نيلهم عند ذلك، وسرور به يبسطهم مقام التقريب والوصل، وفي نحو ذلك قالوا:

فَقُلْتُ أَخلائي هِيَ الشَمسُ ضَوؤُها قَريبٌ وَلَكِن في تَناوُلِها بُعدُ

وقال غيره:

يَا مَن أشاهدُه عِندِي فأحسبُه مَني قَريبٌ وَقَد عَزّت مطالبُه

فصل

وأما طريق وجود الجمال عن وجود جماله العلي في مخلوقاته فمن طرق كثيرة:

منها: أنه أوجد الأشياء على ما هي عليه في مخلوقاته، فأوجد الخير كله لنفسه لا لعلة سواه، وتنزه هو عن القبيح كله والشر أجمعه؛ لأنه لم تجز عليه بل استحال في علائه وجلاله، سبحانه وتعالى أوجد الشر كله بعد لا لنفسه بل لعلة الابتلاء أوجد لموجودات الخير أضدادًا في مخلوقاته، فكان ذلك إرصادًا لابتلاء الثقيلين وعمارة الدارين دنيا وآخرة ثم جنة ونارًا، فكل خير وجمال وحسن على الحقيقة موجود في العالم كله فهو أوجده من نفسه لنفسه؛ لأن الحسن كله والجمال منه، فهو يحبه ويرضاه؛ أعني: هو منه بالولاية، وله بالمحبة والرضا، وكان إيجاده الشر أولاً خيرًا ثم بواسطة الغير أصاب عنه الشر لما شاءه من الابتلاء والاختيار كما تقدم، ولم تلحقه ملامة بتقديره له ولا بخلقه إياه كما لم يلحقه ذلك بعلمه به؛ ولأنه لا أمر فوقه ولا حجة تتوجه عليه، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، فكل جميل أحدثه فقد أوجد له ضدًا من

القبيح، لكن ليس لكماله ولا لجماله ضد تعالى عن ذلك، كذلك الصفات العلا لها في العالم مسميات تشير إليها وتدل عليها، والشر كله والقبيح ليس له في صفات القديم ﷻ أول يرجع إليه ويشير عليه، إنما تشير موجودات الشر في هذا العالم إلى الصفات العلا بما لها من التضاد لمسميات الخير من المحدثات.

فاعلم ذلك، وقِف على هذا بنفسك وحسن الظن بالمخاطب لك، فما انفتح علمك منه فاحمد الله تعالى عليه، وما انغلق عليك الحول والقوة لله وهو على كل شيء قدير، والجمال منه ظاهر ومنه باطن، فالباطن منه: النفس، والإيمان، والمعرفة، والمحبة، والعلم النافع، والرضا والتوكل، والخضوع لله جَلَّ ذِكْرُهُ، والخشوع، والزهد في الفاني، والرغبة في الباقي، والورع ومعالي الأخلاق، وفي الوجود والحق المخلوق به السماوات والأرض وقد تقدم ذكره مكررًا، وكل ما كان آية له أو دليلاً عليه أو معرف به أو شاهدًا له أو مشيرًا إليه وقد تقدم ذكر موجود بعده نوره في السماوات، فاحرص على تتبع ذلك.

والظاهر منه: الإسلام، والطاعة لله ﷻ، وأعمال الصالحات كلها، فما صرف من هذه المعاني على وجوهها، والمراد منها فهو جمال وحسن وزينة عند الله ﷻ، ومن ذلك قول عمر ﷺ: «**تزينوا للعرض الأكبر**»[1] وكان بعض الصالحين يقول في دعائه: (اللهم زيني في عبادك بطاعتك، وزيني بين يديك بحسن الخدمة لك).

ومن ظاهر الزينة أيضًا ما زين للناس من التكاثر في الذهب والفضة، وأنواع الأحجار الرفيعة، والمراكب الغزيرة، والمواكب النبيلة، والمباني المشيدة، والبساتين الأنيقة، ورياض الرياحين، وزهرات النواوير، إلى غير ذلك من رخامة الألفاظ واعتدال القدود وملاحة الحركات ورونق الخدود وتلون دبابيجها وحسن تخطيط الصور رجمال جملها وعنج الألحاظ وحسن تقلبها وحسن الأصوات وشهي ترجيعاتها وما شابه ذلك كله.

واعلم أن ذلك كله أرباب العقول وأصحاب التحصيل ليس بجمال على الحقيقة بانفراده عن الجمال الباطن الذي يقدم ذكره بل هي زخارف ومتاع، قال الله ﷻ: ﴿**وَإِن**

(1) رواه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (2)..

﴿كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:35] وإنما مالت الفتنة بجملتها إلى هذا وسمته جمالاً لاحتواش الشهوات إياها، ووافقت مع ذلك قرابة بينها وبين النفوس قريبة ومناسبة لطيفة ورحبًا هناك واشجة، فلذلك ما عدلت إلى معازلتها وحامت حولها، فلم يستطع قوي العقل مغالبتها، ولا أطاق الحلم صرفها إلا بمعونة الله عصمته بالكفاية وعظمت المحنة واشتد البلاء لذلك.

التعبد

فمن الواجب - وفقك الله - تطلب الفرق بين ما هو جمال عند الله وحسن بين ما لا يحمل عنده ولا يحسن، واستقر آثار ذلك في العالم فليس الجمال والحسن إلا ما رضيه الله ﷻ وحسنه لا غير ذلك، فاعمل عليه وخذ نفسك باجتناب ضده، ولا قوة إلا بالله العَليّ العظيم، ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ فيما رويه عن ربه ﷻ: «**وَلَخَلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**»[1] وقوله: «**وما من أحد يكلم في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا اللون لون دم والريح ريح مسك**»[2].

وما أحال وجود الدم عن ظاهره، وكذلك خلوف فم الصائم إلا حقيقة رضي الله ﷻ عنه ومحبته إياه فافهم.

واعلم أن الناس في التجمل الظاهر الذي هو الملبس والهيئة على ثلاثة أضرب بعد اتفاقهم على الجمال الباطن الذي تقدم ذكره:

فمنهم: من حسن ثوبه وطيب ريحه ورجل شعره وادهن واكتحل واقتصد في ذلك كله واحتسب على الله ﷻ ما وجد حلالاً واتسع له، استقامت قلوبهم على ذلك، وهذه طريقة الشاكرين، وقد درج على ذلك الكثير من الصحابة والتابعين ﵃ أجمعين.

ومنهم: من لزم البذاذة والشعث واحتمل الثفت في الهيئة إلا ما أقام به السنة وإن وجد الحلال واتسع له زهدًا في التنعم وإيثارًا لشظف العيش، وهذه طريقة الخائفين والمحزونين، وقد درج على ذلك كثير أيضًا من الصحابة والتابعين ﵃ أجمعين.

---

(1) رواه البخاري (479/19)، وأحمد (371/9).

(2) رواه البخاري (358/18)، ومسلم (374/12) بنحوه.

ومنهم: من يتقلب بين هذا وهذا، وجد الحلال والاتساع فيه ليعمر إلى ربه الطريقتين وتسلك في عبادته الجادتين، وهذه كانت سُنة إمام المتقين وسيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قد كان ﷺ يلبس الحلة الحمراء، وكان أحسن شيء فيها والثوب ذا العلم تارة ويلبس الرداء النجراني الغليظ الحاشية والجبة الشامية، ويأكل اللحم ويجوع مرة ويشبع أخرى ويرهن درعه فيما يؤكل في بيته، ومات بأبي هو وأمي ﷺ في كساء ملبد، وإنما كانوا يراعون في ذلك كله قوام قلوبهم، فإذا استقامت قلوبهم لبسوا وأخذوا من ذلك ما استقام عليه أمرهم مما لا يشهرهم بارتضاع ولا بارتفاع، وكان ﷺ أوتي من التقى والخلق الجميل وحسن السمة ما لا تبصره به النعمة ولا يقعده الفقر، وكان مع ذلك ﷺ معلمًا فسن لنا الطرق الثلاثة، قد كان لتميم الداري - رحمه الله - حلة اشتراها بثمان دراهم أو نحوها يلبسها للجُمع والأعياد والليلة التي يرجو أنها ليلة القدر، وكان كثيرًا ما يتطيب لقيام الليل ويدهن.

ورأى رسول الله ﷺ رجلاً عسيفًا على بعض أصحابه عليه ثوبان خلقان فقال: **«أَمَا لَهُ ثَوْبَانِ غَيْرُ هَذَيْنِ»** فرجع الرجل فلبس ثوبين أحسن من ذينك، فقال رسول الله ﷺ: **«مَا لَهُ ضَرَبَ اللَّهُ عُنُقَهُ أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا لَهُ»**، فقال الرجل: يَا رَسُولَ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«فِي سَبِيلِ اللهِ»**[1].

ورأى ابن عمر غلامًا له يصلي في خلق له، فقال: ألم أكسك خير من هذين الخلقين؟ قال: نعم، قال: فالبسهما ثم صلي، قال له: أرأيت لو بعثك إلى أحد من الناس هل كنت تلبسهما؟ قال: نعم، قال: فالله أحق أن تتزين له[2].

وقال [عمر بن الخطاب][3]: **«إِذَا أَوْسَعَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَوْسِعُوا»**[4].

وسُئل ﷺ عن الصلاة في ثوب واحد فقال: **«أَوْ لِكُلِّكُمْ ثَوْبَانِ؟»**[5].

---

(1) رواه مالك (331/5).

(2) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (357/1).

(3) في نسخة: رسول الله ﷺ، ولعله سهو ناسخ.

(4) رواه مالك (1338/5).

(5) رواه مسلم (367/1)، وأحمد (238/2).

وكان الخلفاء الراشدون ﷺ من الزهد في الدنيا ولزوم البذاذة في الهيئة وإيثار الشظف بحيث لا يجهل شأنهم، ولا يخفى أمرهم؛ ولأنهم كانوا على أموال الله جَلَّ ذِكْرُهُ، وأئمة المؤمنين، فلم يسعهم سوى التشمير والجد والكلف والورع ليكونوا حجة لمن بعدهم على الدين، اتخذوا مال الله دولاً وأموال المسلمين نجعة ومغنمًا، فكان أبو بكر الصديق ﷺ مقتصدًا في مطعمه ومشربه وملبسه وشأنه كله.

وكان عمر ﷺ يلبس الجبة ويرقعها، ولقد كانت في جبته ثلاث رقاع من لبد بين كتفيه وبعضها فوق بعض، وكان يمشي حافيًا وينام نهارًا في أفنية الجدر، وكانت له قطعتان يجمع عليهما كل يوم من حضرة من المسلمين، فقيل له: لو اتخذت طعامًا ألين من هذا، قال: أخشى أن أذهب طيباتي في حياتي الدنيا، أخاف إن أخذت غير طريق صاحبي يؤخذ بي غير سبيلها، ورأى مرة بأهل قرية فاقة فقال لهم: اكتبوا إليَّ فقراءكم، فكتبوا أميرهم أول من كتبوا.

وشكا إليه أهل قرية عاملهم فقالوا: إنه لا يخرج إلى الناس حتى يرتفع النهار، وله يوم في الجمعة لا يخرج فيه، وله يوم في الشهر فيه لا يخرج في الليل لو حدث ما عسى أن يحدث، فقال له عمر ﷺ: لم لا تخرج حتى يرتفع النهار؟ فقال: لي أهل وصبية لا أخرج حتى أنظر في طعامهم ثم أخرج خالي القلب، قال: فلك يوم في الجمعة لا تخرج فيه، فقال: أقيم أصلح على أهلي ما رث من ثيابهم، قال: فاليوم في الشهر، قال: كنت في المشركين يوم قتلوا خبيثًا فلما ضرب صاح صيحة عظيمة فإذا كان ذلك الوقت أغمي عليَّ وظننت أن الله لا يغفر لي، قال: فما بالليل؟ قال: عافني يا أمير المؤمنين، قال: لتقولن، قال: عافني عافاك الله، قال: عزمت عليك لتقولن، قال: جعلت الليل لله والنهار لهم، فلا أحب أن أخلط أحد العملين بالآخر.

ولما قدم الشام وخرج أمراء الأجناد وكان على حمار وأسلم مولاه على جمل يصرف الناس عنه يقولون: أين أمير المؤمنين؟ فيقول لهم أسلم: أمامكم، فيتقدمون إلى ورائه ويسير عمر إلى أن خرج أبو عبيدة ﷺ على جمل زمامه من شعر، فلما قرب منه أناخ ونزل، ونزل عمر فسلم عليه وتسايرا، وقال لأبي عبيدة: مل بنا إلى منزلك، قال: وما تريد إلى منزلي؟ قال: مل بنا، فلما دخل البيت لم ير فيه جهازًا، وألقى له وسادة محشوة من ليف، فقال: هل من طعام؟ فآتاه بجونة فيها كسيرات شعير، فقال: كل

الناس غيرتهم الدنيا غيرك يا أبا عبيدة، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة، وأمر له بمائة دينار فتصدق بها، وأمر لمعاذ بمائتي دينار فتصدق بها.

ولقي يومًا امرأة تحمل قربة ماء فقال لها: أما كان لك من يكفيك هذا؟ فقالت: لو كان ما حملتها، فتناولها منها وقال لها: هلا أتيت عمر؟ قالت: بلغني أنه فظ غليظ، قال: لعل فظاظته وغلظه على الظالم المعتدي، قالت: لا أدري، فلما قربت من مرضعها، قالت: هذا موضعي، فناولها إياها وقال لها: لا عليك أن تأتي عمر، فأتت تستدل على موضعه، فإذا صاحب قربتها الآمر والناهي، فلما رأته ولت هاربة، فقال: يا يرفأ رد المرأة في رفق، فردها وأعطاها خادمًا.

وكان عثمان ﷺ مقتصدًا في مطعمه ومشربه حييًا ستيرًا إلا أنه وقع فيما دعا عمر ﷺ على نفسه من أجله بالموت من انتشار الرعية وكبر السن، فبذل الأموال في المسلمين حتى اشتريت جارية في أيامه بوزنها مالاً وفرس بعشرة آلاف، وتفاقم الأمر عليه فجعل نفسه دون دينه، وفتح بموته باب الفتنة ووقع الاختلاف.

وكان عَليّ ﷺ مقتصدًا في مطعمه ومشربه وملبسه يميل إلى خشونة الملبس ويقطع كمية من منتهى أطراف أصابعه، ويخوض طين المطر برجليه، ويفرق بيت ماله كل سبت، وإذا رأى ما فيه يقول:

هَـــــذا جَـــــناي وَخَـــــيارَهُ فـــــيه وَكُـــــلُّ جـــــانٍ يَـــدَهُ إِلـــى فـــيه

يا حمراء يا بيضاء غري غيري، ولم يوجد له يوم مات سوى ثلاثمائة درهم أعدها لشراء خادم، وأتى ابن عوف ﷺ بطعام فبكى وقال: مات حمزة وكان خيرًا مني، وكفن في نمرة جذبت على وجهه فبدت قدماه فجعل عليها الأذخر، ومات مصعب بن عمير وكان خيرًا مني، ولم يوجدوا له إلا نمرة ففعلوا به ذلك، وشتم طلحة ﷺ خادمًا له فتصدق بخمسة عشر ألف درهم، وكان يقال له: فتى قريش من الجود والنجدة، ومات الزبير ﷺ وعليه مائة ألف درهم فأديت من رباعه، وكان سعد وسعيد - رضي الله عنهما- من أزهد الناس وكانا مستجابي الدعوة، وتوفي الخلفاء الراشدين المهديون الأربعة ﷺ وفي ولد كل واحد منهم من لو عهد إليه لكان أهلاً لذلك.

وكان معاوية ﷺ بذولاً للمال حليمًا رفيقًا وربما خطب في ثوب مرقع، فلما وَلي غير الصحابة تغير الأمر، إلى أن وَلي عمر بن عبد العزيز - رحمه الله ورضي عنه-

فعدل ورد المظالم، ورد ما اقتطعه الأمراء قبله من بني أمية، وأتته امرأة من أهل العراق ليفرض لبنات لها، فلما رأت داره قالت: أتينا نطلب الغنى من دار الفقر، فدخلت وعمر يلبس حائطًا في الدار فجلست مع فاطمة امرأته، وجعل عمر ينظر إلى فاطمة مرة بعد أخرى فقالت المرأة: إن هذا الطيان ينظر إليك، فقالت لها: ذاك أمير المؤمنين، فجمعت عليها ثيابها واستحت، فلما فرغ سألها عن حاجتها فقالت: عندي سبع بنات، قال: قد فرضت لإحداهن، قالت: الحمد لله، قال: قد فرضت للثانية، قالت: الحمد لله، فلم يزل يفرض لواحدة بعد واحدة وتحمد الله ﷻ إلى السادسة، فقالت: جزاك الله خيرًا يا أمير المؤمنين، قال: لو تماديت على حمد الله لفرضت السابعة ولكن هي مع أخواتها، وكتب لها بذلك كتابًا فلم تبلغ العراق حتى سبقها خبر موته، ودفعت الكتاب إلى العامل فنفذه.

وكان قبل خلافته ذا ملبس، فلما استخلف زهد فرفض الدنيا، واشترى له قبل خلافته كساء بستمائة درهم فلم يرضها، واشترى له في الخلافة كساء بستة دراهم فجودها، ثم درج على ذلك كثير من التابعين وخيار السلف رحمة الله عليهم جميعهم ورضوانه وألحقنا بهم من كثب إنه حميد مجيد.

حبس ابن المسيب - رحمه الله- فتكلف له أهله في طعام فأبى أن يأكله وقال: انظروا إلى الأقراص التي كنت آكلها فأتى بها، وبعث إليه أمير المؤمنين بخمسة آلاف درهم فأبى أن يقبلها ووجد يماري غلامه على نصف درهم، فقال له: ترد خمسة آلاف وتماري غلامك على نصف درهم؟ فقال: هذا النصف أحب إليَّ منها، وبعث الوليد إلى بشر بن سعيد بمال فرده.

ولما أشخص المنصور ربيعة إلى العراق أمر له بخمسة آلاف درهم وجارية فأبى أن يقبل ذلك، قال مالك: وكان من أنزه الخلق، ووعظ مالك - رحمه الله - أبا جعفر المنصور وأمره بافتقاد أحوال الرعية وقال: يا أبا عبد الله، أليس إذا بكت ابنتك من الجوع تأمر بحجر الرحى فتحرك لها لئلا يسمع الجيران بكاءها، فقال مالك: والله ما علم بهذا أحد إلا الله تبارك وتعالى، قال: فعلمت هذا ولا أعلم أحوال رعيتي.

فهؤلاء ونظرائهم في أعصارهم والأعصار التي بعدهم، هم الذين علموا أن الجمال والتجمل هو الاستقامة فيما بينهم وبين ربهم عزّ جلاله، فعملوا لذلك وتركوا

المذموم من زينة الدنيا وزخرفها وتفاخرها وتكاثرها سمعوا الله ﷻ يقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:14]، ثم قال جلّ قوله: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ المَآبِ﴾ [آل عمران:14]، ثم دلّ على حقيقة الزينة والحسن بقوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [آل عمران:15]، إلى قوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:17]، ثم أتبع ذلك كله بأكبر الشهادة لأكرم مشهود إلى قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:19]، فافهم فهمنا الله وإياك، واعقل عن ربك إنه هو الحكيم العليم، ألا تراه كيف يحسن وجوههم ويرفعهم إلى غاية الجمال فيجعل وجه أحدهم كالقمر ليلة البدر وكأضواء كوكب في السماء، يصورهم على درجات أعمالهم، ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:16]، جعلنا الله يا أخي وإياك منهم ومعهم إنه ولي ذلك والقادر عليه لا شريك له.

اسمه الحميد ﷻ

يقال: أحمدت الرجل وجدته حميدًا، ويقال: حمادًا كان يفعل كذا، وجاء في الأسماء على وزن فعيل للمبالغة، حميد، أي: كثير الحمد، كرحيم وعليم، فيكون على هذا هو الكثير الحمد لعباده المطيعين له، الكثير الحمد في أفعاله، وقد يكون بمعنى محمود، كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح، هو المحمود من جميع خلقه على جميل صنعه، وهو الحميد بمحامده ونعوت جلاله وسبحانه وصفات تعاليه[1].

---

(1) **الحمَيد:** هو بمعنى محمود، فعيل أبلغ من مفعول، ومعناه: المستحق لجميع أنواع الحمد.

قال الشيخ في «فتوحاته» عند ذكر حضرة الأسماء: حضرة الاسم الحميد يدعى صاحبها عبد الحميد، وهو فعيل، فعمَّ اسم الفاعلِ بالدلالة الوضعية واسم المفعول، فهو الحامد =

=

والمحمود، وإليه ترجع عواقب الثناء كلها، ومحمد ﷺ بيده لواء الحمد، ولآدم ﷺ علم الأسماء، ولمحمد ﷺ علم الثناء بها والتلفظ بالمقام المحمود، وأعطي في القيامة؛ لأجل المقام المحمود، العمل بالعلم، ولم يعط لغيره في ذلك الموطن، فصحت له السيادة، فقال: «**آدم ومن دونه تحت لوائي**»، وما له لواء إلا الحمد، وهو رجوع عواقب الثناء إلى الله، وهو قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الفاتحة:2] لا لغيره، وما في العالم لفظ إلا يدل على ثناء البته، أعني ثناء جميلاً، وأن مرجعه إلى الله، فإنه لا يخلو أن يُثني المثني على الله أو على غير الله، فإذا حمد الله بحمد من هو أهل للحمد، وإذا حمد غير الله فما يحمده إلا بما يكون فيه من نعوت المحامد، وتلك النعوت مما منحه الله إياها وأوجده عليها، إما في حيلته وإما في تخلقه، فتكون مكسبة له، وعلى كل وجه فهي من الله، فكان الحق مدرك كل خير وجميل، فرجع عاقبة الثناء على المخلوق بتلك المحامد على من أوجدها، وهو الله، فلا محمود إلا الله، وما من لفظ يكون له وجه إلى مذموم إلا وفيه وجه إلى محمود، فهو من حيث أنه محمود يرجع إلى الله، ومن حيث ما هو مذموم لا حكم له؛ لأن مستند الذم عدم ولا يجد متعلقًا، فيذهب ويبقى الحمد لمن هو له، فلا يبقى لهذا اللفظ المعين إلا وجه الحمد عند أهل الكشف، ويذهب عنه وجه الذم، أي: ينكشف له أن لا وجه للذم، انتهى. وقال سيدي محمد القونوي: الحميد: بمعنى الحامد، والحامد هو الذي يحمد على يسير الطاعة، ويجازي بكثير الثواب، وهو الحميد بما هو حامد نفسه بنفسه إجمالاً، وبلسان كل حامد تفصيلاً، وبما هو محمود لكل حامد ما هو مثنى عليه، فإن عواقب الثناء تعود عليه، وكل اسم فعيل من أسماء الحق يعم أسماء الفاعل والمفعول بالدلالة الوضعية، فهو الحامد والمحمود، ولا يطلع على سر الحمد إلا من له المقام المحمود، فما خُصَّ بعلم الثناء إلا محمد ﷺ، كما أنه ما ظهر بعلم الأسماء إلا آدم ﷺ. واعلم: أن الإنسان لما خلق على مزاج يميز بين اللذات والآلام، بحيث يتضرر بالآلام ويحزن، وينتفع باللذات ويُسر، وهما حالان من أحوال الكون، سمي علمه بما أورثه حال النفع شكرًا وعبادته من ذلك حمدًا، وهما عين شئون الحق، وليست الشئون إلا التجليات الوجودية، وهو الخير المحض، غير أنه تخلف أحكامها في القوابل، بل ربما أمر يتضرر به زيد ويلتذ به عمرو، والأمر واحد العين لا انقسام فيه، ويختلف حكمه في الممكنات بحسب قابلياتها واستعداداتها، وكذلك كان رسول الله ﷺ يقول في السراء: «**الحمد لله المنعم المتفضل**»، وكان يقيد بتقيد حكمه وأثره، يقول في الضر: «**الحمد لله على كل حال**»، وهذا الحمد أعظم من السراء؛ لإطلاقه واشتماله على الكل، فإنه من إنعام الحق أن ألهم صاحبَ الضُّرِّ الثناء، واستعمله بحمده ووقاه من الضجر والسخط، فعافا باطنه بما ألهمه من التحميد، ثم زاده عافية بإزالة الضراء عنه.

واعلم أن ما في العالم لفظ إلا وفيه ثناء جميل في طور الكشف، يشهده أهله، ومرجع ذلك الثناء إلى الله تعالى، وإن كان له وجه إلى مذموم فلا بدَّ أن يكون له وجه محمود عند أهل الحق،

=

=

وإن لم يعثر عليه السامع، كما القائل: فهو من حيث ما هو مذموم لا مستند له، ولا حكم له؛ لأن مستند الذم العدم، فلا يجد الذم من يتعلق به، فيذهب ويبقى الحمد لله، ثم الحامد في حال الحمد إما أن يقصد الحق أو غير الحق، فإن حمد الله فقد حمد من هو أهله، وإن حمد غير الحق فما يحمده إلا بما يشاهد من الصفات الكمالية ونعوت المحاسن، وتلك الصفات عطاء ومنع له من حضرة الربوبية، إما مركوزة في حيلته، وإما مكتسبة في تخلقه وتخليقه، وهي مردودة إلى الحق، فرجوع عاقبة الثناء إليه سبحانه وتعالى، وللحمد ثلاث درجات:

- حمد الحامد نفسه.

- وحمده غيره.

وهذان القسمان يتطرق إليهما الاحتمال، ويحتاج إلى قرينة الحال.

-والثالثة: حَمْد لسان الحمد، وهو الذي لا يتطرق إليه الاحتمال، فإنه عين قيام الصفة بالموصوف، وإذا كان غير الصفة عين الموصوف، كأن الحمد عين الحامد والمحمود، انتهى.

قال الجيلي - قدس الله سره - في «كمالاته»: اسمه الحميد تعالى، هو الذي أثنى على ذاته بمقتضيات صفاته حق الثناء الواجب له في نفسه، كما هو أهله، وهذا الاسم من أسماء الأفعال، وصفته الحمد، وهو عبارة عن التجلي الإلهي مما يستحقه لنفسه في نفسه، فحمده هو تجليه بالكمالات كلها على الحيطة والشمول؛ ظهورًا للجمال والجلال، وحيطة لجميع أوصاف الكمال، ومن ثم قال بعض النحاة أن اللام في الحمد للشمول، ولو لم يعلم ما قال، وقال بعضهم أن اللام للعهد، واعتبارنا في عهدية اللام هو أن تقول: إن الحمد - الذي هو عبارة عن تجلية بجميع كمالاته لله لا لغيره - للإحاطة الملكية في هذا الاسم الذاتي، وذلك أن مقارنة هذا الاسم بالحمد إنما هو لأن اسم الله تعالى دون غيره جامع للأسماء والصفات الحقية والخلقية، والحمد هو عبارة عن تجليه بجميع تلك الأسماء والصفات التي جميعها للاسم "الله"، فلهذا حصلت المناسبة بين اسم الله وبين الحمد، فالحمد هو مقام النبي ﷺ، وإلى ذلك أشار بقوله: وله لواء الحمد، والله هو المحمود، وهو حقيقة المصطفى المعبر عنه في اصطلاح القوم بالحقيقة المحمدية، ومن خواصه: اكتساب المحامد في الأخلاق والأفعال والأقوال.

وفي «الأربعين الإدريسية»: يا حميد الفعال، يا ذا المن على جميع خلقه بلطفه.

قال السهروردي: مُدَاوِمُهُ يحصل له من الأموال ما لم يمكن ضبطه، وفيها أيضًا: يا محمود، فلا تبلغ الأوهام كنه جلال عزه ومجده. قال: مواظبه - حق المواظبة - يتوحش من الخلق ويستعذر عشرتهم، ويأنف مجالستهم، فإذا صار له ذلك فليلزمه على خلوة تامة خمسة وأربعين يومًا، يذكره كل يوم ما قدر، فإنه يترقى في رتبة الولاية، والله أعلم. كذا في كتاب «المقصد الأسما فيما يتعلق بمقاصد الأسماء الحسنى» للإمام سيْدي أحمد زروق - نفعنا الله ببركاته، آمين.

اعتباره

الحمد فينا هو شيء يحمده الحامد منا عند تذكر نعم المنعم وتعداده إحسان المحسن، وهو عن إكبار وإجلال وود وحب للمحسن المنعم، تستصحب نفس المتذكر لزوم حق هذا المنعم عليه لا يكاد يمتنع من ذلك مع الاتصاف بالتذكر الصحيح فتجيش النفس وتتشوق إلى إظهار ما فيها، فينبعث على اللسان الثناء بما يعلم أنه موافق لمحبة المنعم المحسن، فهذا ظاهر الحمد المنبعث عن باطنه الموجود في النفس وصفًا وثناء لموجود مكارم ومعالي صفات في الموصوف، والحمد أوسع الصفات وأعم المدائح، والطرق إلى الاعتقاد فيه كثيرة جمة، والسبل إلى معرفته واسعة واضحة؛ إذ جميع أسمائه حمد وصفاته حمد وأفعاله كلها حمد، وأحكامه حمد يستعلن عنها ثناء وحمد ومدح تنطوي في ذلك له نعم على عباده المؤمنين تعجز الأفكار الصحيحة عن تحصيلها وتقصر الأوهام الصائبة عن تصور حقيقتها، وسنقتصر في خطابنا هذا إن شاء الله ﷻ على رموز من ذكر بعضها، أو نبدي من أعراض تدل على بعض ظواهرها، وربما أشرنا إلى شيء من خفي بواطنها ليكون ذلك تذكيرًا للمتأمل وتنبيهًا للمتوسم فيما عدا ذلك من اعتبار هذا الباب.

فأقرب طريق أعلمه في ذلك وأجله فائدة وأعظمه غناء وعائدة لشمول معاني الحمد وانبساطها على جميع المعلومات في حق الحميد الأعلى الاعتبار على طريق الأسماء والصفات؛ لاجتماع ما تفرق في العالم في معانيها، وقد تقدم ذكرها في صدر الكتاب وهي الألوهية والوحدة والحياة والملك والعلم والقدرة والإرادة، فنبدأ بالعبرة من صفة الألوهية والحياة فهمًا صفتان جامعتان فنقول: إن من أفضل النعم وأجل القسم بلا غاية ولا نهاية إن كان لنا إله حي جامع لكل صفة عالية واسم حسن وثناء جميل وفعل كريم، بل تخيرت الألباب في أدنى العلم بمعرفته، وتاهت الأوهام في عز جلاله وعظيم شأنه، وربما لحجت الأفكار بمكنون لطائف النظر في لحج بحار الأوهام لتدرك كيفية معنى أوجده، كالذرة في قلتها إلى جنب عظيم ما ترى من خليقته وجنسه ولطفه، فتنحسر صحيحات النظر تائهات في تلك المهاوي إلى غير قرار، استقرت عليه ولا إلى مدى ارتقت إليه، فكيف بإدراكه وهو العزيز الذي لا يضام والملك الذي ولا يرام.

جعل ﷻ هذا لنا عوضًا من إله باطل لا يملك ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة

ولا نشورًا، فكنا نكون بذلك عبيدًا لعبادة أمثالنا كالأباعد خلقًا هملاً متروكين سدًا في الدنيا عابثين لا يكون لنا إله نعول عليه ولا رب نرجع إليه، ثم يضطرنا في الآخرة إلى سوء المصير نعوذ بالله من ذلك فإنه هو العلي الكبير، وقد نبه على هذه النعمة وأمرنا أن نحمده على ذلك بعد الوقوف على حقيقة المعرفة بالنعمة فقال: ﴿**هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [غافر:65]، وقال عزّ من قائل: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ**﴾ [الطور:35].

وهذا النوع من الاعتبار هو فرض ما يستحيل أن يكون، وإنما يجوز أن يفرضه الناظر عند جحد ما يستحيل أن يكون سواه، مثاله في القرآن العزيز: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء:22]، وقوله جل قوله: ﴿**لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ**﴾ [الزمر:4]، كذلك قوله ﷻ: ﴿**لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء:17]، ونحو هذا.

ومن مننه العظام: أن كان واحدًا لا شريك له ولا مثل له ولا ند ولا صاحبة ولا من يشركه في ملكه، أو يخلفه في التدبير، أو يحجبه عن داعيه وسائليه، فكان يدخل على ذلك من الحزم في الأحوال، ويقع من أجله من النقص في التدبير وفساد الأمر كله ما لا يثبت معه حال ولا يصلح عليه وجود، فله الحمد كثيرًا أن خلقنا عبيدًا لإله حي قيوم واحد لا يجوز في عَليّ شأنه التكثر، لا شريك له، ولم يجعلنا نهبًا منقسمين ملكًا لشركاء متشاكسين.

ومن مننه الجسام أيضًا: أن كان عزيزًا لا يضام، منيعًا لا يرام، لا تلحقه الحوادث ولا يجوز عليه النقائص، لا يعجزه شيء ولا يفوته فائت، ولا يغالبه ولا يقوم له شيء، مالك الملكوت رب العزة والجبروت، وقد نبه على هذه المنة أمرًا نبيه ﷺ أن يحمده عليها في قوله جل من قائل: ﴿**وَقُلِ الحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ [الإسراء:111].

فعدد له في هذا النص المبين نعم الإلهية والوحدانية، وأنه لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وأنه منيع عزيز وكبير له الكبرياء والعظمة، فله الحمد على ذلك كثيرًا حمدًا يوافي حمده هو نفسه ويربى على جميع

حمد الحامدين له.

ومن مننه الجسام أيضًا: أنه الخالق لكل شيء، وفاطر كل شيء، والقادر على كل شيء، والعالم بكل شيء، ومالك كل شيء، والقاضي على كل شيء ومدبره، والشهيد على كل شيء والخبير به، لا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء، وقد نبه على هذه النعم أجمعها وحمد نفسه عليها، فتارة جمع وتارة فرق ليؤكد بذلك آلاءه ويبين نعمه ويعلمهم حمده، وكيف يحمدونه عند تذكرهم إياها، وأن ذلك واجب عليهم عند تجديد ذكرها في نفوسهم بقوله جلّ قوله: ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ [الأنعام:1]، إلى قوله ﷻ: ﴿**ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ**﴾ [الأنعام:2]، وبقوله عزّ من قائل: ﴿**الْحَمْدُ للهِ الَّذي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ**﴾ [سبأ:1]، إلى قوله: ﴿**وَهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ**﴾ [سبأ:2]، وبقوله ﷻ: ﴿**الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً**﴾ [فاطر:1]، وبقوله عزّ من قائل: ﴿**لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ**﴾ [التغابن:1] وبقوله: ﴿**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ * الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [البروج:8، 9]، وبقوله: ﴿**فَلِلَّهِ الحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ * وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [الجاثية:36،37]، وقوله: ﴿**وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [القصص:70]، وعلى القول بالإجمال فكل صفة علياء واسم حسن وثناء وحمد ومدح وسبح فهي لله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وكل ذلك نعم لله ومن الله على عباده المؤمنين تفوق على نعمة له على خلقه؛ كفضله هو على جميع خلقه؛ إذ جعلهم عبادًا له ولم يرض لهم بما هو غير له لا يملك شيئًا ولا يقدر عليه، وجميع ما يوصف به فهي محامد له وثناء وسبحة، فسبحانه وله الحمد. حمد نفسه على أن له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العُليا.

فله الحمد أولاً وآخرًا حمدًا كثيرًا ينبغي لكرم وجهه - عزّ جلاله - ورفيع مجده وعلو جده أبد الآبد وآخر السند هذا على حمده على ما أسداه إلينا مع النعم التي تقدم

ذكرها من جزيل مواهبه، وكريم إجادته، وجميل متابعه، وحسن معاملته عباده، وسعة رحمته من سرعة الإجابات لدعاء المضطرين وكشف كذب المكذبين وإغاثة المستغيثين وجوده بالنعم قبل سؤالها، وكفايته المحن قبل حلولها، ولطفه في إيصاله ذلك إلى من أراده بأحسن الألطاف وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته إياهم إلى سبيل الإسلام، ألا ترى إلى حمايته إياهم عن مراتع الآثام، وتحببه إليهم بالنعم، وهو الغني عنهم مع تبغضهم إليه بالمعاصي مع فقرهم إليه وهو يدعوهم دعاء لذا ويستنزلهم مهلاً مهلاً بأكرم المآخذ وألطف الوسائل، فيقول ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ [فاطر:3]، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ**﴾ [فاطر:5]، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ**﴾ [لقمان:33]، ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: 29]، ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ [الانفطار:6: 8]، ومثل هذه كثير.

وتارة يوصيهم ﷻ بأحسن وصية وينصحهم أبلغ نصيحة بأحسن خطاب وألطف مأخذ فيقولﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا**﴾ [آل عمران:102،103].

ثم نصّ ﷻ على ما عرضنا إليه بقوله الحق: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران:103]، وكقوله جلّ قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾ [آل عمران:118]، ثم قال ﷻ: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ**

تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:118]، وأكثر القرآن العزيز جاء على نحو هذا من خطابه المؤمنين بمعاني النصيحة وكريم الخطاب والوداد والمحبة ووضوح مخايل الولاية، ألا تراه كيف يعلمهم بأنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل وأفضل المنازل في قوله: **﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾** [الزمر:7]، وقوله: **﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾** [المائدة:3]، ويتصل إليهم من موضع الظنة التي هو نزيه عنها سبحانه وله الحمد عند تكليفهم ما يقربهم منه ويزدلفون به عنده فيقول ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾** [الذاريات:56-57] ويقول: **﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾** [النحل:101]، «لم أخلق الجن والإنس لحاجة مني إليهم، ولا لأربح عليهم لكن خلقتهم جودًا مني ليعبدوني فيربحوا عليَّ» كقوله: **﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾** [الروم:44]، وقال ﷻ بعدما علَّمهم الطهارة التي تحط عنهم أوزارهم، ويقرعون بها بابه، ويرفعهم بها في درجاتهم: **﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [المائدة: 6]؛ أي: بالطهارة من الذنوب، فيكون عملكم بعد في درجة الشكر يرفعكم بذلك عن درجة العاملين في تكفير الذنوب إلى رفعة الدرجات، وتبوء منازل القرب، وقال ﷻ بعدما علمهم مما يتقون وكيف يوجهون أعمالهم وما ينفقون، وحذرهم من دخول الآفات عليهم، فمن ذلك: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾** [البقرة:267]، يقول ﷻ هو غني عمّا ينفقون أن ينال منه شيئًا نزيه عن قبول ما أريد به غيره، أو عمل على غير ما يرضيه، حميد للزكي المرضي ينفقونه وإن قلّ، كما قال: **﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** [آل عمران:92] **﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾** [الحج:37].

هذا إلى كريم مخاطبته عباده المؤمنين في وعظه إياهم بالتعريض، وحثه إياهم بالتحريض وتأديبهم سواهم يقص عليهم ما أصاب من كان قبلهم، ويواجههم بالبشارات تفصيلاً، ويعدل عنهم بخطاب الوعيد إكرامًا.

وقد تقدم من هذا الفن في صدر كتاب «الإرشاد إلى سبل الرشاد» ما يكون طريقًا للمبتدئ وتذكيرًا للمنتهى، ومن الواجب على من لم يجد طعم هذه الأذكار عند تلاوة كتاب ربه ﷻ أن يعالج قلبه بالتقوى، ويواظب اللجوء إلى ربه، ويكثر الدعاء في أن يحيي له قلبه وأن يصحح له سمعه وبصره، فالقلب الميت لا يجد طعم التلاوة، وبالحياة الباطنة تنال الحظوظ السامية وتتبوأ المراتب السنية، فافن في ذلك - وفقك الله - طاقتك، واشغل بها نفسك، واستنفذ استطاعتك، واستقرئ أسماءه العلا تجدها مدائح وثناء تقصر بلاغه الراضيين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام الصائبة عن الإشراف إلى خفي سترها، ومع ذلك ستشرف بعظمة بارئها وتعليم خالقها على أنه له مدائح ما تحركت إليها الخواطر، ولا هجس تحقيقها في الضمائر، وأن له علاء وسناء لم يسنح في فكر ولا لاح لمتوسم إلا إيمانًا وتسليمًا.

شبهة

اعلم أنه قد يعرض العدو بوسوسته إلى النفس الأمارة بالسوء؛ إذ هي عيبه وموضع مغالطه؛ لاسيما من غرب عنه الفهم، وقصر به سوء النظر عن بلوغ تحقيق العلم فيسول إليه بمكره أن الأسماء التي تعبر عن معنى المحبة والابتلاء خارجة عمّا ذكرناه ﴿**هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا**﴾ [الأحزاب:11].

فاعلم يقينًا أن جميع أسماء الله تعالى مدائح وثناء على ما تقدم ذكره، لكن الله يختص برحمته من يشاء ويقصد بعذابه من يشاء، وإنما هو فضله أو عدله، وكل محمود فالمؤمنون بفضله ورحمته مخصوصون، وغير المؤمنين بعدله وعذابه مقصودون، ولكل واحد من الحكمين قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان على وجوه ذلك كله خير للمؤمنين ونفع ورحمة للموقنين، بذلك يرتفعون إلى أعلى درجاتهم ويتبوءون منازل قربهم، فبالمعرفة يسعدون، وبالمحنة يتحققون، وبالعلم يقتدون، وبالإيمان يصلون، وبالأعمال الصالحة يصعدون ذلك؛ لأنه خلقهم للخيرات وأعدها لهم واستعملهم بذلك، فلم يدركوا ذلك إلا به، ولا استحقوه إلا بما سبق لهم فيه من مشيئته.

فهم بعد ذلك لا تضرهم الأدواء القاتلة، ولا تؤذيهم السموم الوحية، فمتى وسوس لهم العدو - لعنه الله- أو نزغ لهم بنزغ تذكروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم

يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، وإن واقعوا معصية صغيرة أو كبيرة عاد عليهم ذلك رحمة وفضلاً، ذلك لأنه جَلَّ ذِكْرُهُ يعرفهم بنفسه بما أصابهم حيث نقص عزماتهم، وقد عزموا ألا يعصوه ولا يكون منهم ما يكرهه، أعطوا ذلك من أنفسهم وعقدوا عليه عقودهم، فنزلوا بعد ذلك بإذنه وقدره، فعرفوا بذلك عظيم اقتداره وجميل ستره عليهم وكريم حلمه عنهم وحنانه وعطفه ورأفته في انتظاره بهم حسن الأوبة وأوان رجوعهم إليه بالتوبة، فعجوا إليه حينئذ بالدعاء وتضرعوا إليه، فأعلمهم بذلك حسن إجابته وجميل عطفه وحسن امتنانه، ثم تاب عليهم فعرفهم في ذلك رحمته وحسن عائداته وسعة مغفرته وكريم عفوه وجميل امتنانه وسرعة مبادرته قبول عبده إليه بعد ما كان منه من شرود ونفور إلى غير ذلك من ألطافه.

ومتى نالهم مكروه أو أصابتهم مصيبة من مصائب الدنيا ومحاذيرها عوضهم منها العوض الأكبر وجازاهم على مصائبهم الجزاء الأكبر، فهم على كل حال يربحون عليه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لاَ يَقْضِي اللهُ لَهُ شيئًا إلاَّ كَانَ خَيْراً لَهُ**»[1].

وليس ذلك إلا للمؤمنين، قال الله جل من قائل: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة:50].

من ذلك قولهم: إن الله ينعم في الدنيا بالعطايا الفاخرة، فإذا استرجعها كانت من عطايا الآخرة، هذا فيما يكون أصلح للعبد في دينه وأجزل لحظه في آخرته، فهو ظاهر صلاحه بين نفعه عند علماء الآخرة وأهل المحبة لها، وفي هذا الوجه جاء الترغيب وأنواع التعازي من الله ﷻ للرسول والأنبياء صلوات الله وسلامه على جميعهم ولأتباعهم من المؤمنين رضي الله عن جميعهم، وعليها أمرهم بالصبر، ووعدهم أجزل الثواب من غير حساب.

وقسم آخر هو أن الله جَلَّ ذِكْرُهُ خلق جملة العالم علوه وسفله له ومن أجله كما قال: ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾

(1) رواه أحمد (134/44)، وأبو يعلى (171/4).

[الطلاق:12]، وقال في كتابه العزيز: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص:29].

فإذًا إنما أراد جل وتعالى علاؤه وشأنه أن يظهر لعباده في قدرته وجلاله وكبريائه وإمضاء مشيئته وعظيم سلطانه وكرمه، وعلى شأنه من حكمته ورحمته وعفوه ومغفرته وجوده وجزيل عطاياه وحلمه، وعلى وجوده في أسمائه وصفاته إلى حيث انتهى المستقرئ لذلك فلنفرض الآن فيمن أوقع عليهم عدله، وجعل قسمهم أنواع المعاصي وفنون الكفر والتقلب في مقتضى سخطه وغضبه، نعوذ بالله سبحانه من ذلك كله.

ولو أنهم رضوا ذلك منه وقالوا: نحن ملكه وعبيده، وإنما أوجدنا ليظهر بنا مجده، ويقيم بنا أمره، ويتم بنا كلمته ويصدق علمه، ويعمر بنا عالمه، ويصدق بنا قوله، وما كان منه إلينا وفينا مما يوجبه تتميم كلماته وصدق قيله، وتحقيق مقتضى أسمائه فهو حقه، وكل ذلك حسن منه، وحكم منه فينا عدل وقضاء فضل، وله الحمد وهو المحمود على ذلك كله، لا يوصف بظلم ولا ينعت بجور، سبحانه لا يجوز ذلك عليه بل يستحيل في صفات تعاليه وعَلِيّ وجوده، بل هو كمال أظهره في حقه، وعز أبداه، وملك أعلنه، ومراد من إرادة له أنفذه كما فعل بالبدن، وضروب الإنعام أتم مناسك أوليائه وقرابين عباده.

وإن كان ذلك في حق الإنعام إهلاكًا فإنه له مراد ومحبوب عنده ومتقرب بها إليه، أليس يكون ذلك منهم إرضاءً له، وفاعل ما يرضيه ﷻ مرضي عنه والمرضي محبوب له، والمحبوب عنده غير معذب بعذاب الآخرة.

وهذا العقد هو الذي حُجب عنه الكفار بأغلظ حجاب، وأُبعدوا عنه بأقصى البعد، وأُسكنوا عن نوره في الظلمات، وغُيبوا عنه من الجهل به في غاية الجهالات؛ ليتم عليهم أمره وينفذ فيهم حكمه، وهذا أحد الوجهين في قوله ﷻ: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة:50] وإلى هذا العقد ينتهي الأمر في الفريقين أهل الجنة وأهل النار يوم الفصل ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الزمر:75].

فصل منه

وقد يوسوس العدو - لعنه الله - إلى من لم يمعن النظر فيسول له بخدعة أن محاذير الدنيا على اختلافها، وجميع ما يتعوذ بالله منه؛ كإبليس وجنوده، وما كان بإذن الله وخلقه عن إفراط الأصول عند تعاقب الفصول وازدواجها حين امتزاجها، وكذلك الأناسي الكفار والفجار والسباع والحيات والأفاعي والعقارب والبق والقمل والبراغيث والبعوض وخسيس الموجودات الخشاش كله بما أوجده الله جَلَّ ذِكْرُهُ في عرض المزدوجات، وظلها في إقبالها وإدبارها وبآخره عنها ومنها، وهذا يكون في طرفي الإفراطين لعداوة ما كان مقصودًا في عمدة الأصول وأنفسها التي هي الكمال، والخير أقرب أصله الابتلاء، ولذلك سماها رسول الله ﷺ: فواسق؛ لخروجها على هذه التي هي أكمل وجودًا، وكل حكمة من الحكيم العليم، وكل صنع الله جَلَّ ذِكْرُهُ وإيجاده وخلقه، فكانت بذلك فاسقة عن أمر الله ﷻ الذي هو رضاه وموضع وده إلى أمره الذي هو بكلمته، وتقديره للابتلاء والمحنة، جمع ذلك كله من المرضي وغير المرضي اسمه الملك ﷻ مزجهما في هذا السجن، فإذا كان في دار الآخرة ميز بينهما وخلص هذا إلى دار، وهذا إلى دار ﴿**ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [يس:38].

وأكثر ما يكون هذا القسم في العقوبات يوجدها الله - جَلَّ ذِكْرُهُ- في التقاء الفصول، وعند مصادمة الأهوية في معارك اختلاف الأزمنة بالفيحين من جهنم، والفتحتين من رحمة الله بالماء، ومشيئته بها في التدبير، وكذلك ما خلقه الله على مشابهة الفيح من مرار وشائك وأنواع المؤذيات في النبات والحيات والعقارب وخسيس الخشاش في الحيوان وخبيث الموجودات.

وقد تقدم في باب اسم الطيب جملة من ذلك فيسول له بخدعه أن هذه كلها ليست بداخله في باب الحمد، وكلا أن الله - جَلَّ ذِكْرُهُ وتقدست أسماؤه- قد أدحضت حجته وكسر شبهته من وجوه، وإن كان قد أقام ذلك مقام الشبهة للعقول القاصرة والقلوب الغافلة لما أراده من المحنة؛ ولئلا يصل إلى الرفيع من علمه إلا من بذل ما يكافئ ذلك من جهده، نعم - ولله الحمد - قد يسر ذلك للمؤمنين بأن جعله جملة معتقده في أصل الإيمان، وكلمة جامعة في معارف المؤمنين، قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر:49]، وقال: ﴿**وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ**﴾

[القمر:53]، وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الرعد:16].

وقال رسول الله ﷺ وذكر شعب الإيمان: «**وأن تؤمن بالقدر كله خيره وشره حلوه ومره**»[1]، وقال زيد بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ جَبَلُ أُحُدٍ وَمِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا تَقَبَّلَ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَأَنَّكَ إِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ**»[2].

وطريق الكسر لهذه الشبهة هو أن الله جَلَّ ذِكْرُهُ هو خالق كل شيء، وهو الموصوف بالرضا والغضب والإعطاء والمنع والرفع والخفض، وتصريف المشيئة كيف يشاء، خلق دارًا لطالبي رضاه العاملين بطاعته المؤتمرين لأمره هي الجنة، جعل فيها كل شيء مرضي، وملأها من كل محبوب ومرغوب، كذلك خلق للمتقين مواضع سخطه وغضبه - نعوذ بالله من ذلك - دارًا هي جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - حضر إليها كل كريه، وشحنها من كل مؤذ مؤلم.

وخلق الدنيا دار سجن لعباده لينظر كيف يعملون، وأي دار يبتغون ويؤثرون، أخرج إلى هذه الدار من دار رحمته ما شاء أن يفتحه منها بالماء، وأخرج إليها أيضًا من دار غضبه بواسطة فيح أذن له في الخروج إلى هذه الدار منها؛ ليدل بذلك على ما قد أثبته من قدرته ووحدانيته وتصريف مشيئته في مخلوقاته من منع إعطاء ورضا وسخط وحب وغضب إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته وموجودات الدارين في الدار الآخرة.

خلق ذلك كله وقدره في الأزل بقسط معلوم وقدر موزون، كتب على هذه الدار حكم المزج من المعنيين؛ الخير والشر، والحلو والمر، الكريه والشهي، والمنعم والمؤذي، وخلص الجنة من الشر كله، وجعل فيها الخير كله بحذافيره، وخلص جهنم

---

(1) رواه أحمد (375/49).

(2) رواه أحمد (136/47)، والبيهقي (204/10)، والطبراني في «الكبير» (81/5).

من الخير كله، وجعل الشر كله بحذافيره فيها، وأبقى من رحمته في هذه إن عدل بالخير ناحية وبالشر ناحية على الأغلب في الوجود إلا ما أبقى من حكم المزج؛ ليسهل بذلك للمؤمنين مقاصد الخيرات وييسرهم لها، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:2].

فناب كل فريق منابة في نزل الدارين، كذلك خلق المنافقين وخلق العصاة من المؤمنين؛ ليرحم أو يغفر أو يعذب، وليصحح حكم الوارث فما هنالك كما صحح حكمهم فما ها هنا بمناب كل فريق منابة في طاعته أو عصيانه ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ وأمر عزم ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: 5]، يقال للكافر: هذا مقعدك من الجنة أبدلك الله به مقعدًا من النار، ويقال المؤمن والموقن: هذا مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، ويؤتى كل مسلم بيهودي أو نصراني فيقال له: هذا فكاكك من النار، كما فعل بهم في دار الدنيا أنزل هذا منزلة الكفر والتكذيب، وهذا منزلة التصديق والإيمان، فكان شرهما لخيرهما الفداء، والله يؤتي فضله من يشاء والله عليم حكيم، والحمد لله أولاً وآخرًا وله الحمد في الدنيا والآخرة، وله الحكم وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه.

فصل

في تبيان ما تقدم وهو أنه قد تقرر عند ذوى الألباب أن الله ﷻ أحد الذات وأحد الأسماء والصفات، ذو قدرة وعلم ومشيئة، أوجد كل شيء دون شريك ولا ظهير له في ذلك ولا معين، ولا يكون على كامل الصفات إلا الفعل المحكم، وكما خلق كل شيء على الفطرة كذلك أوجده على سنن الحكمة، وكما أن الآباء والكافلين يلقنون الأبناء والمكفولين ما يخرجهم عن نور هداية الفطرة، ويعدل بهم عن سنن الحنفية بالعقل بعد صبغتهم فيما وخلقتهم عليها، وإن كانوا - ولله الحمد - لا يقدرون على تبديل خلق الله، كذلك بالأغيار يخرج بعض المخلوقات عن سنن الإيقان ويعدل بهم عن سنن الحكمة بعد كونهم في ذلك بحكم الأولوية، آية ذلك الماء، واحد في نفسه أنزله الله ﷻ طاهرًا مطهرًا لكن بالأغيار تغيرت أوصافه، وخرج بذلك عن حد الطهارة والتطهير، ولما مازج الأرض وسالت به أوديتها أوجد ﷻ طاهرًا مطهرًا لكن بالأغيار تغيرت صفاته وخرج بذلك عن حد الطهارة والتطهير، ولما مازج الأرض وسالت

أوديتها أوجد ﷻ بينهما وفيهما موجودًا ثالثًا هو الزبد، ليس بالماء ولا هو الأرض، ثم أوجد جَلَّ ذِكْرُهُ على ذلك ما قد وصفه في قوله: ﴿**يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**﴾ [النحل:11].

هذا الشبه للماء المنزل من السماء، وأوجد مع ذلك كل مرار وشائك ومؤذ ومؤلم، هذا الشبه ما أذن فيه لفيح جهنم بنفسها سعيرها وزمهريرها، ثم يصرف حكمته على تصريف مشيئته، فيحيل طيبات ما أوجده هنا إلى خبث وركس، ويحيل ذلك إلى كريم الوجود بواسطة الماء، ثم يركسه أيضًا، هكذا يقلب الله الليل والنهار وما فيهما، وكما يقلبهما يوجد فيهما وعنهما امتزاجًا واختلاطًا حقًّا وباطلاً، يسلك ذلك كله سنن التكوين ليتم حكمته في المعنيين، ويسلك أمره الجادتين، كذلك يضرب الله الحق والباطل، كالقرآن عمدته مقصوده الإخبار عن صفات الله ﷻ وأسمائه، والإنباء عن عظمته وعلاه وأحكامه في حكمته وإبداع صنعه في عجيب صنعته، والإعلام بأمره ونهيه، وإثبات نبوة أنبيائه ورسالة رسله وكتبه وبراهين ذلك ودلائله، وتبين مراده من ذلك كله فكان في ذلك أنواع الخطاب وقصص ما قبل ونبأ ما بعد، وأوجب ذلك اختلاف الأخبار عن الكافرين والمكذبين وذكر ما أجابوا به رسلهم، ووصف فعالهم وعتوهم، وكيف كذبوا على الله وكيف كذبوا رسله، وردوا أمره ونصائحه، فكان في اجتلاب ذلك من مراد التبيان ما كان في النفي مع الإثبات الذين في شهادة أن لا إله إلا الله، وكان في ذلك فتنة من أراد الله فتنته لموضع النفي ووصف الخلاف، وهداية من أراد الله هدايته لمكان التحقيق ومقصود الغرض به، وكان ذلك من الكتاب العزيز كالتسبيح في الوجود، أعني: العالم، وكانت أذكار أسمائه وصفاته العلا موضع الحمد من العالم، وكل كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فافهم ووف اعتبارك وفقك الله، ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه:114]، ألم تر أن كل مخلوق حقير، وكل شيء في العام صغير القدر خسيس وإن كان قد لُعن وفُسق في الشرع وذُم وجوده بالوحي وعافت النفوس رؤيته واقتحمته الأبصار لمقته، كل ذلك مسبحًا لعظمة الله مقدس له شاهد له بالوحدانية والقدرة، ساجدًا له طوعًا أو كرهًا، وهذا أحد التأويلات في قول رسول الله ﷺ في الدجال لعنه الله وخفف على المؤمنين والمسلمين وطأته:

«**بين عينيه كافر مكتوب يقرأه كل مؤمن، وأنه أعور عين اليمين**»[1] وسيأتي تفسير ذلك، إن شاء الله تعالى.

تقرر المعقول والإيمان أن أحدًا سوى الله - جَلَّ ذِكْرُهُ- لا يستطيع ولا يوصف بالقدرة على أن يخلق بعوضة ولا ذرة، ولا أن يجمع مؤداها من خزائن السماوات والأرض، ولا يعلم ذلك ولا يهتدي إليه ذاكرًا ولا ساهيًا لنقص قدرة مبدعهم وعدم الروح في نفخ نافخهم، قصارى قدرهم الكسب على شروطه، وأبلغ نفخ أحدهم ريح ميت لا روح فيه ولا حياة من أجله.

ثم هذه المحاذير كلها رحمة لعباده المؤمنين ونعم في حقهم أنعم بها عليهم. فإنه خلقها تذكيرًا لهم وتخويفًا ينبههم بها في أحيان غفلاتهم، ويزعجهم بالمقصود بها عن مواطن فتراتها، فهم إذا ذكروا جهنم - أعاذنا الله برحمته منها - بسعير ما هنا وزمهرير تعوذوا بالله منها، وإذا رأوا محاذير ما هنا تذكروا ما هي منتزعة منها فيما هنالك، وإن إليها تصير آخرتهم ذلك وأقلقهم.

فتعوذوا بالله من شر ما خلق، ومن حال من أعدت له وما أوجدت من أجله: فيتيقظون من أجل ذلك لسلوك سبيل النجاة، وعملوا لربهم خالقها لينالوا بذلك دار الأمان، يتذكرون بحيات ما هنا حيات ما هنالك، وبعقاربها عقاربها، وبضيقها وظلمتها ضيق ما هنالك وظلمته وبالآلام وأوجاعها، وفقره وجوعه وعطشه وهونه وحزنه وشجونه وأحزانه أحزانها، وبكل شيء يكون من مكروه هنا يتذكرون ما يجانسه فيما هنالك، فإن أصابهم منها ما يؤذيهم أنابهم على ذلك، فكل شيء في الدنيا والآخرة رحمة، ولله تعالى عليهم فيه نعمة، وتمت كلمة ربك الحسنى على عباده المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

وجه آخر: ولأنه خالق كل شيء وموجده وربه وملكيه لا شريك له فيه، فهو في فعله فيما يملكه بين خيرتين يقتضى كل وجه منها الحمد له وحده، أما أن يكون فعل ما له أن يفعله فهو عدل، والعدل حمد؛ لأنه من حق المالك التصرف في ملكه كيف يشاء، يعطي ويمنع ويقدم ويؤخر، فإن أعطى أو قدم وفضل وهو حمد على حمد فإن

(1) رواه البخاري (118/6)، ومسلم (27/2).

منع فهو عدله وهو حمد وبذلك صح الحمد في الدنيا وفي الآخرة، وليس الاعتماد على إضافة الذم إلى العالم به بحجة، إنما تضاف الأفعال إلى محالّها التي صدرت عنها.

التعبد

فأجهد نفسك - وفقنا الله وإياك - في العمل بمقتضى هذا الاسم المبارك، وجملة ذلك هو ألا تأتي إلا ما يحمدك عليه، وكما انبسط معنى الحمد على معاني الأسماء والصفات والعمل بمقتضاه ينبسط بانبساطه، فاحمده ﷻ على كل نعمة وعلى كل حال بمحامده كلها ما علمت منها وما لم تعلم، وبالكليات حق المحامد، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله تملأ الميزان**»[2] ولا تملؤه إلا بعمومها جميع الموجودات ما علا وما سفل، وقال: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِله**»[3] وقال ﷺ: «**لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ**»[4].

وقال: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»[5].

وقال ﷺ: «**عجبًا للمؤمن أنه يوحد في كل شيء إن أصابه خير حمد الله، وإن أصابته مصيبة فهو حمد الله فهو يوحد على كل حال حتى اللقمة يرفعها إلى فيه**»[6].

---

(1) رواه أحمد (94/1)، وابن حبان (229/5)، والنسائي (198/2).

(2) رواه النسائي (50/6)، والبيهقي (3/3).

(3) رواه النسائي (208/6)، وابن حبان (184/4)، والحاكم في «المستدرك» (381/4).

(4) رواه مسلم (473/17)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (410/10).

(5) رواه مسلم (403/17)، والترمذي (194/7).

(6) أخرجه أحمد (333/4، رقم 18959)، ومسلم (2295/4، رقم 2999)، والدارمي (409/2، رقم 2777)، وابن حبان (155/7، رقم 2896)، بلفظ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان =

وقال ﷺ: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمد، قالت الملائكة في السماء: ربنا لك الحمد، فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»[1].

والموافقة في هذا الموطن - والله أعلم - بالعلم وإحضار الفهم وشهود معاني الحمد وحقائقه؛ إذ الملائكة عليهم السلام لا تشغلهم عن ذكر الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - الشواغل فمن أجهد نفسه في ذلك واستفرغ وسعه، نال موعود ربه، فالجد الجد في إحضار ذهنك وإيقاظ نفسك واكتساب العلم بمحامده، ثم تذكر من عظمة الله ﷻ أعظم ما تقدر عليه حتى يمتلئ قلبك إجلالاً وحبًّا له، ثم أرسل الثناء بالحمد على لسانك وجوارحك خاشعة وقلبك حاضر حتى تعلم أن جماع الثناء كله والحمد على التحقيق الأقصى له في ذلك، وأن له الحمد على أن له الحمد، وكذلك له الحمد على ما وفقك للحمد، وله الحمد على حمد أبدًا ما صعد علمك واستصحبت حمده، فمتى فعلت ذلك رجوت لك الظفر إن شاء الله، وللعلماء بالله جَلَّ ذِكْرُهُ والمعتبرين إلى ملكوته، وصالحي سلفنا رحمة الله عليهم ورضوانه تحميد وتمجيد سوى المذكور منه في القرآن العظيم، وحديث رسول الله ﷺ ذهبنا أن تذكر منها فقد استعملها عند مطالعة اعتبارك، وتتقرب بها في أوقات خلواتك، وترسلها عند صعداء أنفاسك، فمن ذلك ما جاء في القرآن العظيم: ﴿**الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:2]، وهو جماع الحمد كله ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام:1]، ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾ [الأعراف:43]، ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ**

=

خيرًا له».

(1) رواه ابن حبان (5/237)، بنحوه بلفظ: «إذا أَمَّنَ القارئ فَأَمِّنُوا فإن الملائكة تُؤَمِّنُ فمن وافق تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه» أخرجه ابن أبي شيبة (7/312، رقم 36392)، والنسائي (2/143، رقم 925) وابن ماجه (1/277، رقم 851). وأخرجه أيضًا: أحمد (2/238، رقم 7243)، والبخاري (5/2351، رقم 6039)، وابن خزيمة (1/286، رقم 569)، وأبو عوانة (1/455، رقم 1685).

وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء:111]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف:1]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ:1]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر:1]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:34]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل:93]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر:74].

ومما جاء في غير القرآن العزيز: الحمد لله الذي تتابعت علينا نعمه، وترادفت لدينا مننه، الحمد لله الذي اكتمل في مخلوقاته حججه بواضح البيان ونير البرهان ومحكم آي القرآن؛ ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب، الحمد لله الأول بلا زمان، والآخر بلا أوان، الذي غاب عن الحواس فبطن وظهر لقياس العقول فعلن، الحمد لله ذي الفضل المضيف والصنع اللطيف، الحمد لله الذي لا بأس مع فضله ولا بأس من روحه، الحمد لله المرجو لإزالة الإيواء وإنالة النعماء، الحمد لله الذي مواهبه لا يفي الشكر بجزائها ولا بأقل جزء من أجزائها، الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض الخلق الأعلى مثال سبق، ولا من شيء خلق ما خلق، الحمد لله الذي خلق الخلق بقدرته ودبرهم بمشيئته، الحمد لله قابل الحمد والمجازى به وواهبه، والمثيب عليه، الحمد لله حمدًا يصعد ولا ينفذ ويزيد ولا يبيد، الحمد لله فقرًا إلى نعمته واعترافًا بفضله، وشكرًا على حياطته وفزعًا إلى كفايته، الحمد لله على ما شاء وسر ونفع وضر، وأجلى وأمر، الحمد لله الذي جعل الحمد أقرب وصلة إليه، وأمت شفيع لديه، الحمد لله على ما خلق وأنعم به ورزق، الحمد لله على قديم ما أبلى وحديثه، وخاصته وعامه حمدًا يبلغ رضاه ويحوى من مداه، الحمد لله بجميع ما حمد به على جميع ما استحمد عليه، الحمد لله حمدًا لا انقطاع له ولا نفاد، حمدًا لا يحيط بكنهه سواه، الله محمود على بلائه، وعدل في قضائه، الله محمود على نعمه، مستعان على شكره، مرغوب إليه في إتمام ذلك وإدامته، الحمد لله إذعانًا من عبده بقصور نهاية الشكر عن بعض حوادث نعمه وترادف مننه، الحمد لله الذي جعلْ ما أنعم به من المعرفة بنعمه عاصمًا من

تكليف إحصائها.

الحمد لله الذي حمد المعظم لحقه المكبر لجلاله، العارف لمقدار العارف لديه والمنعم به عليه، الحمد لله حمد معترف بعجز حمده وشكره عن أداء حقه ومفترضه، الحمد لله على نعمة الاعتراف والمعرفة، الحمد لله حمدًا يوجب شكرًا وتتابع مزيد، الحمد لله يوازي رضوانه ويستدعي إحسانه ويكافئ حسن بلائه، الحمد لله حمدًا لا انفصال له دون بلوغ رضاه واستجاب مزيده، الحمد لله على النعمة التي حصنها بالشكر وحسنها بالمزيد، الحمد لله حمدًا مستنفذًا لقوانا مستوعبًا لأقصى وسعنا، الحمد لله كاشف الضر ومسهل الوعر مصرف الدهر، ومدبر الأمر، الحمد لله الجاعل بعد عسير يسرًا وبعد كره خيرًا، الحمد لله الجاعل بعد ضيق سعة، وبعد هرج دعه، الحمد لله الآتي بالفرج من حيث لا يحتسب، والمتلاقي بالرحمة إذا نابت النوب.

الحمد لله الذي إذا استفتح فتح، وإذا استمتع منح، وإذا أراد الله بقوم سواء فلا مرد له من دونه من وال، الحمد لله واهب النعماء وجالب السراء وكاشف الضر، الحمد لله القائم على كل شيء والدائم بعد كل حي، الحمد لله الشامل عطاؤه العادل قضاؤه، الحمد لله أطلق ألسنتنا بحمده، وأوجب لنا المزيد مثوبة من عنده، الحمد لله على النعمة فيه وفي غيره من صنوف فواضله حمدًا يقضي واجب حقه، ونستدعي حسن مزيده، ويؤمن من تغيره وتبديله، الحمد لله النافذ في جميع الأشياء قضاؤه وقدرته، الحمد لله المحيط بجميع الأمور حفظه وخبره، الحمد لله الذي لا يعارض في حكمه ولا يشارك في علمه، الحمد لله الذي لا يغار في سلطانه ولا يستطاع إبطال حجته وإنكار برهانه، الحمد لله الذي لا يعارض ولا يناهض ولا يماثل ولا يعادل في القضاء الذي لا يرد في العطاء الذي لا ينفد، الحمد لله العدل في حكمه والحكيم في أمره، الحمد لله على النعمة به، والحمد لله على النعمة منه، والحمد لله على حمده يبلغ حق حمده، وصلى الله على محمد المصطفى نبيه وعبده وعلى جميع ملائكته وأنبيائه ورسله وسلم تسليمًا.

واعلم يقينًا أن أول من حمد اللهَ اللهُ ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، وكما حمد نفسه بكلامه العَليّ قبل البدء الذي لا أول لأوليته لذلك حمد عباده الذي أثنى عليهم بخصالهم الحميدة، وأوجب لذلك عليهم حمده، والحمد يتصرف على وجوه:

فيكون بمعنى المدح والثناء، ويكون بمعنى الشكر، والشكر هو في مقابلة الإحسان، والحمد في مقابلة الرضا، والعلم بصفات عليه مرضية في المحمود، وهذا الحمد ينبعث من خالص الود والحب، وقد يقال: الحمد بمعنى العافية، يقال: حماد لك أن تفعل كذا، وحماد أمرك كذا، فقول القائل: الحمد لله، أي: المدح كله والثناء والحسن لله، والشكر لله، والعاقبة لله، والرضا منا بالله ولله، وحمد الله العَليّ هو شكر الشاكرين له على شهود النعم والمنعم، فإن لم يكونا معًا فشهود المنعم؛ لأن حقيقة الشكر الغنية بشهود المنعم عن شهود النعم، وأفضل النعم ما وصلك إلى المنعم، وأشأمها ما شغلك عنه، فإذا النعم ما كان منها دنيئًا، فإن كان مع النعم راحات معجلة فهو الكمال، فإذا وافق التوفيق الشكر كان حمدًا كاملاً وإلا انقلبت النعمة نقمة، والحمد هجنة.

اسمه المبارك ﷻ

أصل البركة - والله أعلم - لزوم الخير للمكان وبقاؤه فيه مع نماء وزيادة، من ذلك قولهم: برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح، واسم موضعه المبرك، وقيل لمستنقع المياه: بركة؛ لاجتماعه فيها ولزومه هناك، وأبرك السحاب: ألج بالمطر، وقيل للجاثين على الركب: مبتركين، وهذا كله معناه لزوم الجملة من الخير موضعًا واحدًا، وقد قيل: إن البركة مأخوذ لفظها من البر، والله أعلم.

وإنما قيل ابتركت الرجل بمعنى انتقصته؛ إذ المنتقص يحاول بذلك انتزاع الخير منه؛ إذ سماه بأسماء تضاد الحمد، فكان في ذلك بمنزلة التحنث والتأثم، المبترك هو الجاثي على ركبتيه من قوم مبتركين، فالمبترك للرجل والمرأة منتقص له؛ إذ هو يحاول بذلك إذلاله، يجعله إياه في حالة الاحتياج والاضطرار، ومنه قول الله تعالى: ﴿**وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا**﴾ [الجاثية:28].

وتبارك الله معناه: لم تزل بأسمائه الحسنى والصفات العلا، واستحال عليه ضد ذلك، ثم أوجد كل شيء، وكان هذا أيضًا في بابه بمنزلة تكرم وتعالي وتمجد وتعزز

وتقدس، وربما أتى بيان معنى هذا البناء، أعني التفعل في الأسماء كالمتكبر والمتعالي والمتعاظم، ونحو ذلك في باب مفرد إن شاء الله، وهو المستعان.

تبارك الله تفاعل البركة والخير والفضل في إظهار الأسماء الحسنى وإعلان الصفات العلا، ومقتضيات ذلك من الوجود أجمع كان جَلَّ ذِكْرُهُ أحدًا في كونه النزيه العَليّ، ثم جاد بجوده الكريم فقدر المقادير ثم خلق الخلائق وقضى القضايا، فكان في ذلك أن أوجد العرش العظيم والكرسي الكريم والملائكة المكرمين والأنبياء والمرسلين والأولياء والصادقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأوجد لذلك الإيمان والإسلام والعلم واليقين وأعمال الطاعات كلها، وأوجد كل موجود كريم، وكل مرئي شهي، وكل مبصر حسن بهيج، وبالقول بالإجمال، فإن الموجود كله بفضل جوده وبعَليّ مشيئته ومقتضى أسمائه وصفاته، فكان الوجود بركة منه عنه، لذلك لا تكون بركة إلا عن شيء موجود سابق أول له، فافهم.

اعتباره

اعلم أن كل لزوم وبقاء موجود في العالم بمعنى التبريك والبركة واجتماع الخير والبر بمقتضى هذا الاسم، والله أعلم.

وهو قريب القرابة من معناه ومقتضاه من اسم الزكي، غير أن المبارك إنما يوصف بذلك إذا كان موضعًا للخير ومعرفًا له، ويوصف بالذكاء من وجد فيه الطيب والطهارة والخير، ولا تكاد تجعل واصفه بقدم ذلك أو حداثته، إنما هو وصف لحالته تلك، فإن كان اللزوم من حيث الخير فهي البركة وذلك المحل مبارك، وإن كان من جهة الشر فهو اللزام والغرام والمغرم، ولا تكون البركة حتى تكون هذه الزيادة والنماء من أصل موجود، ويتعرف ذلك بما قبضه الله جَلَّ ذِكْرُهُ على يدي نبيه ﷺ من الزيادة والنماء في ماء عين تبوك، وماء الميضأة يوم الزوراء، وطعام أبي طلحة، وجمل جابر، وثمر حائطه، وطعام أبي بكر ﷺ ضيافه رحمة الله على جميعهم، ومزادتي المرأة وغير ذلك كثير، كذلك بشرى ملائكة إبراهيم وأهل بيته عليهم السلام في قولهم: ﴿**رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**﴾ [هود:73]، كيف لزمتهم البركة ونمت فيهم الخيرات، قال الله ﷻ: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾ [الزخرف:28]، يعني كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، يظهرها في ذرية الأنبياء وأتباعهم، وتبطن في أحيان الفترات.

قال الله ﷻ: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ [الصافات:113]، حتى أعلنها في ابنه محمد ﷺ وعلى جميعهم وفي العرب، ثم أفاض من تلك البركة على سائر الأجناس والأمم فأدخلهم منها فاستعملهم بمقتضاها، وكذلك قال لنوح ؏: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ [هود:48]، فخص بالبركة أممًا يكونون ممن معه، ثم أخبر عن الباقين أنهم وإن نالهم النماء والتكثير في العدد فإنما ذلك متاع يمتعون به لقوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:48].

ومن البركة ما جعله الله جَلَّ ذِكْرُهُ في الماء وفي الأرض، يقول جلّ من قائل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ [ق:9]، وقال في الأرض: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت:10]، وبركة الماء والأرض أشهر من أن يجتلب عليها الشواهد، يبدو ذلك في تضعيف البذر والثمرات، ثم ما صرف من ذلك كله في طاعة فهو بركة، وما كان في شهوات النفوس أو وجه به لغير الله فهو متاع.

ومن البركة أن يصلح عنده ويوفقه بصالح الأعمال ويطهره حتى يبلغ من ذكائه وبركته أن يدفع به السوء عن عباده ويكشف به الكرب عنهم ويجعله للخيرات سببًا، كما جعله لطاعته منزلاً وموطنًا، يهتك بوعظه سخف الشهوات، ويبعث برؤيته على أعمال الصالحات، يبرأ بكلامه القلوب من مرضتها والأسماع من وقرها، فتنطق ببركته الألسنة بعد بكمها، وتنجلي الأبصار من غشاوتها، وتنطلق الجوارح بعد كسلها، وتحيى القلوب بصيب وعظه فتكون عن ذلك أعمال وأقوال ونيات وأمور مرضية تصعد فلا ترد، وتعلو إلى عليين ليشهدها المقربون، فهم ببركة الله فيهم كالدواء النافع والترياق المجرب.

بل أفضل من ذلك فائدة وأحسن غناء وعائدة، ومن البركة تضعيفه الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة، كما قيل لأبي هريرة ﷺ: أسمعت أن رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة**» فقال: سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يجزي على الحسنة الواحدة ألفي**

ألف حسنة»[1].

بل أين هذا من قوله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم على جنازة كان له قيراط من الأجر، فإن حضرها حتى توارى كان له قيراطان القيراط مثل جبل أحد**»[2].

وكقوله: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ – وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ -- وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ**»[3].

بل أين هذا من قوله ﷻ لعبده الفقير من الحسنات يوم الحساب وقد ألحّ عليه بالمسألة فترفع له الشجرة بعد الشجرة: «**يا ابن آدم، ما يضيرني منك، أيسرك أن يكون لك مثل الدنيا كلها في الجنة؟ فيقول: رب رضيت فيقول: إن ذلك لك وعشرة أمثاله**»[4].

بل أين هذا من قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَعْلَمُ مَبْلَغَهَا يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ**»[5].

كذلك بركات الآخرة تنشئ إليها بركات هذه، قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا**﴾ [النساء:40] أي: وإن تك مثقال حبة حسنة يضاعفها ﴿**وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء:40]، فيدخله بذلك جنته ويبوءه منازلها ويسكنه قصورها وكرامته فيها بمثقال الذرة تكون حسنة، وما أتى من لدنه لا يبلغه حسابنا، ولا ينال تحصلينا، ﴿**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ [التوبة: 38].

---

(1) رواه أحمد في «الزهد» (7/3).

(2) رواه الطبراني في «الأوسط» (449/13)، والحميدي في «مسنده» (248/3).

(3) رواه البخاري (365/5)، ومسلم (332/6).

(4) رواه ابن حبان (6322)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (674).

(5) رواه البيهقي (41/2)، والطبراني في «الكبير» (489/1).

وقد يريد الله إيقاع العذاب بأمة من الأمم أو بأرض لشمول عصيانها وقبيح فعالها، فيكون فيهم العبد الصالح فينظر الله إليه من بينهم فيصرف عنهم الهلاك به أو بدعائه رحمة منه - جَلَّ ذِكْرُهُ - لبركة ذلك العبد، قال الله جل من قائل: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**﴾ [الأنفال:33].

التعبد

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن مقتضى هذا الاسم ليس يتناول باكتساب، بل هو من باب العطايا والمواهب، والسبيل الذي يوصل إليه هو العمل بطاعة الله والتطهر والتزكي ونحو هذا باحتساب على الله جَلَّ ذِكْرُهُ، ونية صادقة على اللزوم والمداومة، والجزاء على ذلك من الله تعالى مضمون من الله ﷻ إنه لا يخلف الميعاد، والبركة تبسط على جميع أعمال الطاعات؛ لأنها واقية باقية في الدنيا والآخرة، وأسماؤه كلها مبركات فلتخص كل اسم منها بما هو من مقتضاه في الوجود وعلى القول بالعموم فاسمه الله ﷻ كاف شاف كالسلام عند الدخول في البيوت وعند التزكية، وتسميته عند الشروع إلى كل وجهة وفي كل عمل، والحمد لله عند الفراغ، والتعوذ بأسمائه كلها حسن، وبخاصة ما كان كفاء للمعنى المتعوذ منه، كل ذلك طلب لبركتها والتطيب بها.

وضد البركة الشؤم، وعنه يكون وجود النقص من الخير وذلك هو الهلاك، وكان رسول الله ﷺ يقول في وضوئه: «**اللهم إني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة**»[1]. ووجود اليمن والشؤم في وجود الموجودات المحدثة في البواطن منها في ذلك عملها بإذن ربها ﷻ وبصفته التي هي البركة، والتبرك باسمه المبارك تبارك وتعالى يستعاذ من مرهوب ذلك، ويستعان على مال المرغوب منه، قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم من صاحبه ما يعجبه فليبارك**»[2].

---

(1) ذكره الغزالي في «الإحياء» (158/1).

(2) حديث عامر بن ربيعة: أخرجه أبو يعلى (152/13، رقم 7195)، وابن السني (ص 86، رقم 250)، والطبراني (81/6، رقم 5579)، والحاكم (240/4، رقم 7499) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. والضياء (187/8، رقم 213) بلفظ: «إذا رأى أحدُكم من نفسِهِ أو مالِهِ أو من أخيه ما يعجبُه فليدعُ بالبركةِ فإنَّ العينَ حقٌّ».

وقال ﷺ في العين والسحر: «**إنها حق**»[1].

وقال ﷺ: «**أكثر موت أمتي من النفس**»[2].

وقال الله ﷻ في يعقوب ؑ: ﴿**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف:68]، ويقال: إن العين من الإنس، والنفس من الجن.

وبالجملة: فإن جميع الطاعات موصلة إن شاء الله تعالى لمقتضى هذا الاسم؛ لأنها كلها باقيات صالحات مباركات، وهو تقرب إلى الله تعالى، والمتقرب منه مبارك لمنال البركة إياه وبأسمائه تتمم الصالحات وتنال البركات، ولا قوة إلا بالله العَلِيِّ العظيم.

اسمه السلام ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه

معناه - والله أعلم - سلامته من نقائص البشر وآفات الحدث، ومنه السلام والسلامة والسَلْم والسَلَم والسِلم الصلح لما في الصلح في معاني السلامة، وقيل للملدوغ سليم تفاؤلاً بالسلامة، وقيل للشيء المسلف: السلم، وأسلمت إليه الشيء بمعنى: دفعته إليه وسلمته مني، ومن دعواي فيه وتسلمه مني قبضة تفعل مني ذلك ترك الدعوى فيه والحجة والسلامي: عظام الأصابع من اليدين والرجلين، سميت بذلك لسلامتها من التجويف الموجود في غيرها.

وقد يطلق على غيرها من العظام هذا الاسم إما لصلابتها بالإضافة إلى اللحم الذي عليها، وإما بحكم المجاورة، والسِلام الحجارة الواحدة سلمة، سميت بذلك لصلابتها، أو للتفاؤل بالسلامة منها، والسُلَّم السبب إلى السماء والسلم المرقى،

---

(1) رواه البخاري (186/19)، ومسلم (384/14).

(2) رواه الديلمي (78/3، رقم 4219) عن عبد الله بن جراد مرفوعًا: «العين والنفس كادا يسبقان القدر فتعوذوا بالله من النفس والعين».

والإسلام الدخول في دين الإسلام، والمسلم هو الداخل فيه؛ كمنجد ومتهم وملين وشبه ذلك، أسلم أي: دخل في السلامة، واستسلم استفعل من ذلك الإسلام؛ كالإيجاد والاتهام، والداخل في الإسلام قد سلم من محذور من دخل فيه من أجله، ومنه قول رسول الله ﷺ: «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ**»[1]، ولأنه أيضًا ضمن السلامة من نفسه لمن أسلم له ولإخوانه المسلمين فدخل في ضمن قول رسول الله ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»[2].

اعتبار

لما كانت أسماؤه وصفاته ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لا تنازع لها ولا تغاير ولا تمانع؛ إذ هو أحد الذات وأحد الأسماء والصفات لا كثرة فيها هنالك ولا نقص عنها، إنما الله إله واحد أحد صمد، متى رضي لم ينازعه الغضب، وإذا حلم لم ينازعه الاستعجال وسرعة الأخذ، كذلك إذا أخذ لم تنازعه الأناة، وإذا عفا لم تنازعه إرادة الانتقام، كذلك إذا أراد شيئًا فلا تنازع ولا تخالف في صفاته ﷻ عن ذلك كله وتعالى علوًا كبيرًا، فهو السلام الحق كما هو النزيه البريء عن نقائص البشر وافتقار المحدث وآفات المصنوع، ولذلك سميت الجنة دار السلام لسلامتها من الآفات والغير والحدثان المحذور، وسلامتها من التخالف والتحازب.

ألا ترى أن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لا شمال له وأن كلتي يديه يمين مباركة، كذلك صفاته وأسماؤه يمين كلها يمن أجمعها، إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، فهو السلام الحق لا إله إلا هو. وقد قيل: إن السلام هو بمعنى ذو السلام، أي: منه السلام لعباده كي يسلمهم، وقيل هو السلام على أوليائه، ﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ**﴾ [النمل:59] ، ﴿**سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ [يس:58].

وقيل السلام بمعنى السلامة؛ كاللذاذ بمعنى اللذاذة والرضاع بمعنى الرضاعة،

---

(1) رواه البخاري (1/15)، ومسلم (12/57).

(2) رواه البخاري (1/23)، ومسلم (1/189).

ومعناه: يعود إلى تنزهه عن الآفات وتقدسه عن سمات المخلوقين، فهو بمعنى القدوس والسبوح والسلام، الذي هو بمعنى التسليم تكون بمعنى الإخبار عن المسلم للمسلم عليه بسلامته منه من الغل والغش والبغضاء، وغير ذلك بقوله: السلام عليكم، فيرد الراد عليه: وعليكم السلام، أي: لك منا في السلامة والأمان مثل الذي جعلت لنا منك، ووجه آخر هو راجع إلى هذا، وهو أن يكون معنى قوله السلام عليكم: أذكركم الله الذي عافاكم من محذوره، وسلمكم من مكروهه، فاذكروه واقتدوا به وعاملونا من السلامة منكم والأمان بمثل ما عاملكم، فيرد الراد عليه بمثلها أو أحسن منها، فيكون ذلك من جميعهم إقرارًا بالسلام الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وبنعمه، ويكون ردًا لراد عليه شكرًا أو تأدية حق وتأدبًا بتأديب الله جَلَّ ذِكْرُهُ.

وقد يكون معنى سلام المسلم وردًا لراد بشارة من الله ﷻ جعلها على ألسنة المسلمين أمرهم أن يبشر بها بعضهم بعضًا بالسلامة والبركة والرحمة منه؛ لدخولهم في دين الإسلام فأعظمهم أجرًا أحسنهم تحية وأكثرهم بشرًا وأكرمن بشاشة لأخيه المسلم، وقال رسول الله ﷺ: «**السلام اسم من أسماء الله فأفشوه بينكم**»[1] وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذ فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم**»[2].

واسم السلام إذا كان بمعنى الطهارة والسبحة عن النزاع والخلاف، وكما تقدم في صدر الباب فهو من أسماء الذات، وإذا كان من تسليمه عباده وأولياءه فهو من أسماء الأفعال، وأما معرفة مسالكه في العالم فطرقه كثيرة جدًّا، كل موجود كائن ما كان فهو مستسلم لله جَلَّ ذِكْرُهُ مسبح له خاضع خاشع، والإسلام دين الله ودين ملائكته ودين جميع الموجودات علوًا وسفلاً ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي**

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص 343، رقم 989)، والطبراني في الأوسط (231/3، رقم 3008)، والبيهقي في شعب الإيمان (432/6، رقم 8779).

(2) أخرجه أحمد (391/2، رقم 9073)، ومسلم (74/1، رقم 54)، وأبو داود (350/4، رقم 5193) والترمذي (52/5، رقم 2688) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (26/1، رقم 68)، وابن حبان (471/1، رقم 236).

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:83].

ووجود الموجودات بأجمعه يعطي إسلامه لبارئه، قال الله ﷻ: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾** [النحل: 43]، وتقصي هذا يؤدي الإطالة وغرضنا الاختصار وبالإيماء يكتفي الألباء، ونحن إن شاء الله نشير إلى نبذة منها تومئ إلى ما وراءها، فطر الله تعالى الموجودات علوها وسفلها على الإسلام فوجودها على تلك الفطرة صعدًا من لدن جامدها إلى مليكها، جمد جامدها على مباني الإسلام، غير أنه أعلن بالتصاغر إلى الكبير الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه والتضاؤل لعظمته والخضوع لجلاله وعلائه وجمد على سائرها ثم بدت مبينة في نباته بصفة الجمود، وانشرحت في حيوانه من وراء حجاب الذهول، ثم ظهرت في الإنسان لكن بصفة الغفلة، ثم استعلنت في المؤمن بصفة الإيمان كل ينفع، ويعطي مما أتاه الله ﷻ بالحيوان مما في وجوده وكل ثمرة وشجرة وغير ذلك من أنواع النبات كل ينفق بوسعه لا يمنع ما عونه، ومانع الماعون من ذلك ملعون مفسق على لسان الشرع ومعهود الوحي، والوجود لخروجه من الفعل المرضي والعمل الحميد الزكي الذي جاء به الإسلام وسنة الرسل عليهم السلام بسنتها عن الإسلام، فإسلام ما دون المؤمن كون وفطرة، وإسلام المؤمن كون وشرعه، والأمر أمران: أمر كون وأمر شرع، وكلاهما إسلام منفصل من أمر الكون، فما سقط عن أمر الشرع ثبت في أمر الكون، فافهم.

كل يسبح الله ويحمده، وإنما توجه أمر الشرع على العقل يوم أوجده، قال الله ﷻ: **﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [البقرة:35]، قال الله ﷻ: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْه وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾** [آل عمران:85]، ومباني الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان.

فالصلاة: هي الدعاء في عرف اللغة، وأقرها الشرع على أنها دعاء وقراءة قرآن وذكر مقرون بقيام وذكر وركوع وسجود.وقعود وتكبير وسلام، كل ذلك على حدود

محدودة وسنن مبينة.

والزكاة: النماء في اللغة ثم أقرها الشرع على أنها نصاب محدود ونصيب معلوم على سنن مسنونة وتمام حول، ومن يأخذها، ولمن تؤدى وكيف يعمل فيها.

والحج: في اللغة القصد، ثم أقره الشرع إلى مقصود معلوم وهيئة محدودة بأفعال موصوفة في وقت محدود وأقوال مأثورة في مناسك مشهورة.

والصوم: هو الإمساك، وأقره الشرع على إمساك محدود عن أشياء معلومة في وقت محدود وشهر معلوم، ولما أن كان الله جَلَّ ذِكْرُهُ هو ممسك السماوات والأرض أن تزولا وممسك ما بين ذلك وممسك الأشياء كلها علوًا وسفلاً على ما قد شاءه منه وبها من وجود، فكل شيء من أجله ذلك ممسك بأمر الله، والممسك صائم كونًا كما الممسك طوعًا صائم شرعًا، ولما كان ذلك كذلك قال الله جل قوله: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلا الصوم فإنه لي أنا أجزي به**»[1] يقول وهو أعلم: «أنا ممسك السماوات والأرض وما بين ذلك وكل شيء أن يزول وكل ذي بقاء فبإبقائي بقي وكل فان فبإفنائي فني، فمن أمسك لي نفسه على ما أمره به وعما نهيته عنه كما أرضى فأنا أجزيه بذلك ولا تسل عن جزائي له».

والصوم من حيث هو صوم ملكي غير أن الإكبار والإعظام والإعلاء خصوصًا لغير الإنسان، فهو حال من حيث هو إنسان عصي على الإكبار والإعظام والإجلال والتسبيح لخالقه للغفلة وصدت عنه البلدة، ونقل المؤمن من الشهادة؛ لأنها درجة من وراء الإكبار وأنار له بإيمانه موضع الغفلة منه، وانكشفت له بالعلم ما غطت عليه البلدة فوجد المؤمن ما دونه من العوالم يكبر الله ويعظمه ويسبحه، فشهد لله بالعظمة والكبرياء وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، فهو الله لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى، «**قال رسول الله ﷺ وقد سمع مؤذنًا يقول الله أكبر الله أكبر، فقال: على**

---

(1) أخرجه أحمد (477/2، رقم 10178)، ومسلم (807/2، رقم 1151)، وابن ماجه (525/1، رقم 1638)، والنسائي (164/4، رقم 2218).

الفطرة، ولما قال: أشهد أن لا إله الله، قال: خرجت من النار»[1].

فليس بالإكبار فقط تخرج من النار وتدخل الجنة بل بما يعطيه عظيم قدر المكبر المعظم المجل من أن لا شبيه له ولا مثيل له ولا عديل، فتشهد بأنه إله واحد ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:11].

فهذا هو ما يهدي به الله من أراد الله هدايته، ومن لم يرد الله هدايته بقي في موضع الإعظام والإكبار والإجلال بما فطر عليه من ذلك ضالاً تائهًا يعظم المفعولات ويكبر أنواع الموجودات، وربما ضل مع طول الناس عن إكبار الكبير الحق، وقصره الشيطان - لعنه الله - على إكبار معبوده الأدنى، وعلى نحو ما يرشده إليه الإله الذي هو هواه، حتى يأتي الله بهدايته فيحكم العقل بهداية الله بواسطة الإيمان، فتعود الشهادة التي كانت قبل الإكبار والإعظام الموجود في الفطرة حقًّا مكشوفًا، وقد كانت قبل الإيمان مظلمة، وكان المكبر بها المعظم لا يدرى من يعظمه ويكبره، فعاد ذلك توحيدًا محضًا، وإنما يتلخص اليقين باستعراض الجملة، ولا يكون ذلك إلا بتوفيق الله للعقل بنور الإيمان وسكينة الإسلام من الجولان إلى ما كان الهوى يبعث عليه والحمية والعصبية والتقليد ينفر عنه.

فمتى استعرض العقل الصائب الموجودات بما هي وجمع في معقولة إكبارها لجاعلها وإعظامها لخالقها ورأى ذلك بنور إيمانه وعصمة خالقه، وحمد الله ﷻ خالق كل شيء ومدبره، كل في قبضته ونواحي الموجودات جميعًا بيده، فلزمه إكبارًا له وحده وإعظامًا وتسبيحًا، وشهد له بما وجده عليه من الوحدانية والصمدانية والعظمة والكبرياء والبعد عن الأشباه وعن ما لا يجوز عليه، ويستحيل وصفه لديه؛ إذ الشهادة باللسان عبارة عما استقر علمه في الجنان فعمل له على الإسلام، وسيأتي الكلام على الشهادة في بابها إن شاء الله تعالى.

فشهادة التوحيد أم الشهادات كلها على اختلافها؛ إذ التوحيد هو ينبوع الحق المخلوق به السماوات والأرض ومبعثه، وكذلك هو أصل للذكر كله؛ كالتهليل والتكبير والتحميد والتمجيد والتعظيم والاستغفار والدعاء والتعوذ.

---

(1) رواه مسلم (873)، والترمذي (1618).

فصل

وهذا الفصل يعلمك أن العلم عليه مدار الإيمان والإسلام، وما قبل الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - مما هو دون ذلك فهو فضله وحسن تجاوزه في معاملته، قال تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**﴾ [محمد:19] ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [هود:14].

فهو إذا وقر العلم في القلب بما شهد به اللسان استوى القلب بحقيقة ما فيه إلى حقيقة المشهود له، وتوجه إليه بالعمل، فذلك الإسلام المتصل بالإيمان، فالذي وقر منه في القلب هو الإيمان الخارج عن الجوارح، هو الإسلام وباعث المنبعث بين ذلك، هو موضع اتصال الإسلام بالإيمان، ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [البقرة:131]، ﴿**أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِي**﴾ [الأنعام:80]، والنية حركة حقيقة العبد الباطن بهمته العقل وتوجيهها لله وحده لا شريك له، ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف:110].

واعلم أن الأذكار كلها مجموعة في موجود الوجود مفرقة في أنواعها، ونقل المؤمن الاستغفار والتوبة والإصلاح في مقابلة اكتساب الذنوب، والصلاة أصل الخشوع كله، وهي إعلام بترتيب الذكر، وكيف يكون المتخشع الخاضع المتعبد لله جَلَّ ذِكْرُهُ في قيامه وقعوده وفي حال حفظه ورفعه، كما قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: «**كنا إذا سرنا مع رسول الله ﷺ في سفر كلما استهللنا هللنا، وإذا صعدنا قلنا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإذا علونا شرفًا كبرنا، وإذا هبطنا سبحنا**»[1].

وهذا ترتيب الذكر على ما جاء في الصلاة ليمتثل العبد ذلك في جميع أحواله حتى يكون أعماله مصاحبًا لفطرته التي فطر الله عليها بعبادته؛ لتتصل محبته بفطرته وعبادته بجلبته، ومعلوم أن الصلاة لا يوصل إليها إلا بعد الطهارة بالماء، فهي إذن داخلة مع الخشوع والخضوع في جزء الصلاة.

والطهارة تشتمل على طهارة الماء والبقعة والثوب وتشتمل أيضًا على الطهارة

(1) أخرجه البخاري (2993)، وأحمد في المسند (14608)، وابن عساكر (157/54) بنحوه.

من الذنوب والفواحش أن تظهر على الجوارح فلا تبرز إلى مأثم دقيق ولا جليل من نظر وكلام وغضب وسعى وسعى إلى ما لا يحل، وزنا وسرقة وما شاكل ذلك في ضمن امتثال الممتثل للصلاة على حقيقتها التنزه عن هذا كله، كما في أداء الزكاة الطهور منه، كذلك في امتثال بقية المباني، قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالصلاة شغلاً**»[1] ومن قول السلف رحمة الله عليهم: كفى بعبادة الله شغلاً، ومن أخذ نفسه بمقتضى قول الله ﷻ: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ**﴾ [النساء:103] شغله ذلك عمّا سواه.

والحج رأس في تقريب القرائب إلى الله ﷻ وأصل في القصد إليه في بيوته، والسعي بالمال والجوارح في ذلك، وحض على لزوم البذاذة في الهيئة وحد في ستر العورة على اختلاف ذلك كله مع حسن الاقتداء والتزام الأمر واجتناب المنهي عنه.

والزكاة رأس في الإنفاق على وجوهه واجبه ونقله، والصدقات كلها كالهيئة والعارية والعرية والمنحة والسلف والتوسعة والتجاوز عن المعسر وأنظار المؤسر وبذل المال في وجوهه والقول به هكذا كما قال رسول الله ﷺ: «**هربًا من تبعات المال وتقربًا إلى الله ﷻ**»[2].

والصوم أصل في الإمساك كله، والزهد في المباح والحلال وتضييق مجاري الشيطان في الدم والإضرار بالشهوتين البصر والفرج على سنة الإسلام وحدود الشريعة، فهذا القول محصلاً في مباني الإسلام التي تتشعب عنها شعب الإسلام وبيانها على التفصيل في القرآن وحديث رسول الله ﷺ من استقرارهما وجد ذلك فيهما، والله ولي التوفيق يقول الحق ﴿**وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:4].

التعبد

أي أخي، إني أوصيك ونفسي بتقوى الله، وسلوك سبيل المريدين الذين أرادوا الله جَلَّ ذِكْرُهُ والدار الآخرة، ودع عنك أعمال البطالين الذين حادوا عن الطريق

---

(1) أخرجه عبد الرزاق (2/335، رقم 3591).

(2) أخرجه أبو داود (3/65، رقم 2700)، والحاكم (2/136، رقم 2576)، والبيهقي (9/229، رقم 18618)، والضياء (2/69، رقم 446) بلفظ مقارب.

ورضوا لأنفسهم بغير ما خلقوا له، فعملوا في غير مرضات مليكهم، واعتمدوا على إقامة شهوات أنفسهم، فإن الله قد قدر على قوم بالذنوب وموت نفوسهم بالغفلة وأشغلوا أنفسهم بأعمال أهل البطالة، وركبوا طريق الجهالة، فاهرب عن طريق الغفلة وخواطر اللهو، واندم على ما مضى من عمرك في غير طاعة ربك، وابك له، واعتذر إليه، مما أحدثته في حال الغفلة، واسأله الصفح عنك والعفو عن ذلك، ودم على الصوم والصلاة، وانفق مما رزقك الله، وجد في وجهتك، واخلص فيها لربك عساك تدرك تقصيرك فيما مضى من عمرك بإصلاح، واترك الغيبة والكذب والفحشاء والمنكر، واستغفر الله من قليل ذلك وكثيره، وأكثر في ذكر الله والتسبيح يمحو عنك بذلك ما سارعت فيه من السيئات حال البطالة والجهالات، وارغب إلى الله في العفو عن الذنوب السالفة إنه هو الغفور الرحيم العفو الكريم، وداوم على الطاعة جهدك. واهرب عن المعاصي ومواطنها، وازهد في دار الفناء واطلب النعيم في دار البقاء فما عند الله خير وأبقى وتحبب إليه بحب عباده والنصيحة لهم وسلامة الصدر والدعاء لهم.

واعلم أن الصوم جُنة من النار وحصن من الآثام فتعلق به، واجعل الوحدة حصنًا لصومك، والقعود فيها قيدًا لرجلك وحياطة لحسناتك وزيادة في نيتك، فالوحدة أقرب إلى السلامة والراحة من مداراة الناس ومعالجة النفس، وأبلغ في وجود الصدق وهي السلامة لمن أراد السير إلى الله تعالى والدار الآخرة.

واطلب العلم وتحفظه جهدك، واعتمد في ذلك على طلب أنفعه، وهو العلم بالله جَلَّ ذِكْرُهُ والمعرفة به والعلم بآياته وأحكامه والوقوف على ما لا بد منه من العلم بحلاله وحرامه، وثابر على تطلب حكمته في وحيه صنعه، وإياك والقنوع بأول درجة من العلم ما استطعت، وارغب إلى الله في الفتح عليك والتسديد لما يحبه ويرضاه.

واعلم أن العلم هو سلاح المجاهدة ونور البصيرة في ظلم المشكلات، والأنس في الوحدة هو سمير الفكر وراحة الروح ومرتع الذهن وشرف العقل وموضع نظره، به يشرف على مطالع الدنيا والآخرة، فترى ما ليس يدرك بالحواس، وتبصر ما لا تقع عليه الأبصار وتعلم ما يعجز عنه الفكر ولا يتوهمه الذهن.

ولتعلم أن فيما بطن هواء باطنًا وروحانيًا فيه يظهر ما غاب، وهنالك يصل ما

بعد، وإنما يكون ذلك بتوفيق الله جَلَّ ذِكْرُهُ وكريم هدايته عند ولوج الضمائر في بحار الأفكار، وخلوصها من ظلم المشكلات، وحنادس الغفلة في أثناء المشاهدات، فتصمت في حقه ضوضاء الوجودات، فيصل العقل بروح الإيمان إلى نسيم الهواء الواصل إلى الألباب من الأفق المبين، فينشرح القلب بالهواء الواصل إليه، ويمتلئ الصدر من نور ذلك الضياء فيشاهد ما يرى بصيرة وسماعًا وحسًّا وحدسًا وإلهامًا، ويصل الروح والعقل إلى المطلوب الأعلى إيمانًا وإيقانًا، فما ظنكم بكريم فوائده وعظيم إكرامه.

فاعمل بهمتك يعلا بك، وأذك قريحتك سددك الله تذك لك، وترق بهمتك صعدًا إلى مكنون الضياء في الملكوت الأعلى حيث القدرة الغائبة عن الأبصار، فبالأفكار على ابتغاء مرضات الله يصفو كدر الأخلاق، ومع الصفو يكون عيش الأرواح وعلى الإيمان، ومن رضي بأول العلم وظاهر من الأمر ولى ما تولى، ورضي له ما لنفسه يرضى، وربما حجبت عنه إصابة المصيب وبقي على كدره بغير تهذيب.

إن الأفكار لا تلحق غوامض الأسرار ما دامت في حجب الاغترار، فما تناهت الأهواء قط من معادنها، ولا قويت الهمم من مواطنها، ولا أبصرت غيوب عيون الآخرة من حجب غفلاتها إلا أن تنهض إلى العلى مهلة بالحج إلى ربها، فتتجرد من هواها وتتبرأ من أوصافها، وتلبس لها ثياب الخشوع، وتكثر إهمال الدموع، وتستشعر حال الفقر إلى مطلوبها العَلِيّ شاكلة الخنوع وتعظيم شعائره فيما هنالك، وتقف بالمناسك المشروعة لها، وتلقى تفث ضراوتها، وتعلن بالقصد إليه وحده ابتغاء فضله ورجاء مثوبته، فتجده قريبًا مجيبًا، ولربما تحركت الفطن إلى مراداتها، وحميت الأذهان من سجون هياكلها، فعاقها عدم الصفو وقلة اعتياد السفر، فرجعت الفطن إلى مستكناتها، وطفت شغل الأذهان في أماكنها فأصمتها ضوضاء المشاهدات، وشغلها هوى المحبوب ظواهر الموجودات.

فعليك يا أخي بتقوى الله تعالى والعزم على ما أمرت به، والمثابرة على ما فيه حظك واستقم كما أمرت، ولا تطغ ولا تبغ على أحد، وعليك بلين الجانب والنصيحة للمسلمين والحب لجماعتهم، واحتمال الأذى والتغافل عن ذلك الإخوان، والدعاء لهم بظهر الغيب واترك مجالسة الناس دون ربهم تسلم وتغنم، وكف عن أعراض

الصالحين، واترك الطعن على المذنبين، وكلهم إلى ربهم إنه كان بعباده بصيرًا، وبين سبيل ربك لمن جهلها، فإن قيل منك، واحمد الله وإن رد عليك قولك فاحمد الله، وفارق الغضب، واترك الحقد، واصفح عن إساءة الجاهل، وأقل أهل المروءة واستر العثرة، وأعظم العالم، وأكرم ذا الشيبة المسلم، وارحم الضعيف وواسى الإخوان، وأقر الضيف، وأنفق مما رزقك الله، ولا تترك الحج ما استطعت إليه سبيلاً، ولا تداخل الأغنياء ولا تصحب أبناء الملوك وجالس الفقراء والمساكين، وانبذ الشعر إلا ما كان شعر الحكم، ولا تسهر بنفسك، والتزم الدخول في جماعة العامة، وإياك والعجلة في القول والفعل حتى تبصر كيف وقع الأمر، وكيف تكون عاقبته وابذل المجهود وناصح الحق، وعليك بالدعاء في الأسحار وإتقان الفرائض، وعليك بالمحافظة على صلاة الأوابين في الضحى وعند الزوال وبين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء وجوف الليل، واركب طريق السلف الصالح، وانهض إلى ربك قدمًا على منهاج الإسلام فإنه يقضى بك إن شاء الله إلى دار السلام، واستقر مسالك مباني الإسلام في العالم وتعلم اليقين، وارغب إلى مالكك جَلَّ ذِكْرُهُ أن يعلمك، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]. أسأل الله لي ولك علمًا مرضيًا وعلمًا نافعًا، مقربًا إليه ﷺ وسبيلاً قاصدًا، وزاد مبلغًا إلى مرضاته ومحل رضوانه بمنة ورحمته إنه قريب مجيب.

اسمه الأمين سبحانه وله الحمد

يقال منه: أمين آمنًا وأمانًا، والأمْنَة والأمَنَة والأمانة نقيض الخيانة، ورجل أمان بمعنى أمين، يقال للرجل فعال وفعيل تكثيرًا، وآمنت بالشيء صدقت به، والتأمين تفعيل من قولك أمين، وقد تمد، وأصل ذلك كله من الأمن، من حيث كان الأمين مأمونًا بواقيه محمودًا في مواطن التجربة لاختبار بواطنه وظواهره، ومن ذلك قيل: ناقة أمون إذا كانت مشددة الأزب قوية الأعضاء جلدة مجربة، قال الشاعر يخاطب الأمين الحق ﷻ:

مَا عاقني كره بوجه مساءة ... إلا اهتديت به إليك طريقا

فـامض القــضاء علـى الرضـا منـي بــه وجــدتك فـي الـبلاء رفـيقًا

وتثبت الإيمان بالأمانة في اشتقاقهما لقرب معنيهما؛ كتشبثه في مبعثها ورجع إليها في أصل الاشتقاق؛ كرجوعه إليها في أصل المعنى يقول من ذلك: آمنت من كذا، أمن إليها، فأنا آمن وهو مأمون، والاسم الأمان، وأمنني أيضًا من كذا يؤمنني، فأنا آمن وهو مؤمن على مثال مُفْعِل، ويقول: أمنتني على كذا يؤمن تأمينًا، فأنا مؤتمن وأمين، وهو المؤتمن والاسم الأمانة، وأمنتني أيضًا على كذا فهو مؤمن على مثال مُفْعِل، ومؤتمن على مثال مفتعل.

قال الله تعالى فيما حكاه لنا عن نبيه يعقوب ﷷ ونبيه ﷺ: ﴿**هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ**﴾ [يوسف:64]، وقال عنهم في موضع آخر: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ**﴾ [يوسف:11]، ثم قال عنهم بعد وقوع الخيانة منهم: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾ [يوسف:17]، أي بمؤتمن لنا على مثلها، ولا مصدق لنا فيما تقوله بعد هذا.

واسم هذا كله الأمانة وحاملها القائم بها الأمين، كقولهم فلان ذو قرابة فهو قريب، وذو شهادة فهو شهيد، وذو سلامة فهو سليم وأمثلته كثيرة، ويقول أيضًا: آمنت بكذا، أي: دخلت به في الأمن، كما تقول: أتهمت بكذا، وأنجدت به، أي: دخلت تهامة ونجد، فأنا مؤمن كما تقول: فأنا منجد ومتهم، وتقول أيضًا: آمنت به، أي: أعطيت من نفسي الأمن وآمنت فأنا مؤمن، أي: معطي الأمن من نفسي، كما تقول: مُلبن ومنبل أي معطي اللبن والنبل، من أجل ذلك آمن؛ أي: ذو أمن، كما يقال: لائن ونابل وناصر، ومن هذا قول رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى تؤمن بوائقه**»[1] وفي أخرى: «**حتى يأمن الناس بوائقه**»[2] وآمنت فأنا ذو إيمان؛ كقولهم: أنا ذو اتهام

(1) أخرجه الحاكم (182/4، رقم 7301) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (4/ 395، رقم 5524). وأخرجه أيضًا: أحمد (387/1، رقم 3672)، قال الهيثمي (53/1): رجال إسناده بعضهم مستور، وأكثرهم ثقات. والعدني في الإيمان (رقم 64) بتحقيقنا، «بوائقه»: مفردها بائقة، وهي الداهية أو الأمر المهلك.

(2) أخرجه أحمد (154/3، رقم 12583)، قال المنذري (240/3): إسناد أحمد جيد تابع على ابن =

وإنجاد وإقبال وإدبار ونحو ذلك، والإيمان حقيقته من جهة التكليف فعل؛ إذ امتثال المكلف ما كلفه هو وإدخال النفس والعقل وجملته فيما أوجبه الحق وقضى به العدل من التصديق باطنًا، والتحقيق بما جاء به من توابعه ظاهرًا، ألا تراه على وزن إفعال كإنجاد واتهام وإقبال وإدبار وإدخال ونحو هذا.

وأما حقيقته من حيث هو فإعلاؤه هو من صفات الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ليس بمحدث ولا مربوب وجود منه، وفضل محدث هو صفة للعبد مربوب خال في قلب المؤمن يهبه الإيمان الذي ليس بمخلوق، تصديق الرب نفسه بنفسه لنفسه؛ إذ من أسمائه المؤمن، فمن صفاته الإيمان وجود منه، وفضل محدث هو صفة للعبد مربوب حال في قلب المؤمن يهبه الله لمن يشاء من عباده، يكون وجوده في العبد نورًا يضيء به باطنه، وروحًا يُحيي به جملته، محدث مربوب واسم المؤمن هو من أسماء الأمن؛ لأن الأمين حمل أمرًا هي الأمانة، فتحققت بالإيمان فسمى بذلك أمينًا مبالغة لاستغراق وصفه جميع معاني الإيمان، وتحقق وصف الإيمان به ولذلك بولع فيه ببناء فعيل، فسمي ذو الأمانة أمينًا، ولم يبالغ كذلك في تسمية حامل الإيمان بل سمي بصفة فعله، فقيل هو مؤمن كما قيل في داخل تهامة هو متهم.

والإيمان إذا كان كاملاً بشروطه كان أداء الأمانة، فالأمانة فينا إذا باطن الإيمان كما الإيمان باطن الإسلام، وكما الإسلام باطن العمل، ومن تدبر ما ذكرنا بفراغ من قلبه وقف على صحة ما قلناه، ولذلك كان رسول الله ﷺ قل ما تُخلى خطبته من أن يقول فيها: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»[1] ألا ترى حديثه المشهور الذي يرويه عنه

=

زيد حميد ويونس بن عبيد. وأبو يعلى (199/7، رقم 4187)، وابن حبان (264/2، رقم 510)، والحاكم (55/1، رقم 25). وأخرجه أيضًا: الضياء (56/6، رقم 2031)، والقضاعي (109/1، رقم 130)، والرافعي (394/2).

(1) أخرجه أحمد (135/3، رقم 12406)، وعبد بن حميد (ص 361، رقم 1198)، وأبو يعلى (5/ 246، رقم 2863)، وابن حبان (422/1، رقم 194)، والطبراني في الأوسط (98/3، رقم 2606)، والبيهقي (288/6، رقم 12470)، والضياء (73/5، رقم 1699). وأخرجه أيضًا: القضاعي (43/2، رقم 848)، والبيهقي في شعب الإيمان (78/4، رقم 4354).

حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال**»[1]، فأعلمكم نصًّا صريحًا أن الأمانة ركبت في سنح الجبلة المتشبث بأصل الخلقة.

كما أن المعرفة فطرت عليها العقول في أخذ الميثاق وقضاء القضية، لما أخرجهم من موجود عليه بهم وقدرته ومشيئته فيهم إلى وجودهم بصنعة إياهم أوجد فيهم ما أخرجهم عنه، وفطرهم على ما منه كان بدؤهم آية ذلك الماء ينزله من السماء إلى الأرض فيخرج به نبات كل شيء، وثمرات كل شيء، ﴿**جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ**﴾ [الأنعام:141]، وإنما فتح به من رحمته التي هي الجنة، وكان عنه شبه ما عنه أنزل، ألا ترى أن الإسلام فيهم أيضًا صبغة مركبة في الإنشاء الأول مع تركيب الأمشاج وتخمير الطينة، ذلك لأنه السلام المؤمن، ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾ [الروم:30].

فهم أبدًا يتذكرون ما قد نسوه من علمهم يومئذ، لذلك تقول أبدًا لعلكم تتذكرون، لعلهم يتفكرون ويعقلون، أعقب قوله الحق: ﴿**ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم:30]، أي: هذا النبأ العظيم طال الإعراض عنه فاتصل النسيان، ثم قال: ﴿**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ**﴾ [الروم:31]، ووصف الوجود على ما هو عليه، فكل ما خلق من شيء منيب إليه، وإنما ذهب بأكثر المكلفين عن علم حقيقته، وجودهم ضلالهم عن مقصدهم بواسطة الشياطين اجتالتهم[2] عن دينهم، فهذه صبغة الله جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾ [البقرة:138]، إن شاء الله على ذلك، وهو المستعان، ولا قوة ولا هداية إلا به.

قال الله ﷻ منبهًا على هذا الغرض: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ**

---

(1) أخرجه الطيالسي (ص 57، رقم 424)، وأحمد (5/383، رقم 23303)، والبخاري (5/2382، رقم 6132)، ومسلم (1/126، رقم 143)، والترمذي (4/474، رقم 2179) وابن ماجه (2/1346، رقم 4053)، وأبو عوانة (1/55، رقم 141)، وابن حبان (15/164، رقم 6762).

(2) يقال: اجْتَال الرجلُ الشيءَ إذا ذهب به وطرده وساقه، واجْتَال أَموالَهم أَي: ذهب بها واسْتَجالها مثله. انظر: «لسان العرب» (11/130).

ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:172]، هنا محذوف لما قالوا: بلى، أشهدهم على أنفسهم ذلك قالوا: أشهدنا **﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [آل عمران:81، 82] أي: قد خرج عمّا تقدم ذكره من ولاية الإيمان، وحفظًا للأمانة التي أؤتمن عليها، فالإيمان خاص ونزول الأمانة في جذر القلوب، وفطر الجبلة على الإسلام، وغرز المعرفة في الذوات عام، فافهم.

ثم أخذها ولاء بيمينه وهم أهل الإيمان الذين قد شاء في تقديره الأول هدايتهم إليه، ومن قد سبق في تقديره إضلالهم أخذهم في يده الأخرى، وكلتا يديه يمين مباركة، فالأمانة من قبيل المعرفة وهي تمدها، والإيمان من قبيل العلم، وهو يمدء وبهما يضيء موضع الأمانة والمعرفة، ألا تسمع إلى قول رسول الله ﷺ :« **إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعملوا من السنة**»[1]، فأنباك أن الإيمان تستجلب مواده بالعلم، وأن الأمانة بالإيمان والعلم يتحقق، وإنما هي شجرة تميزت أفنانها عن أصل متوحد بكل ما ظهر عنه مبعثه، متصل بخزائن الغيب.

وجاء التأمين على ضربين من البناء أحدهما: بالمد، والآخر: بالقصر، وهما لغتان مشهورتان، المفهوم الأول منهما الأشهر: التصديق، ثم الدعاء والنداء، فالمد إثبات لحرف النداء والقصر إسقاط له اختصارًا، وربما كان المد توجيهًا بالكلمة إلى اسم الإيمان، وهو التصديق والصدق هنا وإعطاء الأمن من نفس قائلها، وفي الكتب الأول التي تذكر أنها الإنجيل والزبور أمين أقول لكم أنه يكون كذا وكذا أمين أقول كذا يعبر بذلك عن الصدق فيما قاله وربما كان القصر إلى اسم الأمين، وربما كانا معًا على معنى واحد، ومقتضى الكلمة في قول المصلى عند فراغ الإمام من قراءة أم القرآن: آمين، راجع إلى قوله جَلَّ ذِكْرُهُ عند قول العبد: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** [الفاتحة:5]، «**هذه لعبدي ولعبدي ما سأل**»[2] ثم يسأل ربه جَلَّ ذِكْرُهُ بقوله: **﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ**

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه عبد الرزاق (128/2، رقم 2767)، وأحمد (285/2، رقم 7823)، وأبو داود (216/1، =

الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7،6]، يعني: أهل الكتاب والذين اجتالتهم الشياطين عن دينهم فأضلوهم عن سواء السبيل، فيقول العبد: آمين رجوعًا بها إلى قول الله جَلَّ ذِكْرُهُ، «**هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل**»[1]، فكأنه قال لربه ﷻ: (اللهم أنجز لي ما وعدتني) ووجه آخر أن يكون رجوعه بقوله: آمين، إلى تصديق قول الله جَلَّ ذِكْرُهُ: **﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾** [الفاتحة:2-4]، مع ما في قوله الحق: «**فهؤلاء بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل**»[2]. فيكون معنى قوله: آمين، صدقت، وآمنت من خلف في وعد أو نقض في عهد، فتكون مركبة من المعنيين، والله أعلم بما يوحي إلى عبده ورسوله وينزل عليه، وكثير جاء مثل هذا الخطاب في القرآن العزيز كون الكلمة لها وجه لمعنى ووجه آخر لمعنى؛ كالخطاب تكون جملته موجهة لمعنى آخر، فاعلم ذلك.

اعتباره

قد تقدم أن الأمانة معنى باطن وهو في المخلوق صفة يتصف بها باطنه المسمى بالعبد، وتمام النعمة على هذا العبد أن يشفع أمانته بالإيمان، فإذا فعل ذلك به وإله الأمين المؤمن الأعلى ونظر إليه، وكان منه أن وافى ذلك منعمًا عليه، وعلامة على أنه كان يوم أخذ الميثاق في قبضة اليمين، وهذا العبد هو المؤتمن على ما ائتمنه عليه الأمين الحق، وهو المخاطب من الجملة، والمتبوع من المخلوق، والحاكم عليه، والإمام المشار إليه منه، وهو خليفة الله على الجملة التي جعلها محلاً له، وهو في الجملة التي حمد عليه حامدها، وحمد عن النهوض إلى إظهاره مصامدها، ونبت به نابتها، وظهر في حيوانها، ثم استعلن منها في الإنسان، وكمل في أهل الإيمان، وتحقق

=

رقم 821)، ومسلم (296/1، رقم 395)، والترمذي (201/5، رقم 2953) والنسائي (135/2، رقم 909)، وابن ماجه (1243/2، رقم 3784)، وابن حبان (84/5، رقم 1784).

(1) تقدم.

(2) تقدم.

في أهل النبوة إذا كانت الشواهد من المصنوعات.

والآيات على المخلوقات منها خفية ومنها بينة، وكانت المكونات في أنفسهم لهن انقباض وانبساط وجلاء وخفاء وتفاوت أوصاف لا تنحصر، بالإضافة إلى أوهام المعتبرين وإنما ذلك على قدر الحظ من ذلك المشار إليه، والأنجاس منه، ثم رؤيتها والوقوف على معرفتها على مقادير نفاذ البصائر وكمال القرائح، وإنما يكشف هذا على الكمال في الدار الآخرة لنشئ الدنيا إلى الآخرة، ويقف عليها بالمشاهدة الأنبياء والمرسلين والصديقين، من ذلك حظ مقسوم ومقام من الله معلوم، وعلى مقدار الحظ من الخصوصية والتوفيق من الله والتأييد فهو الذي يشهد في المصنوعات لصانعها ما يجب له، وعلى أنفسها بما هي له أهل، وبه تسبحه وتقدسه وتكبره وتهلله في محال كماله، هو الشاهد والمشهود عنده بوجه، وهو الذي يبصر ويسمع ويعلم على قدر كماله ورفعته في درجاته، وهو المكرم بأمانته المتولي من أجل طاعته ومعرفته، والمهان من أجل خيانته وفسقه عن أمر ربه، فافهم فهمنا الله وإياك عنه.

ثم المطلوب من هذا العبد والمراد منه في أداء الأمانة هو: ألا يجعل هذا المشار إليه مأمومًا، فيؤمه الحزب الأدنى إلى دناءته، بل يكون إمامًا للحزب الأفضل، وهو الإمام المجهول بتولية الله ﷻ إياه، ولا تجعله محكومًا عليه وهو الحاكم الوالي، ولا تابعًا وهو المتبوع، ومتى فعل ذلك فقد ظلم نفسه وخان أمانته، وأخلد إلى أرضه واتبع هواه ونكس على رأسه، وهو متى فعل في هذا المذكور المشار إليه بما أمر به إيمانًا واحتسابًا على الله جَلَّ ذِكْرُهُ كان بذلك مؤمنًا، أي: مدخلاً نفسه في الأمن، وقد أدى أمانة ربه تبارك وتعالى، فكان بذلك مأمونًا بوائقه.

وكذلك يدخل في اليمين البركة فيكون ميمون النفس عظيم البركة حسن العلانية والسريرة؛ إذ حققه بذلك في قبضة اليمين فيسره اليسرى، وصارت بذلك جهة اليمين في هذا العبد ظاهرة غالبة، وهي الحاكمة على جهة الشمال منه، فيومئذ أفاض الله ﷻ عليه من بركته ويمنه تذكر بالله سبحانه رؤيته، ويعظ الغافلين صمته، ويزيد في العمل والإيمان منطقه ذلك ميراث الصدق في أداء أمانة ربه ﷻ بمثله يرفع الله البلاء وينصر على الأعداء، قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة:30]، فهذا عام في كل شيء، هو في الأرض، وهو أكبر في

السماء منه في الأرض.

والغرض الأول المشار إليه به هو آدم ﷺ؛ إذ هو المشار إليه وبنوه في الأرض، ثم بآخره ما سواه، ولما قالت الملائكة عليهم السلام طلبًا منه علم ما به أنبأهم: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ [البقرة:30]، وقال: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:30] أي: بما أخلقه، وكيف ويكون خلقه بما لا تعلمون، وكان سبق إليهم - على جميعهم السلام - ما هو طريقة الفساد، وكان الذي كان في علمه هو ﷻ ما استعلن في المؤمنين والأنبياء والمرسلين والأئمة الراشدين، ثم في جميع ما خلقه من شيء، ويتضح هذا على قراءة من قرأ: «إني جاعل في الأرض خليقة» بالقاف وقد تقدم إيماء أنباء إلى هذا المعنى في سورة البقرة، يشرف باللبيب إلى سواء القصد إن شاء الله تعالى.

والأمانة قد تكون الشيء المؤتمن عليه، قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ**﴾ [الأحزاب:72]، المعنى وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا**﴾ [النساء:58]، ويقال لفعل الأمين الأمانة لحفظه المؤتمن عليه تجوزًا واتساعًا، قال رسول الله ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»[1] وقال الله ﷻ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ [الأعراف:172]، يقول وهو أعلم: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ**﴾ [الأعراف: 172]، ميثاقهم أو الميثاق ونحو هذا، وهو محذوف مقدر يتعلق به قوله: أخذ، والميثاق مأخوذ على حفظ الأمانة وأدائها إلى ربها المؤتمن عليها أن ترد إليه ظاهره صادقة على نحو أوليتها، والميثاق هو الارتباط إلى الحق يرويه الإجلال، وتلك شهادة مشاهدة وحضور يقين، فمن ركب هذا الطريق وشاهد حظ نفسه من ذلك الحظ المستودع فيه المؤتمن عليه تبينت له السبيل، وشهد بقلبه ذلك اليقين، فقرب شاهده عن غائبه، وعاد الغيب عنده حضورًا ومشاهدة.

ومن هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات:21]، ﴿**إِنَّا**

---

(1) تقدم تخريجه.

عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:72]، وهي أن تخرج أفعالها على معاني اليمين من كلتا الجهتين، وقد جبلها على معاني اليمين والشمال معًا، وجعل لها هوى في المذموم المنهي عنه، ولها إن وفت ثواب وعليها إن لم تف عقاب، فنظرت إلى العقاب قبل نظرها إلى الثواب، وسبقت إليها من أجل ذلك الرهبة قبل الرغبة، فزهدت في الثواب جزعًا من الوقوع في العذاب، وأبت من تحملها دون ضمان العصمة والمعونة، وأشفقت من مواقعة التشبه بالربوبية في إدعاء الحول والقوة؛ لأنه من لم تخرج أفعاله على حكم اليمين مع تحمل الأمانة اقتحم الجرأة على إدعاء صفات الربوبية بغير حق، فكان بذلك ظالمًا لنفسه جاهلاً بقدره، فقالتا وما فيهما وما بينهما: أتينا طائعين مستسلمين لك عابدين بك.

وأما الإنسان فحين عرضت الأمانة عليه سبق نظره إلى الثواب قبل نظره إلى العقاب فأسرعت إليه الرغبة في الثواب قبل الرهبة، وحمله الحرص على منال الثواب، وأقدمه الجهل على إدعاء الوفاء مغمضًا على موضع الخوف، فقال الله ﷻ: **﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾** [الأحزاب:72].

فصل

اعلم أن الإنسان بما هو إنسان ظلوم جهول، فإذا أدخل الله عليه روح الإيمان فاسم المؤمن أولى به كالمهاجرين والأنصار، ألا ترى أن المهاجرين كانوا أنصارًا لكن كان اسم الهجرة أولى بهم؛ إذ النصرة منطوية في هجرتهم، وإنما سمى الله جَلَّ ذِكْرُهُ عباده بأرفع أسمائهم، كذلك المؤمن وإن كان إنسانًا في خلقته فقد أربى على الإنسانية بحيلة الإيمان، ولم يذكر الله ﷻ الإنسان في موضع من كتابه إلا ذمه ونسبه إلى أصل خلقته، وما ذكر المؤمن إلا أبانه عن الإنسانية بأحسن الصفات وأرفع الرتب، قال الله ﷻ: **﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾** [الأنبياء:37]، **﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾** [الإسراء: 11]، **﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾** [المعارج:19-21]، ثم قال عز من قائل: **﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾** [المعارج:22]، ثم استمر على وصفهم بأحسن وصف وقال: **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ * إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا**

الصَّالِحَاتِ﴾ [هود:9-11]، وغير ذلك في القرآن كثير يقف عليه بكثرة التدبر وطول الاستقراء.

واعلم أن المؤتمن لا يصل إلى العصمة التي جبلت عليها السماوات والأرض وما بينهما إلا التبرؤ من الحول والقوة والقدرة وصحة الاستسلام وصدق اللجوء إلى الله، فبذلك تدارك من ربه المعونة، وتحتوشه العصمة، وتُقبل معذرته ويُرحم ضعفه، والأمانة منبعث المعاملة، كما الإيمان منبعث العلم، كما الإسلام منبعث العمل.

وتحتوش الأمانة سبعة معان إليها تنزم أنواع المعاملة أجمعها وهي: الفطرة، والميثاق والعهد، والمحنة، الخلافة، والإمامة، والخلة.

ففي معرفة الأمانة معرفة الصدق كله والعدل.

وفي معرفة الفطرة معرفة الوصل الأعلى ومنبعث الوسيلة واتصال [الإل] [1] بالحق المخلوق به السماوات والأرض.

وفي معرفة الميثاق معرفة عظم قدر الارتباط برؤية الإجلال عند إنشاء النشأة وإظهار الفطرة وتركيب أركان الجبلة.

وفي معرفة التقدم في العهد والتوصية والإقرار على النفس بشاهد العبودية، وأخذ الميثاق عليها بذلك، وهو منبعث التبرؤ عن شاكلة الربوبية إلى الإله الحق ﷻ بخالصة الوجدانية.

وفي معرفة المحنة معرفة الحكم كله والعدل الذي بين الله وبين عباده ومعرفة الأمر والنهي، وإن ذلك كله متصل بالعدل الذي استأثر الله به جَلَّ ذِكْرُهُ في أحديته، ومواضع ذلك أجمعه.

وفي معرفة الخلافة معرفة الاستعمال والاصطناع وعظم قدر ذلك وموقفه، وفي معرفة الإمامة معرفة جميع معاني الخصوصية، وكيف نشأ الأمر في حكم الإمامة والائتمام إلى الإمام الأكبر، كما قال: **﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾** [يوسف:76].

وفي معرفة الخلة معرفة الاتصال الأعلى والاختصاص الأكبر وما جرى إلى ذلك، وفي معرفة هذه الجملة معرفة التسخير من التيسير من التكليف من التكييف،

---

(1) هكذا بالأصل.

وكيف الإطلاق مع الإثبات، وفي معرفة ذلك معرفة عدل الحكمة معرفة صفة الابتلاء وعوارضه، وينجز مع معرفة براهين نبوءة النبيين ومعرفة فرقان حقائق المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - من تخاريف أباطيل المبطلين، ومعرفة قدر ما بين كرامات الأولياء من معجزات الأنبياء، والفرق بين ذلك وبين دعاوى أهل الجهالات وأباطيل الدعوى من المدعين، ويبين لك مع ذلك تحقيق شرائع الشارعين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بالقسط الموضوع للمكلفين، وأنه هو الحكمة وأنه الصلاح كله.

وفي ذلك كله معرفة المكروه والمحبوب، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والأمر والنهي الواجب عنهما الجزاء العاجل والآجل في الدنيا والآخرة جزاءً وفاقًا، وهذا كله تتعرفه في أمر القرآن مجملاً، ثم هو في سورة البقرة أشرح من ذلك، ثم في سائر القرآن أشرح وأوضح جدًّا وأبسط، ثم من معرفة الوجود، أعني: العالم، يتصل لك العلم بالمشاهدة، فعليك باستقراء ذلك في مظانه تتبعه في سبل مسالكه.

واعلم - وفقنا الله وإياك- أن كتاب ربك - جَلَّ ذِكْرُهُ - هو الغاية القصوى، ثم حديث رسول الله ﷺ، هما المرشدان لمن استرشدهما بتعريف وتعليم، ففيهما إلهام وحي إلى قلوب الطالبين له يتجدد من حيث هما مهدن الوحي، وعنه وجد، لن تعدم ذلك عندهما طالبه وقد انقطع وحي المشافهة وبقي الآن وحي الإلهام، قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى له**»[1].

كما أن من تعرف بدائع العلم وتصفح عجائب الملكوت حكمة واصلة إلى قلوب طالبيها منه لا تبيد، وعلمًا مترادفًا أبدًا موجودًا لمن طلب ذلك عندها واسترشدها إلى معرفة حكمة الله جَلَّ ذِكْرُهُ؛ إذ العالم عن حكمته جل وتعالى وجدوا للدلالة عليه جعل، فهو معدن لذلك من حيث رجوع الأشياء إلى أوائلها ودلالتها على جاعلها، فلن يعدم الإلهام، والحكمة من هذين الوجودين ما دامت السماوات والأرض، وإنما تصد عن ذلك الغفلة وتحجب عنه المرح واللهو والتشاغل عنهما بغير

---

(1) أخرجه الحاكم (1/738، رقم 2028) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (2/ 522، رقم 2591).

ما وجد إله، فعظمت من أجل ذلك البلدة واستولت على القلوب القسوة، يقول الله جل من قائل: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنبياء:2،3] وقال: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص:29]، ﴿**قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [يونس:101]، ثم قال: ﴿**وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يونس:101]، كما قال: ﴿**وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾ [يوسف:105]، وإنما شرط الله ﷻ الفهم عنه والعقل والعلم والفقه للمتفكرين والمتذكرين والمتوسمين والمؤمنين، وإنما يقوى الإيمان ويستنير الفكر بالنظر والتدبر وتدأب ذلك والمداومة عليه.

فاعمل هداك الله فكرك، واستعن بالله جَلَّ ذِكْرُهُ يعنك، واستفتح بابه يفتحه لك، إنه قريب مجيب، ولا يبعدن عليك فما هو إلا أن تقصده بجد من عزمك ونية صادقة من ذاتك، ثم تداوم المواظبة على لزوم الباب وتكثر من القرع، فتح لك بفتح من لدنه إنه هو الفتاح العليم.

التعبد

فاحرص - وفقك الله - كل الحرص على ما فيه حظك، وخذ لنفسك بالوثيقة وانصح لها جهدك، فمتى لم تنصحها لم تجد بعدك من ينصحها لك، وعليك بلزوم التقوى فهو أصل لكل قام وأس لكل خير، ولذلك أكثر جلاله من التوصية به وعم بتوصية تلك جميع العباد، وبالتقوى تُؤدى الأمانات ويُوفى بالعهود وتُحفظ المواثيق وتُصلح المعاملات، وبها ينال النور في القلب، ويدال الفرج من الكرب، واليسير من العسير، وقد حذر رسول الله ﷺ من ذهاب الأمانة بالغفلة عن التقوى فتضيع من أجل ذلك فروع الأمانات، ويرضى دونها بضروب الخيانات بقوله ﷺ: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال» ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعملوا من السنة**»[1] فقال ﷺ: «**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة**

(1) تقدم تخريجه.

فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصى قد دحرجه على رجله، قال: فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أمينًا حتى يقال للرجل: ما أجلده ما أظرفه ما أغفله، وليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»[1] تصديقًا كقوله ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»[2].

والنوم المذكور في هذا الحديث هو نوم الغفلة عن رعاية عهد ربه ﷻ والمحافظة على ذلك؛ لأن ذلك ينزله إلى شهوات نفسه، ويخلده إلى أرضه، فيترك لذلك التيقظ لحظة، كما قال ﷻ: ﴿**نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾ [الحشر:19]، وذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال: «**لا ينجو منها إلا كل مؤمن نومة، فقال: نومه عن خوض الناس في الأباطيل والفتن وأخذهم فيما يؤدي إلى الهرج**»[3].

كما قال أبو صدقة اليماني: يوشك أن يأتي على الناس زمان يمقت فيه الفقهاء، ويكثر فيه السفهاء، ويكثر فيه أولاد الزنا، فمن أدرك ذلك الزمان فاستطاع أن يتخذ عنزًا شعرًا وأنيقًا حمرًا ينزل بواد معترض على غير طريق، فطوبى لذلك عبد راعي غنم على جنب علم يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، يعرفه الله بصلاته، ولا يعرفه الناس باسمه، فهذا هو الرجل النومة هنا.

ثم ضرب رسول الله ﷺ مثلاً كيف تعرض الفتن على القلوب في آخر الزمان. وهو زماننا هذا والله أعلم فقال: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها فنكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير الناس على قلبين على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت السماوات**

---

(1) أخرجه الطيالسي (ص 57، رقم 424)، وأحمد (5/383، رقم 23303)، والبخاري (5/2382، رقم 6132)، ومسلم (1/126، رقم 143)، والترمذي (4/474، رقم 2179) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (2/1346، رقم 4053)، وأبو عوانة (1/55، رقم 141)، وابن حبان (15/164، رقم 6762).

(2) تقدم تخريجه.

(3) لم أقف عليه هكذا وروى الحاكم نحوًا من ذلك في «المستدرك» (7/24).

والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مخجيًا لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه»[1].

فأنبأ صلوات الله وسلامه عليه بتتابع الفتن، وكيف يخلف بعضها بعضًا، تزول فتنة وتخلفها أخرى، والذكر بينهما خفي بمقدار الفصل بين الجسمين في الحصير، وأتى بالسلامة للمؤمن على هذا، وإنما تركت الحصير عن أجسامه المؤلفة فكذلك ذلك الزمان المشار إليه جملته فتن والذكر بينهما خفي غير متبين، والفتنة تستشرف من استشرف إليها، وهي المقصودة بالجعل في دار البلوى، وهي الداخلة على العافية أولاً.

وكان يقال: أول ما يرفع عن الناس الألفة، فإذا كان ذلك فخير أولادهم البنات، وخير نسائهم العقر، وخير دوابهم الحمير، ويومئذ لا يستكمل أحد الإيمان حتى يكون ألا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرة الشيء، ومن يتعلم، وأن يعتزل، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ له حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر، وكان غامضًا في الناس لا يشار إليه بالأصابع، وكان عيشه كفافًا، فصبر على ذلك، ثم عجلت بمنيته وقل تراثه وقلت بواكيه**»[2] نعوذ بالله من مضلات الفتن.

ونعم صومعة الرجل بيته يومئذ، أو سلاح صالح وفرس صالح يزول به حيث زال، وروي عنه ﷺ أنه قال: «**يأتي على الناس زمانٌ المؤمن فيه كالأمة، أكيسهم فيه الذي يروغ بدينه روغان الثعلب**»[3] وفي أخرى: «**يأتي على الناس زمانٌ المؤمن فيهم أنتن من جيفة حمار**»[4].

فليتق اللهَ العبدُ، وليعرف نفسه وعمله باطن ذلك وظاهره، وليعرف زمانه وأهل وقته وجيرانه وسلطانه وليعمل على ذلك، ولا قوة إلا بالله العَلي العظيم.

---

(1) رواه مسلم (386).

(2) رواه الترمذي (2519)، وأحمد (22824).

(3) أخرجه ابن المبارك (110/1، رقم 325)، ونعيم بن حماد (188/1، رقم 501).

(4) رواه أبو نعيم في «الحلية» (181/5).

اسمه المؤمن جَلَّ ذِكْرُهُ

قد استغرق رسم الأمانة الكلام في اسم الإيمان بأكثر الجهات والمعاني، غير أن علم خاصة الإيمان من الإسلام يجري على مجرى معرفة النية من العمل، والعقد من القول، والقلب من الجوارح، واللب من العقل، والكلمة من السنة، والأمر من الخلق، وهذا القدر من الإيماء يكفي إن شاء الله، غير أنه لا يجاوزه في داره دار الأمان والإسلام، إلا من اتصف باسم الأمانة والإيمان والإسلام، وكفى بهذه الإشارة إلى المراد قدرًا، ثم يتوجه القول في إيمان المؤمن الحق إلى أنه أمن بنفسه ﷻ وبأسمائه وصفاته وبما هو عليه، ولما كان المعهود أن إيمان كل مؤمن بقدر عمله كان إيمانه ليس كمثله إيمان، هو المؤمن الأعلى والعلام العليم، ويكون أيضًا المؤمن بأنه: أمن العباد منه البوائق، إنما يخافون بوائق أنفسهم.

اسمه المهيمن عز جلاله

قيل: هو بمعنى الشهيد، وقيل: بمعنى الرقيب، وقيل: بمعنى الأمين والمؤتمن، وقيل بمعنى المؤيمن فقلبت الهمزة هاء كما فعلوا في أرقت وهرقت، وإياك وهياك، ولو كان كذلك لكانت الياء للتصغير، وهذا مذهب مرغوب عنه؛ لأن أسماء الله جَلَّ ذِكْرُهُ لا يطرقها التصغير ولا ما هذا سبيله، وإن كان قد جاء في لسان العرب ومعهود المتعارف التصغير لفظًا، والمراد به التعظيم كقول الشاعر:

دُوَيهيةٌ تصفَرُّ منها الأناملُ

وقال آخر:

إذا عَذَلوا فيها أَجَبتُ بِأَنَّةٍ حُبَيِّبَتا قَلبًا فُؤادا هَيا جُمُلُ

فهذا وإن كان كما قالوا فإنه لا يجوز إلا فيما قد يطرقه التصغير يومًا ما أو على حال ما، فإذا عظموه وأحيوه صغروه باللفظ، إشارة منهم إلى لطف موقع هذا المذكور

من القلب ولصوقه بما هنالك، أو عبارة بذلك عن إعظام قدره، أي: هذا الصغير القدر عندكم وفي نفوسكم من شأنه، كذا يخاطب المخالفين له فيه المعتقدين فيه غير معتقده.

وأما أسماء الله ﷻ فلا يجوز ذلك عليها ذلك قطعًا، بل قد ملأ ذكره القلوب ونواحي التفكر به، وقيل: هو بمعنى العلاء، ووصف نعوت التعالي، وهذا الوجه - والله أعلم - هو جماع معاني ما جاء فيه هذا الاسم، ومن ذلك قول العباس ﷺ في رسول الله ﷺ:

مِن قَبلِها طِبتَ في الظِلالِ وَفي مُستَوَدَعٍ يَومَ يُخصَفُ الوَرَقُ

ثُمَّ سَكَنتَ البِلادَ لا بَشَرٌ أَنتَ وَلا نُطفَةٌ وَلا عَلَقُ

مُطَهَّرٌ تَركَبُ السَفينَ وَقَد أَلجَمَ نِسرًا وَأَهلَهُ الغَرَقُ

تُقَلُ مِن صالِبٍ إِلى رَحِمٍ إِذا مَضى عَلَمٌ بَدا طَبَقُ

حتى استوى بيتك المهيمن من خندق علياء تحتها النطق

وجاء هذا الاسم فرد البناء غير المتصرف، ولا مستعمل ماضيه ولا مستقبله، ياؤه كياء مسيطر، يقال منه: سيطر وتسيطر وهو يسيطر ويتسيطر سيطرة وتسيطرًا فهو مسيطرًا ومتسيطر، ولا يقال: هيمن يهيمن هيمنة، لم يأت مستعملاً في ما علمناه، بل في المهمل المذكور إهماله، فالله أعلم، فأخرجوه عن الاستعمال ودخوله في غريب الإفراد اشتمل على معانٍ كثيرة وعجائب جمة؛ كاسمه القدوس والسبوح، اللذين دلا بغرابة بنائهما على قربهما من تقديسه نفسه وتسبيحه، وحروفه بأطباعها تدل على ما ذكرنا وتشير إلى ما إليه المعنى تقريبًا وتذكيرًا.

فالهاء حرف جوفي هوائي من حروف النفس، وهو أعرف وصفًا في ذلك من حرف الهمزة، والياء أصلها الألف المطلقة، أسكنت عنها لاتصالها بالظاهر وعملها فيه، وهي من حروف الروح، والميم والنون حرفان راجعان من حروف العقل، وتدل على ذلك استقراء وما في مظانها، من ذلك قولهم: الهيف للريح الباردة، والريح اليابسة ذات السموم المعطشة الميبسة، وهي الهفوف إذا كانت قوية في هبوبها، والواو والياء وجدا معًا عن الألف المرسلة التي أرسلتها المخارج عن الحروف مطلقة، وعنها كانت الحروف كلها، والكلام بأجمعه إنما هو صوت مديد تقطعه المخارج على أطباعها، فإن

انخفض الصوت حدثت بعده الياء، وإن ارتفع حدثت الواو، ويقال: هو رجل مهياب وهيوب: لا يصبر على الماء، والهيام شدة العطش، وإبل هيم: عطاش لا يرويها الماء. قال الله ﷻ: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة:55]، وذلك إنه إذا كان العطش والجوع خاصًا بالباطن لا يشبعه الطعام ولا يغنيه ولا يرويه الماء إنما يروي الشراب ويشبع الطعام، الجوع والعطش الجسمانيين، كذلك قال الله تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:5-7] وهو مفهوم من قول رسول الله ﷺ: **ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس**»[1].

ثم نرجع إلى ما بدأنا به، ويقال: هام فلان إذا تحير بهيم فهو هيمان، فظهرت النون في اسم الهائم كظهورها في بناء فعلان من العطش والغضب، والهيام كالجنون وهو المهيوم، أي: المجنون، والهيوم أيضًا أن يذهب الرجل على وجهه إذا تحير وانسدت عليه مذاهبه فهام على وجهه هيومًا، والهيمان أيضًا العطشان، والهيماء مفازة الإماء فيها، وهذه كلها أدواء تصيب الباطن، فدل بهذه الدلالات أنه باطن لاسم المؤمن كما أن المؤمن باطن لاسم المسلم، ألا تراه في الوجود الشهيد والرقيب والحفيظ والأمين لا يستحق مجاز هذه الأسماء إلا العلية من أهل الإيمان، وأهل الرفعة في الدرجات، فالشهداء والمؤمنون هم الرسل عليهم السلام وأهل العدالة من أتباعهم والأمين جبريل عليه السلام.

اعتباره

قد كان المؤمن من قبل أن ينفخ فيه روح الحياة مواتًا، فلما نفخ فيه الروح صار حيًا بحياة جسمانية، فلم يزل ينشأ من ضعف إلى قوة لا يزيد على درجة الحياة

---

(1) حديث أنس: أخرجه أبو يعلى (404/5، رقم 3079)، والطبراني في الأوسط (203/7، رقم 7274)، قال الهيثمي (237/10): رواه الطبراني في الأوسط، وأبو يعلى، ورجال الطبراني رجال الصحيح. والضياء (100/6، رقم 2086). حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (243/2، رقم 7314)، وهناد في الزهد (339/1)، والبخاري (2368/5، رقم 6081)، ومسلم (726/2، رقم 1051)، والترمذي (586/4، رقم 2373) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (1386/2، رقم 4137).

الجسمانية مرتقيًا بها في درجات الإنسانية، حتى إذا أيد بالروح - روح الإيمان - أبصر باطنه بعد العمى، وسمع من بعد الصمم، وتكلم من بعد البكم، ثم كذلك ينشأ في درجات الإيمان حتى تتدارك حواسه الباطنة إلى الشم والذوق والفراسة، هكذا تتزايد الحياة العلياء في درجات العلم، وفي أثناء ذلك يستقر العلم في مستقراته، فيصير يقينًا ثم ينزل عليه الفرقان بنور البيان، فيفرق بذلك بين المشتبهات ويمشي بنور إيمانه في الظلمات، بمثل ضياء الشمس الضاحية في الأهوية الصافية، ثم حينئذٍ يكمل تصديقه بما لم تره عيناه ويتحقق له إيمانه بما لم تسمعه أذناه؛ لأنه عن شهادة باطنة يشهد، وتلك درجة الصديقين، وربما ألقى في روعه وكلم وحيًا إلى سرِه، فإن كان مرادًا بالكمال المعهود لابن آدم ناطقه روح القدس بالحق، وتنزلت عليه الملائكة بالروح من أمر ربه بالصدق، ثم أُيد بروح القدرة فخرقت له العادات وظهرت على يديه أنواع المعجزات، هذا كمال ابن آدم في الدنيا، وهي خاصة للأنبياء، وقد انقطع هذا أصلاً ولا مطمع فيه، أعني: الكمال المعهود، ثم يبعثه الآخر فينشئه؛ إذ ذلك خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

فيكون يومئذ أول درجات الإيمان أن يرى أحد ربه ﷻ على العيان، ويكلمه رب العزة ليس بينه وبينه ترجمان، ويحيا فلا يموت، ويقول للشيء يشاؤه: كن فيكون، ويجمع له ربه ﷻ بأول نظرة تنظر إلى وجهه الكريم، وبأول كلمة يكلمه بكلامه الودود العظيم كل نعيم أوجدهم إياه في تلك الدار، ثم يستزيدهم ثانية فيرونه أيضًا على ما هو به أيضًا من حقائق جلاله ونعوت تعاليه، ثم يعجبهم وينعمهم هكذا أبد الآبدين ودهر الداهرين، لا يبدو لهم برأي واحد مرتين، ولا يكلمهم في معنى واحد بكلمتين، ثم يصعد ذلك في درجات النشوء إلى أهل العلية من الصديقين والشهداء والعلماء والصالحين والنبيين والمرسلين وأحبته وأهل خلته كما صعد وأقبل في درجات الإيمان، والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، وهذا أحد المعلومين من مفهوم قوله تعالى: ﴿**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ**﴾ [غافر:15].

وأما هو ﷻ فإنه يتعالى في كبريائه، ويتكبر في عليائه، ويتعاظم في جبروته، ويتجبر في شأنه، ويتعزز في نعوت جلاله، وتبارك في معالي أسمائه وصفاته، لا يكسبه ذلك منه وصفًا لم يكن له قبل في قديم كأنه وجليل تعاليه وشأنه، كما لا يكسبه علمه

بوقوع أفعال العباد ومشاهدته إياها علمًا ومشاهدة لم يكن له قبل في أزل أزله ذلك في مفهوم قوله ﷻ تبارك وتعالى وتكبر، وما كان من هذا الباب.

جَـلَّ المهـيمن عَـن صـفاتِ عبـيده   وَلقـد تعالـى عـن عقـول أولـي النهـى
رامـوا بوصـفهم صـفات ملـيكهم   والوصـف يعجـز عـن ملـيك لا يـرى

فخاصة اسم المهيمن الحق ﷻ - والله أعلم - المبالغة والعلو على كل اسم تسمى به العباد معاني مجاز حقيقة أسمائه العلا فهو المهيمن عليه، أي: هو العَليّ عليه والرقيب والشهيد والحفيظ والأمين بمعنى أنه واهبه له ومتممه وممسكه له، وهو العَليّ عليه، أي أن له حقيقته، وكل متسم به سواه له منه مجازه، وهو تعالى المتصف به، وله تمامه الأقصى وكماله الأرفع دون غاية ولا نهاية.

هو المؤمن المهيمن على كل مؤمن، وهو الكريم والرحيم المهيمن على كل كريم، والرحيم المهيمن على كل رحيم، والحليم المهيمن على كل حليم، والبر والصادق هكذا في سائر الأسماء والصفات، هذا في حق المهيمن الحق عزّ جلاله، وأما حقيقته في العبد فهي الحيرة والهيوم على ما تقدم من ذكر معنى ذلك في الحروف المنتظمة في بنائه، فالأوهام هامت، أي: تحيرت في مهيمنيته، أي: في حقيقة أسمائه وصفاته وكنه مزيد حقيقتها على مجاز أسماء عباده، وهامت الألباب إلى معرفة رفعة درجاته في فضائل نعوت جلاله، أي: عطشت هيومًا فهي مهيومة وهيمانة، وهو ﷻ المهيمن لها، وهي هامت تهيم هيومًا وهيامًا، وهو المهيمن عليها، من هامت تهيم فهي هيمانة، خفيت النون في الفعل وظهرت في الاسم.

التعبد

إذا كان بمعنى اسم المؤمن أو الأمين فقد تقدم التطرق إلى الكلام والنظر في ذلك، وإذا كان بمعنى الرقيب والحفيظ والشهيد، فربما جاء ذلك في أول المواضع به إن شاء الله ﷻ، وإذا كان بمعنى التقدم والعلو والرفعة، فطريق التعبد في ذلك بعد طلب العلم به والانقياد له والطاعة والتزام ذلك له على سبيل التواضع وتخسيس النفس والإزراء عليها وطلب التضامن بها ومجانبة العلو، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا**﴾ [القصص:83]، والله هو العَليّ الكبير.

اسمه الملك ﷻ

يقال منه: ملك يملك ملكًا وملكة، والاسم: المُلك، والمِلك: ما ملكته، ومنه قولهم أقر العبد بالمِلك، والمَلكة وملاك الأمر ما اعتمد عليه، ومنه ملاك التزويج؛ لأن أحدهما يعتمد على صاحبه في المعنى الذي لأجله ازدواجًا، ملكت العجين أملكه إذا أجدت عجنه حتى اختلط وتماسك بعضه ببعض، وقيل للملائكة ملائكة؛ لأنها تملك الملكوت، أي: تجيد ملكه وتماسكه بعون ربها ﷻ، وبما ألقاه إليها من ذلك بتدبيرها لأمور بإذنه وتقسيمها إياها على مشيئته وشفاعتها فيما سبق تقديره إياها حتى يأذن فيه ويرضى وغير ذلك مما يسرها له ﷻ، ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم:6]، وقيل لملوك الأرض ملوكًا؛ لما جعل الله سبحانه إليهم من تدبيره وممالكهم التي استخلفهم فيها، وإمضاء أمور مصالحهم ونحو هذا.

الاعتبار

اشتملت لفظة الملك على ثلاثة حروف: الميم، وهي من حروف العقل، واللام: وهي من حروف الإضافة وهي معنى الملك، والكاف: وهي من حروف النفس فلذلك اشتمل الملك على ثلاثة أركان:

أحدها: الإمساك، وهو الإبقاء والمحافظة والذم للمملوك حتى لا يشذ عن الملك منه شيء أصلاً، ومن هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [فاطر:41] وقوله: ﴿**وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ [الحج:65] ونحو هذا.

والركن الثاني: الإضافة والاختيار، وهو خاصة الملك والملكة، وحكم ذلك يعطى لا محالة تصرف المالك في مملوكه على وفق إرادته ومشيئته دون راد لأمره ولا معقب لحكمه، لاسيما إذا كان المالك لا مالكًا فوقه يملكه، فملكه مطلق من جميع الوجوه لا يجوز عليه حكم التقييد ألبتة.

والركن الثالث: هو بمعنى باطن يلزم المملوك ويصحبه في إيجاده وإنشائه

وإمساكه وتصريفه، ظاهره وباطنه، وأنواع تدبيره، وفي وجوده كله، وهو رباطه والدال عليه منه، والمعنى المشار به إليه، وهو الذي يكلم العقول اعتبارًا، وبه قوام الأشياء كلها، وهو أمر الله ﷻ وأثره في مصنوعاته، قال الله ﷻ: ﴿**وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ [الجاثية:22].

ثم اعلم - علمنا الله وإياك من علمه - أن أرباب الاعتبار والسلف - رحمة الله عليهم - فرقوا بين العبادة في لفظتي الملك والملكوت، فقالوا: لفظة الملك تدل على عالم الشهادة، ولفظة الملكوت تدل على عالم الغيب منه، وربما قال بعضهم: ملكوت سلطانه، وهذا يتحول إلى ما تقدم، ومنهم من عبّر عن العالمين معًا بإحدى الكلمتين، وكل ذلك غير بعيد عن الصواب، ولم يقصد بعضهم مناقضة بعض، إذ ليس هذا من شأن القوم ﷺ، لكن التجوز في العبارة جائز عند كل أهل الفن، وإن كان من لخص عبارته عند تحقيق معاني أسماء المسميات فأوقع على كل حق طبقه هو أولى باسم السبق وأحق بدرجة المعرفة، ولا يحب أن ينكر على من قال: إن الملك معروف من الملك، وإن الملكوت من الملكة، تقول: ملكت مِلكًا، فالمِلك هو ما مُلِك، والمِلك أيضًا هو وصف المالك ونعته، تقول مِلكُ زيد لأمر كذا غير صحيح، ومِلكُ عمرو له أصح وأحسن، إذا هو ملكه من وجه حق، كما تقول: ملك عمرو ولا من كذا أحسن، أي فعله وسيرته؛ لأنه من الملكة، والملك هو موجود الملك من الغبطة والنعمة والسرور والفرح واللذة بما هو فيه مع ما يبدو من كثرة المماليك له وسعة الخطة وحسن الطاعة إلى ما يتبع هذا من كثرة الإكرام، وتبجيل الإجلال، وإظهار عظم قدره.

ومن هذا المعنى خطاب القرآن في قول الله : ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا**﴾ [الإنسان:20]، والمُلك أيضًا اسم لما مُلك، والمالك والملك اسمي المَلِك، قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ناسًا من أمتي يركبون البحر ثبج هذا البحر الأخضر ملوكًا على الأسرَّة أو مثل الملوك على الأسرَّة**»[1] فأشار إلى عظم أخطارهم ورفعة أقدارهم،

---

(1) حديث أنس: أخرجه مالك (464/2، رقم 994)، والبخاري (1027/3، رقم 2636)، ومسلم (3/ 1518، رقم 1912)، والترمذي (178/4، رقم 1645). حديث أنس عن خالته: أخرجه أحمد =

والأسرَّة كناية عن هذا كله، ويقال: فلان حسن الملكة أو سيء الملكة، فملكوت الله ﷻ حسن ملكته لمملوكيه من حسن التدبير، ورعاية الحفظ وشدة الذم وبديع الإتقان وعجيب الترصيف والإحسان، إلى غير ذلك مما يبلغه العلم أو لا يبلغه.

وعن معرفة حقيقة الملكوت يكون علم اليقين، كما أن عن معرفة حقيقة الملك تحصل المشاهدة وهو عين اليقين، والعباد في معرفة الملك والملكوت متفاضلون؛ لأنهم في منح الاستعداد للنظر والتفرغ له متفاوتون، وفيما تقسم لهم ويفتح عليهم من أنوار الهداية ونفاذ البصائر، والتوفيق لإصابة الصواب، والتأييد بالفرقان عند تشابه الأشباه متفاوتون، وإن كان للعقل جهالة وانبساط فله أيضًا تناه وحصر فيما أُعطيه من الإحاطة والانبساط، وجد منه قوة الأخذ بحمل الأمور، واستوى عنده القريب المسافة والبعيد وبما فيه من التناهي والحصر عجز عن كثير من التحقيق، واقتصر به على بعض الإحاطة، ولولا إمداد الله ﷻ إياه بمزيده ما قام لشيء، والعالم أوسع والعظمة أعظم، وقدر المخلوق أحسن وأحقر من ذلك.

وإنما عظم قدر العقل بالإيمان وبه حيا، فأضيفت إليه صفات لم تكن به موجودة قبل، فعقل الغيب وقويت القوة الباصرة والسامعة والعاقلة، وهدى بإيمانه وحق له النظر ممن آمن به وصدقه، فقوي له الإلهام واستنار له موضع العلم، فهو ينظر بالنور ويسمع به ويعقل به ويتكلم به ويتحرك به ويسكن، قال الله ﷻ: ﴿**أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**﴾ [المجادلة:22] وقال: ﴿**أَو مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام:122].

فإذا عَلا قدر كمال العقل وقوة نور الإيمان، ومشيئة الله ﷻ في إتمام النعمة على العبد وإجزال الحظ له من ذلك تكون رفعته وعلوه.

ثم اعلم - علمنا الله وإياك - أن الداخل في الملكوت بفكره وإيمانه إنما يرى ما

=

برقم (28139)، ومسلم (1519/3، رقم 1912)، والنسائي (40/6، رقم 3171)، وابن ماجه (927/2، رقم 2776)، وابن حبان (467/10، رقم 4608). ومن غريب الحديث: « ثبج»: الوسط.

أذن له في رؤيته، والعلم به على طريقة المسلوك به، ألا ترى أن رسول الله ﷺ حين أُسري به إلى بيت المقدس على الدابة البُراق ثم عرج به إلى ما فوق السماوات السبع إنما أخبر عمّا رأى في طريقه، وكم في طريقه ذلك مما يجب الإيمان به من عجائب ربه ﷻ وسرائر ملكوته لم يطلعه عليها، ذلك مما يجب علينا الإيمان بذلك، فإن لم نرزق علمها مع أن كل داخل لا يقدر أن يصف كل ما رآه، بل منهم من لا يستطيع من الوصف الأعلى أقل أجزاء ما رآه، ومنهم من تتلجلج الحكمة في صدره فلا يقدر على نشرها وإجرائها على لسانه، ومنهم من منح ذلك، وكل مدبر لا يستطيع تقدمًا ولا تأخرًا إلا بإذن المقدم والمؤخر.

وعلى كل حال فالعقل أكثر انبساطًا من القلب واللسان، وقد تقدم ذكر القلب ما هو؛ لأن العقل يستمد من المعرفة وهما للباطن، والقلب يستمد من العلم وهما من الظاهر، بالإضافة إلى العقل والمعرفة، والقلب أفصح من اللسان؛ لأنه يستمد من العلم وهو باطن القلب، واللسان يستمد من القلب وهو باطن اللسان، كما أن اللسان أفصح من الكتاب؛ لأن اللسان حَي والكتاب ميت، وبالإيمان تتنور الجملة على ما تقدم، ثم لا بد أن يبقى عليه ما لا يستطيع وصفه وإن رُفع في البيان إلى أرفع درجات البشر، ألم تستمع إلى قول المرسل للتبيين المعطي جوامع الكلم حين وصف بلوغه إلى سدرة المنتهى قال: «**فلما غشيها من أمر الله ما غشي فما يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها فذكرت الياقوت، قال: ثم عُرج بي حتى لمستوى أسمع فيه صَرِيف الأقلام**»[1] فلم يستطع ﷺ أن يبين ما علمه في هذا المستوى؛ لأن صَرِيف الأقلام صوت يكون عن كتب العلوم، فترادفت حينئذ سؤل العلوم على فؤاده، وازدحمت أنوار المكاشفة على قلبه فبُهِر لذلك.

وكل مدبر في مقامه وإن ارتفع مقهور في درجته وإن علا، والإسراء أعلى وأكبر، وأما هو ﷺ فما سمعه من صَرِيف الأقلام حينئذ في موجود قلبه هو بيان الحظ المقسوم له، لكنه ربما تأخر بيانه في قلبه وعبارته على لسانه إلى موضع الحاجة إليه، ثم

(1) أخرجه البخاري (1/135، رقم 342)، والطبراني (22/326، رقم 821)، ومسلم (1/148، رقم 163)، وابن حبان (16/419، رقم 7406).

الموقنون بعد هذا في الإخبار عن المرئي لهم في الملكوت على ثلاثة أضرب:

فضرب منه أذن لهم في الإخبار به، وضرب منه لم يؤذن لهم في ذلك، وضرب منه هم فيه مخيرون، ثم المخيرون على ثلاث طبقات:

خاصة، وعامة، وما بين ذلك، فسنتهم ﷺ جميعهم في المشافهة أن يقابلوا كُلاً بما يحتمله إيمانه ولا ينكره عقله؛ لقول رسول الله ﷺ: «**لا تحدثوا الناس بكل ما تعلمون، أتحبون أن يُكذب الله ورسوله**»[1].

وآداب المخيرين أيضًا على وجهين لا يخلو أن يفهم السامع ما سمعه إذا لم يفهمه فما فهمه، واحتمله إيمانه واستقر في عقله، وشهدت له الشواهد بتصديقه؛ اعتقده وحمد الله ﷻ على ذلك، فهي هدية من ربه ﷻ إليه، ويسر يسره له، وما لم يبلغه فهمه وأعجزه فليبحث عن ذلك، وليطلبه بعقل وأدب، وليصدق في ذلك حتى يدركه صافيًا نقيًا من قبل عقله ونور إيمانه، وإن لم يكن من أهل ذلك فليرجه وليرجع إلى إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله وآياته وبدائعه، وإن له الخلق والأمر كله في الدنيا والآخرة، فكل وجود من حقيقة حق داخل في هذه الجملة، وليجانب الإنكار جملة إلا فيما لا يحتمله التأويل لغلبة دلائل الباطن عليه.

فاستشعر الجد والحزم رحمك الله، وعليك بالتفرغ لوجهتك والإقبال على شأنك، واحرص على سهر الليل ولزوم الخلوة وترداد التدبر والاستكثار منه والتفكر وسادك على أفضل ساعاتك وأولاها بالظفر لطلبك وأقربها إلى النجح هي الثلث الأخير من الليل؛ لأن قلوب المؤمنين حينئذ تتنور وتنشرح وتنفسح لقرب الرب تبارك وتعالى منها، وهذا أثر نزوله ﷻ إلى ملكوت السماء الدنيا.

ومن فيض بركة قربه فلذلك وفقك الله، وأطيب على حظك، وثابر على مطلبك، واصطبر على زلفتك، ولا يصرفنك عن وجهتك أقوال الغافلين فإن المكافيف لا تعرف فضل الأضواء، والصم تجهل تقدير الأصوات، وليس يعلم محلك إلا من فيه جزء مما أشرف فيك، فابتدر. وفقك الله - الدخول في باب الاختصاص الأكبر والفوز الأعظم، وتذكر قول القائل الأول:

---

(1) أخرجه البخاري (59/1، رقم 127).

فـــي مَلَكــــوتِ اللهِ سُــــبحانَهُ تَجـــولُ أَلـــبابُ لُـــبابِ الفِطَـــن
فَهُـــم خُـــصوصُ اللهِ فـــي أَرضِـــهِ حَقًّـــا بِهِـــم تُـــدرَأُ عَـــنّا المِحَـــن
سَـــمَوا بِفَـــضلِ اللهِ نَحـــوَ الَّتـــي مَـــن حَـــلَّ فـــي جيـــرَتِها قَـــد أَمِـــن
وَنَـــزَّهوا الأَنفُـــسَ عَـــن مَنـــزِلٍ نازِلُـــــهُ مُـــــستَوفِزٌ لِلظَعَــــن
وَضَـــمَّروا الخَـــيلَ لِـــيَومٍ بِـــهِ يُـــنكَبُ مَـــن يَـــركَبُ فَـــوقَ الهُجُـــن
فَلَيتَنـــي كُـــنتُ لَهُـــم خادِمًـــا وَلَيتَنـــي إِذ لَـــم أَكُـــن لَـــم أَكُـــن

وقد تجد الباب دونك مغلقًا، والسبيل إلى مطلوبك حزنًا صعبًا، وذلك عن آثار ضرورات سوء بقيت عليك ولوثتك ذنوب لم تتحقق التوبة منها، وذكر لم يترام إلى فكر، والنفس أبدًا تستصعب عند مراودة هذه المعاني؛ لما في ذلك عليها من ثقاف الحجران وتقييد الفتك بالتقى، فإذا لزها العقل واحتوشها الإيمان واقتادها الرجاء وساقها الخوف وأسرها الحزم وأزعجها العدم كانت هي الطالبة لمطلوبك، الراغبة في مرغوبك، فمتى وجدت الباب مغلقًا، فاسأل وتضرع وتب من ذنب أحدثته، ومما علمت من ذلك وما لم تعلم، وانزع إلى ربك مما لا يرضاه منك، وتبرأ إليه من حولك وقوتك ومن عملك، كذلك فعلت الملائكة صلوات الله عليهم وسلامه على جميعهم **﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾** [البقرة:32].

واعلم أن الذي غلق الباب عنده مفتاحه، وإياك والعجز وحب الدعة واستشعار الاستغناء فذلك سبب كل خيبة، وتذكر قول عيسى ﷺ: يا معشر الحواريين، بحق أقول لكم لا يدخل الأغنياء ملكوت السماوات، والجد والصبر واستشعار الافتقار إلى الله سبب النجاح وأحذرك التمني مع الركون إلى الدعة.

وَمـــا طَلَـــبُ المَعيـــشَةِ بِالتَمَنّـــي وَلَكِـــن أَلـــقِ دَلـــوَكَ فـــي الـــدِلاءِ
تَجِـــئكَ بِمَلـــئِها طَـــورًا وَطَـــورًا تَجِـــئكَ بِحَمـــأَةٍ وَقَلـــيلِ مـــاءِ

فمتى جاءتك دلوك بحمأة، فالحمأة أيضًا دليل على الماء، فاحمده تبارك وتعالى على ذلك، وارجه وسلم إليه الأمر كله، ثم عاود فاغسل الدلو بماء الإيمان، وبخرها ببخور التعوذ من شر نفسك وشر عدوك، ثم شد الأوذام إلى العراقي، واستجد الرشاء ثم أرسلها في الدلاء، فمتى أتتك بقليل ماء فاعلم أن القليل من الكثير، فعد إليه وسله

وانزم بابه، فإذا جاءتك ممتلئة، فاحمد الله الذي أعطاك من فضله وكرمك على كثير من خلقه، فلتبشره نفسك عساه أول الاختصاص.

وليشتد حذرك وخوفك من أقل ذنوبك، فليس عهد من علم وكوشف بآيات الله ﷻ وبيناته كعهد من لم يجر به هذا المجرى، فقد جاء في بعض الكتب المتقدمة: وبشر المذنبين وأنذر الصديقين، ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس:58]، فالآن الآن رحمك الله الزم بابه وتعرض لتحفه، فإنه ﷻ كريم تحاف، جرد أعالي ثيابك، وشمر من أرادنك، وحزم على وسطك بحبل العزم على مئزر الحزم، وتيقن أنه ﷻ أسرع إقبالاً وأحسن إجابة.

ومن المحال أن تتوكل عليه بحقيقة من ذاتك فيسلمك، فما تلبث إلا يسيرًا حتى يفضي بك من معرفته إلى حياض واسعة، ثم إلى أنهار جارية، ثم إلى بحار عذبة صافية أشد بياضًا في بصيرة العقل من اللبن، وأحلى في إدراكه من العسل، فيومئذ يستحيل دلوك غربًا، ويعود عجزك كيسًا، فما شئت من طهور وشراب عللاً بعد نهل، وكلما شربت من ذلك الماء عطشت إليه، وكلما تطهرت به فنيت عنك أخلاقك، وانمحت عنك صفاتك حتى يأخذك عنك إليه بمعنى منه، فالجد الجد رحمك الله وفرغ القلب لنجد، وذلك أول الطريق ولا قوة إلا بالله.

واعلم - وفقنا الله وإياك وعلمنا من علمه - أن أتباع الرسل وأتباع الفلاسفة اختلفوا في أشياء من الهيئة، والعالم منها السماوات اتفقوا على أنها سبع في أيها هن، فاعتقد أتباع الفلاسفة أنها هي الأفلاك السبعة، وقال أتباع الرسالة رحمة الله عليهم: إنها هي السماوات العُلا الأربعة التي هي فوق هذه الأفلاك كلها، وإنما قال أتباع الفلاسفة بما أدركوه نظرًا، وقال أتباع الرسالة - رحمهم الله - بما أدركوه خبرًا وإيمانًا، وإنما ذلك أتباع الرسالة اعتمدوا على السماع والإيمان، واعتمد أولئك على عقولهم ونظرهم، والله ﷻ يفرق علم بيناته بين عباده، فيعلم هؤلاء ما شاء الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب وجماع الصواب لأتباع الرسالة بدليل الكتاب والوجود، وقد جاء في القرآن ذكر الأفلاك وأنها سماوات؛ إذ المعلوم في لسان العرب الذي جاء الرسول ونزل القرآن بلسانها: أن كل ما علاك فهو سماء، قال الله جل قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا.* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ**

سِرَاجًا﴾ [نوح:15،16].

فسماوات الأفلاك هي التي القمر والشمس فيهن نورًا وسراجًا، وأما السماوات الأربعة العُلا التي فتحت للرسولﷺ ليلة الإسراء التي زينت أدناها لنا بالنجوم فمن قبلهن يأتي إلى الشمس والقمر النور والضياء، وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ**﴾ [المؤمنون:17] يعني والله أعلم: طرائق الأفلاك، فإذا أراد أن يخص السماوات العلا بالذكر عرفهن بالألف واللام أو وصفهن بالعلية فقال: ﴿**وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى**﴾ [طه: 4] وقال: ﴿**قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [المؤمنون:86] وإنما سمى تبارك وتعالى سبع سماوات، فمتى ذكر هذه أشار إلى تلك كما خلق سبع أرضين وما ذكر منهن إلا واحدة، وأشار إلى سائرهن من غيرها، وذلك لعلة الابتلاء حتى يترك الكتاب موضع بيان للرسول، أو يتركان معًا موضعًا للفكر، قال الله ﷻ: ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل:44].

وكذلك اختلفوا أيضًا في الأرضين كم هن؟ فقال أتباع الرسالة رحمهم الله: هن سبع كما جاء بهم الخبر، وقال أتباع الفلاسفة: هي واحدة، فلزم هؤلاء موضع المشاهدة، ولزم هؤلاء موضع الخبر، والصواب لأتباع الرسالة بدليل الكتاب والاعتبار. أما الكتاب فقول الله ﷻ: ﴿**خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾ [الطلاق:12]، وقول الرسول ﷺ: «**أتدرون ما تحت هذه الأرض؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ماء، أتدرون ما تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هواء، أتدرون ما تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أرض، أتدرون ما تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، حتى عد سبع أرضين**»(1).

وأما الاعتبار فلأنه لما أوجد أفلاكًا سبعة، وأوجد لهن أمثلة سماوات سبعة عالية تلك للأفلاك السبعة دلالات عليهن وآيات لهن، وأوجد في الأرض أيضًا أقاليم سبعة هن على معاني الأفلاك السبعة، أوجد أيضًا أرضين سبعة سافلة، تلك الأقاليم السبعة دلالات عليهن وآيات لهن وقال أتباع الفلاسفة أيضًا: إن الأفلاك التي هي السماوات،

---

(1)ذكره البقاعي في «نظم الدرر» (68/9).

وإنها حية عالمة موصوفة بالعقل، واستدلوا على ذلك بأنها متحركة. وقالوا: إنها تعلم جميع المعلومات بالتفصيل، وإنها مدبرة، قالوا: وإذا كانت تتحرك على إرادة لها فهي تعلم جميع جزئيات العالم جملة وتفصيلاً، وإصابة الصواب في معتقد أصحاب النبوة بأنها حية بحياة الإسلام والإيمان، وهي مسخرات بتسخير الله ﷻ إياهن، كما قال الله عز من قائل: ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف:54]، والأحياء بالتحقيق هم الملائكة الموكلون بهن، المحركون لهن بإذن ربهم بحوله وقوته، وهم العلماء بالأمر النازل عليهم من ذي العرش ﷻ، وكذلك اختلفوا في شكل الأرض ما هو؟ فقال أتباع الرسالة: هي سطحية، وقال أتباع الفلاسفة: هي كرية.

اعتمد أتباع الرسالة على طريق الوحي، ولزموا موضع الإيمان بالخبر، قال الله ﷻ: ﴿**وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا**﴾ [الذاريات:48]، وقال: ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ [النازعات:30]، ﴿**جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا**﴾ [نوح: 19]، ونحوه كثير.

واعتمد أتباع الفلاسفة على طريق مشاهدتهم دوران الأفلاك، ولو تتبعوا حقيقة الخبر لوقفوا منه حقيقة العلم، وإنما خلق الله ﷻ الأرض أول خلقه لها على شكل الكرة ثم بعد ذلك دحاها وبسطها، فجعلت الأرض تميد، فأرسى عليها الجبال، ونصب قننها بالوزن شكلا على هيئتها يوم خلقها، أعني: الأرض.

ولو لم تكن قنن الجبال كذلك لا تبسط ضوء الشمس ونور القمر عليها انبساطًا واحدًا، فكأن يكون ذلك مناقضًا لقوله الحق: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [الأنبياء:33]، فلما رأينا الليل والنهار عيانًا فلكيين في جريهما وأنبأنا الخبر الصادق بذلك علمنا أن انبساط الشمس على الأرض كروي، وسمعنا الله ﷻ يقول: ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ [النازعات:30] وسطحها، علمنا أن في نفسك سطحية، وأنه لم يكن انبساط الليل والنهار عليها هيئة الكرة إلا لشكل الجبال، فترك القرآن طريق النظر لم يذكره إلا تنبيهًا وإشارة إليه، وقصّ علينا طريق الخبر؛ لأن كونها سطحية طريقة الخبر من حيث إنه لا يتبين أنها سطحية أو كروية من نفس الأرض؛ لصغر الجزء الذي نشاهده من جرمها بالإضافة إلى جملتها، ويتبين

التكوير في الجو؛ لأنه كبير الإضافة إلى الأرض، وإن كان صغيرًا بالإضافة إلى ما لم ير منه، وإلى ما فوقه فلهذه العلة تبين التكوير علوًا ولم يتبين التمهيد في الأرض فاحتاج إلى الخبر، فجاء الأنبياء عن الغائب الذي لا طريق إلى معرفته إلا به، وترك النصّ على ما إلى معرفته سبيل بالمشاهدة، بل عرض به وأشار إليه بقوله: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾** [الملك:15]، فالأرض هي الذلول بتمهيدها، والجبال هي مناكبها.

واعلم يقينًا أن الله ﷻ لم يفعل شيئًا قط فيبطله ألبتة، وإنما يغير صورته ويثبت حكمه، وهو لا يحيل ما يحيله إلا لحكمة، ويثبت ما يثبت لحكمته، فمتى أحال عين شيء ما أثبت حكمه، وإن أحال عينه وحكمه أثبت له حكمًا ما على حال، إنما وجود الإعدام هو في أفعالنا نحن بوجه ما، وأما هو فهو الحق، فكما لا يفعل شيئًا عبثًا كذلك لا يبطل ما فعله واعتبره، ذلك بفرضه الصلاة على عباده ليلة الإسراء خمسين، ثم لم يزل يخففها رأفةً بعباده ورحمةً حتى فرضها خمسًا عملاً وأبقاها خمسين ذخرًا وأجرًا، بل لكل ردة ردها موسى محمدًا ﷺ إلى الله ﷻ فيخفف الله له عن أمته تارة بعد تارة، حكم ذلك كله موجود في أحكام الصلوات، بحث عن ذلك حكمها في مصنوعاته كلها من اعتبرها وجدها، كيف لا وهو يقول وقوله الحق: **﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾** [ق:29]، **﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾** [يونس:64].

كذلك الأرض لما خلقها أولاً على شكل الكرة ثم دحاها رحمة منه لعباده صرفها عن شكلها الأول في الحكم وأبقى رحمته في العين، هكذا فليكن بحثك عن صنيعه حيث ما تدبره، وكذلك أيضًا اختلفوا في المد والجزر، والغيض والفيض، وإنما وجود ذلك وجودًا فلكيًا وهو أقرب الأفلاك إلى الأرض، ودائرته على نصف دائرة القمر غربيها وشرقيها، فالحركة الشرقية في الأفلاك هي الدائرة المنسوبة إلى الليل وللمد والجزر في مدة دائرة الليل والنهار حركتان إقبالاً وإدبارًا وإقبالاً وإدبارًا سوى موضع التقليب، كذلك للغيض والفيض في ثمانية وعشرين يومًا حركتان إقبالاً وإدبارًا وإقبالاً إدبارًا، تتم الحركات في تسعة وعشرين يومًا إلى ثلاثين يومًا، وهو حكم التقليب، ثم فوق ذلك فلك الرياح، والأصل فيها أنها ريح واحدة ثم تقسمت إلى

ريحين، تهب أحدهما شرقية والأخرى غربية، ثم تقسمتا إلى أربع رياح جنوب وشمال واللتان تقدم ذكرهما، ثم تقسمت هذه الرياح الأربعة وهي العاملة للنواحي الأربع إلى أربع أجزاء تتمة الثمان، رياح بين كل ريحين ريح، ثم تقسمت هذه الثمان إلى ستة عشر ريحًا تهب كل ريح منهن بين مهاب ريحين، كالنكباوات الأول بعد الأربعة الرياح الأصول، وإلى هذا العدد انتهت معرفة العرب وأكثر الأمم، ثم بعد هذا تصعد معرفة الخواص العلماء بمهاب الرياح إلى أربعة وعشرين ريحًا معرفة بها وتمييزًا، ثم قياسًا إلى اثنين وثلاثين ريحًا.

وبعد هذا فاعلم لها مهاب تتصل في معرفة الملائكة الموكلين ثم على تدقيق التحصيل مهاب يجب الإيمان بهن تنبعث عنهن رياح يتفصل بهن الأمر في مهابهن حتى يعم الأقطار من دوائر الفلك المجهول لهن في أحكام تداورهن على ما يأتي التبيين في ذلك، وأما الأفلاك المعلمة بالكواكب فهي سبعة سوى فلك البروج، وليس له كوكب يكون له كالعلم كالسبعة المشهورة بالدراري سوى البروج الموجودة به، أدنها فلكًا إلى الأرض بعد فلك المياه وفلك الرياح وفلك الليل والنهار فلك القمر، ثم فلك عطارد وهو المسمى الكاتب، ثم فلك الزهرة وهو المسمى بندخت، ثم فلك الشمس وهو المسمى ذكا، ثم فلك المريخ وهو المسمى بهرام والأحمر، ثم فلك المشترى وهو المسمى البرجيس وهرمز، ثم فلك زحل وهو المسمى كيوان والمقاتل، ثم فوق هذا فلك البروج، وفوقه الفلك التاسع الفلك الأعظم بحركته يتحرك ما تحته، قال الله ﷻ: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس:40]، وفوق هذا الماء، وفوق الماء أمر من أمر الله ﷻ عنه ينزل الأمر إلى ما تحته، وعنه ينفصل بالتدبير النازل عليه بالأمر من علو.

وكل دائرة فلك مركبة من ثلاثة دوائر بدوارها يعود الأمر آخره على أوله عودًا بعد بدء، سنة الله في خلقه وأمره ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً، وكل دائرة من هذه الدوائر تنفصل إلى ثلاثة دوائر، ثم يتضاعف ذلك بدوائر الجيب والميل إلى عدد هو أصل لعدد أيام العام باعتبار موضع التقليب، كما عدد الأفلاك السبعة أصل لعدد السبعة الأيام الزمانية، وأصل التداور هو من شرق إلى غرب، والتقدير من غرب إلى شرق، فهذه للمطالع والمغارب وهذه للإحصاء والعلم، ومن الدوائر ما تكون حركتها

وتداورها من علو إلى سفل ومن سفل إلى علو، ومنها ما يكون تداورها علويًا كدوران الرحى، فتلك الحركة للأمر وهذه للخلق فتتقاطع الدوائر بتركيب أحكامها للمقسوم عن دورانها من مشرق إلى مغرب، ومن جنوب إلى شمال، من الفلك الأعظم إلى أدنى الأفلاك إلى الأرض، والأرض في آخر الدوائر ويعمل كلٌّ على شاكلته، ويحكم له عن أمر ما جُعل إليه، وينتج عن ذلك حكم يعلمه اللطيف الخبير.

ثم يرجع بنا الكلام إلى نسقه وتستدير هذه الدوائر على دوائر دونها، والتي دونها تستدير أيضًا على دوائر دونها، وحكم الأعلى تنتظم الأسفل حكم هكذا إلى ما تكون لها منهن، كالدقائق ودقائق الدقائق المفصلة على التحصيل الإلهي لدقتها وضيقها، كالجواهر التي لا يتجزأ المركب عنها الأجسام كلها، والأمر في تلك الدوائر محمول حمل الجواهر الأعراض يتنزل الأمر من سمائه إلى ما تحته، فتستدير بحكمه جملة الأفلاك كل على حركته، وأمره الذي حمله على ما هو به، وإلى أدق دوائره من ذي العرش ﷻ إلى حيث شاء انتهاؤه.

فيعم الأمر بمشيئته منزلة الجملة ويشملها شمولاً كليًا؛ كشمول الغذاء جملة الجسم المغذي بغذائه، وتمتلئ الجملة، فالتدبير كامتلاء الجو بهوائه والبحر بمائه، ثم فوق ذلك السماء الدنيا بما جعلت له من الأمر ويسرت له من الوجود، ثم كذلك أيضًا سماء وهواء وماء والهواء، والماء محمول فيهما تداور التدبير، وليس فيما فوق السماء الدنيا ليل ولا نهار ولا نجوم ولا كواكب، لكن ما جعل الله ﷻ مما ذكر آيات على معارف غيرها في غيابات العلو، فاعلم.

وهي أيضًا علامات ها هنا لمظان الأمر ومعرفة تفصيلة، أي أن الأمر إذا وصل إلى فلك من هذه الأفلاك فهو سماؤه، وقد تحقق بما عليه أن يتحقق به من حقيقة؛ كالغذاء يكون في معدة الإنسان ثم يتقسمه التدبير فيحصل في اليد يدًا وفي القدم قدمًا وفي العين عينًا، وكذلك في كل مسمى في الجسم يتحقق الأمر في ذلك العضو بحقيقة ذلك العضو الذي جعل له، فافهم.

ثم كذلك أيضًا إلى السماء الثالثة سماء وهواء ثم ماء والهواء والماء محمول فيهما الأمر كما تقدم، ثم ما فوق ذلك، كذلك إلى انتهاء عدد السماوات السبع، ثم حكم تداور الدوائر في الأرض بالأمر على سياق تداورها به في العلو على ما تقدم من

تقسيم الأمر في الأرض على أقاليمها، واختلاف حرورها وصرودها باختلاف ليلها ونهارها بالإيلاج والخلقة في أحكام التكوير والغشيان بفيح نفسي جهنم من سعير وزمهرير على سنن التدريج بالحكمة فتختلف الأزمان، تنقسم بذلك إلى أربعة فصول كل فصل منها مختص بنوع من تدبير الأمر بما اختص به، وما جعل له، وفيه ينبعث معلوم هذا الباب من المعنى الذي عبّر عنه رسول الله ﷺ: «**إن النار اشتكت إلى ربها فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدون من الحر فمن جهنم وأشد ما تجدون من البرد فهو من الزمهرير**»[1]. وإن ذلك أمر معجزة عن أمر خلقت له جهنم ووجدت له، تدور به دوائر صاعدة به علوًا ونازلة به سفلاً على مجاري معدلة وأحكام من الأمر مقسطة، فيوم صعود هذه الدوائر بالحر تميل ودوائر الميل سفلاً بالبرد، ويوم صعودها بالبرد يصعد الجيب منها بالحر، وعند تقاطع الأفلاك يكون حكم الإيلاج، وفي دورانها وحال سيرها في مطالعها ومغاربها يكون حكم الغشيان بداخل الحكمان بعضهما بعضًا، ولكل بناء مستقر، ولكل أمر مصعد ومنزل، وكما صعد النظر بالاعتبار علوًا فكذلك ينزل به سفلاً إلى سبع أرضين إلى ما تحت ذلك كله إلى سجين إلى حقيقة جهنم أعاذنا الله منها.

كما فوق السماوات العلا حقيقة الجنة وفقنا الله لما يقرب منها برحمته، حتى إذا كان يوم القيامة سعت الجنة فيما دونها إلى وجه الأرض العليا فتصير الجملة جنانا وتسعى جهنم - أعاذنا الله منها - فيما فوقها إلى باطن الأرض الموجودة يومئذ فتصير الجملة نارًا، قال الله ﷻ: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ [إبراهيم:48]، وقال عز من قائل: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ**﴾ [الشعراء:90، 91]، ثم الجملة في الكرسي الكريم كخلقه في فلاة من الأرض، والكرسي موضع

(1) أخرجه مالك (16/1، رقم 28)، والشافعي (27/1)، وابن حبان (506/16، رقم 7466) والبخاري (1190/3، رقم 3087)، ومسلم (431/1، رقم 617)، وابن ماجه (1444/2، رقم 4319). وأخرجه أيضاً: أحمد (503/2، رقم.10545) «الزمهرير»: شدة البرد.

الحكم، قال رسول الله ﷺ: «**الكرسي موضع القدمين**»[1] وليس لهذه الجملة في حكم الكرسي علائق من فوقها ولا دعائم من تحتها تثقلها، ولا جواذب من نواحيها تجذبها خلا أمر الله ﷻ الذي أوجد له الكرسي، وذلك الأمر هو الذي يمسكها أن تزول وهو الحول، فافهم.

وتدبير الأمر وتفصيل الحكم هو القوة، قال الله ﷻ: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ**﴾ [الروم:25]، ثم الكرسي بحكمه وبما أحاط به في العرش العظيم كحلقة في فلاة، والعرش يحيط بالكرسي وبما أحاط به على ذلك من القيام والاستسلام، أيضًا يمسك ﷻ الجملة بالأمر الذي أوجد له العرش علائقه ودعائمه ومجاذبه أمره، قال الله ﷻ: ﴿**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ [الرعد:2]، وإنما عمدها قدرته وأمره، ولذلك نفى إدراك الرؤية لها، ثم لا يحيط بالعرش إلا الله وحده لا شريك له مساكه الأمر الذي احتوى له والخرق الذي شمله وزمه، والوجود الذي له أوجده، يعم ذلك كله الأمر ليس فيما دون ما احتوى له وجود يصير إليه الموجود لو لم يحتو له من الأمر ما احتوى له، فافهم.

والقوة داخل الجملة، ويتخلل الحول القوة والقوة الحول كما يتخلل الأمر الخلق وأحكام التدبير أحكام التفصيل، ثم لكل بناء مستقر ومتنزل خاص، وذكر أن فيما دون العرش الكريم شموس وكواكب ودراري نورانية مضيئة مشرقة من نور ذي الكبرياء والعظمة، آياتها ما دون السماء الدنيا من زينة المصابيح، قال الله ﷻ: ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ**﴾ [الأعراف:54]، ثم قال: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد:4] أي: أنها آية لمن عقل عنها تدل على ما يجانبها في العلو، وتشهد لما يماثلها حيث لا تنفذ الأبصار ولا يدركه إلا الإيمان، قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف:54].

---

(1) أخرجه الدارقطني في الصفات (1/30، رقم 36)، والحاكم (3/109).

هذا إلى ما في الجملة من خلق وأمر وكلمة وسنة وفطرة وجبلة وطبيعة وشريعة وعلم ومعلوم وروح ونفس ومحو وإثبات وإيتاء وكتب ورسالات بتوابع ذلك كله وأحكامه ومسالكه وتأويلاته ودلائله وآياته، وكونها آيات بينات وشواهد لما هي له آيات وشواهد عليه ودلائل وعلامات، وعقل ذلك كله وعلمه وفهمه وترتيب ذلك على معاني أسماء الله جَلَّ ذِكْرُهُ، ومقتضى صفات الخالق ﷻ من علمه وقدرته وحياته وقيومته إلى غير ذلك من غيب ملكوته.

وكذلك اختلفوا في الليل والنهار وحقيقتهما، فقال أتباع الفلاسفة بل الأكثر من الخواص والجم الغفير من العوام: إن الليل عن فقدان الشمس، وأنه لما كانت الهيئة كما تقدم من ذكرها من نصب قنن الجبال على وزن معدل كهيئة الكرة، فكان الليل والنهار مكورين، لذلك قالوا: فالليل إذن عن ظل الأرض، قالوا: بل هو إياه، وكذلك قالوا في النهار: إنه عن طلوع الشمس، وأن ضياءه عن نورها، وهذا وإن كان ظاهره كما ذكروه فباطنه ليس كذلك بل الليل والنهار مقدرين في علم الله تعالى موجودان حكمًا في أيام الدهر، فذلك النهار الباطن هو الذي يجلى الشمس؛ ليكون عنها هذا النهار، فالحكم والعين النهار الباطن وهما لا يعدمان والعين فقط للظاهر.

قال الله ﷻ وذكر الشمس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس:1]، ثم قال: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس:3]، والليل يوجد عينه يغشى الليل ثم ينسلخ النهار من الليل فيظلم الجو، قال الله جل قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس:4] يعني: الشمس، وقال عزّ من قائل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:37]، قال رسول الله ﷺ: «**ليس عند ربكم ليل ولا نهار**»[1] أي: ليس عند هذا الليل الذي هو من عدم الشمس، ولا هذا النهار الذي هو عن طلوع الشمس وذهاب للظلام، فلئن كان أيام الدهر في العلو ضياء كلها لا ظلام يعاقبها كان النهار هاهنا يجلى الشمس ويسلخ عن الليل وكان هو الدائم، ولئن كان عين الظلام موجوبًا كان الظلام هو الذي يغشى النهار، فحكم نور النهار الباطن باقٍ في بطن ما نراه ونشاهده ظاهرًا، قال الله ﷻ:

---

(1) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (3144)، وذكره الخطيب الشربيني في «تفسيره» (4752/1).

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء: 12] أي: على ما هو في الدار الآخرة، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء:12] أي: فيما هنا، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:12] ثم قال عزّ من قائل: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء:12] معناه: أنه فصل أيام الدهر بأيام الزمان على ترتيب تغليب حكم العين والحكم ظاهرًا أو باطنًا، فتفهم ذلك وتثبت.

وكذلك الكواكب التي ينسب إليها الأنواء لما كانت الرياح في الأكثر من مجرى العوائد تتحرك عند طلوع بعضها وغروب رقيب الطالع منها، وجعل الله - جَلَّ ذِكْرُهُ - ذلك توفيةً لها بمشيئته يرسلها في جو السماء فتلقح السحاب ماء أضيف ذلك إلى المطالع منها أو الغارب تجوزًا واختصارًا لذكر الفاعل، وكثر ذلك وتداولته الأعصار حتى أعضل الداء بمعتقديه، فجاء الشرع فنهى عنه، ورد بذلك النعمة إلى وليها والفعل إلى فاعله.

وكذلك المد والجزر الجاريين على مساق الحركة الشرقية، والفيض والغيض الجاريين على مساق التقدير، وكذلك ما يكون من هذه المعاني في الأسابع وأسابع الأسابع وعشرات الأسابع وأسابع العشرات، ما صعدت الأعداد وكذلك في الخوامس والثوالث، وكل شفع ووتر، فإن هذه الأحكام وإن كانت فلكية جريها دائري، فكما تقدم في ذكر الليل والنهار ومن أمر الله جَلَّ ذِكْرُهُ في دورانها فإن وراء أفلاكها ودورانها من أمر الله الذي لا تكون هذه المشاهدات آيات عليه ودلائل إليه حكم يكون أحكام هذه عن ذلك الباطن، وكما تقدم أنه قد قدر عن حكم تقاطع الدوائر حكمًا ليس يدرك ببصر ولا يناله العقل فقط، بل بأنباء النبوءة وإعلام الوحي، ثم بآخره يدرك البصر الماهر المؤيد بنور الإيمان بعضه علمًا وجملته إيمانًا وتسليمًا.

وكما أن هذه العلوم المشار إليه بقولنا: هذا يُعلم منه بالأنبياء ما شاءه العليم الخبير فكذلك في بداياته من دقائقه ودقائق دقائقه إلى غاية نشوئه وكماله، فإني للعقل يدرك هذا كله وأمثال هذا مفردًا عن نور نبوة أو نبأ صادق ينبئه فينظر في معناه وحقيقته، فكل كائن ما كان ليل أو نهار أو غيض أو فيض أو طلوع كوكب أو غروب أو إشراق في الكواكب أو إظلام في الجو أو خسوف أو جلاء فكل ذلك عن معاني أسماء له ﷻ، ولا تأت تدل على أمور غائبات يجب الإيمان بها مبشرات أو منذرات.

قال الله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:22]، فأخبر نصًا صريحًا أنه خلق ذلك كله بالحق وللحق، وهي أسماؤه وصفاته وأحكامه وأفعاله، وما إليه المصير في حق الآخرة، وقال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:12]، فعلم ذلك آدم عبده وصفيه عليه السلام قال عزّ من قائل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] أي: علمه أسماؤه التي اقتضت مقتضياتها أسماء كل شيء خلقه ثم باهى ﷻ به ملائكته يوم اختبرهم بالسجود له إقرارًا منها له بخصوصيته الله ﷻ له، واقتداء به في سجوده له.

وكان ذلك أول التكليف والمحنة باعتقاد الخصوصية والإيمان بالنبوة والاقتداء بالأئمة والأمر بالنظر والاعتبار، وصرف كل مفعول في العالم إلى فاعله وتسمية كل مسمى بمعنى الاسم الذي تضمنه من أسمائه، فكان عن ذلك ما قصه علينا بصدق قبله وحكم تنزيله ﷻ، ثم توارث ذلك بنوه من بعده إلى أن بعد الأثر، وانفرق ما بين النبوة والنظر، فخلف بعد ذلك من بعدهم خلف أفردوا العقل وأغمضوا في ذلك على الإصغاء إلى الخير، فغربت شمس النبوة في حقهم واعتدت لذلك بصائرهم العمش، فهم يستقرءون الموجودات عقلاً ومعقولاً ولا يهتدون يمشون فيما بينهما في مثل الغبش فلا يصلون، صمًا عن الداعي عميًا عن الهادي بلهًا عن جدي الجادي، يتكلمون في الطبع والمطبوع، ويقتصرون على الأسباب والأواسط، ويعكفون على عبادة المعقولات والأفاعيل، ثم من أدرك منهم التوحيد استعمل عبادته لغير المعبود؛ إذ هو لنفسه شارع ولها بعقله ناهٍ وآمر، وهيهات هيهات إنما يضيء العقل بالنبوة.

ونفهم المراد من الله ﷻ لمبلغ الرسالة، وإنما ينظر العقل إلى غيابات غيوب الدنيا والآخرة بالنور الذي هو خليفة النبوة وهي الصديقية، هذا سبيل أتباع المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فانظر - وفقنا الله وإياك - متى اعتبرت في مصنوعات ربك ﷻ فألقيت لذلك المصنوع واسطة أوجبتها سننه ﷻأو سببًا ينسب ذلك المسبب إليه، ويعول العقل في وجوده حين يطلبه إياه عليه، فاقض بإيمانك أن الله ﷻ وجوده ذلك المنظور فيه وجودًا

فيما بطن هو غير لما أدركه البصر، أو حصله العقل بواسطة النظر، يدركه بحاسة الإيمان ويوجد بعلم اليقين، فبذلك يتطلع الناظر إلى أحكام الآخرة وغيوب الملكوت. والآخرة أكبر من الدنيا وأوسع جدًا، والدنيا نبذة من الآخرة وقطعة منها، غير أنها صغيرة من كبير، وفانٍ من باق، فلسعة تلك كانت وسائطها أقرب ومسبباتها عمّا جعلت له أعرب وشواهدها أكرم وأصدق.

وبعد: فإن للملك توابع منها: التحية والسلطان والإمارة والرسالة والدجل، ثم الصنائع والعبيد والعلمة والفتية والإماء، وقد تقدم الكلام في معنى ذلك في غير هذا الموضع.

واعلم أن الله ﷻ قد جمع في ابن آدم كله ظاهره وباطنه معاني عالمه غيبه وشهادته تقريبًا للمعتبرين ورحمة بالمستدلين، اجتملت فيه الآيات وانطوت فيه معانيه البينات، كذلك سنته ﷻ في دلالته بصغير مصنوعاته على الكبير منها، وكجمعه معاني القرآن كلها في أم الكتاب، ومعاني أسمائه في قول العبد: باسم الله، وفي آية من الكتاب العزيز تيسيرًا وتقريبًا، وقد نبه على مصداق ما ذكرناه بقوله الحق: ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات:20-21]، وقوله: ﴿**أو لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم**﴾ [الروم:8]، ينبههم كي يتبصرون بأقرب الأشياء إليهم وأمسها بهم.

فمتى تعذر عليك معنى العلم أو أُبهم دونك باب من النظر، أو تحيرت عن هدايتك، فارجع إلى نفسك، وتعلم العلم من ذاتك، واقتبسه من هداية فطرتك، ثم أحسن العبرة ففي حسن العبرة الشأن كله، وهو المثال للصراط في الدنيا، فاعلم، ومتى لم تحسن العبرة سقطت في هوة من التشبيه، وهوت أمك في هاوية من التعطيل والكفران المبين، فاعقل واعلم وتبصر، وما توفيقك إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل.

التعبد

اعلم - رحمك الله - أن جملة القول في التعبد بهذا الاسم الكريم بعد تحقق حقيقته أن ينزل نفسك منزلة المملوك لمالك هو ملك الملوك وجبار الجبابرة ومالك الدنيا والآخرة، لا يمانع في عطاء، ولا يغالب في قضاء، ولا يعارض في حكم، ولا يناهض في منزلة، ولا يناقض في أمر، هو القوي فلا يعجزه معجز ولا يفوته فائت، رد

النوائت في قدرته كإمضائها، وإصدار الجائيات كإيرادها، ونسخ العادات بالأضداد كإقرارها، إن شاء نعم بالذي به عذب أو عذب بالذي به نعم، وإن شاء أسقم بالذي أصح وأصح بالذي به أسقم، وإن شاء أحرق بالذي به برد أو برد بالذي به أحرق، كذلك إن شاء جوز كونه أو أحال كون ما جوز كونه، كل ذلك عليه هين، وفي قدرته يسير، له التدبير المبرم والقضاء المحكم، وهو على كل شيء قدير.

هذا هو الملك الحق مالك الملكوت على الحقيقة، وأنت المملوك من جميع جهاتك بحقيقة المملكة وتعرف حقيقة المملكة، وأعط من نفسك العدل، وأد الأمانة إلى أهلها ووليها، وآت كل ذي حق حقه، ولا تهمل نفسك فلست بمهمل، إن كنت تعلم أنك مملوك لمالك حي عالم قادر قاهر مراقب لك مشاهد لأفعالك يحصي عليك جميع شأنك، ثم ينزلك على ما أنزلت عليه نفسك من إساءة أو إحسان، فلا ترسلن جارحة من جوارحك إلا بإذنه، ولا تنبسطن إلى شيء دق أو جل إلا بأمره، ولا تنطقن إلا بما يرضيه، وإياك والمعارضة في شيء من قضاياه، والتعقب عليه فيما دق أو جل من أحكامه، فقد أخبرك أنه لا يشرك في حكمه أحدًا.

وإن من آداب العبيد إذا تحققوا أن الملك لله ﷻ تنكبوا عن أوصاف الدعوى، وتبرءوا من الحول والقوة، وسلموا الأمر إلى مالكهم، ولم ينزعوا إلى شيء من احتيالهم عند طلب الخلاص من مهالكهم، فلا تقولن في شيء كان أو يكون بي ولا عَلَيَّ ولا مني، وكذلك لا تقولن في أمر من أموره ولا قضية من قضاياه لا، ولا لولا، ولا هلا، ولا تجدن في حكم من أحكامه حرجًا في نفسك، ومتى فعلت فقد عارضت وتعقبت في أحكامه بقدر ما وجدت في ذلك، وخرج عليه كلامك، وكذلك قالوا حقيقة التوحيد إسقاط الياءات؛ يعنون: إسقاط الإضافة إلى النفس، وبذلك يكون قوام التوحيد فالزمه ما استطعت، ألا تسمعه يقول جل قوله في أحكام رسول الله ﷺ: **﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [النساء:65]، وعليك رحمك الله بمتابعة التذكر وموالات التفكر ولزوم النظر والاعتبار، واستعن على ما تريده من ذلك بالتطهر.

واعلم أنه من تفكر ولم يتطهر ولا هو يحب الطهارة فهو مبعد ممقوت، ومن تطهر ثم فكر أدرك بعون الله بقدر ما بذل.من جهده، ثم لله ﷻ فضل يؤتيه من يشاء،

ومن أنفع آلات الجد والأهبة ترك ما لا يعني واختصار الكثير مما يعني، وأخذ البلغة من ذلك، وعليك بالتجوع مع إحضار النية فيه لمن تجوعت وما تريد به فهو خواص الأدوية، والأعمال بالنيات والأخذ في ذلك كله على سبيل السنة، وذم نفسك على سهر الليل، ففي حنادس الظلمات توجد الأنوار الغائبات، وقد قيل: تخل وتجوع وتفرد واصدق ترى العجب.

يا أخي، ليشغلك عن خدمة جسدك عملك بسرعة فنائه، وعن التشمير للدنيا معرفتك بوشك زوالها، واعمل لمُلك دائم لا يفنى في جوار مَلك رحيم، لمقتدر لا يلحقه حول ولا زوال، فعليك بما يبقى ويدوم، ودع عنك ما يفنى ويزول، فإنما أنت بغدك ولست بيومك، وكأن ما هو الآن لم يكن، وكأن من لم يكن قد كان، وكل آتٍ قريب الأوان البعيد ما ليس بات أشك بشك إلى مالكك فهو أعلم بفقرك، وأقدر على صلاحك، وعليك نفسك فلست من الناس اليوم بسبيل فر منهم إليه، ودع الناس يموج بعضهم في بعض إذا أعرضوا عن النصيحة القائدة إلى رضا ملكيهم تسلم وتغنم، واخدمه بجد وأسلم له نفسك وأمرك كله بذلة تربح وتظفر، ومن قولهم: من جد في الارتحال وصل إلى الاتصال ومن نصح في الخدمة نال من الكريم البغية، من الله علينا وعليك برحمته ولا حاد بنا عن سواء سبيله.

اسمه تعالى المجيد[1]

تقول: مجد الرجل يمجد وأمجد إذا كرم فعله، ويقال أيضًا: مجدت الإبل تمجد مجودًا إذا نالت شبعها، وأمجدتها أنا، أي: أنلتها ذلك، والقوم في مجد، أي: في سعة وخصب، ورجال أمجاد إذا كانوا كرام الأفعال ذوي أحساب وسعة أحوال، فالمجد إذا كرم الأفعال مع سعة الأجمدة تمكن الملك وشدة السلطان وكثرة الأفضال؛ لأن كرم الأفعال إنما ينبسط مع سعة الجدة، ويتمكن الملك مع عظيم الهيبة في قلوب العبيد،

---

(1) (**المَجِيدُ**) أي: القدس المنزه عن النقائص الكونية، والأحكام الخلقية.

وبشدة السلطان تلزمهم المخافة، فهم في هذه الأحوال بين الرجاء والخوف على قدر تمكن الملك من هذه الشروط، فشدة الهيبة تعطهم، وقوة الرجاء تقدمهم، وعظيم الخوف ينفرهم، ولرفيع درجات الملك لا ترضى لعبيده إلا بأرفع الدرجات، ومنه قول رسول الله ﷺ قال الله ﷻ: **«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله ﷻ: مجدني عبدي»**[1].

للمجد أربعة أركان لا يكون موجودًا وجود كمال إلا باجتماعها وهي: الملك، والسلطان، وكثرة الجدة، وكرم الأفعال، وقول القائل: هدمت ركن المجدان لم أفعل كذا، أي: تركت فعل المكارم وركبت دنيات الأمور، فيكون بذلك هادمًا لأحد أركان المجد، وإذا كان الملك قد تمكن سلطانه وكثرت مماليكه وازدحمت عليه حوائج العبيد مع رفعة منزلته صفوحًا عن الجاني، كريم العفو عن المسيء، غافرًا للذنب، قابلاً للمعاذير، حسن الإجابة للصريخ، مكسبًا للمعدوم، يكرم الوفود، ويغيث الملهوف، ويحمي البيضة، ويذب عن الحريم فهو مجد، وقد مُجِّد بكريم فعله وشرف مرتبته وعلو منزلته، فكيف بملك تقدر الأوهام قدره ولا تبلغ الألسن وصفه ولا تهتدي العقول إلى معرفته، بل ليس في معناه منبسط وهم ولا في المسألة عنه جواب، فلو كانت الأشجار بأجمعها منذ خلقت الشجر إلى أن تفنى أقلامًا، والبحار مدادًا ويمد البحار أضعافها إلى أن يفنى العدد والخلائق أجمعون كتابًا أبد الآبدين ودهر الداهرين لم يُبلغ له مدائح اختص بهؤلاء انقضت له كرامات اقتطعها، إنما أسماؤه تعبير ونعوته تفهيم، ألهم العباد تحميده وعرفهم توحيده، وأوله العقول الأوهام على تمجيده، كل شيء لعزته راهب، وإليه راغب، ولكبريائه خاضع، ولأمره طائع، ولديه ضارع، ولسلطانه خاشع، لا ينازعه فكر ولا يخالطه شغل ولا يمازجه الخلق، إنما قربه كرامة، وبعده إهانة احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، لا تقاربه الظنون ولا تقابله

---

(1) أخرجه عبد الرزاق (128/2، رقم 2767)، وأحمد (285/2، رقم 7823)، وأبو داود (216/1، رقم 821)، ومسلم (296/1، رقم 395)، والترمذي (201/5، رقم 2953)، وقال: حسن. والنسائي (135/2، رقم 909)، وابن ماجه (1243/2، رقم 3784)، وابن حبان (84/5، رقم 1784).

العيون ﷻ وتقدست أسماؤه وعلت مشيئته.

اعتباره

كل وصف عن وجود الملك وصفاته الذاتية ومدائحه الأزلية كالعبارة عن الجمال والكمال والتمام والبهاء والسناء والسؤدد والشرف وعظيم الملك وحسن الملكة للملكوت وكثرة الجنود وحسن طاعة الخدام، مع ما اتصف إلى ذلك من وصف بهجة الحضرة وإشراق الحومة وسعة الخطة وسماحة اللقاء وكرم الفعال فهو تمجيد، وإنما هذا إيماء إلى غرض خطير، وإشارة إلى معنى عظيم، والتفصيل يكثر الكلام يطول، وبالإيماء يكتفي الألباء، ويتبع المجد الثناء والسؤدد والثناء من ثنيت الشيء أثنيه، أي: جعلته ثانيًا لأول، كان له مثل ذلك أن تصف رجلاً بكرم وعطاء ونفع ورفع وعلم وحلم وسؤدد وشرف ونحو ذلك.

وهذه معانٍ معلومة لليمين وتصفه أيضًا بمنع وضر وخفض وعقاب وبطش وسرعة أخذ ونحو ذلك من معاني الشمال فمتى وصفناه بأنه مخرج معاني الشمال على سنن معاني اليمين فتجعل مكان المنع عطاء ومكان الخفض رفعًا ومكان البطش رفقًا، أو تصفه بأن يكون منعه في مقاومة العطاء هي مقامه، والخفض في مقامه الرفع عدلاً وحكمًا فهذا هو الثناء؛ لأنه قد شاء موضع اليمين على موضع الشمال، ولذلك يقول الله تعالى حين يتلو عبده قوله: ﴿**الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الفاتحة:3] «**أثنى عليَّ عبدي**»[1] لأنه أبدل السطوة والبعد الرحمة والقرب، ولأنه أيضًا أثنى مدائح اسم الرحيم على مدحه اسم الرحمن، وثناهما أيضًا على ما تقدم ذلك من مدائح الحمد والربوبية.

وأما السؤدد فهو من ساد يسود وأصله من السواد هو ضد البياض، يقال لكل شخص سواد لأنه يمنع البصر من التخطي عليه، إما بعض المنع وإما كله لزوم وصف السؤدد السيد من أجل كثرة أتباعه، يقال: رجل سيد إذا كان كثير الأتباع؛ فلكثرتهم يكثر سوادهم، وأصل سيد سيود، ويقال منه: ساد القوم يسودهم سودًا، ومما يقارب هذا المعنى لتقارب الحروف والبناء السداد، يقال منه: رجل سديد، يحتمل معنيين:

---

(1) تقدم تخريجه.

أحدهما: أن يكون أصله من السداد وهو القوام.

والآخر: وهو أصل لهذا، وهو السد، أي: سد ثلم من إليه حياطته، ومنه: سداد الثغر يسد بذلك ثلم المسلمين أن ينالهم العدو منه، فهو للعدو سد، وفعله سداد للمسلمين، ومنه: التسديد، يقال من ذلك: سددت فلانًا لمرشده، وسددت السهم للغرض، واستد ساعد فلان للرمي، كل ذلك عبارة عن سد الثلم؛ لأنه يمنع بذلك السهم من الصدوف إلى غير الغرض المقصود، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»**[1] ثم ذكر مقامه المحمود يوم الجمع المشهود، وأنه يسد يومئذ مسدًا لا يسده غيره، هذا أصله والله أعلم.

وقد قال بعض المسودين لقومه: إنما سدتكم ببذل المال وحماية الحريم والكف عنكم مع الأفضل عليكم، فمن فعل مثلي فقد ساواني، ومن سبقني فقد سادني، ومن زدت عليه فقد سدته، لم ينبع ذلك الجاه من حيث إنه من سد لقوم ثلمهم فقد سادهم، وكان وجيهًا عندهم ولا تمتنع النفوس من ذلك، وجماع هذه الصفات عند السيد الحق الحميد المجيد - جَلَّ ذِكْرُهُ - لكن بينها ما بين صفات العبودية والربوبية، هو يسد ثلم العالم كله جملةً وتفصيلاً، فيمسك السماوات والأرض أن تزولا، وهو القائم على كل شيء والمحيط به من ورائه، وفي ذلك من التفصيل ما يقف على الإيماء إليه أولو الألباب والتفكير، وجملة القول في ذلك أنه لا يقوم شيء إلا به، ولا يوجد إلا بإيجاده، واستعمل الفكر في هذه المعاني كلها، فبذلك يستخرج فائدتها وإلا ذهبت عنك صفحًا وكنت عنها من الغافلين.

التعبد

جملة التعبد بهذا الاسم الكريم إنما هو عقد وقول، فالكلام في العقد قد تقدم، والقول كلام بتمجيد المجيد الحق، وأولى الأسماء بمعنى التمجيد على فهمي - والله أعلم - فاسم المبارك، إذا أضيف إلى اسم الإله ثم حققت له الوجدانية، ثم تذهب

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (317/6، رقم 31728)، ومسلم (1782/4، رقم 2278)، وأبو داود (4/ 218، رقم 4673). وأخرجه أيضًا: أحمد (540/2، رقم 10985). وكذلك أخرجه أحمد (2/3، رقم 11000)، والترمذي (587/5، رقم 3615)، وابن ماجه (1440/2، رقم 4308).

بالتمجيد مذهبه وتجتري فيه على سننه، كقولك: تبارك الله الذي لا إله إلا هو الملك الأمين القدوس تبارك الله الذي لا إله إلا هو العزيز الجبار السبوح، تبارك الله الذي لا إله إلا هو الدائم الحي القيوم، تبارك الله الذي لا إله إلا هو الخالق البارئ المصور، تبارك الله الذي لا إله إلا هو السلام المؤمن المتكبر إلى آخر التمجيد.

وأما الثناء: فقولك هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الطول والآلاء والإحسان والنعماء، هو الله الذي لا إله إلا هو خالق الخلق ومقدر الرزق ومفرج الكرب، هو الله الذي لا إله إلا هو المغيث في الضراء، والمعين في البأساء، هو الله الذي لا إله إلا هو الثقة والرجاء والكفيل بما شاء هكذا أيضًا إلى آخر الثناء.

اسمه تعالى الجبار ﷻ

معنى هذا الاسم - والله أعلم - متردد بين معاني أسماء العلو والقهر والعظم، ومحصوله في المعهود من معناه الإجبار والاضطرار، وفي الحقيقة رد الأشياء بعد تغيرها إلى حالتها المعهودة، من ذلك قولهم: الجبار للعاتي من الملوك، وفعله الجبرية والجبروة والجبروت؛ لأنه أجبر الناس عن مرادهم إلى مراده وحكمه، ومنه نخل جبار إذا ذهب علوًا وكانت فيه مع ذلك فتوة وقوة، وقولهم: جبرت العظم فجبر؛ لأن ذلك له قهر له، والجبارة: ما وضع على الكسر لينجبر، وكذلك قولهم جبرت الرجل إذا أحسنت إليه، وإذا أصرته من حالة الضر إلى الحالة المثلى، وأجبرته إذا اضطررته إلى ما لا يريد، ومن ذلك أيضًا: الجبار ما يهدر من الدماء؛ لأن المظلومين بالدم مجبرون بوضع الدم عنهم؛ كجبر الكسير، ثم يلحق بذلك أن يكون أولياء الدم اضطروا إلى ذلك فلم يجعل لهم في هذا الحكم سلطان وسمي يوم الثلاثاء جبارًا والله أعلم المعنى هنا غامض، وذلك أن رسول الله ﷺ قال: «**خلق الله التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر والماء يوم الاثنين، وخلق الظلمة يوم الثلاثاء**»[1].

---

(1) أخرجه أحمد (327/2، رقم 6323) والبخاري في التاريخ (413/1) وقال قال بعضهم: عن أبي =

والظلمة في نفسها مانعة للمفترق من البصر وغيره، وكثيرًا ما يكون عنها اضطرار وتضييق أو يكون مع الاسم تفاؤلاً، كما سميت الخرقة على الكسر جبارة وجبارًا، وكما سمي القفر: مفازة، واللديغ: سليمًا، وإذا تأملت الحروف ألفيتها تعطي كل حرف منها حيث يظهر سلطانه، وتبدو أفعاله، وذلك لمجاورة ما جاوره من الحروف سواه قسطه المقسط له، حتى إذا احتملت الحروف بجملتها، ثم المعنى الذي جعلت مغيرة عنه، وعلى قدر النقصان منها، والزيادة فيها من غيرها وامتزاجها بخواص غيرها من الحروف، يكون تمام المعنى الذي يعبر عنه بها ونقصانه، من ذلك قولهم: رجبت الرجل بمعنى عظمته، والرجب الهيبة، والله أعلم.

سمي الشهر رجبًا وأوجب الله تعظيمه لما فيه من الحروف التي تدل أو تعبر عن معنى العظم والهيبة، ثم قالوا: رجب شهر الله الأصم، ومن ذلك قولهم للرجل العظيم البطن: بجر وقد بجر، والبجر الأمر العظيم، والبجار الدواهي، وكذلك قولهم: البرج، يعبرون بذلك عن سعة بياض العين، وتبرجت المرأة: أبدت وجهها، والبرج واحد البروج من السماء، كل ذلك تدل على السعة والعظم، وقيل لحساب مبهم ما جذر كذا ما مبلغ كذا: برجان؛ لعظم تفسير المبهم على النفس، وربما أبدلوا الباء بالميم فتبقى مع ذلك معنى من معاني الجبروت؛ لقرب مخرج الباء من الميم ولبقاء الجيم والراء؛ كقولهم: الجرم جرم الجبل، وأجرام الكواكب؛ يعنون: أعظامها، وكذلك الجريم الجلة من الإبل، والجرم أيضًا الصوت والجميع: أجرام، وكذلك قولهم: جرم على نفسه وقومه شرًّا، وحول مجرم، أي: تام، وتجرمت السنة نقصت عن ذلك أيضًا، ومن ذلك قولهم: مجرت الناقة مجرًا إذا حملت وعظم حملها فلم تستطع القيام، ومجر مجرًا إذا أكثر من الماء فلم يرووا المجر العسكر الضخم العظيم، وكذلك المرج: أرض ذات نبات تمرج فيه الدواب والماء والنبات، أي: تختلط لسعته، والمارج: اللهب الشديد.

فانظر - هداك الله- بعقلك وتدبر حكمته تبصرها جارية في مخلوقاته وآثاره

=

هريرة عن كعب وهو أصح. ومسلم (2149/4، رقم 2789)، والنسائي في الكبرى (293/6، رقم 11010). وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة (117/3، رقم 1731)، وأبو يعلى (513/10، رقم 6132) والديلمي (184/2، رقم 2927). .

موجودة في مصنوعاته تحتوي على ما جعلت له من المعاني احتوائها على حروفها وتباينها على قدر تباينها بأقساط مقسطة وأوزان معدلة تقدير العزيز العليم.

اعتباره

العوالم كثيرة، والمفهوم منها باعتبار المعتبرين ثلاثة:

أحدها: عالم الملك، وهو عالم الشهادة، وهو أكثر عمارة باعتبار المعتبرين؛ لوجود ذواتهم فيه وظهوره لحواسهم، ومنزلته من المخلوقات بين يدي مدبره بمنزلة المولود ساعة يولد، لم يستهل بعد صارخًا فالذي يبدو منه من حجم وتخطيط صورة وشكل مما تدركه الحواس الخمس، هو عالم الملك والشهادة ثم عالم الملكوت، وهو عالم المولود بمنزلة لزم أجزائها بعضها وانقسام غذائه وتحوله في كل عضو منه وموطنه إلى نحو ما جعل ذلك العضو له بتعديل ذلك كله وتقسيمه وتقسيطه، وتماسك أبعاضه الباطنة، ولزوم صفاتها إياها ملك؛ كالعلم والعقل والفرح والحزن والإرادة والقدرة ونحو هذا.

وإلى هذا العالم الإشارة في الرسالة بالنظر والاعتبار والبحث وتطلب درجة اليقين من المعرفة به، وبإصلاح السير والمعاملات في عالم الملك أتت الرسل، وأن عالم الملك وجوده، ثم عالم الجبروت وهو من المولود وجوه عالم الملكوت بمنزلة الطفل إذا استهل صارخًا، ثم نشأ حتى بدت له إرادة وقوة وقدرة وكلام ونحو ذلك، وأما وجوده في أنه المعلوم فربما أتى ذكره مشارًا إليه في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

وبهذا العالم تدبير عالم الملكوت ومبعثه إلى عالم الملك والملكوت من الأزل وأنه هو الدهر الماضي، وهو المشار إليه بقوله ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقها بخمسين ألف سنة**»[1].

وهو المشار إليه بمنزلة إنشاء النطفة إلى ما قبل ذلك، وأما من لدن تخمير للنطفة إلى حين الولادة فهو المتشبه ما بين العالمين، وأنه من الدهر، أعني: ما بين العالمين موضع قوله ﷻ: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى**

---

(1) أخرجه مسلم (2044/4، رقم 2653). وأخرجه أيضًا: الخطيب (252/2، رقم 721).

العَرْشِ﴾ [الأعراف:54].

ثم ما قبل عالم الجبروت عالم ولوائح وتقديرات لا يحصيها غيره سبحانه القديم الأزلي الموجود علمه وحكمه في الدهر الماضي والدهر الباقي، وخاصة هذا العالم من حيث الأزل التقدير كالمتقدم في الأمور ونحو ذلك، وخاصته في عالم الملكوت التقييد والإمضاء وخاصته في عالم الملك الجبر على المقدور الأزلي، فكل حركة في عالم الملك والملكوت قد أحاط بها معنى الجبر والاضطرار؛ لأن ذلك حقيقة الملك، وما تخللها من حركة الاختيار في عالم الشهادة، فلأجل الحياة الحالة في محل الحركة وشرفها لأجل شرف الروح، ثم الابتلاء المقدور والجبر مع ذلك أصلها من حيث كان الاختيار أيضًا حقيقة الجبر، وتمهيد ذلك بأن تقول الحركة تغيير يحل بالمتحرك يكسبه حالاً ووصفًا لم يكن عليه قبل، وقد يجوز بأن يعبر عن هذا المعنى الذي يحل بالمتحرك بالنقلة وبالاستحالة، من حيث إن ذلك تغير، غير أن النقلة معهودها في الأمكنة، والاستحالة معهودها في الأحوال، والتغير يجمع ذلك كله، ولا بد للحركة من خمس شروط بوجودها واستبقائها، توجد بالحركة ولا توجد بعدمها ولا بعدم شيء منها، وهي:

المحرك، والمتحرك، والمتحرك فيه، والابتداء، والغاية.

فالمحرك: هو المصرف المدبر وهو الأول جل وعلا، وهو المحرك ليس بمتحرك ولا محرك.

المحرك المتحرك: هو الإنسان وشبهه الذي ينسب إلى الاختيار، والمحرك الذي ليس بمحرك ولا متحرك إلا على المجاز والاتساع هي: الجمادات ونحوها، فكون الإنسان محركًا هو من جهة الاضطرار، وكونه محركًا من جهة إنفاذه مراده، وكونه متحركًا يلحقه مع اتصافه بهذا الوصف.

والمتحرك فيه: هو الزمان والمكان، والابتداء والغاية تكونان في المتحرك فيه بجملته وتوابعه على ما يأتي عليها من حكم إرادة المحرك.

والحركة بنفسها تنقسم من جهة الوجود في المخلوق إلى قسمين:

ضرورية: وهي الأصل فيها الذي منه تنبعث وإليه تعود.

وكسبية: وهي الفرع لما سنبين فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وتنقسم من جهة المعنى أقسامًا خمسة يكثر تعدادها لكثرة المرادات بها والاضطرار على وجهين:

اضطرار إرادة وقدرة معًا؛ كحركة المحل بالفالج، وكحركة الشجرة بالنسيم وغيره.

والوجه الآخر: اضطرار إرادة لا قدرة؛ كحركة الذي يقدم إلى القتل فيفعل السعي إلى المكان الذي يقتل فيه بقدرته لا بإرادته، وحركة النائم والمغمى عليه غير هذين وغير خارجة عنها، وربما أتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

وأما الحركة الباطنة فهي أيضًا على نوعين: ضروري: وهو الجبر، وكسبي: وهو الاختيار، وقد تقدم لنا أن مبعث الاختيار من المخلوقين جبر، فالنوع الضروري منها هو الشيء الواقع في النفس ابتداء، وهو أيضًا على نوعين:

نوع منه لا تشعر به النفس ولا تفطن له، ونوع منه هو مما تشعر به النفس وتفطن له، وعليه يقع كلامنا هاهنا، ولم ينقسم هذا النوع من الحركة من جهة نفسه؛ إذ نفسه جبر محض، وإنما انقسم من جهة حاله وانفعاله فيقول: إن الشيء في النفس ابتداء هو المعبر عنه بالهاجس والخاطر واللمة ونحو ذلك، وهذا النوع من الحركة اختراع لله سبحانه وتعالى وإجبار منه للواجد لها وضرورة له، فإذا شعرت النفس حدث لها نوع آخر من الحركة وهذا النوع غير خارج عن كونه ضرورة للعبد وإجبارًا، ثم لا تخلو النفس حين شعورها به من أن تنظر فيه وتميزه من سواه أم لا، فما لم تنظر فيه لحق بالنوع الأول الذي لم نتعرض لذكره مغفولاً عنه بعد أن كان مذكورًا، فإن نظرت فيه حدث لها أيضًا نوع آخر من الحركة، ونظرها فيه لا يكون إلا بترداد وتفكر، فإذا فعلت ذلك وقع منها أنواع كثيرة من الحركة.

ثم يقع التميز بعد ذلك، تمييز المحبوب من المكروه، وهذا النوع هو نوع العلم، وإن كان ما تقدم لا يخرج عن أن يكون علمًا ولكن التمييز أخص بنوع العلم، فإن كان من قبيل الخير كان إلهامًا، وإن كان من قبيل الشر كان وسواسًا، وإن كان من المخاوف كان إنجاسًا، ثم يقع الاختيار بنوع آخر من الحركة فتقع الإرادة للنظر في ثاني حال شعورها بالخاطر وفطنتها به، ويقع التمييز ثاني حال وجود النظر ويقع الاختيار ثاني حال وجود الميز، والتمييز غاية لأفعال القوى الباطنة من النظر على نحو ما نقدم

التفاضل في التمييز ومنزلته من العلم من لدن غلبه الظن إلى اليقين التام، فما كان من تقدير الخير وأمله فهو نية، وما كان من التدبير والتمني فهو أمنية، وما كان من تدبير المناجات وترجيها فهو أمل، وما كان من تذكر الآخرة ووعد ووعيد فهو تذكرة وتفكر، وما كان من تحدث النفس بمعانيها وأحوالها فهي: همم، وكل ذلك يسمى خاطرًا وهمة نفس وإلقاء من ملك أو عدو، فما كان منه قبل التمييز فهو من خاصة عالم الجبروت، وما كان بعد لك فهو من عالم الملكوت بمشاركة الجبروت، ومبلغها مع التحصيل ثلاثة أضرب معفو عنه بحمد الله ﷻ: أول ذلك الهمة يجدها العبد بالحس كالبرقة، فإن صرفها بالذكر أمحت، وإن تغافل عنها كانت خاطرًا، وهو من خطور العدو بالتزين، فإن بقي الخاطر ذهب، وإن تركه بالغفلة صارت وسوسة، وهذا محادثة العدو للنفس وإصغاء النفس إليه، فإن نفي العدو بذكر الله ﷻ خنس العدو وضعفت الوسوسة، فهذه الثلاثة معفو عنها برحمة الله تعالى.

وإن أمرج العبد النفس في المحادثة وطاولت النفس العدو بالإصغاء والمحادثة قويت الوسوسة وصارت نية، فإن تاب العبد واستغفر وأبدلها بنية خير، وإلا قويت فصارت عقدًا، فإن جل هذا العقد بالتوبة وهن الإصرار وإلا قوي وصار عزمًا وهو أول القصد ثم تأخذ القوى في إخراج ما ميزته إلى العقل إن كان مما لا يتم إلا خروجه إلى الفعل، وذلك إخراجها من عالم الملكوت إلى عالم الشهادة، فتصير الحركة في هذه المعاني من أعمال الجسم أعمال بر أو إثم، فما كان منها من البر همة ونية وعزمًا كان محسوبًا للعبد في باب النيات مكتوبًا له في ديوان الإرادات له به حسنات، وما كان منها من الشر نية وعقدًا فعلى العقد فيه تبعات من أعمال القلوب نريد ما يتم في النيات دون الجوارح ونيات السوء وعفو المعاصي، وأعمال الجوارح من النوعين الطاعة والمعصية أعظم من الأجر والوزن معًا، إلا ما لا يأتي أن يعمله بظاهر الجسم من شاهد التوحيد أو وجود الشك والكفر.

وبعد، فتحرك المتحرك وتوابعه وما تقدم ذكره من الحركة وتوابعها موجودة عن المحرك الأول سبحانه وله الحمد، وهو المدبر للأمر تدبير الأمر للملك وإمساك الجملة للمالك، وتقدير المقادير للجبار الحق، وإمضاؤها جبرًا وقهرًا على مشيئته العالية وتقديره السابق، فرغ ربكم فرغ ربكم، والتأثير لا محالة لازمة عن الحركة

بإذن الله ﷻ كالألم عن الضرب وقطع المسافة عن الانتقال وتسويد الكاغد بالمداد مع تحريك القلم عليه باليد، كما أن الصور لازمة من التأثيرات؛ كتصوير الحروف عن تسويد القلم الكاغد بالمداد حتى تكون الحروف على صور تتميز بها المعاني، وككون القاطع للمسافة بالحركة في مكان غير المكان الذي كان فيه قبل الشروع في الحركة ونحو ذلك، والحركة لازمة عن القدرة، والقدرة لازمة عن الإرادة، لكن ليس كلزوم الحركة من القدرة والتأثير عن الحركة، والصورة عن التأثير فاصغ إلي بسمعك وأحضر معك قلبك إن القدرة وما فوقها بالإضافة إلى ما دونها من عالم الملكوت وما دونها هو من عالم الشهادة بالإضافة إليها؛ فلأنها من عالم الجبروت بالحظ الذي انتسبت به إليه أعطيت من الحرية حظًا بقدر ذلك ولم يبالغ في حريتها لكونها من عالم الملكوت؛ لأنها بذلك من جملة العبيد، ألا ترى أن حركة النائم والسكران المستغرق سكرًا والمغمى عليه والساهي وما أشبه هؤلاء لا تنحل حركاتهم عن قدرتهم وتنحل عن إرادتهم، لكنها لا محالة لازمة عن إرادة المحيطة العالية إرادة المدبر الحق، وكيف كان الأمر وعلى أي وجه توجه.

فالجبر والاضطرار لازمان لجملة المخلوق، وإرادته بعد هذا قائمة مقام الاختيار بالإضافة إلى نفس عقله وعمله، بالإضافة إلى نفس العلم السابق والتقدير المرصد والأمر المحيط والإرادة العالية مجبورة مضطرة، ونمثل ذلك بمثل وإن كان واسطة بين علم التوحيد وبين علم المعاملات، لكنه من باب الأحوال والأحوال واسطة بين المعلوم والأعمال برجلين قائمين بمرأى من الملك، فأرسل إليهما الملك رجالاً يأتونه بهما سحبًا وجرًا، ففعلوا بهما ذلك فلما بلغوا بهما إلى مكان ببعض الطريق تلقاهم من عند الملك رجال فقالوا لأولئك: خلوا عنهما، ففعلوا، ثم قالوا لهما: إنكما بمرأى من الملك وقد أرسلنا إليكما لنخبركما عن إذنه، كيف يختار كل واحد منكما الورود عليه سحبًا وجرًا أو مروحًا مطلقًا، ونحن نخبركما عنه أنه من ورد عليه مسحوبًا في طريقه هذا إليه مجرورًا فإنه يطلقه من وثاقه ويكرمه ويسكنه داره ويكتبه من أوليائه ويجعله من خيرته، وأنه من ورد عليه مطلقًا مروحًا، وأنه يأمر بإيثاقه وسحبه وإهانته وجره على أقبح الوجوه وأحسن الهيئات، ويسكنه دار سخطه وعذابه، وهو مع ذلك لن يخرج في كلا الوجهين عن حكمه وتدبيره، فإنما أولئك الذين أوصلوكم إلى هاهنا عبيد الملك

ونحن الذين تلقناكم عبيد الملك، ولا نفعل شيئًا إلا بحكمه على سنن تدبيره، فاختارا لأنفسكما فكل واحد منكما لا بد قادم على الملك ومجازيه على اختياره، فاختار أحد الرجلين أن يطلق ويروح عنه من وثاقه، واختار الآخران أن يرد على الملك موثوقًا مغلولاً ومحمولاً سحبًا وجرًا، فسار أولئك يصاحبهم على طريق وهؤلاء أيضًا يصاحبهم على طريق فقل ما ساروا حتى أوعز الملك إلى أصحاب الوثاق أن كلما سرتم بصاحبهم خلوا عنه من وثاقه وأقيموه ماشيًا وأطلقوا له في أمره ويسروا عليه ما تعسر منه وبشروه عني وبلغوه عني خيرًا، فلو قدم عليّ لأقررت عينه بإكرامي له، وأوعز إلى الآخرين أن كلما سرتم بصاحبكم علوه من حيث لا يعلم، وأعموا بصره من حتى لا يبصر طريقه إليّ، ثم اسحبوه وجروه وهو لا يشعر، وخوفوه من وروده عليّ ولا بد له من ذلك، وبلغوه عني شرًّا وهيئوا له اختياره وزينوا له شأنه، فلو قد ورد عليّ لأسخنت عينه بما يلقى مني من الخزي والإهانة، فامتثل الفريقان ما أوعز إليهما الملك من أمره، فقل ما لبثا حتى ورد على الملك فأنجز لكل واحد منهما ما وعده به.

فالملك هو الملك الحق ﷻ، والرجال المرسلون إلى الرجلين هم القوى التي جعل الله لعبده الحركة والقدرة والتأثير اللازم عن الحركة، فهم يحملون الإنسان بإذن الله مسحوبًا مجرورًا من حيث الاختيار له في لزوم بعضها عن بعض، بل هي لازمة لما لزمت له شاء المخلوق أم أبى، والمكان الذي تلقاهم فيه أولئك هو مكان الإرادة وتخيرهم له هو ما تجده المكلف من الاختيار، وتلك فسحة المهل بين ضغط المقادير اللازمة، فأن يكون مجرورًا من هناك هو أن تلتزم وثاق العقل على حكم العلم الكتاب والسنة وتدخل إرادته في العبودية المحضة حتى يكون عبدًا حقًا في طريقه كله وشأنه أجمع، وإطلاقه هو أن يطلق على قوى شهوته وهواه ويباعد حكم العلم وثاق الشرع، وكون الرجال عبيد للملك هو عدم خروجهم به عن العبودية وحكم الإرادة العالية وتدبير الملك، وإيعاز الملك إلى أوليائه بما أوعز به إليهم في الرجلين هو ما يجده الملتزم عبوديته للملك الحق من الحرية والعزة بربه، وما يجده من الانشراح والنور البشرى إذا ذكر القدوم على ربه ﷻ بمعرفته منهم بعظيم صدقه وجزيل ثوابه، وعظم قدرته على إكرام مثواه عنده، كما قيل في الحكمة: من أراد العاقبة فليلتزم

التقوى، وفي الآخرة ما يجده من العبودية المحضة للخلق وكلب الطمع ولزوم الطمع واستحكام الشهوة وغلبة الهوى وظلمة القلب، فأصبح بذلك عبدًا للعبيد ونهبًا لقرناء السوء، كما قال الحسن رحمه الله: إنهم وإن دقدقت بهم المهاليج ووطئ الناس أعقابهم أن ذل المعصية لفي رقابهم أبي الله إلا أن يذل من عصاه، وكذلك من صبر على حكم الشرع وما أمره ربه ﷻ عاد كرهه طوعًا وعسره يسرًا، ومن انطلق على هواه وشهوته عاد يسره عسرًا أو طوعه كرهًا، والعاقبة للتقوى، فالإرادة في العبد هيَ موضع الحركة لو كان حرًا وعلى إدخالها في العبودية ولها من الحرية في الظاهر هذا الحظ يكون الجزاء، وعلى إخراجها من العبودية وهي في وثاق ربقتها يكون العقاب، فافهم.

واعلم أنه لا يتصور الاعتبار في عالم الجبروت ولا يطرقه الفكر إلا بإحضار عالمي الملك والملكوت، فإن كان نظرك فيه من حيث هو من أسماء الأفعال هو بمعنى أنه قدر مقادير الخلائق في الأزل، ثم خيرهم حال وجودهم على ما قدره لهم وفيهم، وإن كان نظرك فيه من حيث هو من أسماء الذات ﷻ فهم بمعنى العظمة والكبرياء والعلو والقدم في الأزل بجميع صفاته وأسمائه، وأولى الصفات بالجبروت الإرادة كما أولى الصفات بالملكوت القوة وأولاها بعالم الشهادة القدرة.

التعبد

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن الذين سددوا للنظر في جبروت الله عز سبحانه وله الحمد أخذوا علمهم من أول الأمر، وهو المشار إليه بقوله ﷻ: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**﴾ [الحديد:22]، وبقوله: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شيئًا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان:1]، فثبت يقينهم لذلك وقل عناؤهم.

ومن صفاتهم: أن يكون نظر أحدهم مصروفًا إلى إصلاح حاله، أما ما فات فليس إلى رده سبيل إلا بإصلاح ما هو فيه، وأما ما لم يأت فليس إليه حكمه، وإنما هو بأوانه وحينه ولهم في ذلك درجات ومقامات ومقالات في موجودات يجدونها، ومكاشفات يكشفونها ومذاقات يذوقونها من فتوحات تفتح عليهم، وأمور صادقة تجلى لهم، لا يعرفها الغافلون ويجهلها المبطلون، ثم لا يعلم حقيقتها إلا من قام مقامهم وشرب

بكأسهم ومخاطبك ليس هناك، فذكر أخبار المخبرين قصص، ووصف موجودات الواجدين تزين، والله لا يحب التكلف وهو يؤتي فضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

غير أنَّا نقول بفضل الله ورحمته: آمنا به كل من عند ربنا، وعند الله يحتسب مصيبة التقصير وغبينة التخلف، وإنما قصر بي عنهم حبي لدار ملئت بالفتن، ومع ذلك فبساطهم التوكل وشأنهم التفويض وكهفهم اللجئ؛ لأنه حسبهم ووكيلهم، وبنعم الحسب ظهروا وإلى نعم الثقة فوضوا، والتوحيد العلي لهم، هم الذين لا يرون مع الله سواه، ولا يشاهدون في الوجود سوى وجوده، وأهل النظر في عالم الملكوت، هم أهل التوكل من حيث شاهدوا أن الملك كله بيد المالك، هو القابض له والباسط والمانع والمعطي فلم تطلبوا شيئًا من سواه دق أو جل لعلمهم الذي وقر في نفوسهم وأضاء نوره في قلوبهم، وسيأتي ذكره في رسمه إن شاء الله تعالى.

اسمه العليم عَزَّ وَجَلَّ

العلم صفة باطنة للعلم المتصف بها ومعنى موجود به، وينقسم إلى قسمين: قديم ومحدث، فالقديم: صفة الله سبحانه وتعالى، والمحدث: صفة للمحدث المربوب، وفي هذا يقع التفاضل وكلامنا عليها يتوجه.

وأما صفة القديم - جَلَّ ذِكْرُهُ - فلا ينبغي لأحد التعرض إلى نعتها والكلام فيها، فصفاته هي العلا لا تبلغها العقول إلا إيمانًا بها، ولا تقاربها الظنون إلا تسليمًا، فنقول وبالله التوفيق: العِلم والعَلم والعلامة ألفاظ متقاربة المعاني، مثل ذلك العلم والعلامة تجعلان على شيء ما، فالمطلوب عنهما الموجود عنهما بدلالتهما عليه هو المعلوم، وما حصل من المعرفة بكيفية ذلك الشيء وكميته وصفاته ونعوته وأشكاله وأحواله، وما نحو هذا فهو العلم، وسمي العالم عالمًا؛ لأنه قام مقام العلم، والعلامة على ما جعل عليه دليلاً فيما حصل عنه من جهة الاستدلال به، فهو العلم والبيان حقيقة العلم عسير؛ لأن العبارة عنه تقع به.

اعتباره

اختلف المعتبرون في العالم ما هو، فقال قوم وهم أتباع الرسالة: العالم هو كل موجود سوى الله جَلَّ ذِكْرُهُ، قالوا: وإنما المبتغى من العالم والمطلوب منه العلم بالله سبحانه وبصفاته وأسمائه، وما يجوز عليه وما يستحيل لديه على ما تقدم ترتيبه، واستمرت لهم على ذلك الشواهد من القرآن والسنة وحجج العقول على سنن الاعتبار، تركنا اجتلابها طلبًا للاختصار، وقال قوم وهم أتباع الفلسفة: العالم جميع الموجودات من خالق ومخلوق وجاعل ومجعول، وعلى الحقيقة فالمصنوع يشهد لصانعه، والمفعول يدل على فاعله، والأعلى يرشد ويهدى ويعلم، والعلم وغيره من الصفات غرائز غرزت في جبلة الموجودات وفطرة فطرت عليها المفطورات، تسمو بالإنشاء وتنشرح بانشراح المعاني والقوى، وتقوى بالروح وتظهر بالحياة وتستوي بالإيمان.

وهذه جملة جامعة ذهبنا إلى أن نشير إلى بيانها في الموجودات؛ إذ هو العالم، وعنده يطلب العلم لانبساطه على المعلومات وشموله لمعانيها اسمًا ومعنى، وبعد ذلك نرجع في الكلام في حقيقة العلم ومبعثه إن شاء الله وقد تحققت الإشارة وبيان المقصود والله المستعان.

انقسم أتباع الرسالة وأتباع الفلسفة في النظر في بدء العالم على قسمين، فسلك أتباع الرسالة سبيل الكلمة في اعتبارهم وتلك سبيل النبوة، وانتظم لهم السبيلان سبيل السنة التي أخذت عليها الفلاسفة، وسبيل الكلمة، وكذلك نور النبوءة يخرق الحجب إلى المعلوم المراد والأعلى أبدًا ينتظم الأسفل، فقالوا في ذلك إن شاء الله جَلَّ ذِكْرُهُ: خلق الخلق كيف شاء ومم شاء وعلى أي وجه شاء، فأفرد وزوج وجمع وفرق في البداية والنهاية، كل ذلك غير متعذر عليه ولا ممتنع، ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يس:82].

والكلام عنوان جميع الصفات معبر عنها من علمه وإرادته وحكمته وقدرته وغير ذلك من الصفات، ومن أجل ذلك سمي فيما بيننا أمر القول الذي جمعه أوامر باسم أمر الباطن الذي جمعه أمور فأحاطه قوله بالمأمور كإحاطته هو به ﷺ قدرة ومشيئة وعلمًا وحفظًا ونحو هذا وإلى، وهو الحاصل المفهوم من هذا هي الإشارة بقوله:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ [لقمان:27] قالوا: فإذا هو فاعل الأشياء حقيقة، وكل فعال سواه فعن إذنه وعونه، وكل فاعل سواه قرب أو بعد سواء في الحاجة إلى معرفته ومشيئته استوت النهاية والبداية والكثرة والقلة والوكيل، وما وكل عليه والمدبِر والمدبَر في الحاجة إليه، وإن معونته وإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى عن غير هذا وهو بكل شيء عليم وحفيظ ومحيط، وعلى كل شيء قدير وشهيد ورقيب، النزيه عن كل نقص، الغني عن كل شيء، المالك لكل شيء، هذا وشبهه معتقد أهل السنة المتوجهين إلى الحق سبحانه الطالبين له.

وشكك أتباع الفلسفة في أكثر هذه العقود، وإنما كان ذلك منهم لأنهم أفردوا نظرهم لسنة الله جَلَّ ذِكْرُهُ في خليقته، فطال لذلك طريقهم، وجار عن القصد بقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:9] فتفرغوا لاستقراء طرق الحكمة في صنعهم بزعمهم، وهذا لا يتم الناظر دون إضافة الكلمة وسلوك سبلها مع السنة وباستصحابها يتم النظر ويزكو الاعتبار إن شاء الله مما شككوا فيه إذ قالوا: كيف يوجد الواحد الذي لا يجوز عليه التكثير المفعولات الكثيرة؟! قالوا: بل كيف يوجد الحكيم السفه؟! وكيف يوجد العدل الجور؟! واستمروا في نظرهم على هذا؛ فاضطرهم ذلك إلى التثنية وإلى التثليث، وإلى أن قالوا: إن فاعل العالم أربعة فواعل، ومنهم من خمس، وتخبطوا في ذلك بما يشبه ضلالاتهم وبعدهم عن هدايتهم.

ومنهم من وجد بإجماع الجملة فسماه طبعًا دونيًا، ومنهم من وصل بهمته إلى الواحد الحق فاعتقده جاعلاً للخليفة وصانعًا، لكنه لم يهتد لطريق الكلمة كما تقدم، ثم تفرقت الطرق بالواصلين، فمنهم من نظر إليه سبحانه من حيث منعه من الجهل بسنته في خليقته فرأى الأسباب تجري على طريق مسبباتها، والأفعال في الظاهر تصدر عن أيدي فاعليها المسميين بفاعلين على وجه المجاز، بالإضافة إلى الفاعل الحق، فاعتقد معه شركًا من أجل ذلك، وجعل له من عباده جزءًا سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

ومنهم من تشبه بصنعه وسوى بينه وبين خلقه، وذلك عن أثر اسم الواحد الحق المسجى في أصل الخليقة التي يكون عنه الأشباه وهو المسمى العبد.

ومنهم من جحد الحق وعَنَد عنه إباءً واستكبارًا لأجل ذلك، وربما آل به الضلال إلى أن يدعو إلى نفسه.

ومنهم من اعتقده واحدًا لا شريك له ولا مثيل له ولا عديل لكن حجب عن معرفة أكثر الأسماء والصفات فأنكرها.

ومنهم من أضاف إلى ذلك إنكار الرسالة والنبوءة والاختصاص فرد عليه عمله ولم ينتفع بتوحيده؛ إذ كان شارعًا لنفسه.

ومنهم من فضل الرسل والأنبياء ورأى لهم الحق لكنه اعتقد أنهم إنما أرسلوا شارعين إلى من لم يصل إلى المعرفة التي تقدم ذكرها، قالوا: وإنما الغرض إرشاد الخليقة إلى بارئهم وخالقهم، قالوا: فإذا وصل الواصل على درجة المعرفة فقد استغنى عن الإرشاد ووجب أن يتوجه بذلك إلى غيره، فهؤلاء ضلوا من حيث اهتدوا إلى النظر في سنة الله تعالى في خليقته وضلوا بتركهم الاقتداء بسنة الله التي شرعها برسله صلوات الله وسلامه على جميعهم لعباده بالأمر والنهي، ولو انكشفت لهم الغطاء لرأوا أنهم في هذه المرتبة بمنزلة الأعور العين اليمنى وعلى العين اليسرى طفرة؛ لأنهم أصيبوا في عين الإيمان وبقيت لهم عين العقل، لا يضيء إلا بنور النبوة، فكان ذلك نقصًا في عين العقل.

أما علموا إن كانوا وصلوا أن الواحد الحق له الظاهر والباطن فكما للباطن سنة يسير عليها لو أخطاها هلك، وهي جريه على سنة الله جَلَّ ذِكْرُهُ في خليقته، هكذا أيضا الظاهر بسنة يجب عليه امتثالها، وهي سنة رسول الله ﷺ وإلا ضل ثم هلك، وإنما يضيء موضع التوحيد بنور النبوة وسنة رسول الله ﷺ تظهر أفعال التوحيد، وهناك يتصل الظاهر بالباطن وإلا عاد موضع التوحيد ظلمة، ومثل التوحيد مع النبوة مع العمل بشرعتها مثل القوة مع القدرة والحركة، ومثل الإرادة مع المشيئة مع التدبير، ومثل اللب مع العقل مع الحس، ومثل المعرفة مع العلم مع المشاهدة، لا يتم واحد منهم دون صاحبيه، فالظاهر بالباطن، والباطن بالظاهر والفطرة بالشرعة والشرعة بالفطرة، والوصول بالوصل والوصل بالوصول، هذا هو الدين القيم والصراط المستقيم، والسبب الموصل، فافهم.

قال الله تعالى: ﴿**خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً**

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:44] ولها بدت آثاره جَلَّ ذِكْرُهُ في المصنوعات فبطنت فيه كما تقدم وظهرت وتأخرت وتأملت وأحاطت بالمصنوع هذه الإحاطة لزوم المصنوع في هذه الأركان الأربعة المحيطة به إحاطة أخرى أحاطت بتلك المعاني المتقدمة الذكر التي سمتها الأوائل طبائع وأحاطت أيضًا بحاملها.

وهذه المحيطة بما تحتها المشار إليه هاهنا قوى ملكته، أوجدها سبحانه عن إثارته في المصنوع، فلها سخرت تلك المعاني الأول التي قالوا فيها: إنها هي الطبائع وربما انبسطت، وفي طرفها سرت الروح والنفس وتنزل الأمر وتركب الصنع وهي سبل الروحانية ومقامات الملائكة صلوات الله على جميعهم في مصافها لتدبير ما جعل إليها والشفاعة إلى ربها ﷻ في إتمامه، وهي القوة الماسكة والقوة الرافعة والقوة العادية والقوة الجاذبة والقوة الهاضمة والقوة النامية، ولهذه قوى أخرى تباع لها فسرى الصنع بهذه القوى سريانه الذي به ظهر الوجود واستوى، وهي من مقاعد الملكوت، ومنها ابتنى وعنها انتشر ثم بدت للموجود عند ظهوره أيضًا جهات هي الأمام والوراء والفوق والتحت واليمين والشمال فأحدقت بها أيضًا إحاطة ضرورية كلزومها غيرها مما تقدم ذكره.

وأوجد عن إثارته جَلَّ ذِكْرُهُ في الجهات المحمودة من المصنوع الصفات الكريمة، ثم أوجد عن تلك الصفات الأسماء الحسنة، ثم أوجد الأفعال التي تظهر عنها وتدل عليها وأوجد الجهات المذمومة ضد ما تقدم ذكره من الأسماء والصفات والأفعال، وأصحب الخليقة هذه الجملة مما ذكرناه ومما لم نذكره وما نعلمه وما لم نعلمه فانغمست في أعناق العالم واتحدت معه لوجودها شاكلتها فيه من حيث إن الكل صنع لواحد خلقه بالحق وللحق، قال الله ﷻ لخليله ﵇: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: 260] فلم تمانع لذلك ولا تنافرت بل تحادثت واتحدت لقرب تناسبها وتماشج أرحامها، ثم انشرحت بانشراح العالم واتسعت باتساعه على وزن معلوم وأمر مقسط مقسوم، فظهرت الأسماء والصفات بظهور الأفعال والحركات كما بطنت ببطون المعاني وجمود الجمادات، فتسبح المعاني التي هي الأول الطبائع بحمد ربها وتعظمه، فبالتسبيح قوامها وبالحمد، زائدًا على ذلك تسخير ما تحتها لها من المواد وغير ذلك وعطف ما فوقها عليها من القوى والملائكة إلى ما فوق ذلك، وتسبح القوى بحمده

وتعظمه فعن التسبيح القوام لها، وعن الحمد تسخيرها دونها، وعطف ما علاها وتسبح الملائكة بحمده وتعظمه، فبالتسبيح قوامها وبالحمد يتم لها مرادها مما جعل إليها تدبيره، ويسبح الموجود بحمده ويعظمه فبالتسبيح قوامه وإمساك جملته وبالحمد ما تقدم ذكره، وبالتعظيم للعظيم الحق يظهر المزيد في كميته وكيفيته ويعظم جزمه ويذهب في الجهات، وهنا ظهر تعظيم ما اشتمل عليه الموجود في هذا قول رسول الله ﷺ للرجل الذي اشتكى إليه العيلة: «**فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[1] وقال الله ﷻ: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:44]، ولنا تسبيح هو أبطن من هذا ولهذا قال عزّ من قائل: ﴿**وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ [الإسراء:44]، ثم مزج أيضًا هذا بأشكاله وقرنه بأمثاله وركبه كما شاء سبحانه فانغمس بإذنه في أعماق الموجودات فكل يعمل بأمره على شاكلته من موضع وصفه وموضع امتزاجه ومجاورته ومن حيث ظهر ومن حيث بطن وحيث تأوله وتأخره ومن جميع جهاته الست اختلاف أوصافه وصفاته على التضعيف وتراكمت الموجودات وازدحمت العوالم وتضاعفت الخلائق وتفسحت بلطفه ورحمته وأظهر الموجود بقهره وعظيم اقتداره في أحسن معارضه ومن الموجودات ما ظهرت فيه هذه القوى المذكورة وما فوقها مما تقدم ذكره ومما لم تذكره وانشرح لها الموجود فتمت به أفاعليها وظهرت فيه صفاتها التي يسرت له ومنها ما ظهر فيه بعضها وجمد على سائرها فبطنت فيه لذلك لكنها موجودة فيه بالقوة وسنلمح من ذلك إلى أغراض على طريق النبوة يكون تنبيهًا على غيرها إن شاء الله تعالى، إذ طريق النبوة هو النور المبين والمعتصم المنيع.

فنبدأ بالنوع الجمادي الذي هو من جهة العالم بمنزلة العظم من الإنسان فنقول وبالله التوفيق: إنه جمد على القوى والمعاني التي تقدم ذكرها حاشى القوة الماسكة والقوة الدافعة؛ فإنهما ظهرتا فيه، ومن المعاني البرودية واليبوسة وللجماد صعود إلى حد النوع النباتي؛ كالشعر والعصب من الإنسان، وبث الله ﷻ في عالم الجماد أكثر الصفات التي أوجدها في الإنسان لكن على شريطة غلبة الجمود عليه كمحلها

---

(1) رواه ابن بشران في «الأمالي» (576)، والدقاق في «مجلسه» (578).

الموجودة فيه، وهذا كلام على المقاربة وإلا فالصفات كلها فيه غير أنه حمدها على أكثرها كما تقدم فبطن فمنها الشريف والوضيع والكريم والخسيس وجعل لها حبًّا وبغضًا، وصداقة وعداوة، وعشقًا وشوقًا وتوقًا وفكرًا، وحنينًا ونفارًا واختلافًا واتفاقًا، وسنافع ومضار، وأرواحًا وأنفسًا، واختصاصًا وتقريبًا وتبعيدًا، وإكرامًا وإهانة شواهد ذلك كله في الكتاب العزيز وحديث رسول الله ﷺ كقوله ﷻ: **﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾** [البقرة:74] وقوله تعالى: **﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾** [الأعراف:58] إلى غير ذلك يوقف عليه بالاستقراء تركنا لشهرتها سياقها اختصارًا.

وقال رسول الله ﷺ في أحد: «**هذا جبل يحبنا ونحبه، وإني لأعلم حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث**»[1] .

وحدث ﷺ عن فترة الوحي فقال: «**كنت آتي الجبل لأتردى من أعلاه فتكلمني الحجارة والشجر يا محمدًا ويا نبي الله اثبت فإنك على حق**»[2] أو كما قال ﷺ، وكذلك ما أعلمنا به من الحجارة المعبودة كلها والبنيات المتخذة من دونه سبحانه وتعالى التي لم ينزل باتخاذها سلطانًا وإنها كلها في النار، قال رسول الله ﷺ: «**يقال يوم القيامة لتتبع كل أمة ما كانت تعبد**»[3] وقال الله ﷻ: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**

---

(1) حديث سهل بن سعد: أخرجه البخاري (1610/4، رقم 4160).

حديث أنس: أخرجه الترمذي (721/5، رقم 3922)، وقال: حسن صحيح.

وللحديث أطراف أخرى منها: «إن أحدًا».

حديث عقبة بن سويد: أخرجه أحمد (443/3، رقم 15697)، والطبراني (90/7، رقم 6467) قال الحافظ في الإصابة (231/3، ترجمة 3620): رواه أحمد، والبخاري في تاريخه، ورواه البغوي، وابن أبي عاصم، وابن شاهين، وأبو نعيم. «يحبنا ونحبه»: نأنس به وترتاح نفوسنا لرؤيته.

(2) لم أقف عليه هكذا.

(3) أخرجه الطيالسي (ص 289، رقم 2179)، وأحمد (16/3، رقم 11143)، والبخاري (1671/4، =

أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:98].

وقال: ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [البقرة:24].

وبالجملة فليس حجر أو مدر اعتمد عليه بيت يعبد الله فيه أو يطاع به كحجر اعتمد عليه بيت يكفر بالله تعالى فيه، وإلى هذا وغيره الإشارة بقوله ﷻ: ﴿**لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [الأنفال:37]، فالخبيث ما أشرك به أو أعان على ذلك أو كان إله له والطيب بضده، والله يؤتي فضله من يشاء.

ولعل من لم يمعن النظر يحيل هذا فيقول: ما للحجارة والجمادات وهي غير مكلفة تعذب بالنار ولم يكن منها إرادة لهذا الذنب ولا نية فيه؟

فجوابه: أن يبين له أن العذاب في مقابلة التمتع بالوجه المُعصى به والإحساس به في مقابلة التلذذ والإهانة في مقابلة التعزز والتمتع بالمعصية والتعزز بالعلو والتكبر بغير الحق موجود بالإنسان الكافر، ومن أجل اجتماع هذه الأنواع اجتمع عليه الجزاء من نواحيه والحجارة وغيرها من المعبودات لما لم تتمتع بعبادة المتعبد لها لم يجعل لها حسابًا بعذاب ولما لم يكن حسابًا لم يكن عذابًا في حقها ولما أعزها المتعبد بعبادته، وإن لم يجد المعبود إعزازًا بذلك في نفسه أسكن معه في دار الهون وهي لا تجد - أعني المعبودات - خزيًا لهونها، بل إنّا نقول والله أعلم بحكمه: أن الله ﷻ توجد المعبودات في النار إحساس التلذذ بالانتقام ممن حوله وعمّا جعل إلهه له من التعريف بربه والدلالة عليه والتذكير به وذلك معنى قوله له: ﴿**يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾ [البقرة:159] أي من الخلائق أجمعين، وذلك أعظم لندمهم وأكد لأسفهم.

وفي الحديث قال: «**تحاجّت الجنة والنار عند ربهما قالت النار: أوثرت بالمتكبرين والجبارين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، فقال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء،**

=

رقم 4305)، ومسلم (167/1، رقم 183)، وابن ماجه (63/1، رقم 179)، من حديث طويل.

ولكل واحدة منكما ملؤها»[1]. فأخبرك نصًا أن النار والجنة يختصمان، وأن النار تفخر بانتقامها لربها من الجبارين والمتكبرين، وأن الجنة تغبطها بمنزلتها تلك من ربها فحكم أحكم الحاكمين بينهما بحكم فصل فقال: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، معنى ذلك أنها وإن كانت تنتقم لي من الجبارين والمتكبرين ومن عصاني فإنك مني بمنزلة من أجازي به، من تواضع لعظمتي وتطامن لعلوي وتذلل لعزتي أرحمه بك، ثم قال لهما: ولكل واحدة منكما ملؤها من هذا والحجارة المعبودة من دون الله سبحانه والمستعان بها على تلك المحولة عمّا جعلها خالقها له تحمى النار وتوقدها عليهم انتقامًا لله ﷻ منهم، ثم انشرحت المعاني والقوى أيضًا في النبات أكثر انشراحًا وأوسع انبساطًا منها فيما تقدمت فظهرت فيها المعاني الأربعة وتوابعها والقوى المذكورة وتوابعها، وظهرت فيها بعض أفعالها وأسمائها.

والنبات من العالم بمنزلة اللحم من جسد الإنسان، وينزل إلى النوع الجمادي فيكون ذلك بمنزلة العضل والرباطات من الإنسان، كما يصعد إلى النوع الحيواني فيكون ذلك بمنزلة البصر والسمع والشم وسائر الحواس التي هي مطالع الباطن إلى الظاهر، وما تقدم ذكره في الجماد من العطيات والهبات والخصوصية والأخلاق والأنفس والأرواح فهي أبسط في النبات وأشرح، وقد نبّه رسول الله ﷺ على ذلك في النخلة وأنها «مثل المؤمن»[2] وقال: «**نعمة العمة النخلة**»[3].

(1) أخرجه أحمد (2/314، رقم 8149)، والبخاري (4/1836، رقم 4569)، ومسلم (4/2187، رقم 2846)، والنسائي في الكبرى (4/414، رقم 7740)، وابن حبان (16/482، رقم 7447).

(2) أخرجه أحمد (2/157، رقم 6468)، والبخاري (1/34، رقم 62)، ومسلم (4/2164، رقم 2811)، والترمذي (5/151، رقم 2867) وقال: حسن صحيح. وعبد بن حميد (ص 253، رقم 792)، والنسائي في الكبرى (6/371، رقم 11261)، وابن حبان (1/481، رقم 246)، والطبراني في الأوسط (5/24، رقم 4571) بلفظ: « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي قالوا حدثنا يا رسول الله ما هي قال هي النخلة».

(3) أخرجه أبو يعلى (1/353، رقم 455)، والرامهرمزي في أمثال الحديث (1/73، رقم 35). والديلمي (1/ 68، رقم 198).

وقال: «**إنها خلقت من فضل طينة آدم**»[1].

وقال في الحنظلة: «**إنها مثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن**»[2] .

وفي الريحانة: «**إنها مثل المنافق الذي يقرأ القرآن**»[3] .

وقال في الغرقد: «**إنها من شجر اليهود**»[4] وتتبع هذا يطول.

وبالجملة فشجرة طوبى أم للمكرم من الشجر، وشجرة الزقوم - أعاذنا الله منها - أم للمهان من الشجر، ثم انشرحت أيضًا هذه الجملة في النوع الحيواني البهيمي وانبسطت واتسعت وظهرت أفعالها إلى عالم الملك والشهادة، فبدت الأفعال الدالة على الأسماء والأسماء الدالة على الصفات؛ كالقدر والعلوم والإرادات وغرائز العقول والتمييز والحياة التي هي رباط جميع ذلك وعنها تصدر وإليها تجتمع وبث فيها سبحانه مكارم الأخلاق وسفسافها وتصعد في التفاضل إلى آخر النوع الإنساني كما ينزل بضدها في أبطانها إلى أول نوع من النبات، غير أنه حمد على موضع العقل التي سيأتي ذكره، ولذلك سمي بهيميًا.

والبهيم: الذي لا شية فيه ولا علامة من غيره، والبهم: صغار الضأن، اسمًا عرفيًا واقعًا عليها من أجل ذلك، وما ذكر ما في النبات من الخصوصية التي مبعثها من الهبات والعطايا فهي أبسط في هذا النوع على التدريج المتقدم؛ لظهور أفعال النفس والروح فيه، وكلما ذكر في القرآن وحديث رسول الله ﷺ أنه من الجنة من الدواب

---

(1) تقدم في سابقه.

(2) أخرجه أحمد (403/4، رقم 19630)، والبخاري (2070/5، رقم 5111)، ومسلم (549/1، رقم 797)، وأبو داود (259/4، رقم 4830)، والترمذي (150/5، رقم 2865) وقال: حسن صحيح. والنسائي (124/8، رقم 5038)، وابن ماجه (77/1، رقم 214)، وابن حبان (48/3، رقم 771). وأخرجه أيضًا: البزار (14/8، رقم 2984)، والطيالسي (ص 67، رقم 494)؛ وعبد بن حميد (ص 198، رقم 565)، وأبو يعلى (207/13، رقم 7237)، والدارمي (535/2، رقم 3363)، والروياني (297/1، رقم 438).

(3) تقدم في سابقه.

(4) أخرجه مسلم (2239/4، رقم 2922). وأخرجه أيضًا: أحمد (417/2، رقم 9387).

والطيور والحيوان فهو تشريف لصنعه هاهنا، وبالضد لما ذكر أنه في النار، وفي هذا النوع - أعني الحيواني - ظهر صنف الجن أعني المستجنين في الحيوان.

وقد كان جمد عليه النوعان قبله النبات والجماد غير أنهما أعربا عمّا فيهما من إشاراته بمعنى الضر كله من كريه المضار والمطعومات والمشمومات والملموسات وقبيح المناظر، ثم انشرح في الحيوان واتسع فظهرت أفعاله وحركاته من العداوة والبغضاء والإفساد كله كالخديعة والمكر والحب والكيد والباطل ومخائل السوء، تعرف ذلك بالوقوف عليه في استقراء أصناف الحيوان الهوام وما جاء في أثناء الوحي عن ذلك؛ كإخباره ﷺ عن الحيات والفأر والحداء والعقارب والغربان والوزغ والكلاب العقورة وأنهن فواسق، فنسبها إلى الشيطان، قال الله ﷻ: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾ [الكهف:50] وكان هذا الوجود الجني قبل خلق آدم عليه السلام وقبل إعلان إبليس بفسقه موجود في الثلاث عوالم قبله كما تقدم، فلما أوجد الله عبده وصفيه آدم عليه السلام حق إليه منها البعض وسخر له وبان البعض منها عنه، وشرد فسلط عليه، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ثم هذا النوع من الجن يشرح في النوع الإنساني، ويعرب عن نفسه فيكون وسواسًا، وقد نزل فيه قرآن وأمرنا بالتعوذ منه، أعني: وجوده عن استقرائه والكلام فيه، وأما سائر الجن من خارج الذين هم عن إبليس - لعنهم الله - فهم والله أعلم ثلاثة أصناف: جزء في الهواء، ومنهم المسترقون للسمع على تفاضل بينهم في ذلك ودرجات ومصافات يصفون فيها فالمسترق الأعلى الأقرب إلى موضع السمع يلقي الكلمة التي يسترقها إلى وليه في مقامه تحته والثاني إلى الثالث، والثالث إلى الرابع هكذا حتى تبلغ إلى الكاهن، هكذا إن أدرك الشهاب الأول، وقد ألقاها فإن أدركه قبل ذلك بطلت وفي حين إلقائها إلى وليه يكذب كل ملقى كذبه هكذا إلى الكاهن، ولذلك قال الله ﷻ يصف الملائكة عليهم السلام وتلقيهم الأمر: ﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ [سبأ:23] وقال رسول الله ﷺ فيما

أخبر به عن الشيطان: «**صدقك وهو كذوب**»[1].

ومنهم جزء سياحون في الأرض يظعنون ويقيمون، ومن هؤلاء صنف غواصون في الأرض، ومنهم ومن لا يستطيع ذلك، وجزء ثالث منهم الكلاب والحيات زائدا على ما جن منها، أو بأن يتحولون في صورهم ومساليخهم، قد أعطوا ذلك، وكل مدبر في مقامه لا يتعداه، ومنهم مؤمنون وكافرون وطائعون وعاصون.

وكان ظهور هذا الصنف من الجن المستجن في الموجودات عن وسوس الخليقة أظهر مظهره ﷻ عن إثارة المعنى الناري فيها ومن قبيل الطبائع والقوى المنسوبة إلى الوراء والشمال والتحت من الجهات وربما كان هذا المعنى بقوله ﷺ: «**وخلق التقن يوم الثلاثاء**»[2].

قال المفسرون: التقن سوس الأشياء، وكان وزان استجنانه، على سبيل الاعتبار في عالمي الجماد والنبات وزان استجنان شر إبليس - لعنه الله - منذ خلقه قبل من نار السموم فعبد ربه مع الملائكة عليهم السلام مستجنًا فيه خبثه وسوء مكتومه إلى أن أظهر الله ﷻ ذلك منه بوجود آدم ﷺ، ووزان عبادة الوسواس في الخليقة بالفطرة والنشوء بأمر الفطرة وكان إظهاره خبث طوية وعداوة لآدم ﷺ حين قال: لئن سلطت عليه لأهلكنه وزان تضليله بنيه وإلقائه إليهم ما يهلكون به وكان وزان ما علمه علام الغيوب جل جلاله من سره في حال عبادته تلك وزان ما أظهر لنا في الخليقة من الكريه والضير كله والقبيح المنظر، وما تقدم ذكره مما أعرب عنه الجماد والنبات وإلى هذه الجملة وجملة آدم ﷺ وأوسع من ذلك مما نعلمه ولا نعلمه، قال ﷻ: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:30]. وقال: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ [البقرة:33] سبحانه وله والحمد ما أتقن ما صنع وأحكم ما دبر.

ومن الحيوان أيضًا صنف آخر بان عن الإنس غير مؤذٍ غير أن صنفًا من الشيطان

---

(1) أخرجه البخاري (812/2، رقم 2187).

(2) ذكره عياض في «مشارق الأنوار» (669/1)، ورواه مسلم بنحوه (7231).

غير مؤذ اكتنفتها فنفرتها ووحشتها عن الإنس ومنعتها من التسخر والاستمتاع بها طلبًا لخلاف قوله: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة:29] ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**عَلَى ذِرْوَةِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ**» [1] فأحكم الله ﷻ أمره وصدق قبله فإن أطلق النوع الإنساني اصطياد هذا الحيوان المتوحش منه وأباح له أن يقعد له بكل مرصد كما يفعل بالكافر والحق بذلك ما ند من هذا النوع المسخر، قال رسول الله ﷺ وقد ند بعير على أصحابه فأعجزهم فرماه أحدهم بسهم فأثبته الله: «**إِنَّ لِهَذِهِ الْبَهَائِمِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ، فَمَا غَلَبَكُمْ مِنْهَا فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا**» [2] قال الله جل قوله: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء:70].

يريد وهو أعلم: على كثير مما تقدم ذكره في هذا الاعتبار من العوالم المذكورة، وبوجه آخر وهو المقصود باعتبارنا هذا فكل ما كان للمؤمنين قنية وعونًا على طاعة الله سبحانه من خيل وأنعام وحيوان على صنوفه وغير ذلك من القنيات كائنًا ما كان فهو بجملته منسوب إلى الله تعالى ورسوله والمؤمنين، وما كان من ذلك للكافرين وللمشركين فهو منسوب إلى الشيطان والكفر، قال الله ﷻ: ﴿**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ**﴾ [الإسراء:64] ولذلك أحل جميع ذلك للمؤمنين من حيث إن الدنيا كلها له ملك وللمؤمنين عبيده، وما كان من ذلك منسوبًا إليه فهو منسوب إليهم تبارك وتعالى، وإنما هو سبحانه وتعالى والمؤمنون عباده وسائر ذلك لا يعبأ الله بهم هم المؤمنون فداء وأموالهم وأولادهم نهب، ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليتلو بعضكم ببعض، فأعظم بقدر رجل مؤمن آتاه الله تعالى من علمه أو

---

(1) أخرجه أحمد (494/3، رقم 16082)، والنسائي في الكبرى (130/6، رقم 10338)، والدارمي (371/2، رقم 2667)، وابن خزيمة (143/4، رقم 2546)، وابن حبان (411/6، رقم 2694)، والطبراني (160/3، رقم 2994)، والحاكم (612/1، رقم 1626) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضًا: الطبراني في الأوسط (261/2، رقم 1924).

(2) رواه البخاري (180/9).

ملكه، وعوده النظر في مواطن الحروف تتم على يديه كلمته في قوله: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر:42] ويكذب ظن إبليس لعنه الله في قوله: ﴿**لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء:62] إلى آخر المعنى فهو يسلب إبليس لعنه الله خيله ورجاله وأمواله ويسبي نساءه وأولاده وتردهم إلى ربهم، وتحقق الملك للملك الحق إن هذا لهو الفضل المبين وبالضد للضد.

وأما النوع الإنساني فهو الذي تجمع فيه ما تفرق في غيره مما تقدم ذكره وهو من العلم كله بمنزلة القلب من جسده أما الأعلى فينزل إليه ويعطف عليه، وأما الأسفل فيسخر له ويضطر إليه ومن هذا النوع من جمد على موضع اللب من صفة العقل وعمي عن موضع نور الإيمان من العلم فجهل نفسه ولم يعقل قدر منزلته، فكفر لذلك ربه وبطر نعمته وكابر بينته وجحد فطرته وخان أمانته فلم تنفعه صفاته ولا أغنت عنه شيئًا مقدماته، بل أربى جهله على جهل البهائم وزاد عظيم جرمه على العظائم، قال الله ﷻ: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الفرقان:44] ودرجة الإنسان غاية من الغايات ونهاية من النهايات في هذا العالم فإما أن يصعد به إلى ما علاه خلقًا ورتبة، وإما أن يسفل به إلى ما تحته والكافر ممسوح الباطن إلى ما قارب طبعه من البهائم والهوام والنبات والجماد فاعلم ذلك، يوقف على ذلك بالاستقراء لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ وتتبع النظر فيما يشبهه من الموجودات، وقد تقدم إلى ذلك إشارة من الاستقراء منعنا من استيفائها مخافة التطويل، وما كان من هؤلاء من أفعاله حسنة وأخلاقه كريمة وسجاياه محمودة فهو كالمرار أطلع زهرًا وكالشوك أثمر ثمرًا سخر لك لينتفع غيره ولا ينتفع لتقوم الدار على إرادة جاعلها ويظهر العالم بذلك في أحسن معارضه وفي هؤلاء يقول عز من قائل: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾ [الفرقان:23].

وأما في البرزخ بعد الموت فيصور باطنه على صورة ما مسخ إليه من الحيوان في الدنيا فيعذب فيه عذاب القبر حتى يبعثه الله ﷻ يوم القيامة على صورته التي خلقه عليها ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**﴾ [الأنبياء:104] وكما تركت أرواح المؤمنين والشهداء والعلماء في طير خضر وبيض وفي قناديل معلقة بساق العرش كل على

منزلته ينعم فيها حتى يبعثه الله على صورته الأولى والله عليم حكيم، ومن هنا ضل قوم فقالوا بالتناسخ لما وجدوا هذا في اعتبار سنة الله جَلَّ ذِكْرُهُ، ولم يستضيئوا بنور نبوة يروا بها البعث الآخر فوقفوا من أجل ذلك في موضع البرزخ، وقالوا بالتناسخ في كلام لهم طويل أضربنا عن ذكره لتناقضه وسخافته، والوحي إنما إنباء عن دار البرزخ رمزًا وإشارة وعلى سبيل الإدراج في غيره من الأغراض وذلك لما كان الغرض الإعلام بالدار الآخرة وما فيها وليكذب الذين لا يعلمون بعذاب القبر، وغير ذلك من الابتلاء، ومن هذا النوع - أعني الإنساني - من حقت عليه كلمة المسخ من باطنه بظاهره في الدنيا فجعل عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين ومسخ الظاهر لا يكون إلا بعد مسخ الباطن، فاعلم ذلك.

وعنه ينبعث جزاء عليه ومنه قول رسول الله ﷺ: «**أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ - أَوْ لاَ يَخْشَى أَحَدُكُمْ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ**» [1] فإن الذي يرفع رأسه ويخفضه قبل إمامه ناصيته بيد شيطان فهو لأجل ذلك لا يفقه ما يراد منه ولا يعقل مقامه ولا يعلم بين يدي من هو ولا يقدر قدره باطنه باطن حمار لبلادته وقلة فقهه فحذر رسول الله ﷺ من مداومة ذلك فيستوجب به اتصال المسخ الباطن بمسخ ظاهره وقد قال ﷺ: «**يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يضرب على رءوسهم بالمعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم قردة وخنازير**»[2].

ومن اعتبر أحوالهم في استصحابهم إياها في الدنيا في أخلاقهم ومجالستهم وترف عقولهم وأبدانهم على بذلك أنه قد عجل لهم المسخ في بواطنهم.

ومن هذا النوع من ظهرت فيه الخفيات وبدأت منه المخيلات وانشرحت عنده المعاني وحييت القوة وتبينت الإثارة المكرمة السابقة في الأزل على أركانه الأربعة وجهاته الست وحقت له كلمة السعادة واستوى فيه الوجود إلى غايته ورفع إلى أرفع في عالمه فحسن ظاهره وزكى باطنه واتصل آخره بأوله فأسلم لله تعالى وجهه وائتم

(1) رواه البخاري (3/166)، ومسلم (3/195).

(2) رواه النسائي (3/227)، وابن حبان (28/57).

بإمامه واستن بسنة نبيه حتى ورد عليه قولاه وشفع له ومنهم من جمع إلى ذلك حسن المعرفة بمن أسلم وجهه له إحاطة العلم لمن اقتدى به فجد في سيره وتحقق في اقتدائه واعتقد ذلك صافيًا قويًا من جهة القلب وطمأنته وشهادة الغيب بلا ريب ولا تقليد فاقتبسه الله ﷻ في بصر قلب نور الصدق، وقام على ظاهره وباطنه شاهد الحق وصدرت معاني الشمال منه على حكم اليمين فتولته الملائكة عليهم السلام وحلت به البركة، وكان ميمون الطالع، طاهر السريرة، ناصح للخلق، مقدس الغيب فارتفع ذكره، وشهر في السماء اسمه.

ومنهم من سما بهمته فصعدت إلى العلى؛ فارتقى في معالي الارتقاء، وآثر الوصول إلى الحياة العظمى والاختصاص الأكرم فقطع العلائق ونبذ الشواغل القاطعة عن بغيته، فتعبد نفسه لربه ﷻ على مقتضى الأسماء الحسنى غير مفارق للاقتداء، ولا متبع سبيل الهوى فلم ينشب أن تلافاه ربه ﷻ فتولاه وأكرم مثواه وأحبه واجتباه واصطفاه لنفسه وأعانه لذلك كل شيء وأكرمه كل شيء وذكر في نفسه وأثنى عليه في الملأ الأعلى عنده رباها به ملائكته، وربما أعطاه الوسيلة والشفاعة بينه وبين عباده أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون، ولما أردناه من تبيين صفة إحاطة العليم الحق بالموجودات علمًا وحفظًا وصنعًا.

سردنا الكلام في الاعتبار إلى هذا القدر فلنرجع إلى ما هو أخص بهذا الباب فقد تمهد بما تقدم من الاعتبار أن العلم وغيره من الصفات غرائز غرزت في جبلة الموجودات وفطرة فطرت عليها المفطورات، وإلا فالعلم نور باطن، وصفة للعالم حصة عاجلة بما خصّه به من لدن عالم مشاهدة العبد إلى أعلى عالم روحه، كما يتصل أيضًا من أعلا عالم روحه إلى وليه ومنبعثه، وهي الصفة العالية، وكذلك صفة العقل، ولهذه العلة عزت التناهي في هاتين الصفتين، وتختلف عليهما الأسماء لاختلاف العوالم المعترضة لهما في طريقهما ولا يستوي النظر في صفة العلم والعبارة عنه على الحقيقة إلا بمشاركة في الكلام في صفة العقل؛ لأنهما عزيزتان ممزوجتان في الأصل ومنزلة أحدهما من الأخرى في طريق الملازمة وتمام أحدهما بالأخرى بمنزلة القوة الناظرة من الحدقة ونور الشمس من ضوئها والنار من إحراقها وشبه ذلك ولذلك قل صواب من إفراد الكلام في إحداهما وإن الأخرى لتداخل معنييهما فأول أسماء العلم

المشاهدة وهو شهود الموجودات الظاهرة بمشاركة العقل ثم اسم العلم وهو ما عرف بدلالة أو كتاب أو علم أو علامة أو شيء يقوم مقام الواسطة ويعم ذلك كله اسم العلم ثم المعرفة وهي في أول عالم النفس وهو أول عالم الغيب وأقصى عالم الشهادة فجهة العليا منها هي اليمنى التي على الروح، وفيه يلقى الملك ما يلقيه للعبد من تذكير ينزل وإلهام أوامر بمعروف أو نهي عن منكر وجهة الشمال منها مما يلي الجسم فيه يلقى الشيطان ما يلقيه للعبد مما يناقض إلقاء الملك، وهذا هو الفرق بين الإنساني والبهيمي من هذه السبيل للبهيمي قوى ملكية وشيطانية تصدر عن تلك القوى أفعال تشاكلها لكنها لم يعرب بعد النطق وزيد الإنساني على تلك القوى ملك وشيطان معربان عن شاكلتها موجودان عن أصل بنيته وموضع إلقاء العدو من العبد هو موضع الأمنية منبعث النسيان قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج:52] المعنى فمن أصغى بحواسه إلى ذلك الإلقاء وأسفل بوجهه إلى ما هنالك شغلته علائق الموجودات وأصمته ضوضاء المشاهدات عن الاستضاءة بنور العلم ومكاشفات اليقين وفتوحات الإلهام وتفجير ينابيع الحكمة عن أنهار المعرفة إلى أرفع من ذلك وانتهى إلى حيث يسمع فيه لغو ولا تأثيم وكل هذا بمشاركة العقل كما تقدم ثم لا يتم شيء من ذلك إلا بالإيمان والمعرفة يمدها العلم واسمها مشتق[1].

---

(1) تتمة وفائدة: قال الأستاذ البكري: قال الإمام البيهقي في «دقائق الإشارات»: ومنها العليم، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:26] ومعناه المدرك لما يدركه المخلوقون بعقولهم وحواسهم، وما لا يستطيعون إدراكه من غير أن يوصف سبحانه بعقل أو حس، وذلك راجع إلى أنه لا يعزب عنه ولا يعجزه شيء كفاقة العقل والحس من المخلوقات، ومعناه أنه لا يشبههم سبحانه، ولا يشبهونه.

قال الخطابي: العليم: العالم بالسرائر والخفيات، التي لا يدركها علم الخلق، وجاء على: فعيل؛ للمبالغة في وصفه بكمال العلم.

وقال أبو العباس، أحمد بن محمد القمولي، في «الدرة الحسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: ورد في القرآن: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 32].

ورد في رواية الترمذي في «بيان الأسماء»: وعليم: صيغة مبنية للمبالغة من عالم، فهو دال على =

=

كثرة تعلق علمه بالمعلومات، فإن معلوماته كثيرة غير متناهية، فإن العلم صفة لازمة له، ففاعل دال على أصل الصفة، وفعيل على لزومها وكثرة متعلقاتها، ولا يحمل ذلك على كثرة العلوم، فإن علمه تعالى واحد وإن كثرت متعلقاته، والكلام فيه كالكلام في عالم، وقد تقدم خط العبد منه أن يبالغ في تحصيل العلم، فقد روى التميمي في «جواهر الكلام» قال: إنه ﷺ قال: «**إن الله أوحى على خليله إبراهيم: إني عليم، أحب كل عليم**»، انتهى.

وقال سيدي محمد القونوي ﷺ في «شرح الأسماء»: العليم: بكثرة معلومات العالم، بآحدية نفسه، العلام بالغيب. واعلم: أن العلم هو التعلق الخاص بعين العالم، وهو نسبة تحدث لذات العالم من المعلوم، وعند أهل الكشف خلافًا لأصحاب النظر، فإن العلم بالمحال لا يؤثر في المحال من ذات العالم ولا علمه، بل بالمحال يعطيه العلم بأنه محال، وإيجاد أعيان الأكوان، ثبت عن القول شرعًا وكشفًا، وعن القدرة شرعًا وعقلاً، لا عن العلم، كتعلق العلم بظهور المعلوم وعدم ظهوره سرًّا؛ لأنه تعلق بظهور الموجود عند ظهوره، كما تعلق بعدم ظهوره قبل ظهوره.

والعلم إما ذاتي - وهو علم الحق - وإما موهوب، وهو ما لا يخطر بالبال، ولا للاكتساب فيه مدخل، وهو علم الإفراد، يخص به الحق من يشاء من عباده، كما اختص به الخضر عليه السلام رحمة من عنده، حتى كان الكليم، مع جلالته، يستفيد منه، وطريق تحصيل ذلك العلم معرفة الوجه الخاص، فإن لكل موجود في علم الحق وجهًا خاصًّا إلى موجده، به يتجلى الحق له، فيحصل له من العلم به ما لم يعلمه غيره، سواء علم ذلك الموجود أن له وجهًا خاصًا، وأن له من الحق علمًا من ذلك العلم، أو لم يعلمه، وتفاوت درجات الأولياء وتفاضلهم بحسب تفاوتهم في معرفة ذلك الوجه، وأما العالمون من عالم الأمر، الذين هم سكان حضائر القدس، فمالهم سوى الوجه الخاص، فهم المهيمون في جمال الحق وكبريائه، وكذا قيل لا التفات للعلويات إلى السفليات، وأما المكتسب فهو ما يحصل بالممارسة والتعليم، والداخل في هذه الحضرة إما أن يكون: ذائقًا من طريق التقوى أو ناظرًا من طريق القوة الفكرية، فصاحب الذوق هو العالم بالله تعالى وله مقامات، فإنه إما يختص بعلم يكون متعلقه نسبة العالم إلى الله تعالى، وإما متعلقه نسبة الحق إلى العالم والأسماء، وإما علم بارتفاع النسبة بين العالم والذات، وإثباتها بين العالم والأسماء، وإما علم بإثبات النسبة بين العالم والذوات، كالقول بالعلة والمعلول.

وإما علم بالصورة التي خلق عليها الإنسان الكبير، وإما علم بالصورة التي خلق عليها الإنسان الصغير، فالعلوم كثيرة ولكل علم أهل، فمن دخل الحضرة العلمية بالفكر والنظر فإنه ينال منها على قدر ما يقضي طوره، ومن دخلها ذوقًا من طريق التقوى فقد حاز الكل وفاز بالكل، انتهى.

وقال سيدي عبد الكريم الجيلي في «كمالاته الإلهية»: اسمه العليم تعالى: هو الذي علم ماهية الأشياء كما هي عليه، مجملاً ومفصلاً، وسيأتي بيان الفرق ما بين اسمه العليم، واسمه الخبير عند ذكرنا تفسير اسمه الخبير إن شاء الله تعالى.

=

=

وقد تحدثنا في الفرق بين اسمه العليم والعالم في كتابنا الموسوم بـ «الإنسان الكامل»، فإذا أردت معرفة ذلك فطالع هناك.

واعلم أن هذا الاسم صفة، وصفته العلم، وهو عبارة عن تجلٍّ إلهي إدراكي، فيه أوجد الله تعالى أعيان الحقائق على حسب ما اقتضاه ذلك التجلي، فعلمه تعالى بالأشياء على حسب ما اقتضاه شأنه القديم، خلافًا للإمام محيي الدين بن عربي، فإنه قال: إن الحق إنما أعطته المعلومات العلم بها، ونحن نقول: إن المعلومات إنما تعينت في العلم على حسب ما أعطته الشئون الذاتية الأولية، التي هي أم الكتاب، والعلم القديم الإلهي هو مظهر لتلك الشئون، فافهم.

والذي قاله سيدي محيي الدين بن العربي في علم الله بالأشياء إنما نقوله نحن في اتخاذه لها، فنقول: إن الحق أوجد الأشياء على حسب ما اقتضاه أم الكتاب، فعلمه غير مستفاد من مخلوق -تعالى الله عن ذلك- ولقد سهى الإمام في هذه المسألة سهوًا قطعيًا، فجعل علم الله مستفاد من الأشياء، ولو كان كما ذكر لم يصح له الكمال المطلق؛ لاحتياجه في علمه إلى معلوماته، وتعالى الله عن ذلك.

وقد ذكرنا هذه المسألة بعينها في «الإنسان الكامل» بأبسط من هذه العبارة، وأوضح من هذه الإشارة، وعبارته فيه: واعلم أن العلم صفة نفسية أزلية، فعلمه - سبحانه وتعالى - بنفسه وعلمه بخلقه علم واحد غير منقسم ولا متعدد. ولكنه يعلم نفسه بما هو له، ويعلم خلقه بما هم عليه، ولا يجوز أن يقال أن معلوماته أعطته العلم من نفسها؛ لئلا يلزم من ذلك كونه استفاد شيئًا من غيره. ولقد سهى الإمام محيى الدين بن العربي ﷺ حيث قال: إن معلومات الحق أعطته العلم من نفسها، فلنعذره، ولا نقول كان ذلك مبلغ علمه، ولكنا وجدناه - سبحانه وتعالى - بعد هذا العلم بعلم أصلي منه، غير مستفاد مما عليه المعلومات فيما اقتضته بحسب حقائقها، غير أنها اقتضت في نفسها ما عَلِمَها سبحانه عليه، فحكم لها ثانيًا بما اقتضته من نفسها، لا أن علم الحق مستفاد من اقتضاء المعلومات، فأعطت الحق العلم من نفسها، وفاته أنها إنما اقتضت ما علمها عليه بالعلم الكلي الأصلي النفسي قبل خلقها وإيجادها، فإنها ما تيقنت في العلم الإلهي الا بما علمها عليه، فليتأمل؛ لأنها مسألة لطيفة ولو لم يكن الأمر إلا بما اقتضته ذواتها بعد ذلك من نفسها أمورًا هي عين ما هي عليه، أو لا، فحكم لها ثانيًا بما اقتضته، وما حكم لها إلا بما علمها فليتأمل؛ لأنها مسألة لطيفة، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يصح له في نفسه الغنى عن العالمين؛ لأنه إن كانت المعلومات أعطته العلم من نفسها، فقد توقف حصول العلم له على المعلومات، ومن توقف وصفه على شيء كان مفتقرًا إلى ذلك الشيء في ذلك الوصف، ووصف العلم له وصف نفسي، فكان يلزم من هذا أن يكون في نفسه مفتقرًا إلى ذلك الشيء، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وقد بحث معه سيدي صفي الدين أحمد بن محمد القشاشي المدني ﷺ في شرحه لمشكلات الكتاب، وأيد كلام سيدي محيي الدين، وحقق أنه الصواب، ورد عليه كلامه بكلامه فانفسح

=

=

غمام الارتياب، وارتفع ظلام الحجاب، ورد عليه الشيخ أبو المحاسن حسن بن عبد الله الحموي في كتابه «الشموس المضيئة في الكشف عن الحكم الإلهية»، فقال: فمن تعلق من الأولياء باسم دون اسم، فهو يفرد عينًا لا يرى غيرها، كبعض كمل الأولياء؛ حيث قال عن خاتم الولاية: إنه سهى، وأنه ظفر بما لم يظفر به الشيخ، فهو معذور في ذلك؛ لضعف ذوقه عن مشهد الحقيقة ونفيها مجازًا عبَّر وما هو هو، فلو نفى ونزَّه ورآه بعين التنزيه، وأثبت وشبه ورآه بعين التشبيه، كان له عينان يرى نفسه بهما، إنه حق خلق، وهو العين الواحدة، ونظر بهما فنظر وما نظر، ثم عبس وبسر، فلم يستطع أن ينكر، فقال: إن الشيخ ظفر، وفاته أكثر مما ظفر، والعجب في قوله: ولقد ظفر بما ظفر ثم عثر؛ حيث صدمته تجليات الحيرة، فرجع مقهقرًا، مستندًا إلى الدليل، فقال: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص:68]، وأطال في الرد وزاد في الحد، ورأيت بخط شيخنا ذي المقام السني سيدي الشيخ عبد الغني على هامش نسخته «الكمالات الإلهية»، حاشيته سنية بهية، قال فيها بعد تحقيق بالذكر:

حقيق ما ملخصه أن الشيخ محيي الدين كلامه من **المقام الذاتي**، والشيخ الجيلي كلامه من **المقام الصفاتي**، والذائقون أعلا من الصفائيين، وفوق كل ذي علم عليم، انتهى.

ورأيت رسالة للشيخ الكوراني، نزيل دمشق الشام، أنبل التهاني، قال في آخرها بعد انتصاره للمحيوي بحر العلم رادًّا على الجيلي: وهذا مبلغه من العلم، فذكرت لشيخنا الشيخ قاسم بن سعيد المغربي عدم استحساني رده؛ لأنه غير موافق في الاعتقاد لمشربي، فأخبر أن المذكور أخبره أن هذا الرد بعد ما نسخ من ناس كثير: رأى في منامه رجلا شريفًا مهيبًا، ذا وجه منير، جالسًا على كرسي رفيع كبير، قال: فسألت عنه، فقيل: إنه الجيلي الحقير، فتقدمت لأقبل يده، فلما رآني مقبلا صعد سلمًا طويلاً، فصعدت خلفه وأردت تقبيل يده، فامتنع من إعطائها، فاستيقظت مرعوبًا، وذكرت ما وقع مني فمزقت للرد، واستغفرت وتبت، ولكن لم يسعني تمزيق ما كتبت منه، انتهى بما هذا معناه.

وأخبرني صديقنا المرحوم الأمجد الأكرم الشيخ إبراهيم بن الأكرم، خادم مرقد الشيخ الأفخم الأكبر سيدي محيي الدين، قدس الله سره الأعظم الأبهر: أن ابن عمه الشيخ أحمد أراد «عينية الجيلي» الهمام، فرأى في المنام جناب الشيخ الإمام، وقال له: لم لا تفعل؛ فإنه رمانا بثلاث حصيات.

قلت: **الأولى** رده عليه في باب العلم السابق سره من الإنسان لكل إنسان، **والثانية** في باب الإرادة، **الثالثة** في باب القدرة، فافهم إن كنت مرادًا مراد الشيخ ومراده، ولا تعجل بالرد على السادة؛ فإن العجلة من الشيطان، فانظم منثور القلادة، واجمع موفِّقًا بين كلماتهم تكن موفقًا للحق، والحق زاده جامع بين كيمياء السعادة وسمياء السيادة في الغيب والشهادة، واكسر هناك الوسادة لتحصيل الإفادة، فليس الرجل من يزيف كلام الرجال أعلام الإجادة، إنما الرجل من

=

=

يحمله على المحامل الحسنة، ويرفض هواه ويلحظ معاده، ويلزم نفسه الأدب مع أهل الله تعالى، فافهم الأئمة القادة، واعلم أيها الأخ - رزقنا الله وإياك أدبًا له الشارع مع أهل عباده ندبًا- أن أهل العرفان في أطوار التجليات يتقلبون؛ لاختلاف فنون الفنون عند من فتحت منه العيون، فتارة في بحر مشهد الذات يسبحون، فيتكلمون بما منه يلمحون، وآونة في بر الصفات يسيحون، فليقرؤا سرها وقتًا وأُخر يسبحون، وطيور الأفعال يكشطون الغيون، وفي ساعة يجمعون بين التشبيه والتنزيه المصون وأخرى يفرقون، فيتكلم الواحد منهم الواجد عن وجد وشوق مضنون، ويشرح؛ إذ يشرح في كل مقام بما يقتضيه سره المخزون، فيظن من رأى في تنزله أنه خالف ما علم المحققون، وما ثم خلاف؛ إذ كل قول في مقامه سلاف ودر مكنون، وهكذا إذا رد العارف على مثله فإنما يرد من مقامه الذي هو فيه يكون؛ لأنه لم يدرك ما أدركه غيره من أهل الشحون والسكون،لا سيما الجيلي الشارب من يم التحقيق والسارب في تلك الحصون، فلا نشك أنه مذاق مذاق الشيخ، وساق مساقه بكشف مأمون ورشف ميمون، وكل من غلب مشهدًا نسب إليه، وإن كانوا في غيره يتنعمون يتدللون للأدنى ويتعلون، وأهل الدوائر الكبرى ففي المشهد الداني مخيمون، وفي عظيم تجلياته مهيمون، منهم الجيلاني، والشاذلي الرناني، والمجيوي، والجيلي، وأضرابهم أهل الصفا والحجون، فإذا عرفت أن الرد لغلبة حكم تجل كمرهف مستون على تجلٍ إلهي، له في الغيب ظهور وبطون، فلا يسوغ إذًا تفويق سهام اعتراض على مخلص من جبائلِ أعراض وأغراض يتجلى بما الدون؛ لأن إطلاق اللسان في أهل هذا الشأن لصاحبه شأن، وهو المغبون، فالتسليم أسلم عند من استسلم وسلم القوسَ بارئها؛ ليهون عليه حزن كل كمون، فحقق في هذا الكلام تكن من أهل السلام الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولقد جرى قلم البيان في ميدان التحذير من النكران نصيحة للإخوان الذين لربهم يرهبون، وقد كتب على هامش «الإنسان الكامل» عند قول المؤلف المحمول والحامل: ولقد سهى الإمام قدس الله سره، وإن له الإكرام أن المؤلف والإمام المحيوي، كلاً، أصاب الحق فيما قاله.

ولنرجع لما كنا بصدده من الكلام على اسمه تعالى «العليم»، قال العارف البوني - رحمه الله الرحيم: هذا الاسم العظيم الشأن الجليل البرهان، مَنْ أكرم أطلعه الله على دقائق الأمور وخفيات أسرارها، ومن نقشه في صحيفة من زئبق مفقود في شرف عطارد وحملها أنطقه الله بالحكمة، وعلَّمه لطائف المعارف، ومر وصفه في صحيفة من فضة في شرف المشترى وحملها، رزقه الله تعالى الفهم في العلوم الشرعية، ويصلح ذكرًا لمن كان اسمه غني، ولمن كان اسمه سلطان، وهذه صورته، ويوضع مثلثًا كما ترى، ومن فهم هذه خضعت له المخلوقات، وانقادت له بسائر العوالم، وقوي تصرفه في الوجود، ومنعه الله من الآفات، ودفع عنه ما يكره، ومن داوم على ذكره علَّمه الله تعالى علم ما لم يكن عنده، وظهرت على لسانه الحكمة، وله من العدد 10، وهو زوج مفرد زائد، أجزاؤه 30، ومن ثم العلماء هم الملوك حقيقة، بل هم المالكون على الملوك ملكهم، وهذا العدد يظهر فيه سر باقي المراتب الثلاث، وقال في محل آخر منها:

=

من العرف إشارة إلى المعنى المغروز في أصل الجبلة الذي به وجبت الحجة يوم أخذ الميثاق في الأزل، فإنه وإن كان ﷻ علم الأسماء كلها آدم ﷺ وهو موجود بالفعل يومئذ فقد علَّمها بنيه معه في الأزل، وأجملها لهم في بواطنهم، وعرف صفاتهم حين إيجاده إياهم بأن غرزها في جبلتهم، ومزج بها أمشاجهم بما ألقى إليهم من الحق ميَّزوه لإثارة تلك المقدمة بها إليهم، فهو عرف من أجل ذلك بتلك السابقة التي لا تنكر، والمقدمة التي لا تجحد ولذلك لا يحتاجون عليه إلى دليل، ولا علم يقام عليه غير إيمان جزم، وإنما يظهر من بواطنهم على ظواهرهم بقوة الإيمان ونور اليقين.

وموضع المعرفة هو مورد اليقظة، وهي في أعلى المعرفة، والفعل الوارد عن هذا الموضع هي الحكمة إذ كان الفعل خارجًا عن حكم العلم، وبصيرة العقل وعقد الإيمان وإصابة السنة، فإن الحكمة مركبة من هذه الأربعة، ثم أعلا موضع اليقظة هو موضع الإلهام، وإعلاء موضع الإلهام متصل بعالم الروح موضع الشعر، وهو موضع

=

والمتقرب إلى الله بهذا الاسم الشريف يتلوه ليلا ونهارًا، حتى يعلمه الله تعالى، ومن خواصه كشف العلوم الغامضة، وله خلوة جليلة، وتلاوته هي له مضروبة في مثلها والذكر القائم به بعد ذلك، وله مربع إذا كتبته وسقيته لبليد الذهن فتح الله عليه، ورزقه العلم، وإن أشكل عليك علم الصنعة الإلهية فأضف إليه اسمه "الحكيم"، واتله، ولازم عليه؛ فإن الله تعالى يعلمك إياها، وإذا وافق عدده اسم شخص وتلاه بغير خلوة نال المراتب العلية، وإذا كنت على ذهب أو فضة وحمله صاحب علم، رفع الله قدره بين الخلائق أجمعين، وأما الذكر القائم به تقول:

(بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أنت العالم العليم، علام الغيوب، وعالم دقائق الأسرار والخفيات، المحصي لكل ذرة وتفصيل المؤتلفات بما قدرت، وذرات في الظاهر والباطن من الموجودات، أسألك بإحاطة علمك، وإجراء سرائر بدعك بتفصيل كل شيء، ونفوذ قدرتك في كل شيء، وعني بأنواع ارتقاب حلمك أن تحرق فيما بيني وبينك الحجاب؛ لأطلع على ما تحت كل ذرة من ذرات الوجود، فأبتهج بسر العدم، ونزول غنى حقيقة العدم يا الله، (يَا عَلِيم يَا حَكِيم) أسألك بسر قوتك أن تسخر لي عبدك عينائيل يقضي حاجتي، ويكون لي عونًا فيما أريد، يا الله يا عليم يا حكيم).

ما من عبد واظب على هذا الذكر يوم الجمعة، من طلوع الشمس إلى وقت الصلاة، وكتب اسم الملك حول المربع وحمله، إلا رزقه الله تعالى الحفظ لكل ما يسمعه، ونال المراتب العلية في العلويات، انتهى.

التكليم والمجادلة، قال رسول الله ﷺ: «**إن من أمتي مكلمين**»وفي أخرى: «**محدثين**»[1].

ثم أعلا موضع الشعر موضع وحي المشافهة، وهو إنباء العبد المراد في ذلك بما لم يكن له أن يعرفه ولا تقدمت له به دراية أصلاً، ولذلك كان حظ النبوة خارجًا عن حد البشرية، وكان الذي يأتي به من الإخبار بالغيوب، وخرق العادات، والإتيان بالمعجزات خارجًا عن طاقة الإنس والكرامات، فالعلم في مقابلة الإلهام، والمعجزات في مقابلة الإنباء، وإنما ينزل الروح الأمين ﷺ على موضع الروح من هذه الصفة قال الله ﷻ: ﴿**يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [النحل:2] وقال: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى:52] فأنبأك أن الروح الأمين ينزل على الروح بما لم يكن العبد يعرفه، وما تحت ذلك إلهام لما قد نسي من أصل فطرته التي تقدم ذكرها، وللصديقين والموقنين في الإلهام درجات ومقامات يتفاوتون فيها.

ثم اعلم أنه وإن كان الترتيب على ما تقدم ذكره وما نحا نحو ذلك، فإنه تبارك وتعالى مزج هذه المراتب، وخلط أعمال هذه الصفات، فلا يخلو من كان في أول درجة العلم من وجود المراتب كلها ماعدا درجة الأنبياء غير أنه يدق ويخفى عليه أعلاها لبعدها عنه، ورفعتها عن مرتبته، ويقرب منه أدناه الأدنى فالأدنى إليه هكذا، وكذلك صفة العقل على ما تقدم وصفه، والعقل مع العلم كذلك والجملة بعضها لبعض أيضًا هكذا، فافهم.

وإنما يجد مذاق مشروبه وما مزج له به مما قاربه، ومسكن العقل الغريزي

---

(1) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (339/2، رقم 8449)، والبخاري (1279/3، رقم 3282).

حديث عائشة: أخرجه أحمد (55/6 رقم 24330). ومسلم (1864/4 رقم 2398)، والترمذي (622/5، رقم 3693) وقال: حديث صحيح. والنسائي في الكبرى (39/5 رقم 8119). وأخرجه أيضًا: الحميدي (123/1، رقم 253)، وإسحاق بن راهويه (479/2، رقم 1058)، وابن أبي عاصم في السنة (583/2، رقم 1261)، واللالكاني في كرامات الأولياء (94/1، رقم 42) والحاكم في معرفة علوم الحديث (ص 220). بنحوه.

الدماغ، لكن ظهور سلطانه من القلب، وهذا هو العقل الإيمان، فأوله الحسن: وهو إحساس الموجودات الظاهرة بمشاركة العلم على ما تقدم وصفه، فمتى بلغ إلى أن ينتهي في موضع إلقاء العدو عمّا أمره بنهي الله ﷻ إياه عنه كان نهيًا، فإن بلغ إلى أن يطيع في موضع إلقاء الملك بأمر الله ﷻ بذلك كان له من حيث احتجز بطاعة ربه ﷻ عن معصيته، فإن بلغ إلى أن يحصل معاني الكلام، وتستدل بمذكوره على محذوفه، وبمظهره على مضمره، وبأوله على آخره، وبآخره على أوله، وبتأليفه على تفريقه، وبمركبه على بسيطه، وانتزاع الفروع عن أصولها كان فقيهًا، فإن بلغ إلى أن يضرب الأمثال ويقارن فيها بين الأشباه، ويستخرج عويص المسائل في مواطن المحاجات، واستقدر على تلفيق مفترقات المعاني في أثناء تداخل الخطاب، ورد عواري الاستعارات إلى مواضعها، وإقرار المتجوز بها إلى موضوعاتها كان حجيًّا، فإن بلغ من الاستدلال بالأقوال والأفعال والتصرف في أحكامها إلى ما تقدم ذكره، وحتى يرد شاهد ذلك على غائبه، ويحكم بالأشباه على أشباهها، وعرف انعطاف أواخر الحكمة على أوائلها، ورجوع فروعها إلى أصولها كان عقلاً، فإن سما وعلا حتى يتخطى مشارع سنن الله - جل ذكره - في عالمه بعد سلوكها في طرقاتها إلى كلماته الصادقة، ويتجاوز أحكام أطباع الخليقة بعد التزام عقدها إلى صفاته الكاملة وكلماته التامة حتى يبلغ النظر في مجرد مجاري القدرة الغالبة بحكم المشيئة العالية على ما سبق في العلم السابق، فتبين له ألا ضار ولا نافع إلا الله - جل وعلا. وأنه إن شاء أن يحرق بمائه بردًا أو يبرد بمائه أحرق، أو يبرئ بالذي به أسقم، أو يسقم بالذي به أبرأ فعل، وحتى يرى تكوين الأشياء من لا شيء، وإقرار الأشياء كلها لا على شيء، وإدخاله الواسع في الضيق، ولم يضيق الواسع ولا وسع الضيق، وحتى يؤمن بكلام الجمادات ونطقها إن شاء ربها ذلك وكذلك النبات والبهائم، وبعلومها ويقينها وخشيتها، وحتى يجوز أن يحجب الإنسان عن الظاهر الجلي في موضعه الذي يضيق كونه فيه على الحاضرين، ويرى عالمًا آخر في موضع ذلك، ولم ينتقل منه بصره إلا إلى أدناه، ولا يتصور وهمه أقصاه.

وتلك فاعلم علوم الموقنين، ومعارف الصديقين، ومشاهدات النبيين إذا هم أوجدوها أوجدوا لها أنوارًا في بواطنهم يرونها بما يجمع لهم معاني المشاهدة

والحضور بالحواس الموجودة بالظاهر، بل هي أنور وأوحى من ذلك كثيرًا، وبهذه الصفة المباركة كان عامة الإيمان آية ذلك وجود الإيمان الجزم أكثر ما يظهر ذلك في أهل التصميم والجزم من عموم المؤمنين، فإذا يطلب العبد حقائق الموجودات لزم سبيل الاستدلال والمحاجة على صناعة تنتج النظر، وطرق ذلك كله حتى إذا تحقق بالمشاهدة وتوثق بموجبات اليقين فيومئذ تعمل الصفات المذكورة بخواصها، ثم ترفع عملها إلى هذه فإذا به قد صعد إلى منزلة اليقين، فعملت أيضًا عليه صفاته بما وجدت له، وأضر آخر أمره إلى بدئه؛ لأنه يومئذ في عالم الصدق وذلك من أعلام الصديقية.

وإذا بلغ العقل إلى هذا المقام فهو اللب، وهم المخاطبون بجليل الأمر، والعقل هو الشجرة المباركة على هذه الجهة من الاعتبار، ومعنى اللب: زيتها، والمصباح: الإيمان، والزجاجة: القلب، وكما أن لكل لب لبابًا كالدهن لا يستخرج ذلك منه إلا بمعالجة اللب كذلك بعد هذه الدرجة الدرجات أكبر وأرفع وأسنا مما تقدم ذكره، ولا غاية لمتسع مرآه ولا نهاية لمنفسحه كما أنه ليس لمعرفة مطلوبه غاية ولا نهاية، ويحمل غريزة العقل في الدماغ أربعة معانٍ: وهي الذكر والفكر والفهم والوهم، فأعلى الذكر الذهن وأسفله النسيان، وأعلى الفكر اليقظة وأسفله الغفلة، وأعلى الفهم الذكاء وأسفله الفقه، وأعلى الوهم التصور وأسفله التخيل.

والعلم يحمل أربعة معانٍ: الإحصاء والحفظ والميز والشهود، ولكل واحد منهما أيضًا أعلا وأسفل، وكانت قبل هذه الصفات أو جادًا مزجها جاعلهاﷻ، ثم ركبها في حاملها، فهي على ذلك تعمل بخاصيتها من حيث انفرادها، ومن حيث امتزاجها ومن حيث تركيبها، وينزل الأمر من أعلا الدماغ إلى القلب، ويتركب فيه تركيبًا حقيقيًا بعد تركيب، ولهذه العلة كان القلب من الجسد بمنزلة الإنسان من العالم قصد بالخطاب وأمر ونهي وأثبت وعوقب بالحسنة نورها وبالسيئة ظلمتها، ثم انبسط منه الجزاء على سائر الجسد كما انبسطت الحركة بالفعل منه ﴿**جَزَاءً وِفَاقًا**﴾ [النبأ:26].

والعلم من القلب في موضع الأمام، والجهل في موضع الوراء، والبيان عن يمينه، والإشكال عن يساره، والحلم في أعلاه، والإيمان داخله، قال الله ﷻ: ﴿**وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات:14] وبه تضيء هذه الصفات، والهوى أسفله، وتركب الحلم من أربعة معانٍ بعد تركيب أول؛ ولذلك رزق القوة وقام في الباطن مقامًا

لم يقمه سواه: وهي الصبر والشجاعة والعقل والحلم، وهو رئيس القلب، وصاحب، مفاتيحه وزين الباطن من فاته قبل انتفاعه بسائر أوصافه كما أن من فاته الإيمان خرب قلبه وطمس نوره فبطل باطنه، ولما وصفناه من محمود هذه الصفات وغموضها وأضدادها ثار الخلاف وعظمت المحنة عند تصادم الجنود بين العقل والهوى فاشتد البلاء لذلك.

والهوى فاعلم مأخوذ من هواء الجو سريع الحركة كثير الاختلاط، فالعقل يعقل منه ما جاوزه، وكلما عقل منه شيئًا تفلت عليه سواه حتى ينزل العون والتأييد من المدبر الحكيم على العقل، وتنبعث السكينة والطمأنينة على الهوى، فيقوى العقل ويطمئن الباطن ويستقيم الشأن كله والله قوي عزيز.

والعلم ينقسم قسمين: شهادة وغيب، فالشهادة منه ما حصلت معرفته من طريق الشهود والظاهر الشهود حضور ذات العالم حيث المعلوم، وشهوده إياه بجملته وماعدا ذلك غيب بالإضافة إليه، ثم يكون ما حصلت معرفته من أعلى عالم شهادة العبد إلى أعلاه عالم روحه شهادة بالإضافة إلى عالم ما لم تحصل له معرفته بعد.

واليقين مستقر العلم وهو موضع حقيقته كموضع العقل من غريزته، ومسكنهما القلب من حيث تركبت فيه معانيهما، وعنه تصدر أحكامها وإليه تعود، واليقين مأخوذ من يقين الماء، وهو موضع مستقره وصفائه، تقول العرب لمحبس الماء وصفائه يقين شبه الموضع من هذه الصفة بذلك؛ لاجتماع العلم هناك وصفائه، ونقيضه الشك وهو الحركة ومنبعثه من موضع الجهل بواسطة الغفلة والعدو، وقد يفهم سامع تصنيفنا هذا تحصيل مسافة وتجديد أماكن وعدة أغيار تغاير ذات العاقل العالم، وليس ذلك كذلك إنما هي عبارة عن حكمة الله ﷻ في لطيف صنعه وكريم تدبيره وأعاجيب ترتيبه حين أظهر الكثرة في الوحدة، ثم صور الوحدة من متغايرات الكثرة ومتنافرات الأضداد في أصل الجبلة فاض الأمر على سنن هذه الحكمة أن كثرة المسميات والصفات لا تفيد المسمى بها والموصوف تكثيرًا إنما تتوجه العبارة بالوصف على الصفة تبيينًا، وتفيد كثرة الأسماء للمسمى تعريفًا، ولكثرة الأسماء والصفات كثرت الأوصاف والتعريف بالمسمى، وكل ذلك لا يعد وإن يدل على المسمى والموصوف وعلى معاني الأسماء والصفات بما عبرت عنه من أجل ذلك تغايرت الأسماء والصفات في أنفسها حسب لا

أن تثير كثرة ولا بمغايرة للمسمى والموصوف، فافهم.

فزيد واحد في نفسه من حيث هو زيد لا من حيث هو أبعاض وأجزاء جمعت لم تتم وحدته إلا باجتماعها، فهو واحد بجملته كذلك باطنه المعنى منه المسمى بالعبد واحد وهو أولى بذلك وأحرى، وكماله حواس ظاهرة، فكذلك له حواس باطنة قد أخبر الله ﷻ عنها في غير ما موضع من كتابه العزيز بقوله: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:46]. وقوله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ [الأعراف:179] وإنما يصف بذلك الأعين الباطنة والآذان الباطنة، وقال أيضًا: ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**﴾ [البقرة:18] ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة:171] وإنما كان ذلك في بواطنهم لا في ظواهرهم، كذلك قال - عز من قائل - في الصنف الأعلى المقابل له: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى**﴾ [طه: 54] ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**﴾ [الحج:18] فباطن زيد لا محالة له واحد هو العبد وهو السر، وقد يوجه إليه معنى قول الله ﷻ: ﴿**يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**﴾ [طه:7] وقوله: ﴿**يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الفرقان:6]، وقوله: ﴿**يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النمل:25] فيخرج هذا السر من خزائن السماوات والأرض ثم قال: ﴿**وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾ [النمل:25] أي: هذه الذوات، فافهم.

فهذا العبد واحد في نفسه له صفات جمّة وأسماء عدّة ليست له بأغيار لكنها قاصرة ليست بكاملة، إما: لأنها صغيرة معرضة للتشوه، وإما لأنها في حال كمالها بالإضافة إلى أبناء جنسها وذلك؛ لأنها محدثة ومخلوقة وملك لمالك الحق والكمال الأرفع والتمام الأعلى للعلي الكبير: ﴿**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [النمل:26] الأحد الذات الواحد الأسماء والصفات، يشهد المآل والأواخر إلى نهاية نهاياتها في أبد أبدها، يشهد من حيث علم بعلم هو وصفه، وبشاهدة هي نعته لم تتفاوت عليه صفاته ولا يختلف علمه وشهادته؛ لأنه لا موجود في الأولية والآخرية سواه قوته كنه

قدرته دوام بقائه نظرة سعة علمه مدى نظره يدرك الأشياء كلها على اختلاف أوصافها بصفة من صفاته، ثم يدرك بجميع أوصافه ما أدركه بهذه الصفة لا يدخل الترتيب في صفاته، أعني: بقبل ولا بعد، ولا يوقف بحد، ولا يوصف بالتعقيب، لقوته وأحكامه بثم، ولم يعلم بنظره وينظر بعلمه الأوائل والأواخر كلها لديه كشيء واحد، صفاته آحاد كاملات تامات غير محدودة للمحدودات ولا مؤقتة مرتبة للمرتبات إذ الترتيب في النعوت من صفات الخلق والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ليس كمثله شيء في كل الصفات، ليست صفاته ذات جهات، فيتوجه إلى جهة دون جهة، أو يدرك بصفة دون صفة، قريب من كل شيء بوصفه ولا يحجبه شيء، ولا يبعد عليه شيء، الأحكام والأفكار واقعة على خلقه، والحجب والأستار متصلة بمخلوقه سبحانه وله الحمد جاوز المقدار والأحكام وفات العقول والأوهام سبق الأقدار، واحتجب بعزه عن الأفكار ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:11] فيعرف بالتمثيل، ولا جنس له فيقاس على التجنيس، ليس بمتصل بالكون ولا مفارق، ولا مماس للكون ولا مباعد، هو المنفرد بنفسه المتحد بوصفه، يخلق بيده إذا شاء وعن كلمته إذا شاء وبإرادته إذا شاء وبمعاني صفاته كيف شاء، لا يضطره التكوين للكلام، وكلامه إليه كما شاء كان، خزائنه في كَلِمِه، وقدرته في مشيئته، إذا تكلم أظهر، وإذا شاء قدر، ومتى أحب ظهر، وبأي قدرة شاء استتر، عزيز في قربه، قريب في علوه، قال الله ﷻ: ﴿**نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [النمل:8] وقال عز من قائل: ﴿**اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ [الحج:1] فوصفها بأنها شيء وذلك لوجودها عنده، وقال: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً**﴾ [الإنسان:1].

لا ترتيب في علمه ولا حذر ولا مسافة ولا بعد في قدرته فهو لذلك ﷻ يخبر بما يكون في الدنيا والآخرة، وما بعد ذلك بلفظ أنه قد كان الاستواء ذلك في علمه ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً**﴾ [النساء:87] قال الله ﷻ: ﴿**أَعِندَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى**﴾ [النجم:35] نقصه بذلك وذمه، وكذلك قوله: ﴿**يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ [الشعراء: 218. 219] أي: ويرى تقلبك وبه انتسب التقلب في درجات

الخلقة في أصلاب الساجدين، وبطون الساجدات مستودعًا ومستقرًا، وقال ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾ [الأعراف:11].

وإنما كان خلقنا وتصويرنا بعد السجود لآدم، فأخبر عنه أولاً بشهوده له في علمه إذ لا بد من كونه فهو عالم بالكون كله، ناظر إلى ما علمه، لا حجاب بينه وبين معلومه، سامع لما شهد متكلم إنما فقد سبق النظر والسمع والكلام الكون كله في حقه من حيث سبق العلم والإرادة والقدرة، وهو ناظر سامع متكلم بنفسه من حيث كان عالمًا مقتدرًا مريدًا بنفسه، ثم أظهر الخلق عالمًا بعد عالم وقتًا بعد وقت، فجاءوا على نظره وسمعه وعلمه وكلامه كما كانوا أولاً في علمه وقدرته ومشيئته بغير زيادة ذرة ولا نقصان خردلة؛ ذلك لأنه لا يمنعه عدم الكون ولا يحجبه فقدُ الظهور ولا بعد المتأخر، كذلك يشهد اليوم ما كان في قدمه بعلمه به وقدرته عليه وحيطته، وكما لا يجوز أن يستفيد الآن علم ما لم يكن علم في الأزل كذلك لا يجوز أن يدرك اليوم ما لم يكن أدركه في القدم سبحانه وتعالى عن ذلك أيكون متكلمًا بما لم يشهد، وهو معلومه ينطوي في علمه أو يكون مستزيدًا بما أظهر حين أظهره، وهو في قبضته وغيبه جل عن ذلك وصفه وتعالى عن هذا إجلاله وعزه؛ ولأن العلم ليس محلاً للكون ولا هو حال فيه، وقد سبقت أوليته الكون والمكان فليس لهما في قدمه قدم.

والكون ليس بكائن موجود لنفسه فيكون أولاً مع أوليته جل الواحد الأحد المتوحد عن ثان معه في الأزل أو شريك له في القدم، ولما هو - عز جلاله - لا يختلف الأواخر والأوائل في صفاته، ولا تتفاوت صفاته على ترتيبها من نظر وعلم؛ لأنها معلوم علمه وموجود إرادته، فهو سبحانه وله الحمد ناظر لأسباب الكون والمكان وما يكون في العاقبة والمآل إلى آخر الأحوال، ناظر إليها في علمه لا يوجدها لاقتداره عليها وإحاطة علمه بها.

والكون معدوم لنفسه لتلاشيه؛ لأنه خالق العدم كما هو خالق الوجود، ليس للعدم قدم مع قدمه فيكون ثانيًا معه، ثم ظهرت الأشياء بعضها لبعض بإشهاده، فوجدت بإيجاده وظهر عليها بإظهاره بحد ووقت ولا لها أول ولا قبل، بل هو الأول الذي لم يزل بلا أول، والقديم الأبد بلا وقت ولا أمد، هو القائم بصفاته وصفاته موجودة به، وبهذا يتبين لك الأقدم للعالم إذ لا قديم مع الله ﷻ في كينونة أجله، وهذه

هداية الإيمان والتبصر بنور اليقين، ومن لم يقتدِ بنور النبوءة، ويهتدي بالإيمان، وينظر بنور العقل دخلت عليه الشبهة والحد يقدم الحدثان أو جحد بقدم العلم بنفي وجود الحدث فيه وهو شرك في الصفات؛ لترتيبه إياها بالعقل؛ لأنه من قال: إن شيئًا قديمًا مع الله أو موجودًا بنفسه لنفسه فقد أشرك في الصفات، ومن قال: إن الله تعالى نظر بعد أن لم ينظر أو علم بعد أن لم يعلم أو تكلم بعد أن لم يتكلم أو ظهر بعد أن لم يظهر، فقد قال بحدوث الصفات، وقدم عليها المعلومات، والمعلومات منطوية في العلم، والله تعالى لا يعدم معلومًا، والمعلوم معدوم لنفسه غير موجود بنفسه حتى أخذه وأوجده، فظهر حين أظهره بعض لبعض، فرأى بعضه بعضًا إذ فرغ منه بنظره له كما لم يحدث به علمه إذ علمه صفته لم يزل هو قائم بوصفه، فكما لا يجوز أن يحدث شيئًا لم يعلمه كذلك لا ينبغي أن يفقد شيئًا علمه على ما علمه ثم يجده، ومن اختلف عليه ما ذكرناه دخل في مذاهب أهل البدع، وهذه شهادة الموقنين وإيمان المقربين، فاحذر العقل والمعقول، فذلك يحجبك عن شهود ما ذكرناه، وإنما يرى هذا بنور الإيمان لا بنور العقل، فافهم.

التعبد

اعلم - وفقنا الله - وإياك أن طلب العلم أول الواجبات عليك مع الإيمان، فتعلم العلم واسأل ربك ﷻ أن ينفعك بما علمك، ويبارك لك فيه، وأن يزيدك من فضله، فيعلمك من علمه الذي يقرب منه ويزلف لديه، وتعوذ به من علم لا ينفع، وعليك بكثرة النظر، وطول الاستدلال، ولزوم التدبر والتفرغ لذلك فهو طريق الوصول إن شاء الله تعالى إلى علم اليقين، واللحاق بأرباب التوحيد.

ولتعلم أن علم الأسماء والصفات جماع علوم التوحيد، وعلم ما يجوز على الموحد سبحانه منها وما يستحيل لديه.

يا أخي، إنه من عرف أن له ربًّا كريمًا يكرم المطيعين له، وأن طاعتهم له إنما تكون مع توفيق الله على قدر معارفهم به لجدير ألا يزهد في توفيق حكمه من تلك المعرفة حتى يصل إلى حقيقة التوكل عليه، وصدق الانقطاع إليه، والاستغناء به والدأب في طاعته إن كان يعلم ذلك وإن كان لا يعلمه فبكاؤه على نفسه أكد الأشياء عليه.

واعلم - وفقك الله - أنه ليس شيء من فضائل النفس ودرجات الزلف ألا وهي سراق بالعلم في العلم، فالعلم يرقى بك إليها، والعلم يصحبك فيها، وبقدر قوة علمك رقيك في درجاتها، فالخشوع عن العلم يكون، والورع عن العلم يكون، والخشية بالعلم تكون، وبقدر تفرغك للنظر والتفكر يصغى إليه قلبك بسمعه وببصره بسبل هدايته وبقدر سعة معرفتك بربك ﷻ بصفاته وأسمائه ومواقع قضاياه، وتصاريف تدبيره وأحكامه تستبين لك عظم الخطر، وجلالة الخطب مما بين يديك، وما أنت فيه وبكثرة سادة العلم والانتفاع به يكون تفرغك لنفسك في حال تنبيهك إياها من سنة غفلتها، رتوليد صفات التفريغ، وبقدر ذلك تزداد في منزلة الرقة والخضوع، وكلما ازدادت علمًا بذلك ازداد الأمر عندك عظمًا، وازداد قلبك هيبة وتخويفًا وإشفاقًا، وكان الخشوع بقدر الخوف فكان النشاط بقدر الرغبة، وكان الحذر بقدر الهيبة، ولكل شيء وجه ومطلب، ولكل مطلب تدبير ونظر، ولكل تدبير همة وجدة وأهبة، فمن لم يأخذ لمطلبه جدًّا وأهبة لم يغن عنه الهمة، ومن لم يكن له همة لم تكن له عناية، ومن لم تكن له عناية لم يصح له مطلب، ومن لم يكن له مطلب لم تكن له فائدة؛ لأن من طلب الأمور بغير أسبابها وابتغاها في غير سبلها فقد ضل سعيه، وجهل أمره وأخطأ بغيته، فلا يدركها ولو أعانه عليها أهل السماوات والأرض إن الله- جل ذكره- سبق في تقديره أن ينال شيئًا إلا من بابه الذي فتحه الله إليه، ولن يسلك إلى المطالب العلى من غير الباب الذي فتحه الله تعالى، وقد مضى فيما تقدم من الاعتبار أن جميع الموجودات معبدة خاشعة له خاضعة لما أحاط بها من قدرته وعظيم سلطانه وقهره وشمول إحاطته علمًا وخلقًا وأمرًا، فكذلك أيضًا هي عارفة به مسبحة بحمده من أجل ذلك قنتت له وسجدت؛ لأنه - عز وجهه - ألزمها من معرفته ما لا يستطيع إنكاره، ولا جحده وفي بعض الآثار: إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلقه لحظة فرجف من قواعده، ثم لحظة أخرى فكاد أن يزول من مكانه، ثم لحظة الثالثة فكاد أن يهمد من خوفه وإنما فعل ذلك؛ ليعرفه نفسه، ويلهمه ربوبيته، فعرف الخلق ربوبيته يومئذ معرفة لا ينبغي له أن ينكرها أبدًا، وذلك الخلق له يومئذ ذلاً لا ينبغي له أن يعتز بعدها أبدًا، ودخله من الخوف يومئذ خوف لا يخرجه منه بعدها أبدًا.

وأقر له بالمملكة يومئذ إقرارًا لا ينبغي له أن يستنكف منه بعدها أبدًا، ثم صارت تلك المعرفة وراثة فيما يكون من النسل بعد ذلك إلى يوم القيامة.

هذا ولم يكلف العبء الذي كلفته ولا جعل الإصر الذي حملته وقال الله - جل

قوله وتعالى علاؤه وجده - : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172]. وقال ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: 12].

فقد تمهد بما تقدم ذكره أن العلم وجب في أصل القضية ولوجوبه قدمه ﷻ قبل إيجاد الخلقة غرزه في سنخ[1] الجبلة، فكيف تطمع أنت أن تصل إليه بالجهل به؟ أو تتقرب إليه بتضييع ما أوجبه عليك حتى تعلم من خلقك، ولم خلقك وما أمرك به؟ وكيف تأتمر له؟

وقد قيل: العلم إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك لم يعطك كله ولا بعضه، والعلم لا ينال مع راحة الجسم، وروي في بعض الأخبار أنه مما أنزل في بعض الكتب المنزلة: يا بني إسرائيل لا تقولوا: العلم في السماء من ينزل به ولا في تخوم الأرضين من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبر يجيء به، العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين، وتخلقوا إلي بأخلاق النبيين، أظهروا العلم في قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم.

وقال عون بن عبد الله - رحمة الله عليه - : من تمام التقوى أن تبتغي إلى ما علمت علم ما لم تعلم، فإن النقص فيما علمت ترك ابتغاء الزيادة مما لم تعلم، وإنما تحمل العبد على ترك ابتغاء الزيادة قلة الانتفاع بما قد علم، ثم قال - رحمه الله - : رأس التقوى البصر وحقيقته العمل، ويكمله الورع، والهدى من الله كثير، ولا يعمل به يسير ولا يبصره إلا بصير بمنزلة نجوم السماء ما أكثرها، ولا يهتدي بها إلا العالم بها، وعن رسول الله ﷺ: **«من داوم الاختلاف إلى المساجد أصاب الخصال الأربع: آية محكمة، أو رحمة منتظرة، أو علمًا مستطرفًا، أو أخًا مستفادًا»**[2] علمنا الله وإياك من علمه، وأجزل لنا ولك الحظ من معرفته، وأعننا وإياك على ذكره وشكره وحسن عبادته.

---

(1) السِّنْخُ: أصل كل شيء. انظر: «العين» (1/308).

(2) رواه أحمد (2/418، رقم 9414، 9415).

اسمه ذو المعارج جل اسمه وتعالى جده

المعراج واحد المعارج، وهو ما تعرج عليه الملائكة والروح يقال منه: عرج يعرج عروجًا إذا ارتقى، وعرج وتعارج إذا مشى مشية الأعرج، وعرج صار أعرجًا، ومنعرج الوادي حيث يميل، والتعريج على الشيء العدول إليه، والاسم في قوله ﷻ: ﴿**ذِي المَعَارِجِ**﴾ [المعارج:3] مضافة إليه كقوله: ﴿**ذُو الجَلالِ**﴾ [الرحمن:27] و﴿**ذُو العَرْشِ**﴾ [البروج:15] وكقوله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [فصلت:43] أي: له مغفرة وعقاب وله العرش العظيم والجلال والإكرام.

الاعتبار

المعارج طرق الملائكة والروح - عليهم السلام - فإذا كان منهم صعود كان فيها عروجًا، ولهم أيضًا تنزل، قال الله ﷻ: ﴿**تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج:4]. وقال الله ﷻ: ﴿**يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ**﴾ [النحل:2] وما تنزل الملائكة إلا بالحق، وذكر التنزل والعروج في القرآن كثير، وإن كان طريق النزول هو طريق الصعود، فقد سُمِّيَ ذلك الطريق باسم الصعود والارتقاء؛ لشرفه أو لأنه تركب من معانيهما، وذلك أن حقيقة مشية الأعرج والمتعارج الماشي مشية الأعرج وارتفاع وميل لقصر الرجل العرجاء وطول الصحيحة بالإضافة إليها، ومنعرج الوادي وكل شيء حيث يميل، وقولهم: خرج عرج على كذا، أي: مال عليه فإن كان المعراج الذي هو طريق الصعود هو طريق النزول فقد سمي مركب المعنيين أو يكونا غيرين، فالله أعلم.

وأن يكون طريق النزول غير طريق الصعود أظهر إن شاء الله، قال رسول الله ﷺ: «**وما من مؤمن إلا له بابان باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه**»[1].

---

(1) أخرجه الترمذي (380/5، رقم 3255) وقال: غريب. وأبو يعلى (160/7، رقم 4133)، وأبو =

ولكل أمر معراج ولذلك جمعهما ﷻ في قوله: ﴿**ذِي الْمَعَارِجِ**﴾ [المعارج:3] وكما يتنزل الأمر بين السماوات والأرض تنزله في منازله كذلك يصعد إليه - عزّ جلاله - في معارجه، وكما يملأ ما بين ذلك تنزلاً كذلك العروج بما بين السماوات والأرض عروجًا ومعارجًا، قال الله ﷻ: ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ**﴾ [القدر:4].

فالمفهوم من هذا مع قوله ﷺ: «**ما من مؤمن إلا له بابان باب ينزل منه رزقه وباب يصعد منه عمله**»[1] أن لكل تنزلاً وأن لكل أمر تنزلاً، وأن لكل تنزل أمرًا معلومًا له، وكمثاله منزل كذلك له مصعد ومعرج فالأمر يتفصل بالتدبير إلى معارجه ومنازله أمره نازلاً أبدًا وصاعدًا أبدًا لا إله إلا هو الحي القيوم قال الله ﷻ: ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد:4] فتسمىﷻ بمعنى المعارج؛ لإحاطة ذلك بمنزلة الأرض كما تسمى بمعنى العرش العظيم؛ لإحاطته بالخليقة.

وسميت الملائكة - عليهم السلام - ملائكة؛ لفعلها لأنها تملك الملكوت، أي: تجيد ملكه، يقال من ذلك: ملكت العجين أملكه إذا عجنته فأخذت عجنه حتى تماسك بعضه ببعض؛ أو لأنها تبلغ الألوكة وهي المالكة، أي: الرسالة، وهي كذلك إما أن تنزل بالأمر على المدبرات أمرًا، وإما أن تعمل عملها، ثم ترسله إلى من يليها منهم هكذا فتقوم الأمر بين تدبير بأمر بإذن ربهم، وتبليغ عنه له ما بين أيدينا وما خلقنا وما بين ذلك لا عصيان عندهم لربهم ﷻ إنما هي طاعة محضة لا تنافس بينهم ولا تحاسد ولا تقاطع كل متوحد بعمل لا يتعداه إلى سواه إلا ما شاء الله، ومنزلتهم في طاعتهم في خدمتهم كالحواس الخمس في بني آدم لا معصية عندها لحاملها على الأكثر، ولا تحاسد بينهم في مراتبهم، وتوحدهم في أعمالهم كالملائكة - عليهم السلام - فالراكع منهم راكع أبدًا، والساجد ساجد، والقائم قائم، والذاكر ذاكر أبدًا لا يسأمون ولا

=

نعيم في الحلية (327/8).

(1) تقدم في سابقه.

يفترون؛ لوجودهم عن النور فردًا إلا تنازعهم صفاتهم، ولا تختلف بهم الدواعي منها سمائه ومنها أرضه، وهو أنها الأرضية مردهم من السمائية، ثم ينشئوا النشوء بالملائكة حتى إنه ليحمل العرش العظيم منهم أربعة أملاك والروح من أمر الله ﷻ يسري سريان الأمر به تثبت الصفات ويتحقق الوجود في الموجود مبثوث في العالم، وهو المخلوق كأرواح الحياة وبرد عليه روح سواه من علو ليس بمخلوق عن أمر الله ﷻ، فمتى ردف المبثوث في العالم في موجود ما معنى منه زائدًا على الأصلي فيه ازداد وجوده وتحققت حقيقته على نحو ما يريد به جاعله ﷻ، ومتى حل في الهواء زائدًا على المثبوت فيه منه كان نسيمًا، ومتى حل في النسيم كان ريحًا في الحديث قال رسول الله ﷺ: **«لا تسبوا الريح فإنها من روح الرحمن»**[1].

ومتى حلّ في جسم كان حياة، وكذلك وإن حل في حياة تحققت صفاتها على مقدار ما ردفها من ذلك، وكذلك متى حل في صفات عبد تحققت، وإن حل في صفة الإيمان تحقق فكان صديقية، قال الله ﷻ: ﴿**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**﴾ [المجادلة: 22].

ثم على قدر أحوال الحظ له من ذلك تحقق صفاته، فيكون ظنه يقينًا، وموضع شكه علمًا ونحو ذلك، ثم يتفقه الحكمة في صدره وتتفجر ينابيعها على لسانه قال الله ﷻ في ذكر عيسى ؑ: ﴿**وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ [البقرة: 87].

وتكثر أسماء الروح لحلوله في الخليقة كما تكثر أسماء الأمر لانقسامه، فيها غير أنه ينزل عنه اسم ويتسمى بأسماء الأمر، ثم يتناوله الوجود في تقليب الموجودات فتزول عنه أسماء الأمر، وتخلف ذلك أسماء الخلق، وكلما بعد بكثرة الوسائط تحقق اسم الأمر والروح فيه كما أنه كلما يعد بكثرة تحققت أسماء المخلوقية، وذكر بعض العلماء أن لله خلق من الأمر خلقًا ظاهرًا سماه بالروح وحلاه بحليته، والله أعلم، قال الله ﷻ: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ**﴾ [النبأ:38].

---

(1) أخرجه الترمذي (521/4، رقم 2252) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (231/6، رقم 10770)، والديلمي (13/5، رقم 7300).

وذكر بعضهم أن صور هذا الخلق على مثال صور الإنس، وأنهم لأكثر خلق الله عددًا، ولا تنزل الملائكة بالأمر ولا تعرج به أصبحوا من هذا الخلق - صلوات الله وسلامه على جميعهم - ومما يعرج وينزل أرواح بني آدم وأنفسهم؛ لأنها من جملة التدبير وقد تظاهرت الأخبار من طرق شتى بألفاظ مختلفة ومعان متقاربة أن روح المؤمن يعرج به فتفتح أبواب السماء سماء سماء، وأن روح الكافر يعرج به فتغلق دونه أبواب السماء فترسله الملائكة، وتخر من السماء دون تنزل نقصًا لتصديق كلمته الصادقة ﷻ: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ**﴾ [الحج:31] وقوله: ﴿**لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**﴾ [الأعراف:40] وقال رسول الله ﷺ: «**أرأيتم الميت إذا شخص بصره ذلكم نفسه يعرج بها فيتبعها بصره**»[1] وجاء في حديث المعارج أنه ﷺ لقي الأنبياء في السماوات السبع على منازلهم التي تبوؤها وذكر في حديث آخر أن أرواح المؤمنين في قناديل معلقة بساق العرش، وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من شجر الجنة، وأن أرواح المؤمنين في طير بيض وهؤلاء عموم المؤمنين، والله أعلم.

ودرجات هؤلاء تتفاوت من لدن أفنية قبورهم إلى السماء الدنيا، وأرواح الكفار في طير سود ودرجاتهم تتفاوت من ظلمات قبورهم إلى سجين تعرض على هؤلاء وهؤلاء على منازلهم من الجنة والنار غدوة وعشيًا، وجاء في بعض الآثار أن مأوى الكفار برهوت، وأرى - والله أعلم- إن صحت الرواية أنها أرواح الظالمين من أهل التوحيد، فمن ظلم في توحيده وكفر بذلك كفرًا دون الكفر الأكبر، وقد ذكر في بعض الأخبار ما يدل على هذا أضربنا عن ذكرها لما في ذلك سلب من يأتي ذكره في سياقها، وقد مضت إشارة فيما تقدم إلى بعض أحوال البرزخ فيها غنية لمن تذكر ومعتبر لمن اعتبر.

وجملة جامعة: اعلم أن لكل شيء عينًا ومعنًا، ولكل حق حقيقة، فالحق والعين ظاهر، والحقيقة والمعنى باطن كل لما قابله، ومن شهر لهذا فهو أحسن العون، وفي حديث رسول الله ﷺ شفاء لمن طلبه، ودواء نافع لمن عرفه فاستقر - وفقنا الله وإياك -

---

(1) رواه مسلم (921).

أحاديثه المشهورة في الإسراء وركوبه البراق وصفته وما رآه ﷺ في طريقه ذلك إلى بيت المقدس، وكيف صعد في المعراج، وكيف أتى باب الحفظة من السماء الدنيا فاستفتح جبريل، وأنه رأى آدم ﷺ كهيئته يوم خلقه الله ﷻ، وإذ الأرواح تعرض عليه فإذا مرّ به روح مؤمن، قال: «**روح طيب وريح طيبة**»[1] وإذا مرّ به روح كافر قال: «**روح خبيث وريح خبيثة**»[2] وفي أخرى إذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، ثم لما رآه في السماء الدنيا ثم كذلك سما إلى سماء إلى السماء السابعة، ورأى إبراهيم ﷺ مستندًا إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، قال: «**ثم دخلت البيت المعمور فصليت فيه**»[3] قال: «**ثم نظرت فإذا أمتي شطر عليهم ثياب رمد وشطر عليهم ثياب بيض**»[4] قال: «**ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا الورقة من ورقها لو غطيت بها الأمة لغطتها**»[5] وفي أخرى: «**فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كقلال هجر، وإذا السلسبيل قد انفجر من أصلها نهران: نهر الرحمة، ونهر الكوثر**»[6] قال: «**فاغتسلت في نهر الرحمة فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأعطيت الكوثر فسلكته حتى انفجر في الجنة، فنظرت في الجنة فإذا طيرها كالبخت، وإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير، وإذا بجارية فقلت: يا جارية لمن أنت، فقالت: لزيد بن حارثة، وإذا في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونظرت في النار فإذا عذاب الله شديد لا تقوم له**

---

(1) رواه الحارث في «مسنده» (27).

(2) تقدم في سابقه.

(3) أخرجه الطبراني (417/11، رقم 12185)، ونحوه أخرجه أحمد (153/3، رقم 12580)، وعبد بن حميد (ص 364، رقم 1210)، والنسائي في الكبرى (470/6، رقم 11530)، والحاكم (508/2، رقم 3742) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (438/3، رقم 3993).

(4) أخرجه أحمد (65/6، رقم 24412).

(5) رواه الحارث في المسند (27).

(6) رواه الحارث في مسنده (21).

الحجارة ولا الحديد»[1] قال: «**فرجعت في الكوثر حتى انتهيت إلى سدرة المنتهى فغشيها من أمر الله ما غشي، ووقع على كل ورقة ملك، وأيدها الله بإياده، وأوحى إلي ما أوحى، وفرض على كل يوم خمسين صلاة»**[2] ثم ساق الحديث بطوله اختصرته مجموعًا من روايات شتى رواية أبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك وعبد الله بن مسعود، وأبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، وفيه على سياق تخريج الحارث بن أسامة، قال: «**لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منِّي فإذا أنا برهج ودخان وصواعق، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين تحرق على أعين بني آدم؛ لئلا يتفكروا في ملكوت السماوات، ولولا ذلك لرأوا الأعاجيب فلما نزلت إلى بيت المقدس فجمع لي النبيين من سمي لي منهم ومن لم يسم، فأممتهم حاشا الرهط الثلاثة: عيسى وموسى وإبراهيم»**[3] وذكر في حديث أنس أنه رأى موسى عليه السلام في قبره قائمًا يصلي، وذلك إلى بيت المقدس في مسراه ذلك، قال: «**كنت عند الكثيب الأحمر إلى جانب الطريق لو كنت لرأيتكم قبره»**[4] ثم وجده في السماء على هيئته، وكذلك إبراهيم وعيسى - عليهم السلام - ورأى خازن النار، ورأى الدجال في آيات أراهن الله إياهاَ ﴿**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ [البقرة:147].

فهده أرواح جسمانية مجردة من أجسامها، وأجسام روحانية وأرواح، وقد جاء بهذا الخبر الصادق عن صادق مصدق فوجب المصير إلى ما جاءت به، فاعتبر تبصر إن شاء الله ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾ [آل عمران:13].

التعبد

فاحرص - رحمك الله - ألا يصعد عنك إلى ربك إلا ما يرضاه، ولا قوة إلا بالله

(1) رواه الحارث في مسنده (21).

(2) رواه أبو عوانة في المستخرج (202/3).

(3) رواه الحارث في مسنده (21).

(4) رواه الحارث في مسنده (21).

العلي العظيم، وانظر إلي ما تمليه على كاتبيك، وما تجالس به رقيبك، وما تودعه صحيفتك في ليلك ونهارك، ولا تهمل أمرك فلست بمهمل، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد الذين يأتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون**»[1].

وفي هذا فاعلم أدب لمن تعالت به همته إلى التأدب بأدب الملائكة - عليهم السلام - قولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون، فكم يشاهدونه من العباد مما لا يرضيهم، فيثبتونه في صحائفهم لأداء الأمانة التي ائتمنوا عليها، فإذا سألهم ﷻ أثنوا بخير ما شاهدوه، وأضربوا عن غير ذلك ﴿**وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [النحل:50] فالحمد لله رب العالمين.

كذلك فلتكن أنت - رحمك الله - أحسن الاقتداء بالطاهرين الطيبين - عليهم السلام - إذا سئلت عن جملة الحال، فقل خير ما تعمله، ولا تتخلق بأخلاق الذباب يجتنب صحيح الجسد ويتوخى الموضع الدبر منه فيقع عليه فاستحي أولاً من حفظتك الملازمين لك، ثم من الملائكة الكتبة غيرهم الذين يكتبون فضائل الأعمال قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة سياحين فضل على الكتبة يلتمسون حلق الذكر....**»[2].

وقال ﷺ في رجل جاء الصلاة وقد حفزته النفس، ورسول الله ﷺ يقول: «**سمع الله لمن حمده**» فقال: ربنا لك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه: «**لقد رأيت بضعة عشر ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً**»[3] وقال ﷺ: «**دعوة المؤمن مستجابة لأخيه بظهر**

---

(1) رواه البخاري (3223).

(2) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (382/2، رقم 8960)، والبخاري (2353/5، رقم 6045)، ومسلم (2069/4، رقم 2689)، وابن حبان (137/3، رقم 856)، وأبو نعيم (117/8). وأخرجه أيضًا: الطيالسي (ص 319، رقم 2434)، والبيهقي في شعب الإيمان (399/1، رقم 531). حديث أبي هريرة وأبى سعيد: أخرجه أحمد (251/2، رقم 7418) والترمذي (579/5، رقم 3600) وقال: حسن صحيح..

(3) أخرجه عبد الرزاق (201/2، رقم 3065)، وأحمد (393/4، رقم 19522)، ومسلم (303/1،
=

الغيب عند رأسه ملك يؤمن على دعائه كلما دعا بخير قال: آمين ذلك بمثل»[1] وقال: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب**» وقال: «**إذا قام الرجل وصلى وحده صلى معه ملكاه، وإذا أذن وأقام صلى معه أمثال الجبال مع الملائكة**»[2].

فلو لم يكن المشاهد لك إلا هؤلاء لوجب الحياء من فعل كل قبيح والاستباق إلى كل صالحة، فكيف بالشاهد الأكبر، والملك الأعظم رب العالمين؟ إذ اليقين حاصل إن هؤلاء الشهود مع عظم أخطارهم، وجلالة أقدارهم يحبون فعل الصالحات، ويحبون عليها ويمقتون القبائح ويمقتون عليها ومن أجلها وكيف والجزاء مع ذلك جار من ديار العباد خارج مع الأعمال ومدخر معها عاجلاً وآجلاً للحسنة نورها وثوابها، وللسيئة ظلمتها وجزاؤها، بل كم من الشاهدين لك غيرهم من الجن مؤمنيهم وكافريهم، وأرواح الإنس الجائلة في الهواء، ونفوسهم اللازمة أفنية قبورهم، ومن الملائكة وما لا يحسبهم لا يعلم عدد مردهم إلا الله - جل ذكره - قال رسول الله ﷺ لأبي سعيد الخدري: «**يا أبا سعيد، إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فحضرت الصلاة فأذن فإنه لا يسمع مدى صوتك جن ولا إنس ولا شجر ولا مدر**» وفي أخرى: «**ولا شيء إلا شهد لك يوم القيامة**»[3] وكما يشهدون لفاعل

=

رقم 404)، وأبو داود (1/255، رقم 972)، والنسائي (2/196، رقم 1064)، وابن ماجه (1/ 291، رقم 901)، وابن حبان (5/540، رقم 2167).

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (6/21، رقم 29158). وأخرجه أيضًا: مسلم (4/2094، رقم 2733)، وابن ماجه (2/966، رقم 2895)، والبخاري في الأدب المفرد (1/219، رقم 625).

(2) أخرجه الطيالسي (ص 160، رقم 1165)، وأخرجه أيضًا: أحمد (4/239، رقم 18114)، والدارمي (1/113. رقم 357)، والترمذي (5/545، رقم 3535) وقال: حسن صحيح. والبيهقي (1/276، رقم 1225)، والطبراني (8/63، رقم 7373).

(3) أخرجه مالك (1/69، رقم 151)، والشافعي (1/33)، وأحمد (3/43، رقم 11411)، وعبد بن حميد (ص 306 رقم 993)، والبخاري (1/221، رقم 584)، والنسائي (2/12، رقم 644)، وابن ماجه (1/239، رقم 723)، وابن حبان (4/546، رقم 1661).

الخير فكذلك يشهدون عليه ما عمل من شر، وقال ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون ما في السماوات والأرض موضع شبر إلا وعليه ملك يسبح الله ويقدسه**»[1] وكذلك ينبغي لك أن تستحي من أسلافك الذين صاروا إلى البرزخ، فإن أعمال ذويهم تعرض عليهم، وفي ذلك حديث أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أفضل الأيام يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليَّ**»[2] وفي حديثه ﷺ عن مسراه أن آدم عليه السلام يعرض عليه نسم بنيه من أهل الجنة وأهل النار عن يمينه وشماله فيسر بهؤلاء ويحزن لهؤلاء، وهذا سائر في بنيه من بعده فتعرض أعمال ذويهم عليهم، فيسر المؤمنون بالأعمال الصالحة ويبتئسون بسيئها، ويحزن الكافرون بأعمال من سلك سبيلهم بعدهم من ذويهم ومعارفهم ويشتد ندمهم وأسفهم على فوات ما فات من صالح عمل من أصلح بعدهم منهم؛ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه في المنتحلين سب علي - رضي الله عنهما - :

أَحــياؤهُم خــزيٌ عَلــى أَمــواتِهم وَالميـتونَ شِـرارُ مـن تحـتَ الثـرَى

وقال الله ﷻ: ﴿**وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [آل عمران: 170] وكان أحد المهاجرين، وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن رواحة - رحمة الله على جميعهم - يقول: اللهم أعوذ بك من عمل يخزي عبد الله بن رواحة.

وكذلك فاعلم أيضًا أن كل من أوتي إلى ذكره من الملائكة الحفظة والكتبة

---

(1) أخرجه أحمد (173/5، رقم 21555) والترمذي (556/4 رقم 2312)، وابن ماجه (1402/2 رقم 4190)، والحاكم (554/2، رقم 3883) وأبو الشيخ في العظمة (982/3، رقم 507).

(2) أخرجه أحمد (8/4، رقم 16207)، وابن أبي شيبة (253/2، رقم 8697)، وأبو داود (275/1، رقم 1047)، والنسائي (91/3، رقم 1374)، وابن ماجه (524/1، رقم 1636)، والدارمي (1/ 445، رقم 1572)، وابن خزيمة (118/3، رقم 1733)، وابن حبان (191/3، رقم 910)، والحاكم (413/1، رقم 1029). والطبراني (216/1، رقم 589)، والبيهقي (519/1، رقم 1666).

والفضل إلى غير ذلك من جنود الله ﷻ التي لا تحصيها سواه، فإنه تبارك وتعالى قد خلق ضدًا لهم من الشياطين والمردة والعفاريت، وسائر أنواع الجن يرونك من حيث لا تراهم، ويشاهدون فعلك من حيث لا تشاهدهم بقبيح عملك وترضيهم بهلاكك كما تحزنهم بطلب مرضاته ﷻ وتيئسهم بنجاتك من كيدهم قال رسول الله ﷺ: **«ما رئي الشيطان أذل ولا أدحر منه يوم عرفة، وما ذاك إلا لما يراه من رحمة الله عباده وتجاوزه عن الذنوب العظام»**[1]، وقال الله ﷻ: **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً﴾** [فاطر:6] وقال ﷺ: **«ما من أحد إلا وله شيطان»** وقيل: ولا أنت يا رسول الله. قال: **«ولا أنا إن الله أعانني عليه فأسلم، فهو لا يأمرني إلا بخير»**[2] وقال الله ﷻ حاكيًا عن القرين: **﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾** [ق:27] فهؤلاء هم الملازمون للعبد.

ومنهم: فضل عن الملازمين في مقابلة الفضل من الملائكة - عليهم السلام - قال رسول الله ﷺ: **«إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين»**[3] وفي حديث آخر: وذكر رمضان، فقال: **«وتصفد فيه مردة الشياطين»**[4] قال: «تخلصوا فيه إلى ما كانوا يخلصون في غيره».

---

(1) حديث طلحة بن عبد الله بن كريز المرسل: أخرجه مالك (422/1، رقم 944)، والبيهقي في شعب الإيمان (461/3، رقم 4069).

حديث طلحة بن عبد الله بن كريز عن أبي الدرداء: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (461/3، رقم 4070).

(2) أخرجه أحمد (385/1، رقم 3648)، ومسلم (2167/4، رقم 2814)، وأبو يعلى (77/9، رقم 5143). وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة (330/1، رقم 658)، والبزار (254/5، رقم 1871)، وابن حبان (327/14، رقم 6417)، والطبراني (218/10، رقم 10522)، والشاشي (251/2، رقم 824) وقال: حسن. وأخرجه أيضًا: الديلمي (37/4، رقم 6115).

(3) أخرجه البخاري (671/2، رقم 1799)، ومسلم (758/2، رقم 1079).

(4) أخرجه أحمد (230/2 رقم 7148) والنسائي (129/4 رقم 2106) والبيهقي في شعب الإيمان (301/3 رقم3600).

وإنما تصفد الشياطين عمّن دخل عليه حقيقة، فيغل شيطان الطبع منه بإقرار إيمان المؤمن، ودخوله في السلم، وشروط الصوم بتعظيم حرمة رمضان يسر بالصيام عليه منافسه في مجاري الدم، وبقلة الغذاء فتضعف من أجل ذلك إجابته لوحي الدسول له الملازم إياه، فتقوى بذلك دولة الحزن الصالح في العبد فلا تجد الشيطان الفضل مساغًا إليه إلا قليلاً، وإنما قوي الملازم منهم للعبد بوسيلة الحال في مجاري الدم منه ومن جنسه الممتزج بأمشاجه وأخلاطه، وقوي الفضل منهم على العبد بقوة الملازم ويشتد جلبه عليه أيضًا بواسطة إنسان مثله، فإن الشيطان يتصيد الإنسي بمثله، فبتقليل الغذاء يضعف الملازم في باطنه، وبرد الخاطر تهز قوة الملازم من خارجه، وبذكر الله - جل ذكره - يخنس وينقطع الفضل منه بالعزلة ويضعف كيده بمعرفته ومعرفة مكائده والاستعاذة بالله ﷻ منه.

واعلم أن للجن سلمًا دون السماء الدنيا لاستراق السمع في مقابلة المعراج للأرواح والملائكة - عليهم السلام - قال الله ﷻ: ﴿**إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾ [الصافات:10] والملائكة رسل، والشياطين مسترقو السمع، والملائكة صادقون مصدقون، والشياطين كذبة، قال الله ﷻ: ﴿**أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ [الطور:38] ووصف رسول الله ﷺ مسترقي السمع في مصافهم ذلك ففرق بين أصابع يده ونصبها فجعل المسحة أعلاهن وجعل الخنصر أسفلهن، وذكر أن المستمع يلقي الكلمة إلى وليه الذي دونه في درجة السلم الأدنى إليه ويرميه الشهاب، فإن ألقاها إلى وليه قبل أن يصيبه الشهاب وإلا بطلت.

وذكر أنهم يكذبون فيما يحصل لهم من المسموع، وقال رسول الله ﷺ في الشيطان صدق في شيء ما : «**إنه صدق وهو كذوب**»[1].

وذكر بعض العلماء أن لله تبارك وتعالى شياطين في البر ليس لهم على ما في البحر سلطان، وشياطين في البحر ليس لهم على ما في البر سلطان، وشياطين في الجهر ليس لهم على ما في السر سلطان، وشياطين في السر ليس لهم على ما في الجهر سلطان، وشياطين في النهار ليس لهم على ما في الليل سلطان، وشياطين في

---

(1) تقدم تخريجه.

الليل ليس لهم على ما في النهار سلطان، وشياطين في الظلمة ليس لهم على ما في النور سلطان، وشياطين في النور ليس لهم على ما في الظلمة سلطان، وشياطين في النوم ليس لهم على ما في اليقظة سلطان، وشياطين في اليقظة ليس لهم على ما في النوم سلطان، وشياطين في الأنس ليس لهم على ما في الوحدة سلطان، وشياطين في الوحدة ليس لهم على ما في الأنس سلطان، وشياطين موكلون بالرجال ليس لهم على النساء سلطان، وشياطين موكلون بالنساء ليس لهم على الرجال سلطان، وشياطين على المالك ليس لهم على المملوك سلطان، وشياطين على المملوك ليس لهم على المالك سلطان، وشياطين على الضعفاء ليس لهم على الأقوياء سلطان، وشياطين على الأقوياء ليس لهم على الضعفاء سلطان، وشياطين على الصغار ليس لهم على الكبار سلطان، وشياطين على الكبار ليس لهم على الصغار سلطان، وشياطين على العلماء ليس لهم على الجهال سلطان، وشيطان على العباد ليس لهم على أهل الفسق سلطان.

فليتعرف العبد حاله ونفسه وسنه ومجالسيه ومؤانسيه ووحدته وأنسه وزمانه وسلطانه، وجميع أحواله وأموره كلها، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم **﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾** [النحل:100،99].

اسمه ذو العرش ﷻ

العرش في كلام العرب: السرير قال أمية بن أبي الصلت:

مَجِّدوا اللهَ فَهوَ لِلمَجدِ أَهلُ ... رَبُّنا في السَماءِ أَمسى كَبيرا

الأَعلى الَّذي سَبَقَ الناسَ ... وَسَوّى فَوقَ السَماءِ سَريرا

وليس السرير له باسم شرعي فعلى ذلك لا يجوز أن يسمى الله ﷻ أو شيء من صفاته وأسمائه وخواصه بغير اللفظ الذي جاء في الشرع لم يصفه الكتاب به ولا الرسول ﷺ فلا يجوز من ذلك أن يقال في العرش: هو سرير الله، ولا قبة الله، ولا

سطح الله، ولا في الكرسي: منبر أو مقعد أو منزل أو مجلس لا يوصف بشيء من ذلك إلا بتوفيق من الله ﷻ أو رسوله ﷺ.

كذلك لا يجوز أن يذكر الله أحد بالعجمية إلا أحد لا يحسن العربية، فتبح له الضرورة الذكر بالعجمية فيما أحاط علمًا بمعناه إحاطة تامة حتى يكونا معنى بمعنى[1].

---

(1) قال القاضي ابن العربي - رحمه الله تعالى - عند قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [البروج:15] أي: خالقه، وقيل: المراد بالعرش الملك، وقرأ: ذي العرش صفةً لربك، المجيد، أي: العظيم في ذاته وصفاته، فإنه واجب الوجود، تام القدرة والحكمة، وجده حمزة والكسائي صفة لربك، أو للعرش، ومجده علوه وعظمته، انتهى.

والعرش في الله سرير الملك، وفي الاصطلاح: مستوى الأسماء المقيدة.

وقال في «القاموس»: العرش عرش الله ولا يُحد، أو ياقوت أحمر يتلألأ من نور الجبار تعالى، وجمعه: (عروش، وعُرُش، وأعراش، وعرشة)، انتهى.

وقال الشيخ إبراهيم اللقاني - رحمه الله تعالى - في «شرح الجوهرة الصغير»: وهو جسم نوراني علوي، محيط بجميع الأجسام، قيل: هو أول المخلوقات، ولا قطع لنا بتعيين حقيقته؛ لعدم العلم بها، وفي بعض الآثار أن الله تعالى خلقه من نوره. والكرسي جسم عظيم نوراني بين يدي العرش ملتصق به، لا قطع لنا بتعيين حقيقته، والماء كله في جوف الكرسي على متن الريح، وليس العرش كرسيًا كما يزعمه كثير من أهل الهيبة، وعند المتكلمين والمحدثين: قبة ذات قوائم تحمله في الدنيا أربعة أملاك، وفي الآخرة ثمانية، وحملة الكرسي أربعة، فأتت أقدامهم الأرض السابعة السفلى، مسيرة خمسمائة عام، وبين حملة العرش وحملة الكرسي سبعون حجابًا من ظلمة، وسبعون حجابًا من نور، غلظ كل حجاب خمسمائة عام، لولا ذلك لأُحرقت حملة الكرسي من نور حملة العرش، وفي عطف الكرسي على العرش رد لقول الحسن: هوالعرش، وفضل الكرسي على السموات السبع فضل النواة على الحلقة، وفضل العرش على الكرسي كذلك، وليسا متصلين بالسماء السابعة، وانظر أيهما أفضل من الآخر، والوصف بالعظم لا يستلزم، انتهى.

وقال سيدي محيي الدين - قدس الله سره - في «فتوحاته»: اعلم أن العرش أحاط بالعالم؛ لاستدراته بما أحاط به من العالم، وكل ما أحاط به فيه؛ لاستدارة ظاهرة حتى في المولدات، وانظر التشبيه النبوي حيث قال: «**الكرسي في جوف العرش كحلقة في فلاة من الأرض**»، فشبهه بشكل مستدير، وهي الحلقة في الأرض، وكذلك تشبيه السموات في الكرسي، وإلا كرة الأربعة في جوف الفلك الأدنى كذلك، ثم ما تولد عنها لا يكون أبدًا في صورته إلا مستديرًا، أو مائلاً إلى الاستدارة، معدنًا كان أو نباتًا أو حيوانًا، وذلك لأن الحركة دورية، فلا تعطي إلا ما شاكلها، فالعرش أعظم الأجسام من حيث الإحاطة جرمًا وقدرًا، فهو العرش العظيم، وبحركته أعطى ما
=

=

في قوته لمن هو في حيطته وقبضته، فهو العرش الكريم، ونزاهته أن يحيط به جسم غيره، فشرف على سائر الأجسام، فهوالعرش المجيد، ثم إنه استوى عليه، الاسم الرحمن، إلا من أجل أن له النفس، وذلك أن المحاط به في ضيق من علمه بأنه محاط به من حيث صورته، فأعطاه النفس الرحماني من أمره، فكان مجموع كل موجود في العالم صورته وروحه المدبر له، وجعل روحه لا داخل في الصورة ولا خارج عنها؛ لأنه لا يتحير، فانتفى الشرط، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط، فإن النفس التي صدرت عنه الأرواح لا داخل في العالم ولا خارج عنه، فإذا نظر الموجود في كونه محاطًا به، ضاق صدره من حيث روحانيته، نفَّس الله عنه ذلك الضيق بروحه؛ لما علم بأنه لا يوصف بأنه محاط به إحاطة العرش بالصور، فزال عنه، وأفرده ذلك الابتهاج والفرح والسرور بذاته، من حيث روحه، فلهذا وقع الاستواء بالاسم الرحمن، وإحاطة هذا العرش من الإحاطة الإلهية، كالعلم في قوله: ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: 12]: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [البروج: 20]، وليس وراء الله مرمى، فهو المنتهى وماله انتهاء: ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 6]، والحكمة في أن العرش من النفس الرحماني وحده، وهو الأمر الإلهي لإيجاد الكائنات، فإن النفس سار إلى منتهى الخلاء فيه، حتى كل شيء، فإن العرش على الماء، فقبل الحياة بذاته، فخلق الله تعالى منه كل شيء، أفلا تؤمنون بما ترونه من حياة الأرض بالمطر؟ وحياة الأشجار بالسعي؟ حتى أن الهواء إذا لم يكن فيه مائية، وإلا أحرق.

فإن قلت: والملائكة الحافين من حول العرش، ما بقي لهم خلاء يتصرفون فيه،؛ إذ العرش قد عمر الخلاء، قلت: لا فرق بين كونهم حافين من حول العرش، وبين الاستواء على العرش، فإن من لا يقبل التحيز لا يقبل الاتصال والانفصال، ثم إن الملائكة الحافين من حول العرش، فما هو هذا الجسم الذي غمر الخلاء، وإنما ذلك العرش الذي يؤتى به للفصل والقضاء يوم القيامة، وهذا العرش الذي استوى فيه هوعرش الاسم الرحمن، أما سمعته يقول: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: 75]، عند الفراغ من القضاء، فذلك يوم القيامة، تحمله الثمانية أملاك، وذلك بأرض الحشر، ونسبة العرش إلى تلك الأرض نسبة الجنة إلى عرض الحائط، قبلة الرسول ﷺ، وهو في صلاة الكسوف، وهذا من مسائل ذي النون المصري في إيراد الواسع على الضيق، من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع، ومن عرف المواطن هان عليه الأمر، ثم أخبر أنه لو كشف ببعض الأسرار المختصة به، وقال: أعلم أن هذا العرش قدجعل الله له قوائم نورانية، لأدري كم هي، لكني أشهدتها، ونورها يشبه نور البرق.

وقال الشيخ في «عقلة المستوفز»: ثم العروش خمسة عشر: الحياة، وهو عرش الهوية، وعرش

=

والعرش أيضًا: العريش يستظل به، والجميع عروش وعرشة أو أعراش، والمراد به الرفعة والعلو وقوام الأمر ومنه قيل: تل عرشه وهي عبارة عن دمار الحال والمنزلة، وقيل: سقف البيت عرشه؛ لعلوه، وقيل: للبيت عرش؛ لأنه قوام لساكنه، وقيل أيضًا لمكة العرش؛ لأنها بيوت مجتمعة رفعت سقفها يرجع إلى قولهم العريش لشيء يستظل به، وربما كان ذلك؛ لأن العرب كانت تسكن الأخباء، وكانت بيوت مكة أولى عندهم بهذا الاسم؛ لعلو بنائها وبقائه بالإضافة إلى الأخباء، أو لرفعة مكة في نفوسهم، أو لأنها قوام للناس، وقد يسمى حامل العرش عرشًا من حيث قوام العرش به، وكذلك قولهم: عرشت الكرم بالعروش هو العريش أي: رفعته بالعبد الحاملة له القائمة به، قال الله ﷻ: ﴿**فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾ [الحج: 45] أي: قائمة على عمدها الحاملة لها القائمة بها، وقيل للحمتين: مستطيلتين قائمتين مع العنق عرشان من ذلك أيضًا.

وعرش القدم ما بين غيرها وأصابعها سمي بذلك والله أعلم لاعتماد القدم عليه في القيام والمشي، والعريش شبه الهودج، وكان رسول الله ﷺ في يوم بدر في عرش أي في شيء رفع له ليظله، والعرش أرفع المخلوقات وأعلاها وهو قوام كل شيء من المخلوقات والمحيط به وظل العرش هو الظل الحق، وهو مكان العظمة وعرش الملك الأعلى المجيد المدبر الحكيم الرحمن الرحيم عليه استوى ﷻ وتقدست أسماؤه من أعلاه يقضي القضاء كله ويدبر الأمر كله، ومن فوقه تنبعث الأحكام والحكمة التي بها كون كل شيء وبها يكون الإيجاد والتدبير وبها يكون الخلق كله وعنها يوجد الروح العلي الذي عليه مدار كل شيء وبه ثبات كل شيء وبقاؤه وصلاحه ومن بعده فساد كل شيء ودماره والله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وتقدست أسماؤه فوق

=

الرحمانية، والعرش الكريم، والمجيد، والعظيم، فعرش الحياة هو عرش المشيئة، وهو مستوى الذات، وكان عرشه على الماء، ولهذا هوعرش الحياة: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء:30]، والعنصر الأعظم - أعني فلك الحياة - وهو اسم الأسماء ومعدمها، وبه كانت، والعرش المجيد هو العقل، والعظيم هو النفس، وهو اللوح المحفوظ، وعرش الرحمانية هو أول الأفلاك، والكريم هو الكرسي.

ذلك كله.

الاعتبار

اعلم - أيدك الله بمعونته- أن الفكرة تجري في كل شيء دق أو جل فترتفع حتى تملأ الآفاق وتبلغ العرش والدليل على ذلك قوله الصادق: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:185] فجعل الفكرة في كل ما خلق من شيء، وجميع ما أوجده الله ﷻ في هذه العاجلة منصوبًا للأبصار فهو درجات يرتفع فيها إلى علم الغيب المكنون الذي يدرك في الدنيا بالقلوب، ويدرك في الآخرة بالعيان فأنت - رحمك الله - إذا نظرت بنور إيمانك مستعينًا بربك ﷻ سائلاً إياه أن يسلك بك أفضل السبل، ويهبك أكرم الوسائل لديه في أقل الخلائق جرمًا، وأخسها قدرًا على النحو المتقدم لنا من النظر في الأسماء الحسنى واستقراء آثارها في الموجودات كالخردلة والذرة والبعوضة وأدنى من ذلك رأيت ببصيرة عقلك ونور إيمانك يفلج الخصم ويبهر العدو وتنقطع به شبه المجادلين في آية الله بغير سلطان أتاهم، فإنه ﷻ جعلها في الاعتبار كفاء، ولها في الاستدلال بها عليه غناء، أقامها في الاعتبار في ملكوت مقام فحوى الخطاب في كتابه تنبيهًا للمبتدئ من عباده، وتذكرة للمنتهي من أوليائه، ومن الواجب اللازم عند ذوي العقول المنيرة والفطر السليمة أنه إذا أقام الصغير من مخلوقاته، والدنيء من موجوداته حجبه وبيَّن دلالته، فالأعلى من مخلوقاته والجليل من موجوداته أولى بذلك وأحرى؛ ولذلك قال ﷻ: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [غافر:57].

فاستشعر الجد واستفرغ الجهد - وفَّقك الله - فلو قد خرجت من ظلمة أخلاط جسمك، وفرَّغت سمعك من ضوضاء هواء جوك لا ألقيت كل ما عظم الموجود - عظم قدره - وكلما على محله قويت شهادته، وعلى قدر قربه من موجوده تتبين إشارته، ويعظم في سنن الاعتبار غناؤه؛ لأنه كلما قرب عظمت عليه نعمته ولزمته بركته، فكيف لو سموت بلبك إلى الأفق المبين حلت بنور إيمانك بحبوحة ذلك القرب المكين لعاينت وسمعت وشاهدت ما لم تكن تعلم.

هنالك يا أخي تتنور المظلمات، وتتضح المتشبهات، وتتجلى المشكلات فبدت

لك المعارف بينة في ذلك الجلاء، وتحققت قصد السبيل في ذلك الصفاء، وسمعت الجوامد تهرج بالتسبيح، وأصوات تخطب بالتوحيد، وبان لك صمود الأشياء كلها إليه في ذلك الضياء واستلام جميع الخلائق لديه لعزة الكبرياء، وربما صعدت بلبك علوًا فوردت عليك الفوائد وازدحمت على سرك السرائر، فلبعضها وقع في القلب وتفصيل معًا، وبعضها تبصرها البصيرة كما يبصر البصر البرق يكاد يخطفه، وبعضها كلمعان البرق في الجو على بعد، وتفصيل ذلك على قدر القرب والبعد، ومشيئة الهادي المرشد - جل ذكره - فكيف بك لو وصلت بلبك إلى من ليس دونه مقصد ولا وراءه منتهى؟! إلى الصدق من صفاته والحق من أسمائه إلى سؤال السائلين، وأمل الآملين كيف ترى فصاحة بيانه وقصد إشارته وكريم مشاهداته وعدالة شهادته وحسن تعليمه وكريم إرشاده ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ﴾ [الأنعام:19] مثل ذلك مثل رجل أراد الحج إلى بيت الله الحرام من قطر بعيد وفج عميق، ولم يكن قبل ذلك عرف البيت ولا رآه، فاستدل عليه من بعيد قطره من رأى البيت وعرفه، فأقصى جهد الدال له أن يسميه ويصفه ويشير إليه من بعد بالناحية والأمم، فلما أخذ في الرحلة إليه كلما قرب من القطر الذي فيه مقصده واستدل عليه قويت دلالة الدالين عليه، وقربت إشارات المشيرين إليه حتى تقع إشارات المشيرين إلى البيت من حيث يرونه عيانًا حتى سمع أصوات الملبين من كل جهة جهرًا فأخذ لوروده عليه هبته فعادت الدلالات على البيت إشارات، ثم كيف تراه إذا بلغ إليه وشاهده بمعرفة منه أنه هو مقصده الذي إليه قصد، ومن أجله رحل وتغرب عن أهله ووطنه أتراه يتعداه إلى سواه أو يلزمه يطوف حوله ويسمى ويحفد عنده، ويعظم قدره ويجل حرمته فبيت الله ﷻ وزواره مثال للمغتربين في الملكوت المستدلين عليه بآثار صنعه وبدائع فطرة القاصدين إلى معرفته ألا تراهم كيف مُنعوا من الصلاة في داخل البيت إلا الدعاء، بل جعلت عبادتهم في التطواف به والسعي حوله، والوقوف بالمشاعر والمناسك التي جعلها في حرمه مثالاً لأمورهم ملاقوها في حومة زيارته وكريم موعده تنبيهًا لهم بأن يعتبروا بمخلوقاته، ولا يتفكرون في ذاته إلا بالقدر الذي يحصل لهم به الفرق بين ما يجوز عليه من ذلك مما يستحيل لديه فكذلك فلتكن أنت - وفقك الله:

ولا تفكرن في ذي العلا عز وجهه ... فإنك تردى إن فعلت وتخذل

فـــدونك مـــصنوعاته فاعتبـــر بهـــا وقـــل مـثل مـا قـال الخلـيل المـبجل

قال رسول الله ﷺ وقد سأله أبو رزين العقيلي فقال: أين كان ربنا يا رسول الله قبل أن يخلق الخلق؟ قال: «**في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء**»[1] :

ذكر الشارحون أن العماء هو السحاب الرقيق والأصح والله أعلم أنه الغمام الذي يجيء به يوم القيامة قال الله ﷻ: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ**﴾ [البقرة:210] وقال: ﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ**﴾ [الفرقان:25].

وقال رسول الله ﷺ وذكر دعوة المظلوم، وإنها لا ترد: «**إنها ترفع فوق الغمام فيقول لها: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**»[2].

فكأن هذا العماء بمنزلة العرش للمخلوقات، والهواء لذلك العماء بمنزلة الماء للعرش، وقوله: «**ما فوقه هواء**» إعلام منه ﷺ أن الله ﷻ لا يحل في شيء، ولا يوجد في الموجودات إلا بصفات له وأسماء كحلوله على العرش، فالاستواء على ما سيأتي بيانه إن شاء الله ﷻ، فلما أوجد موجودًا ظاهرًا هو العرش جعله لوحًا لشيء ظاهر هو الماء؛ لأن الماء أيضًا لوح للمخلوقات وخزانة للموجودات دونه، والهواء هناك لوح وخزانة له كما أن العماء لوح للعرش وأول له.

فالعماء والله أعلم موضع التقدير قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة**»[3] والعرش موضع التدبير، قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ**﴾ [يونس:3] كما أن ما دون العرش موضع التفصيل، قال الله ﷻ: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ**﴾ [يونس:3] ثم قال: ﴿**يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ**

---

(1) أخرجه أحمد (11/4، رقم 16233)، وابن جرير في التفسير (4/12)، والطبراني (207/19، رقم 468)، وأبو الشيخ (363/1، رقم 83). والطيالسي (ص 147، رقم 1093)، والترمذي (5/ 288، رقم 3109)، وابن ماجه (64/1، رقم 182).

(2) أخرجه ابن حبان (158/3، رقم 874).

(3) تقدم تخريجه.

تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:2] وما دون السماوات موضع التصريف، قال الله ﷻ: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾** [الفرقان: 50] (1).

---

(1) العماء ممدود، قيل: هو السحاب الرقيق، وقيل: الكشف، وقيل: الضباب، وقيل: هو مقصور، وفسره الترمذي بأن المراد منه: أنه تعالى ليس معه شيء، وقيل: هو كل أمر لا تدركه الفطن، قال الأزهري: قال أبو عبيد: إنما تناولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم، وإلا فلا ندري كيف كان ذلك العمى؟ قال الأزهري: فنحن نؤمن به ولا نليقه بصفة.

وفي اصطلاح الطائفة العلية: مرتبة الأحد، وجرى عليه الشيخ محمد الهندي -رحمه الله - في «الهدية المرسلة» وعبارته: وأن لذلك الوجود؛ أي: وجود الحق سبحانه وتعالى مراتب كثيرة:

الأولى: مرتبة اللا تعيين، والإطلاق والذات البحت ،لا بمعنى أن قيد الإطلاق، ومفهوم سلب اليقين ثابتان في تلك المرتبة؛ بل بمعنى: أن ذلك الوجود في تلك المرتبة تنزه عن إضافة النعوت إليه، والصفات، ومقدس عن كل قيد حتى عن قيد الإطلاق، وهذه المرتبة تسمى بـ: المرتبة الأحدية؛ وهي كنه الحق سبحانه وتعالى، وليس فوقها مرتبة أخرى؛ بل كل المراتب تحتها، وجعل الجيلي الهمام هذه المرتبة العمائية أول مراتب الوجود كما هو مسطر في كتبه مشهود، وهذه اصطلاح منه ولا مشاححة فيه.

قال في «الكمالات الإلهية» لا برحت الإمدادات توافيه: اعلم أن أول التنزلات الذاتية من حيث الوجود والحكم لا من حيث الترتيب والعدد هو التنزل المسمى بالتجلي العمائي، وإليه أشار بعض المحققين بالتجلي العدمي الذي لا يتعلق به علم، ولا يطلق عليه اسم الوجود، وهذا التجلي هو باطن الأحدية، والأحدية هو اسم التنزل الثاني: وهو تجلي وجودي ليس للأسماء والصفات فيها ظهور، وكان هذا التجلي ثانيًا؛ لأنه وجودي، والتجلي الأول عدمي، والعدم هو السابق، والوجود هو اللاحق، وإنما سمي التجلي العمائي عدمًا لكون الاسم المختص بهذا التجلي معدومًا، فلا يوجد في التعريفات الإلهية اسم، وسر ذلك كنكتة لا يمكن شرحها، بخلاف الأحدية.

الأحدية باطن الوحدة، والوحدية باطن الهوية، والهوية باطن الآنية، والآنية باطن الواحدية، والواحدية باطن الوحدانية، والوحدانية باطن الفردية، والفردية باطن الفردانية، والفردانية باطن الأُلوهية، والأُلوهية باطن الرحمانية، والرحمانية باطن الربية، والربية باطن الملكية، والملكية باطن أئمة الأسماء السبعة النفسية، وباطن الأسماء السبعة النفسية باطن تجليات أسماء الجلال، وتجليات أسماء الجلال باطن أسماء تجليات الجمال، وتجليات الجمال باطن تجليات أسماء الأفعال، وكل تجلي من هذه التجليات أنزل مما قبله.

ثم قال: فأول التجليات هو التجلي العمائي العدمي، وآخرها هو التجلي الأفعالي العدمي وبها تم ظهور الحق تعالى، نعرف على قدر ما ظهر، ونجهل على قدر ما بطن، فصفاته ظاهرة، وذاته باطنة، ولأجل هذا فالكل جاهلون بذاته، وليس الكل جاهلون؛ إذ بها تعرف إلى الخواص =

وذكر سيدنا علي بن الحسين - عليه السلام- أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق العرش أرباعًا .....»، وقال: وأما المكان من الحجب سبعون ألف حجاب، حجب من ماء، وحجب من ريح، وحجب من نار، وحجب من ظلمة وهباء وهواء، وتحت المكان بحر مسجور، وما بين كل حجابين من حجب المكان مثل ما بين أول حجب المكان إلى الهواء من الأرض السفلى- فسبحان من يدبر هذا الملك العظيم- قال: وتحت العرش مما يلي الذات سرادقات مسردقة من أنوار يكاد ما فيها يذهب بالأبصار عليها أكاليل في كل إكليل منها شموس مضيئة وكواكب درية مشرقة من الذات وساق حديث أبي رزين العقيلي: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟

واعلم أن الأسفل يحمل الأعلى على جهة التلقي منه والائتمار له والتقييد عنه والقيام بما يجب له، والأعلى يحمل الأسفل على جهة الإيجاد له، والإمداد والكفالة والقيام به والأولى في العبارة عن هذا أن يقال: إن الأعلى يمسك، والأسفل يحمل قال الله ﷻ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر:41] مثل ذلك الأب يحمل الابن وجودًا وتعليمًا وتغذية له وتحويلاً، والابن يحمل الأب بنشر علمه، وتتميم نقصه، والدعاء له، وإبقاء ذكره من بعده توصيلاً له لما لم يكن له أن يبلغه؛

=

وبأفعاله تعرف إلى العوام، والعوام يعرفون أحواله، والخواص يعرفون صفاته، وخواص الخواص يعرفون أسماء ذاته، وينفرد الحق سبحانه وتعالى بالمعرفة الذاتية المنزهة عن الاسم، والوصف، والحكم، والإضافة، والعين، والعلم.

وقال فيها عند الكلام على اسمه الباطن: وصفته البطون؛ وهو عبارة عن العماء الذاتي الذي هو صرافة الذات المحضر في حضرة لا ينسب فيها الوجود والعدم، ولا حضرة، فافهم، وهذه الحضرة هي باطن الأحدية؛ فمنزلة الأحدية مستغرقة لجميع النسب والإضافات والنعوت والأسماء والصفات، فهي وجود محض، وبذلك كان المشهد العمائي باطنًا لها، وهنا نكتة لو فهمتها، انتهى.

وذكر الأكبري في «فصوصه» -حبانا الله شرب طسوسه: أنه أول التحديدات.

قال القيصري -رحمه الله تعالى: وإنما كان العماء أول التحديدات؛ لأنه لغة الضباب، وفي اصطلاح أهل الله: عبارة عن أول تعين ظهر للحق بحسب الاسم الجامع الإلهي، وكلاهما محدودان، وهذه المرتبة هي مرتبة الإنسان الكامل فأنه أول ما تعين ظهر بالصورة المحمدية، ثم فصلها فخلق منها أعيان العالم داخلاً وخارجًا، انتهى.

لقصر عمره كفعل بني آدم ﷺ بأبيهم لما قصّر قصر عمره عن البقاء عمر الدنيا وصل بنوه ذلك منه بالنسل والعالم كله حامل ومحمول يوجد ذلك بالاستقراء، ولتمثل في صفة الحامل والمحمول مثالاً إذ المثال أحسن بيانًا وأقصد إيضاحًا لحقائق المعاني مع صيانتها عن الابتدال بسلسلة معلقة، فإن الناظر إليها يرى تلك المحاجن كل حجنة منها قد أخذت مأخذها عن التي تليها، فالأولى العليا منهن تحمل التي تليها لولاها أسقطت السفلى ولم تثبت مكانها وهي ممتدة على العليا، وقد أخذت هي في توصيل ما عجزت الحجنة العليا عن وصله إذ كان مراد صانع السلسلة أن تصل بطولها إلى حيث شاء، فقامت العليا في إمساك السفلى والسفلى في التعلق بالعليا مقامًا يتم به مراد صانع السلسلة وكذلك الثالثة مع الثانية إلى آخرها حامل ومحمول، فتبارك الله رب العالمين الغني الحميد.

وحقيقة السلسلة دوائر متصلة متداخلة، فأعاد النظر ثانية بأن تقلب السلسلة أعلاها أسفلها تجد المعتمد عليه، والحامل محمولاً ذلك بأن الله ﷻ خلق الخليقة، ثم أفقر بعضها إلى بعض وأحوج بعضها إلى بعض كل على جهته وطريقته، فإن ثنيتها وجمعت طرفيها شاهدت معنى العروج والنزول والحامل والمحمول، وأن الأمر يأتي أيضًا من سفل كما يأتي من علو، وإنما العلو بالحقيقة بالإضافة إلى إتيان الأمر، فمن حيث أتى فمن علو أتى؛ لأن العلو موضع الأثرة على كل حال، وقد يأتي الأمر من غير جهة العلو المعلوم قال الله ﷻ: ﴿**فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ [النحل:26] ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**﴾ [الأنعام:65]. وقال: ﴿**أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ**﴾ [النحل:45] فأنبأك ﷻ أن الأمر يأتي من سفل ومن علو، وإن كان الأغلب إنما يأتي من سفل هو من قبيل العذاب، وإن الذي يأتي من علو من قبيل الرحمة وبخاصة فإن الذكر والوحي إنما ينزل من علو قال الله ﷻ: ﴿**يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ**﴾ [النحل:2].

وقد جاء الخطاب على طريقه من علو يخاطبنا من جهة السفل بالإضافة إلينا،

وهو قوله ﷻ: ﴿**فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾ [الحج:45] والعروش: سقف البيوت والجدارات، والذي خوى منها هي القيعان، وهي بالإضافة إلى جهة العلو تحت العروش، ووصف الأمكنة أنها ﴿**خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾ فجاء هذا الخطاب كما ترى من سفل بالإضافة إلينا وهو على الحقيقة العلو، وقد تقدم أن العرش هو قوام عمّا كان عرشًا له، والسقوف والجدارات إنما اتخذت من أجل الأمكنة، فالأمكنة قوام العروش التي هي الجدارات والسقوف، فلما كانت الأمكنة قوامًا لها كانت عروشًا وكانت المحمولة على هذا، وعلى الحقيقة فهي الممسكة لما اعتمد عليها من السقف والجدر، فافهم.

فبهذا أيضًا يتبين لك تصديق ما جاء في الخبر أن ملكًا نازلاً من علو لقي آخرًا صاعدًا من سفل، فسأل أحدهما الآخر: أجئت من عند ربي؟ وقال الآخر لصاحبه: جئت من عند ربي، وهذا مشاهد في بعض النبات، بل في أكثره إنما يأتيه الأمر من سفل؛ لأن رأسه في الأرض ومؤخره صاعد، وذلك والله أعلم لأن الأمر يكن عارجًا بعد نزوله مع الماء أولاً، ومن النبات ما يكون الغرض منه ذهابه سفلاً فقط أو علوًا فقط وعلى مشيئة وجوده - جل وعلا- والحيوان الإنساني رأسه إلى السماء علوًا لشرفه على ما تحته من العوالم، وإن كان غذاؤه من الأرض، والحيوان سواء ذو الأربع والماشي على بطنه ما بين ذلك.

فهذا أيضًا يبين لك إن شاء الله ﷻ أن العرش محيط بالعالم كله من جميع نواحيه قد أحاط به علم موجوده وقهره وسلطانه وملكه وأمره وانزم التدبير لدى قبضة الملكوت جميعه في مسكه إحاطة المقدار من حفيظ عليم، سقط في أمرين آخرين من قوله، وقد ذكر إليّ فهذا كله فيه نظر، وقد ذكر بعض أهل النظر أن العقل مسكنة الدماغ وهو معدن الحسن في جميعه ابتدت، وسبيله المتصل نخاع متصل بالدماغ يمر على وسط عظام العنق إلى فقرات الصلب إلى عجب الذنب، ثم يسري الحسن عنه بواسطة الأعصاب والعضل إلى سائر البدن، قال رسول الله ﷺ في عجب الذنب: «**فيه خلق، وفيه يركب، ومنه يعود وهو لا يأكله التراب**»[1] هذا الغريزي، وأما العقل المخصوص

---

(1) أخرجه مسلم (2271/4، رقم 2955)، وأبو داود (236/4، رقم 4743)، والنسائي (111/4، رقم =

به الإنسان، فقال فيه: «إنه محيط بإنسان غير حال فيه» كذلك قال جلة من مشايخ المسلمين ﷺ في الإيمان له ليس لمجعول وهو منه من صفات الله تعالى، قالوا: ولا يجوز زار محل ما ليس لمخلوق في مخلوق، بل هو محيط بالمؤمن وفي هذا كله نظر، وقد تقدم في رسم العلم إيماء إلى نشوء العالم، وأن وضع جملة المخلوقات على سنته في مقتضى اسم المنشئ - جل اسمه وتعالى جده - وأنه وإن كان أوجد رءوسًا كاملة في الظاهر على صورها التي هي عليها كجملة العالم، وخلقه آدم ﷺ قال رسول الله ﷺ فيما أخبر فيه عن مسراه: **«فإذا أنا بآدم ﷺ وإذا هو كهيئته يوم خلقه الله»**[1] فإنه وإن كان خلقه كذلك ظاهرًا فقد سن به سنة النشء باطنًا ألا تراه كيف أسكنه جنته حتى لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى كما يفعل بالمولود يكلفه أبويه أو من شاء من عباده مادام صغيرًا ولا يكلفه السعي في المعيشة، بل جشم أبويه الإنفاق عليه والحضانة له، والقيام عليه إلى أن يبلغ، فحينئذ يكلف السعي في معيشته والعمل لآخرته كذلك فعل بأبناء آدم ﷺ، والعالم كله إنما ظهرت في الجماد منه قوتان وجمد على سائرهما، ثم ظهرتا في النبات، ثم نشأت الجملة في الحيوان، ثم في الإنسان، ثم في المؤمن، ثم في الولي، ثم في النبي، ثم في الملك.

واعتبر هذا أيضًا بإيجاده ﷻ خليقته في الهواء صورًا كالهباء فأخذ عليهم الميثاق، ثم ردهم في غيبه على ما سبق في عمله، ثم استخرجهم بعد ذلك من ظهر أبيهم آدم ﷺ كالذر، وقال لهم: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**﴾ [الأعراف:172] فغرز فيهم يومئذ المعرفة زائدًا على قبولهم الميثاق وشهادتهم على أنفسهم بقولهم: ﴿**أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران:81] ثم ردهم إلى صلب أبيهم، فكانت هذه أظهر من تلك، ثم أخرجهم بعد ذلك إلى هذه الحياة الدنيا، واستعملهم بأمره ونهيه، فكانت هذه الحياة أظهر كثيرًا من الأوليتين، ثم يميتهم فأماتهم بعد هذه الحياة أقرب إلى الحياة من الموتة التي كانت قبلها إذ ردهم في صلب أبيهم

=

(2077).

(1) رواه ابن ماجه (2901).

ألا ترى أنهم يحسون عذاب القبر ونعيمه، ويعرفون البشرى ويبقى ذكرهم، وأنارهم في الدنيا وفي عليين أو سجين، ويعرضون على منازلهم من الخير أو الشر ﴿بُكْرَةً وَعَشِياً﴾ [مريم:11] وتعرض عليهم أعمال ذويهم إلى غير ذلك، بل منهم من قد نُهينا أن نسميهم أمواتًا، بل أحياء وأخبرنا عنهم الصادق الحق أنهم عنده يرزقون، فكذلك يحب الإيمان على هذا الترتيب بأن تكون حياة البعث المستقبلة أتم وأكمل وأبقى من حياتنا هذه اليوم، فافهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ﴾ [الواقعة:95] فاطلبه.

وكل مطبوع يحمله أربعة حملة، وكذلك الجماد والنبات والحيوان والصفات والمخلوقات كلها كما تقدم غير أن ذلك بعد فهم جمود الجامد على ما حمد عليه، وهمود الهامد والانشراح في النبات إلى الحيوان إلى ما علا، وإنما الغرض منها التنبيه والتصديق والله الموفق، وعليه المعول ولا قوة إلا به.

وبالجملة فإن المراد بحمله أربع تقدير، وكلمة وإرادة وسنة والكون عن الكلمة والتكوين عن السنة، واختصاص المراد بما اختص به من اسم وصفة، ومعنى وشكل، وصورة وحسن تقديم أو تأخير، ورفع أو خفض عن الإرادة، وما كان من عمل أو رزق وأجل أو سعادة أو شقاوة فعن التقدير.

فكذلك لما نشأت الجملة من معان إلى قوى ظاهرة أو باطنة، ثم إلى ظاهرة، ثم إلى أظهر منها حتى انتهت إلى حيث أنفق الاعتبار مع الخبر الصادق من حملة العرش، وإن حملته على مقدار عظم قدره وشرف خطره كما قال جبريل لمحمد ﷺ حين أراه نفسه على الصورة التي خلقه الله عليها، فغُشِي عليه: «كيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه لتحت تخوم الأرض السابعة، وإنه ليتضاءل أحيانًا من عظمة الله حتى يكون كالوَصَعِ».

فهكذا فاعتقد في اعتبارك أن الحامل على قدر عظم المحمول فهو من صفاته، فإذا كان يوم القيامة وأحي الله ﷻ للموتى الحياة الدائمة الكبرى صفت الأجسام يومئذ من ظلم أكدارها، وظهرت من حيث أرجاسها، وكبرت بعد صغرها، وأسمعت الجوامد، وأعربت العجم، ونطقت الصوامت بيانًا، وشهدت الشواهد أبناء، فتلحق الظواهر بالبواطن والبواطن بالظواهر ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾

[الحاقة:17] ظاهرة وكذلك المحمولات التي يحملها اليوم أربعة يحملها يومئذ ثمانية، والحامل على قدر المحمول؛ لأن نشأ العالم يومئذ قد كمل، وأما العرش الكريم نفسه فلم يوجده موجوده سبحانه إلا كاملاً، ولا يحمله على الاعتبار الثاني إلا ثمانية، والله أعلم بالمزيد على ذلك ﴿**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الحديد:2].

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه:5] كما قال في آدم ﷺ: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [ص:71،72] وقد أراناﷻ عن ذلك آيات كان رسول الله ﷺ يبصر من ورائه كما يبصر من بين يديه، ويقول للمصلين خلفه: «**أترون قبلتي هاهنا، فوالله ما يخفى علي ركوعكم ولا سجودكم إني لأراكم من وراء ظهري كما أراكم من أمامي ....**»[1] ويقول: «**إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»[2] وقال في شأن داود ﷺ: ﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص:18،19] وقد كان يسلم على رسول الله ﷺ الشجر والحجر، وحن له الجذع وغير ذلك من المعجزات والآيات على ما نريد بيانه يدل ذلك كله أن العرش أيضًا اليوم يحمله ثمانية، لكنه غيب وإنما خاطبنا على المقدار الذي يتوجه عليه اعتبارنا وما يقع به ظاهر مشاهدتنا، ودلنا بما خرق لنا من العادات على أيدي أنبيائه - صلوات الله وسلامه على جميعهم - إن الأمر أعظم من ذلك جدًّا قال رسول الله ﷺ: «**في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[3] بل له ما أطلعتكم عليه، فسبحان ذي العز الذي لا يرام، والقدرة القاهرة سبحانه وبحمده لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

والسواء فاعلم في كلام العرب: العدل، يقال من ذلك: أرض سواء وسيئ إذا لم

---

(1) رواه مسلم (986).

(2) حديث أنس: أخرجه البخاري (2645/6، رقم 6814)، ومسلم (776/2، رقم 1104).

حديث ابن عمر: أخرجه البخاري (693/2، رقم 1861)، ومسلم (774/2، رقم 1102).

(3) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (313/2، رقم 8128)، والبخاري (1185/3، رقم 3072)، ومسلم (2174/4، رقم 2824)، والترمذي.(346/5، رقم 3197) وقال: حسن صحيح.

يكن فيها خفض ولا رفع، وأمر سواء وسوي، وسيان في التشبيه قال الله ﷻ: ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة:6] ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ**﴾ [المنافقون:6] ويقول اعتدل الأمران في حقهم.

وصفات الفعل على ضربين: فعل معدى يكسب الفاعل والمفعول فيه صفة ونعتًا لم تكونا عليه قبل أحداث الفعل، والآخر منهما فعل غير معدى لا يوقعه الفاعل على مفعول، فهذا يكسب الفاعل وحده نعتًا وصفة لم يكن عليها قبل ذلك ولا يتعداه إلى غيره، ومن هذا الضرب يكون بناء تفعل مثل: تكبر وتعلى من علا، ومتفعل مثل: متكبر، ومتفاعل مثل: متعال، ويكون منه أيضًا بناء افتعل مثل: استوى من السواء، ومفتعل مثل مستو.

وللإنسان صفات جمة وأحوال كثيرة، فإذا أراد إحداث حال ما له أعد لها من نفسه صفة تقابلها وتشاكلها، فينزل بصفة من صفاته إلى حال يتهيأ معها المراد، كقوله: استوى زيد على العرش أي: استعد لذلك وتهيأ له بصفة تكامل له بها علوه عليه واعتماده وطاعته له وتصريفه إياه من الهيء لإجرائه وإمشائه وملكه له، فإذا كان كذلك فقد استوى على فرسه، قال الله ﷻ: ﴿**لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**﴾ [الزخرف:13] فأخبرك بمعنى ما تقدم؛ لأن قوله: ﴿**لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ**﴾ أي: تقدموا من أنفسكم إرادة وصفة تكون لكم ظهره المركوب حالاً، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا تصورت لكم تلك الحال واعتدلت بكم وكملت الهيئة من أنفسكم بما تقدم ذكره، ومن الركوب بالتسخير فما كنتم لذلك مطيقين من أنفسكم ولا من مركوبكم، واقرن إلى هذا قوله ﷻ: ﴿**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لله**﴾ [المؤمنون:28].

والله ﷻ وعلت مشيئته، ولا يقوم له شيء، ولا يصير لأمره، ولا يطاق سماع كلامه ومع هذا فإنه ما وجد شيئًا إلا به ولا عاش إلا برحمته، وخفي لطفه وإرادته ما أراد به ﴿**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ [البقرة:147] ما عرف الله إلا بالله، وإنما وضع الأشياء مواضعها من لطفه، وأقامها على مقامات من أسمائه وصفاته، ثم دبرها على مقاديرها من ذلك، فلم يكلف أحدًا فوق استطاعته، ولا حرمه ما في وسعه، وهو

الحنان المنان بنعمته تتم الصالحات المدبر الحكيم.

وكيف يقوم الحادث العاجز المتلاشي لأول أزلي فأدر له الوجود أجمع فلا يوجد شيء إلا به، لولا رحمته وسع كل شيء رحمة وعلمًا فإذا أراد الله ﷻ شيئًا من مخلوقاته بشيء من أمره واعتمده بما شاء من صفاته وأسمائه وأيده فأيده على ما أراده منه وطوقه حمل ما له أهله، وهذا هو معنى السواء والعدل، أي: قابل ما كلفه بما أعطاه، وهو فعله بالعرش أهله الأمر عظيم، فاعتمده من الأيدي والعون بما شاء من مقتضيات أسمائه وصفاته بأمر عظيم يواري ما أهله له وأراده منه، وكان ذلك منه استواء، ألا ترى أن القاضي إذا قعد مقعد القضاء استشعر صفة السواء والعدل حتى بسوي بين الرفيع والوضيع، والصغير والكبير، والقريب والبعيد من حيث الحكم بغيرها من صفاته معها يعدل العدول، ويتخذ الشهداء ويولي الحكام، ويعزل ويرفع أهل العلم والفضل والإيمان، كذلك الله ﷻ وتقدست أسماؤه لما خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ المواثيق، وأنزل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، وكتب الكتب، وأحصى كل شيء حسابًا، وزم كل شيء كتابًا خلق السماوات والأرض وما بينهما ثم استوى على العرش: ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ**﴾ [الرعد:2] ولما استوى على العرش كتب أيضًا على نفسه كتابًا هو من معنى التنزل والاستواء: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1] لولا ذلك ما قام له العرش ولا شيء وإن العرش مع ذلك ليئط به أطيطًا؛ لأن العظمة لم تزل والكبرياء لم تزل ولا يزال، وإن السماوات ليكدن يتفطرن من فوقهن؛ لعظيم ما يرد عليهن من علو.

ومن معنى الاستواء قول سهل - رحمه الله - : لم يسع الله - جل ذكره - أرض ولا سماء ولا كرسي، ووسعه قلب المؤمن، وقال رسول الله ﷺ: «**إنما الكرم قلب المؤمن**»[2] سبحانه وله الحمد اعتمد قلب المؤمن من صفات الرحمة والأنس والولاية

(1) أخرجه الدارقطني في الصفات (19/1، رقم 16). وأخرجه أيضًا: أحمد (259/2، رقم 7520)، وإسحاق بن راهويه (409/1، رقم 459)، والبخاري (2694/6، رقم 6969)، ومسلم (4/ 2107، رقم 2751)، وأبو نعيم في الحلية (87/7)، والديلمي (421/3، رقم 5287).

(2) أخرجه أحمد (239/2، رقم 7256)، ومسلم (1763/4، رقم 2247). وأخرجه أيضًا: ابن حبان
=

والمحبة والإمساك والكفاية ما بقي به وعاش عليه لولا ذلك لاحترق وذهب شعاعًا، ومن رحمته حجابه النور وحجب به عنه خلقه لو كشفه لاحترقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، ومن ذلك نزوله ﷻ نزوله إلى السماء الدنيا يعتمد ما ينزل إليه بما شاء من صفاته وأسمائه ما يحتمل ما أراد به، وينزل عن صفات الغضب والبطش والجبروت إلى صفات الرحمة والمغفرة والكرم وحسن الإجابة ونحو هذا، ومن كلام العرب: لقيت زيدًا أو كلمت زيدًا في كذا فوجدته أبعد من كذا - عبارة عن الامتناع من الإسعاف - فمازلت أستنزله حتى نزل، أي: نزل عن غضبه وشدة امتناعه عن الإسعاف إلى خلق اللين والأنس هذا متعارف مشهور عندهم، والنزول حقيقة وكذلك الاستواء من فهمه لم يبعد عليه إن شاء الله تعالى، فقد صحّ النظر على طريق موافقة الخبر والحمد لله رب العالمين.

والاستواء من الأعلى تنزل، ومن المخلوق وكمال وتمام الغاية من شأنه أن يبلغها بالتسوية قال الله - جل ذكره - : ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [ص:71- 72] فكانت تسويته إياه أن جعله مجتبى مصطفى مؤيدًا بالروح العلى منه وبذلك علّم آدم ﷺ علمه الأسماء كلها وأوجب الله على ملائكته السجود له طاعة لله وائتمارًا لأمره الحق الباطن من الحق استوى على ظاهر منه علم به آدم ﷺ ما هو الباطن عنه ومنه، قال الله ﷻ: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [ص:72] كذلك قال الله عزّ من قائل: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد:4].

فهو العالم ﷻ بالسماوات والأرض، والعرش والجملة كلها بما فيها، وما بين ذلك قبل أن يوجدها، وبعد إيجادها ما هو سبحانه وله الحمد وهو العالم المشاهد لذلك كله بحكم الاستواء الذي هو حكمه وأمره وفعله على سنن السنة يظهر بذلك أمره وحكمته ورحمته إلى غير ذلك من صفاته وأسمائه هذا بحكم التنزل المعبر عنه

=

(147/13، رقم 5834).

بالاستواء، فهو بذلك أقرب إلى المخلوق من نعمه، وأقرب من القرب صفاته وعظمة شأنه، وإذا استوى الروح على الجسم على ذلك المحل، وعقل وأدرك ما يصيب محله ذلك، وكان قبل استواء الروح فيه لم يكن كذلك، والله أعلى وأجل وصفًا لم يزل عالمًا بالغًا لم قبل الاستواء قرب إلينا تحقيق العلم والمشاهدة والقرب، وجعل استواء الروح في الجسم وحياة الجسم بالروح له آية على ذلك، فقال: ﴿**مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**﴾ [سبأ:2] المعنى إلى آخره لما تقرر عندنا أن الجسم تكمل بخلق الحياة فيه، وتحقق له صفاته بالروح، ثم لله المثل الأعلى، فافهم.

والكلام صفة تعبر عن جميع الصفات الباطنة من الفاعل المتكلم، ويعبر أيضًا عن صفة المفعول بواسطة الفعل، فالمتكلم قد عنون بكلامه عن إرادته وعلمه قدرته وحكمته وحياته، ثم يكون فعله عن ذلك أبين إعرابًا وأكثر إفهامًا، فيبدو ظاهرًا في مفعوله وفعله، وقدرته وحكمته، وكلمه وعدله، وكرمه وبره، ولطفه ورحمته، وسطوته ورضاه وسخطه وحلمه وإكرامه وإهانته إلى غير ذلك من الصفات اللازمة للفعل.

ولما شهدنا عمرًا يكلم زيدًا فيغلظ له في القول، فيتغير لذلك لون زيد وتتبدل أخلاقه على قدر إغلاظ المخاطب في قوله حتى نراه يكاد يتميز غيظًا، ثم ربما كلمه بكلام رضا، فتبدو البشرى عليه والسرور في أسارير وجهه وعينه ويلين خلقه، ولم يعد عمرو وإن كلم زيدًا فقط فعلمنا لذلك أن غضب زيد ورضاه لمعنى وصل إلى باطنه من كلام عمرو، وتراه أيضًا يعبر له بكلامه عن علم أو زهد أو حكمة أو عظة يعظه بها، فيرق قلبه ويتعلم لذلك العلم، ويتخلق به حتى يكون ذلك له نعتًا وصفة يستحق الوصف بها والنعت، وتراه يأمره وينهاه، فيأتمر ويطيع أو ينتهي، فما ظنك بمتكلم ليس كمثله شيء لا قدرة كقدرته، ولا كلام ككلامه، ولا مضاء كمضاء مشيئته، ولا حياة تشبه حياته؟! ليعنون إذًا مفعوله عن فاعله، وليعربن مراده عن مريده، قال الله – جل قوله وتعالى علاؤه وجده – : ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران:59] وقال: ﴿**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**﴾ [النساء:171]، وقال: ﴿**وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً**﴾ [مريم:21] فقضى القضاء وأمضى أمره بإلقاء كلمته إلى مريم قوله: كن، فخلقه كما خلق آدم،

وقالﷻ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:21] فكما ألقى الكلمة إلى مريم عليها السلام.

فأرسل إليها الروح فنفخ فيها فحملته فدبره ملك الأرحام بإذن ربه كغيره على تدريج، وكالسنة في تنفيذ الأمر النازل من أعلى العرش كذلك ينزل الأمر من فوق العرش بالروح فتدور به دوائر التنفيذ على سننه المعهودة في الإيجاد، فيكون مستقر منها ومستودع، أو على تمثيل الكلمة كن فرب أمرٍ يومه خمسون ألف سنة، ورب أمرٍ يومه ألف سنة، ورب أمر أسرع من طرفة العين دون زمان محسوس، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:50].

فلما ولدته ظهر فيه الآيات، فلأن كان عن الكلمة العالية كلم الناس في المهد وكهلاً، وخلق من الطين كهيئة الطير، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله للحكمة المعهودة في الكلام، ولأن كان عن الروح العلي أحيى الموتى ونفخ في المخلوق من الطين فطار طائرًا بإذن الله وصحبة روح القدس، فكان لذلك إنباؤه بالغيوب والكلام بالحكمة له موطنًا، فكان آية على قضائهﷻ القضايا، وأنزله الروح من فوق العرش الكريم وقيام الجملة به طبقًا بعد طبق إلى تمامه، وظهور هذه الحكم في العالم، والتقدم بالإعلام بالغائبات عنه، والمعارف الموجودة فيه والأسماء والصفات، وإلى هذه الإشارة بقوله ﷺ: **«إن الله خلق آدم على صورته»**(1).

فمن فقه عن ربه ﷻ وعرف آياته ذهب عنه الجوع، ووجد الأمر أيسر مما ظنه الجاهلون، وشرد عنه المتعسفون، وظهر له التنزيه، وبعد عنه التشبيه - تعالى الله عما يقول الجاهلون - ويظنه الملحدون.

والعلم بكله صحيح موجود فائض غزير، هو في كل شيء وعلى شيء سبيل ومعلم، وإنما عدمناه نحن لجهلنا بطرقه، ومخالفتنا سنة في طلبه، وإنما أصابه الصواب في ذلك أن يكون طالبًا العلم فيها على سنة مسنونة لذلك المطلوب قال رسول الله ﷺ: **«كان نبي من الأنبياء بخط فمن وافق خطه»**(2) فذلك، وسُئِلَ رسول الله ﷺ عن الكهان

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه أحمد (448/5، رقم 23816)، ومسلم (381/1، رقم 537)، وأبو داود (244/1، رقم =

فقال: «**ليسوا بشيء**»[1] أي: ليسوا بشيء من أوصاف النبوة، ونهى عن إتيانهم، ويحق ما نهى عن ذلك إذ الطريق من جهنمهم مظلم، والسند المسند إلى ذلك العلم ضعيفة جدًّا لما كانت النقلة الشياطين، وأنهم يكذبون ويزيدون وأما أوله فصح؛ لأنه عن الأمر الحق والموحدون عنه الملائكة - عليهم السلام - وإنما هو الأمر العلي ينزل من لدن رب العزة فيشيع في أقطار العالم، قال الله ﷻ: ﴿**الله الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً**﴾ [الطلاق:12] وقال: ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ**﴾ [الأعراف: 54] وقال: ﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ [الواقعة: 75،76] وهذه النجوم والله أعلم نجوم تنزل الأمر من عنده فتم ذلك الأمر بشياعه في العالم بحركة ما وجد فيه فيما فيه من وصف القدرة أبانها وضدها، وبما فيه من وصف المشيئة أبانها ومقتضاها، وكذلك العلم وغير ذلك من الأسماء والصفات، ثم من العلم ما هو مثبوت في العالم ليعلم مشاهدة واضطرارًا، ومنه ما هو غيب ليعلم بالطلب والبحث عنه، ثم هذا النوع منه ما هو ليعلم بالطلب والبحث والدليل والبرهان والنظر والاستدلال، ومنه ما يعلم بإمارة فتلك الإمارة تحتاج في سلوكها إلى سنن تسنن فيه إليه، وطريق يسلك عليه كسنة الله ﷻ في المخلوقات وكسنة على ألسنة رسله ﷺ وشرائعه ومنه ما لا يعلم إلا بطريق الوحي على طرقه من إلهام أو مشافهة، وهو علم النبيين، وقد يعرف من هذا ما يأتي به الكاهن غير أن الفرق بينهما أن النبي لا يوجد إلا صدقًا محقًّا أبدًا، والكاهن خطؤه أكثر جدًّا من صوابه، وكذبه أعم من صدقه وذو الإثارة كذلك، أما الكاهن وذو الإثارة، فلهدم إصابة السنة أمر النبي ﷺ باجتنابهم وعلى كل حال، فالعلم كله دليل مرشد إلى النبوة بما هو مبني ومعلم وهاد ونحو هذا وأخصه بذلك طريق الكهنة لو صح سنده لكنه مظلم جدًّا، ولما فيه من الشبهة عظمت به الفتنة، فنهي عن إتيانها، وحرست السماء من استراقهم.

=

930)، والنسائي (3/16، رقم 1218).

(1) رواه البخاري (6213)، ومسلم (5963).

وحكى بعض العلماء أن أعرابيًا كانت له ناقة يحبها لنجابتها وحسن سيرها، فبينما هو ذاهب عليها بثقله ومتاعه إذ بركت فماتت من حينها، فبقي مدة باهتًا لذلك يطوف حولها وينظر إليها، فقيل له: إنك الآن لتنظر إلى ما لا يجدي عليك نفعًا، فقال: إنما اعتبر في الذي كان يحملها ويحملني معها أين ذهب أو أي شيء هو وهذه ناقتي لا أفقد منها شيئًا غير الروح؟!

وقال بعض العلماء: إن الله سبحانه قال للملائكة: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [الحجر:29] وقال في المسيح ﷺ: ﴿**فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ**﴾ [آل عمران:49] فالنفخ إذا لم يرجع إلى الله ﷻ وصفًا رجع إليه لا محالة فعلاً، والنافخ في الشاهد يفيد المنفوخ فيه ريحًا تجول فيه، فإذا كان الريح حيًا كان روحًا، وإذا لم يكن حيًا كان ريحًا، يذكر أن موسى ﷺ وغيره من الأنبياء قال: رب أحب أن لا يقال في إلا ما في، فقال ﷻ: إني لم أجعل ذلك لنفسي، ألا تراه لاستوائه على العرش عامل عباده معاملة الأكفاء، ويثيبهم ثواب الممتنين عليه إن هذا لهو الكرم المبين ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة:7ـ 8] يجازيهم بالسيئة مثلها وبالحسنة عشر أمثالها إلى سبع مائة إلى ألف ألف كما حدث أبو هريرة عن رسول الله ﷺ إلى أن يعطيهم بغير حساب، ويأخذ بالشهود والبينات، والكتب المزعومة عليهم بأعمالهم، ويعطي على ذلك ويعفو، ويتفضل ويرجع عن علمه إلى علم شهود أهل الأرض، وإن كانوا لا يعلمون إلا ظاهر ما كان عليه المشهود له، وتراه يشتري منهم أنفسهم وهي له عبيد، فيعطيهم فيها الجنة، ويشملهم برضاهم عنه رضوانه وكل ذلك له، وكما يعاقب على ما لو شاء منه لعصم كذلك يثيب على ما إليه هذا أيد وأعان سبحانه وبحمده لزم السواء بينه وبين عبيده وخليقته، وإنما أوجد خلقًا من خلقه في سماواته وأرضه يوحدونه ويطيعونه ويحمدونه بمحامده التي هو لها أهل، وهم مع ذلك لا يبلغون حق حمده أوجد أيضًا خلقًا من خلقه يكفرون به، ويعصونه ويكذبون عليه ويكذبون رسله، ويردون أمره، ويصفونه بما لا ينبغي له ويستحيل لديه مما نزهه عنه علو جده، ويبين ذلك لعباده فيقول: «**يا عبادي إني حرمت على نفسي الظلم،**

وحرمته عليكم فلا تظالموا»[1].

فهذه من حكمته في استوائه فوق عرشه المجيد؛ ولذلك ترفع له دعوة المظلوم فوق الغمام، فيقول لها: «**وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**»[2].

وتراه ربما انتقم لعباده بعضهم من بعض في الدنيا أكثر مما ينتقم لنفسه، وربما عجل الانتقام أيضًا لنفسه، ثم رفع المظالم إلى يوم القيامة فينتقم لعباده وينتقم لنفسه هناك، وربما وضع انتقامه في بعض المواطن وعفا لعباده عنه، ولا يترك مظالم العباد وهذا من فضله، وسبق رحمته غضبه، ولولا صفة الاستواء وصفة التنزل ما قام لجلاله شيء، ولاحترقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ألا تسمعه يقول - جل قوله - : ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الحشر:21].

فلولا تنزيل كلامه العظيم وتيسيره للذكر لتصدعت الجبال من خشية الله، ولتفطرت السماوات والأرض لعظمته، فاستقر وفقك الله حسن معاملته، وكريم تيسيره ولطيف مأخذه في تدبيره وكريم خطابه فيستبين لك معنى قوله: ﴿**عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه:5] من هذه الجهة سوى ما تقدم ذكره، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً.

واعلم أن الله تبارك وتعالى لم يزل ولا يزال آخرًا، يبقى ويهلك كل شيء خلق خلقه خلائقه كلها، فصورها وفرق بينها على غير مثال احتوى عليه، ولا أمر سبق به إليه.

وفي بعض الإشارات أن الله تبارك وتعالى لما فرغ من جميع خلقه يوم الجمعة أقبل يوم السبت على الكلام، فمدح نفسه بما هو أهله، وذكر عظمته وجبروته وكبرياءه، وجلاله وسلطانه وقدرته وملكه وربوبيته، فأنصت له كل شيء، وأطرق له كل شيء، ومن أجل ذلك جعل يوم السبت عيدًا لأهل التوراة أمرهم أن يتفرغوا له، ويفرغوا أهاليهم فيسبحونه ويعظمونه ويصلون ولا يكون لهم في ذلك اليوم عمل إلا ذكره

---

(1) أخرجه مسلم (1994/4، رقم 2577)، وابن حبان (385/2، رقم 619)، والحاكم (269/4، رقم 7606)، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(2) تقدم تخريجه.

وعبادته وتسبيحه، ولما أقبل - تبارك اسمه وتعالى جده - على الكلام بعد فراغه من الخلق قال: «**إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو العرش المجيد والأمثال العلي، إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو الرحمة الواسعة والأسماء الحسنى، إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو المن والطول والآلاء والكبرياء، إني أنا الله لا إله إلا أنا بديع السماوات والأرض وما فيهن، ملأت كل شيء عظمتي، وقهرت كل شيء مملكتي، وأحاطت بكل شيء قدرتي، وأحصى كل شيء علمي، ووسعت كل شيء رحمتي، وبلغ في كل شيء لطفي، وأفنى كل شيء طول حياتي، فأنا الله يا معشر الخلائق فاعرفوا مكاني، فإنه ليس في السماوات ولا في الأرض إلا أنا، وخلقي كلهم لي لا يدوم إلا بي، يتقلب في قبضتي ويعيش في رزقي، وحياته وموته، وبقاؤه وفناؤه بيدي، ليس له محيص ولا ملجأ غيري، ولو تخليت منه إذًا لدمر كله، وإذًا لكنت على حالي لا ينقصني ذلك شيئًا، ولا يزيدني ولا يهدني فقده، ولا يكثرني مستغنيًا بالفناء كله في جبروت ملكي وبرهان نوري، وأنس وحدتي، وقوة توحيدي، وسعة بسطي وعلو مكاني، وعظمة شأني فلا شيء مثلي، ولا إله غيري، ولا شيء يعدلني ينبغي لشيء وليس خلقته أن يذكرني ولا يكابرني ولا يعادني، ولا يخرج من قدرتي ولا من قبضتي، ولا يستنكف عن عبادتي، ولا يعبد دوني، ولا يعمل بي، وكيف ينكرني جملته يوم خلقته على معرفتي؟! أم كيف يكابرني من قد قهرته بملكي؟ فليس له خالق ولا رازق ولا باعث غيري، أم كيف يعادني من ناصيته بيدي؟! أم كيف يعدل بي من أعمره وأنقص جسمه، وأنقص عقله وقوته، وأتوفى نفسه، وأخلقه وأهدمه فلا يمتنع مني؟! أم كيف يستنكف عن عبادتي عبدي وابن عبادي وابن إمائي وملكي وطوع يدي، ولا ينتسب إلى خالقي ولا وارث غيري؟! أم كيف يعبد دوني من تخلقه الدنيا، ويفني أجله الليل والنهار وهما شعبة يسيرة من سلطاني؟! فإليّ إليّ يا أهل الموت والفناء إليّ لا إلى غيري، فإني كتبت الرحمة على نفسي، وقضيت العفو والمغفرة لمن استغفرني، أغفر الذنوب جميعًا صغيرها وكبيرها، فلا يكبر ذلك علي ولا يتعاظمني، فلا تلقوا بأيديكم ولا تقنطوا من رحمتي، فإن رحمتي سبقت غضبي، وخزائن الخير كلها بيدي، ولم أخلق شيئًا مما خلقت لحاجة كانت بي إليه،**

ولكن لأبين به قدرتي، ولأعرف الناظرين بنفسي، فينظر الناظرون في ملكي وتدبير حكمتي، ولتدين الخلائق كلها لعزتي، ويسبح الخلائق كلهم بحمدي، ولتعنوا الوجوه كلها لوجهي»[1].

التعبد

اعلم - وفقك الله- أن من التعبد بموجب هذا الاسم الكريم هو أن تعمل نفسك ظاهرًا وباطنًا بما يرضى الله، وتنتهي عمّا يكرهه، فوجهه فاعلم حيث توجهت، وطريقه حيث استقمت قال الله ﷻ: ﴿**وَلله المَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:115].

وكلما رأيته في طريق اعتبارك وشاهدته في نظرك من الموجودات من لدن العرش الكريم مما دونه فعباد أمثالك ﴿**وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً**﴾ [الفرقان:3] وإنما الملك على الحقيقة ذو العرش المجيد لا إله إلا هو رب كل شيء ومليكه القائم على كل شيء والمحيط به من ورائه فإليه فالجأ، وعليه فتوكل وإياه فاسأل، ولا يشغلنك عنه سواه، وسله بجد من نفسك، وفراغ من قبلك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد وتحط في اعتبارك ما سواه إليه، وأعط كل ذي حق حقه، وتأدب في ذلك بأدب سيد المعتبرين إبراهيم الخليل ﷺ حين نظر إلى الكوكب بعين الإنصاف وسلك في الحكم به سبيل العدل، ولما رأى عليه من سمات الحدث وآيات الصنع ﴿**قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ**﴾ [الأنعام:76].

ثم انتقل إلى أكبر منه جرمًا وأثقب ضوءا وأكثر نفعًا، فلما رأى قد سن به سنن صاحبه، واقتفى فيه أثره حكم عليه بحكمه، ثم ﴿**قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**﴾ [الأنعام:77] ثم انتقل طالبًا للحقيقة إلى ما هو أعظم قدرًا وأشرف رتبة وخطرًا، فلما رأى شواهد الحدث وافتقار الصنع على الجميع لا يزيد إلا بيانًا حكم على جميع السبعة الأفلاك ذوات الكواكب السيارة بحكم العبودية، ثم تصاعد بنظر إلى جميع الأفلاك إلى السماوات العلى، ثم إلى الكرسي الكريم والعرش العظيم،

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (34/4).

وتخطى ذلك كله إلى الذي فطر السماوات والأرض حنيفًا لم يشرك به شيئًا سواه ولا اعتمد بعبادته حاشاه، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75].

فهذه السبيل فاسلك، وهذه السنة فاستن في استدلالك، فهو إمام المتقين، وقائد المعتبرين، وسيد المتوسمين صلى الله على نبينا وعلى جميع النبيين، ولقد وصف بعض المعتبرين استنانه في اعتباره فأحسن وأجمل ذكر حاله فأبلغ، فقال: ما زلت أطوف بالبيت أطلبه، فلما شاهدته رأيت البيت يطوف حولي، فجعل العالم كله كبيت واحد طلب فيه ربه ﷻ، فلما شاهده بما نصب على معرفته من العلامات، ودل به على نفسه من الدلالات شاهده ببيناته في البيت غير ساكن فيه بائنًا عنه غير مفارق له، فجعل البيت يطوف به يطلبه بما ضمنه من معالمه، وأداء شهاداته، وتعريف معارفه، وإهداء تحفه ومنافعه بما فيه منه والوسيلة التي بينه وبينه.

وقال الآخر: طلبت لنفسي موضعًا في الملكوت، فلم أجد لها موضعًا حتى ضربت خيمتي بإزاء العرش، وذلك المقام في الاعتبار موضع الاستواء حيث استوت الخليقة من حيث هي الحال فيما هنالك صدق التوكل، وحقيقة التفويض، وإفراد التقرير بخاصة التوحيد، وهذا هو من كلمة التوحيد بين النفي والإيجاب ذوين موضع الاستثناء منه، فافهم والزم فقد قرب لك الأمر، وبين لك الرشد، واختصر بك الطريق، وحملت على مهيع واضح من التحقيق، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فسقيا للقلوب التي عمرت ساحات الملكوت حتى أميطت عنها حجب الغفلة، وكوشفت مجاري القدرة لم ترض لأنفسها شغلاً إلا بطاعة الملك الأعلى، فعلقت شوقًا بالمحل الأسنى فأفادها لذلك المعرفة التامة، والميز المحيط، وامتلأت نورًا من نورتها، فحدث في خدمته وحدث العلائق دونه في عبادته واتقته حق تقاته، فكل علم أو ذكر أو عمل ظاهر أو باطن وجهوه إليه وأرادوه به، فهو منه وإليه يسرنا الله وإياك يا أخي لما يسرهم له، واستعملنا جميعًا بما استعملهم به، وأورثنا في هذه الحياة والدنيا أعمالهم، وألحقنا في الآخرة بهم إنه كريم العفو حسن الإجابة.

اسمه الخبير جَلَّ جَلَالُهُ

الخبر بالشيء: هو الوقوف على حقيقته، والإحاطة بمعانيه كلها الغائبة والحاضرة والحصر لها، من ذلك قولهم: خبرت الشيء، أي: بلوته أخبره خبرًا، والخبر المصدر والاسم منه الخبر، فهو مختبر ومخبور، وأنا مختبر له وخابر وبه خبير مبالغة، وحقيقة الخبر استكشاف باطن المخبور وهتك الستر والحاصل دونه حتى تستوي باطنه في العلم وظاهره من ذلك قيل لحارث الأرض: خابر؛ لأنه يشقها بالحرث فيجعل باطنها ظاهرًا، وقيل لشقوق يكون في الأرض: خبار من ذلك أيضًا، والخبر أيضًا: القطع والمقطوع منه يقال له: الخبير، وقيل للقديد خبير لذلك، ومن ذلك الخبر سمي بذلك؛ لأن المخبر به يطلع المخبر بالخبر على باطن المخبر عنه، والمخابرة أكثر الأرض ببعض ما يخرج منها وهو مأخوذ من الخبر والخبر الذي هو الحرث والقطع.

الاعتبار

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن كلامنا على ما تقدم لنا من العادة إنما نتوجه به إلى الصفات المحدثة فينا، والأسماء الدالة عليها من أسماء المحدثين تنزيهًا للصفات العلى والأسماء الحسنى؛ لأن الله ﷻ قد جعل للمعتبرين في مخلوقاته غنية عن النظر والتفكر في صفات ذاته وللخبر الذي جاء في ذلك عن النبي ﷺ، ولو لم يرد علينا في ذلك أثر مذكور لوجب علينا التزام هذا الأدب لقصور عقولنا لها عن درك نور ذلك الجلال، والله المستعان المسدد بمنه.

واعلم - وفقنا الله وإياك - أن الأسماء كلها وإن اختلفت معانيها وتغايرت مدلولاتها فالمسمى بها واحد، وكذلك الصفات فذات الموصوف واحد توجد الصفات بها والأسماء تحقيقًا للوجود لا تكثيرًا للعدد؛ ولأنها أصل العرف فلا تعرف وأقل للعلم، فلا تعلم بمعالمها وتعرف بمعارفها وتجهل لسابقتها، وتنسى للزوم اتصالها، ولا يمكن جحدها؛ لقرب مشاهدتها كذلك الحق الأول سبحانه وتعالى لا يستطيع أحد أن يعلمه ولا يقدر أحد أن يجهله إنما يعرف بمعارفه، ويعلم بمعالمه، ويدعى بأسمائه ويميز من سواه بصفاته، ليس كوجوده وجود، ثم الفرق بين الخبر والعلم وسائر

الأسماء الدالة على صفة العلم أن تتعرف حصول الفائدة من حيث تلقى فأضف ذلك المعنى إلى تلك الصفة، وسم الفائدة بذلك الوجه التي حصلت، فمتى حصلت من موضع الحضور كان ذلك الحضور ظاهرًا وباطنًا سميت مشاهده، والمتصف بها هو المشاهد والشهيد.

وكذلك إن حصلت من جهة سمع أو يصرف المتصف بها يسمى بسميع أو بصير، وكذلك إن حصلت الفائدة عن علم أو علامة أو كتاب أو إشارة أو شيء ظاهر أو باطن يقوم مقام العلم والعلامة، فهو العلم والمتصف به العالم والعليم.

وإن حصلت عن استكشاف ظاهر المخبور عن باطنه ببلوى أو امتحان أو تجربة أو تبليغ أو ما قام مقام ذلك، فهو الخبر والمسمى منه الخبير، وعلى سبيل الاصطلاح تجمع ذلك كله العلم، وليست الصفات والأسماء بذوات فيتكثر بها الموصوف أو المسمى، وإنما بها يتحقق وجود الموجود، فما كثرت صفات الموصوف وأسماء المسمى من حيث هي أسماء لمعان موجودة به تحقق وجوده بقدر ذلك وقف بفهمك على هذا المعرف، فإنه مزلات أكثر المعتبرين، وخفي مدارك النظر والمتفكرين، ومن ذلك ظل الأكثرون إلا من عصم الله ﷻ.

فمنهم: من رأى أن يسمي المسمى بأسمائه تشرعًا وعقلاً، ولا يصفه بصفات ما تسمى به؛ تنزيهًا له على ما زعمه، وتحقيقًا للتوحيد كما ذكره.

ومنهم: من قال بالأحوال من أجل ذلك وأبوا من إثبات صفة هي العلم والقدرة والحياة أو الإرادة وغير ذلك من الصفات، واستمرار أهل السنة على تسميته ووصفه ﷻ بما تسمى به واتصف، وأبى أولئك ذلك، وقالوا فيما قال فيه أهل السنة صفة حالاً، والدليل تشهد الصفاتية من اللغة والكتاب والسنة في مقامها، ومن حيث تكلمت به؛ لأنهم لزموا ظاهرًا من الحق، فلم يقدموا عليه نصوصًا ظاهرة من الدلائل البينة والبراهين النيرة، وآية ذلك أنا إذا فرضنا جوهرًا وهو الجزء الذي لا يتجزأ المتجزئ إلى أقل منه، فبالوجود والمشاهدة تعلم أنه قد احتمل في كل نوع من الأعراض عرضًا واحدًا ليس الضد، فهذا واحد يحمل معاني جمة إذا نظرت إليها فإنما هي تحقيق لوجوده، بل لولا وجودها به لم يوجد، وإنما يكون وجوده على قدر ما وجد به منها، ولذلك كان الجسم حاملاً لصفاته الموصوفة بها كالبياض الموجود بالجزء، فالمحل به

أبيض جسمًا كان أو جوهرًا، فكذلك في الطعم والرائحة وجميع الأوصاف.

التعبد

اعلم - رحمك الله - أن أكثر ما تتوهمه النفس، وتظنه خطأ حتى يقع التحصيل والنظر؛ لأن الغفلة تقدمت التحصيل في الإنسان، وكذلك الجهل تقدم اليقين حتى تمل العقل واستعمل فحصل، ومثال ذلك أن كل شيء في وهم ابن آدم مختلط كاختلاط أصناف الحبوب الممكن فيها التمييز فما ترك منه على الأول من جلاله، فهو على اختلاطه، وما حصل منه حصل لمن شاء الله تعالى له ذلك، ولم يمنعه من اجتهد إن شاء الله تعالى، ثم ما كان في النفس محصلاً أن ترك على حاله لم يمتحن ولم يختبر، فهو ظن لم يستبن يقينه فصوابه غير محمود عليه صاحبه، وهو في حاله ذلك غير معتقد نفعه، فهنا يحتاج العبد إلى الخير حتى يبلغ من مطلوبه إلى درجة الخبر بما أمكنه من امتحان أو تجربة أو بملابسة أو نحو ذلك حتى يميز البعض من الكل، والظاهر من الباطن، والأعلى من الأسفل، والأول من الآخر، والضار من النافع، والأشكال والأحوال والهيئات وغير ذلك حتى يقدم على اليقين من أمره، ويمسك على اليقين من عمله، ومتى لم يقدم الخبر بين يديه كان من أمره على خطر، ومن معتقده على غرر؛ ولذلك قال الخضر لموسى - صلوات الله وسلامه عليهما. حين وعده بالصبر عن نفسه على ما يرد عليه من قبله في حال الصحبة: ﴿**قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً**﴾ [الكهف:67. 68].

وهذه جملة تشهد لها الوجود والمشاهدة أنه لم يحط علمًا بمطلوبه كذبه، ومن لم يحط به خبرًا أسرع إليه الجزع عند المحنة، قال الله ﷻ: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**﴾ [يونس:39].

وذلك أن النفس إذا دعوتها إلى الصبر في أمر الله سبحانه، والجلد على عبادته دون تقدم الخبر لم تمتنع من أن تضمن الصبر والوفاء، وأعطتك ذلك من ذاتها في يسر وسخاء منها، وإنما أعطتك ذلك من جهة واحدة وتلك الجهة على علمها بأن ما دعوتها إليه هو طريق سعادتها الواجب عليها سلوكه والتحلي بحليتها، والصبر في نفسه منفرد جهة واحد غير مختلف في الذات، والعلل المنصوب عليها في النفس مختلفة لا

في الصبر، ولهذه العلة احتيج أن يتقدم إليها بالخبر؛ ليبين لها ما تصير عليه، وإلا لم يثبت عند المحنة، وجمحت عن بعض ما يرد عليها عند مواطن الامتحان، فمن حقها عليك أن تقول لك: عرفني إذا ما المصبور عليه؟ وما أنواعه؟ وإلا أقررت لك وأذعنت بما لم أحط به علمًا، ولم يتقدم لي به خبر، فإذا ما جاءني لم أصدقك فيه إذ لم أتوهمه من قبل فأوطن عليه، فعادت حقيقة إذعاني بالصبر رضاء بالثمن الموعود على الصبر لا على المصبور عليه، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان رضا فأمضه، وإن كان غير ذلك فأمسك**»[1].

فعليك بتقديم الخير في مطلوبك كله، واستشعار عزيمة الصبر عند مواطن الامتحان تظفر ببغيتك إن شاء الله.

ثم ما وجد التعبد به في رسم العلم فاستعمله هاهنا تصب البغية، والله المستعان[2].

---

(1) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم 41).

(2) فائدة متممة: اعلم أن تعلق علم الخبرة تعلق خاص، وهو العليم الحاصل بعد الابتلاء بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد:31] وهو يعلم ما يكون قبل كونه؛ لعلمه له في ثبوته، ولا يقع في مراتب الأكوان الوجودية إلا ما كان ثابتًا في الأعيان الثبوتية، ولكن أوجب الاختيار والابتلاء؛ لإقامة الحجة، والابتلاء نتيجة الدعوى وتحريها، وهي أصله، فحيث كانت الدعوى كان الاختبار، ومن وصف نفسه بأمر توجه إليه اختبار وابتلاء، والتكليف ابتلاء، وقد عم، وإن لم يعم الدعوى لحكمة مستورة به، كما أخبر الحق عنه بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:25]، فعمت البلوى كما عمت الرحمة، ولكن لا يقاوم عمومها عموم الرحمة؛ لأنها عسيرة واقعة بين يسيرين؛ لكونها - موقعها - بين رحمة الامتنان ورحمة الغفران، وإنما قلنا بعموم رحمة لعموم البشارة، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾[الزمر:53]، ولما لم يكن للكرم المطلق ظهور، إلا بالمفسدين والمذنبين، عمت البلوى، انتهى. وقيل: معناه العليم ببواطن الأمور من الخبرة، وهو العلم بالخفايا الباطنة، أو المتمكن من الأخبار عما علمه، وقيل: هو الذي علم بعلم الارتياب فيه، حتى ما الصدور تخفيه، ومعانيه كثيرة ذات إشهار واشتهار، يدركه النبيه، ومن خواصه: إن من ذكره سبعة أيام تأتيه الروحانية بكل خبر يريده من أخبار السنة، وأخبار الملوك والغائب، وهو يصلح لإخراج الخبايا، وللاطلاع على المغيبات، وذاكره لا يهمه
=

اسمه السميع تبارك وتعالى

حاسة السمع فينا هي قوة باطنه موجودة في الجارحة المخصوصة بها من شأنها تأدية معانٍ ظاهرة إلى قوى باطنه أخرى، وخاصتها من المعاني الظاهرة إيصال الأصوات كلها على اختلافها دون ما سوى ذلك، ثم يتلقى الباطن عنها ما أذنه إليه بصفة العلم على ما تقدم بيانه.

والجارحة على الحقيقة ليست هي الحاسة من الجارحة هي الأذن نفسه، والحاسة قوة روحانية باطنه هي واسطة بين باطن السامع والظاهر هذا العالم على شريطة القرب من المحسوس والمشاهد، وهو معنى يعم جميع المطالع من باطن المخلوق إلى المطلع عليها.

والسمع هو بعض صفاته وهو خاص من الباطن، فمتى كان المنادي إليه من قبل الأذن كان سمعًا، وإن كان سمعًا، وإن كان من قبل العين سُمِّيَ بصرًا، وكذلك الشم والذوق واللمس، وتتخذ المعاني في الباطن، فيورده عند الأداء على حسب ما أدته الحواس إليه من خارج، فإن الله ﷻ لم يقسم له من علم الظواهر سوى ما يطلع عليه من هذه الأبواب الخمسة الضعيفة عن بلوغ الغاية القاصرة على درك النهاية، ولله - جل ذكره - صفة الإحاطة على التمام الأقصى، والكمال الأرفع سبحانه، وله الحمد.

والسمع درجات أولها عن تأدية الأصوات على اختلافها، وهي حادثة عن اصطكاك الأجرام بواسطة الهواء المنضغط بينها، أو عن اندفاع الهواء بين جسمين متضايفين، ثم في خروجه ذلك أن تناوبه الانضغاط والاتساع كان تقطيعًا، فإن زاد إلى

=

أمر إلا رآه في منامه أو يقظته، بحسب حاله، ويكتب وفقه في كاغد، ويوضع تحت الرأس عند النوم بعد الصلاة ركعتين، ودعاء الاستخارة، فإنه يرى ما في ضميره، وهذه صورته، ومن رسمه في خاتم حديد يوم الجمعة، وتلا الاسم عدده معرفًا ونام، أخبر في منامه بما يروم إن شاء الله تعالى، ومن كتبه في إناء طاهر أربعين مرة، ومحاه بعسل وماء ورد، ولعق منه كل يوم ثلاث لعقات على الريق مدة سبعة أيام متوالية فإن الله ﷻ يؤتيه الحكمة، ويلهمه من العلوم اللادنية ما يعجز عنه أهل زمانه، ومن كان سيئ الخلق، وداوم على ذكر هذا الاسم، خلصه الله تعالى من سوء الأخلاق، وما واظب عليه أحد إلا وشاهد من عجائب صنع الله ما لا يوصف.

أن يكون ذلك على أقسام معلومة وأعداد محصورة كان كاملاً ظاهرًا ذا معان يؤديها باطن سوي بظاهر هو اللسان إلى باطن آخر سوي بواسطة ظاهر آخر متصل به هو الأذن، فإن زاد إلى أن يكون ذلك الانضغاط والانفساح على أوزان معلومة إلى نهايات محدودة كان غناء أو ما قام مقامه، فإن زاد إلى أن يكون في الباطن المؤدي معنا محركًا للباطن المؤدي إليه بواسطة صوت ندي حسن النغمة وساعده المقدار أحدث ذلك طربًا ووجدًا وحركة إما متوازنة الأجزاء، فهي الرقص أو غير متوازنة، فهي العبث واللعب ونحو هذا أو سكونًا أعلاه الموت، وأوسطه الغشي، وأدناه ثقل الأعضاء، واعتقال اللسان وأشباه هذا والبواطن المتلقية للسماع ضروب وأصناف لمعان يكون في المؤدي والمؤدى، وربما جاء بيانها فيما بعد إن شاء الله ﷻ.

أما الأول: فأغلب سلطانه في أول درجات السماع.

وأما الثاني: وهو المؤدى إليه فأغلب سلطانه في أقاصيها ونهاياتها، وعلى نحو ما يكون الغالب على الباطن، فستحيل المسموع الوارد من المؤدى في باطن السامع، وعن هذا والله أعلم كان التأفيل والصرف والقلب؛ ولذلك قالوا: ساء سمعًا، فأساء إجابةً.

ثم يعضل الداء وتستحكم علته بما يحل في القلب، ويستحكم من حظ الهوى، وأماني النفس، فيصبو الباطن إلى مقتضى ذلك ويميل إليه، وما ورد عليه مما خالف ما هو عليه صرفه بحكم الهوى عن حقيقة ما عناه المؤدي حتى يستمر ذلك إلى الضلال المبين نعوذ بالله من سوء السمع، وقلب القلب، ونسأله أن يلقى بأسماعنا وحواسنا إلى سماع كلامه وفهم مراده، وأن يشهدنا مشاهدته ويشرح حدودنا إلى هدايته بمنه وطوله، فرب سامع خير من مريد شر ومعبر عنه كان عنه نجاته، ورب سامع شر من مريد خير كان عنه هلاكه كالجسم يريد صانعه ﷻ دماره فدواؤه يستحيل فيه داء، ومتى أراد نماؤه وخصبه فبضد ذلك قال الله ﷻ: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً**﴾ [الإسراء:82] وقال: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ [فصلت:44]، وهذا كثير في القرآن والوجود، وعلى ذلك خلقهم فلا يزالون مختلفين في الاستجابة لاختلاف الأماكن التي دعوا منها فالله المستعان، ولذلك اعتقد قوم في قول بعض القائلين:

يَـا رَاحتِـي عِـنْدَمَا تَـشْتَدُ بِـي عِلَلِـي أَنْـتِ اقْتراحِـي عَلـى الأيـامِ وَالـدولِ
لَـو كـنتِ بِـي وفَقـدتُ الـنَّاسَ كُلَّهـم وَالمـال مِـن بَعـدِ فَقْـدِ الأهـلِ لـم أَسـلِ
الآنَ لِـي فِـيكِ مَـنْهُم كُلهـم بَـدَلاً وَلَـيْسَ فِـي كُلِّهـم لِـي مَـنْكِ مِـنْ بَـدَلِ

إنه خطاب لمحبوبه من الآدميين، ووصف لمعشوقه من المحدثين، وفي قول الآخر:

لَـو كَـانَ كُـلُّ العَالَمِـينَ مُخَالِفِـي مَـا ضَـرَّنِي إِنْ كُنْتَ أَنْتَ مُسَاعِدي[1]

واعتقد آخرون في ذلك حقيقة الحق، وإنما يسمع كل من حيث أسمع، ويبصر الذي أبصر، ويختار الذي اختير له ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:21]، وهذا وشبهه مكشوف بين في حيز من صم باطنه عن حقيقة الخطاب، فهذا بسوء اختياره من هواه إلى مثل لمعان السراب والذي يقابله في الطرف الآخر لمن أثقب له نور فهمه، وفتح لمعاني الخطاب مسام سمعه قول الأول:

قَالَـتْ تَـوق رِجَـال الَحـيِّ أَنْ لَهـم عَيْـنًا عَلَـيْك إِذَا مَـا نَمْـتِ لَـم تَـنَمِ
فَقُلْـتُ إِنْ كَـانَ قَتْلِـي عَـنْ رِضـا لَكُـم فَمـا غَلَـتْ نَظْـرَة مَـنْكُم بِـسَفْكِ دَمِ

فحملوا قوله أي: قالت الرسل والكتب توق رجال، أي: الحفظة والملائكة في السماء والأرض وسكان الجو منهم والمؤمنين، الحي، أي: الحي الحق - عز ذكره - والعين عين الرقيب الحق وبالحقيقة، فهو الذي ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:255] ثم اتسع لهم جدًّا واتصلت بهم الأصوات، وكثرت الدعاة لهم من كل جهة، ففي تصفيق الرياح وتصويت ألسنة النيران، وحفيف الشجر ونشيش أوراقها، وتزاخر المياه وضجيجها حال خريرها في مسالك مجاريها، وتغريد الأطيار ومجاوبتها، وصراخ الديكة ونقيق الضفادع وغير ذلك من كل ما صوت، واسمع لبواطنهم منه مذاق وجد وحقيقة حق ألا تسمع إلى قول بعضهم:

لَيالِـيَ لا آوي إلـى غَيـرِ سـاجِعٍ ببَيـنِكِ حتَّـى كُـلُّ شـيءٍ حَمـائم[2]

ويقول آخر:

---

(1) والبيت منسوب للخبز أرزي.

(2) البيت منسوب لابن هانئ الأندلسي.

وَقَالُــوا أَتَبْكِــي كُــلَّ قَبْــرٍ رَأَيْــتَهُ لِقَبْــرٍ ثَــوى بَــيْنَ اللِّــوَى فَالــدّكَادِكِ
فَقُلْــتُ لَهــم إِنّ الأَسَــى يَــبْعَثُ الــبُكَا دَعُونِــي فَهَــذَا كُلُّــهُ قَبْــرُ مَالِــكِ[1]

وأنت إذا نظرت إلى مطلوب هذا الطالب إنما تجده قبرًا لا يشغل من الأرض كلها سوى أربعة أذرع، وربما كان ذلك فكيف يطالب مطلوبه ربه ﷻ وهو حيث ما حل بجسمه أو ذكره لا يجد سوى صنعه ومصانعه وتصنيعه وآثاره وملكه وعبيده إلى غير ذلك، ولا يرى فيما يراه من ذلك أو يجده إلا أحسن صنع، وأكرم أثر وأتقن فعل فشتان ما بين الطالبين والمطلوبين والهدايتين ﴿**إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء:106].

وإنما هو الشجو أي: باطن أسكنه على الوجه الذي توجه به إليه خرج سمعه ووجده على تلك الجهة، وعلاقة ذلك الشجو أنه إذا أسكن باطنًا ما، وتحقق فيه أن يضطر صاحبه إلى ترديد الآي بعد الآي، والقول بعد القول من شعر وغيره؛ لفراغ باطنه من سوى ما امتلأ منه ﴿**وَلِكُلٍّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ**﴾ [البقرة:148] رحمكم الله فهكذا تفرقت الطرق بالسالكين، وإن كانت الدعوة واحدة والمدعو إليه واحد لكن أماكن النداء شتى فمنادى من قريب ومنادى من بعيد.

اسمه البصير جَلَّ جَلالُهُ وتعالى علاؤه وشأنه

قد تقدم الكلام في صفة السمع، وإن المراد بالكلام الصفة المحدثة بما يغني عن ترداده غير أن خاصة البصر غير من خاصة السمع تأدية المرئيات كلها من الأكوان والألوان على اختلاف ذلك كله، ولا يجوز لنا عند التعرف من الاعتبار بها أكثر من شواهد الكتاب والسنة على ما جاءت به، وعلينا التسليم للبلاغ والإيمان بالأخبار وترك التكييف والتمثيل ما تعرفهما من الكتاب والسنة، فقوله تبارك وتعالى لرسوله موسى وهارون – عليهما السلام – : ﴿**فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ**﴾ [الشعراء:15] و﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾ [طه:46].

---

(1) البيتان منسوبان لمتمم بن نويرة اليربوعي.

وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق:14].

قال: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:218. 219].

وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:1]، كما قال: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:103]، وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:39]، و﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:14]، قيل في التفسير: بمراء منا.

وقال: ﴿أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:77].

وقال رسول الله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك**»[1] وذكر صفة السمع والبصر في القرآن وحديث الرسول كثير فلا تطول باستقصاء ذلك.

واعلم - وفقك الله - إنه لا يجوز أن تعتقد في الأسماء تغايرًا من قبل دلالاتها عليه، بل من قبل مدلولاتها من حيث هي، ومن حيث فهمنا عنها لا من حيث هو؛ لأن صفاته لا تختلف، بل هو الواحد الأحد لا غيرية تلحقه، وإنما تغايرت الأسماء والصفات عند المدركين والواصفين له بها لا غير، فإذا صعدت العقول بإيمانها إلى هذا المستوى ألقته ﷻ أحد الذات، واحد الأسماء والصفات لا غيرية فيما هنالك ولا تكثر، وإنما كثرت الأسماء لتحقق الوجود، فافهم.

وما سمي باسم العلم إلا بما أوجبته اللغة والشرع، ومن حيث حصول الفائدة لنا من جهته، وكذلك القدرة لم تسم قدرة من حيث هي؛ إنما سميت بذلك بما أوجبه الشرع واقتضته اللغة، ومن حيث حصول الفائدة لنا بها وكذلك الإرادة وغيرها والأسماء كلها، فاعلم ذلك، فهو ﷻ يعلم بما به يشاء، كما يعلم ويشاء بما به يقدر، كما يقدر بما به يبصر بما به يسمع، اتحدت الأسماء والصفات من حيث هو، وتغايرت من

---

(1) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (426/2، رقم 9497)، والبخاري (27/1، رقم 50)، ومسلم (39/1، رقم 9)، وابن ماجه (25/1، رقم 64). حديث أبي هريرة وأبي ذر: أخرجه النسائي (8/ 101، رقم 4991). حديث عمر: أخرجه مسلم (36/1، رقم 8)، وأبو داود (223/4، رقم 4695)، والترمذي (6/5، رقم 2610)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (97/8، رقم 4990).

حيث علمنا بها، وميّزنا لها ومعرفتنا هو هو ليس شيء كمثله، ومن نظر في خلقه نفسه. واعتبر بوجود ما أبدعه الله ﷻ عليه، وصل بذلك إلى شفاء الغليل وثلج اليقين، قال الله - جل قوله - : ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:8].

وقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:20]، ثم قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21].

ومتى وجد هذا المعتبر في صفات نفسه تغايرًا وفي أسمائه تكثرًا، فمن حيث هو موضع التكثير ومعدن للأغيار، ومهما وجد توجدًا وتصادقًا وتخادنًا وتعاضدًا، وإن الوحدة لا تستحيل إلى الكثرة بكثرة الأسماء والصفات، فهذا الدليل المرشد، وهي الآيات من الحق، والمبثوث في العالم على الحق المبين، قال الله - جل قوله وتعالى علاؤه وجده - : ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم:8]، ثم قال- جل قوله -: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:85] فافهم.

فصل

قد تقدم لنا من الكلام في الصفة المحدثة ما يشرف بذوي الألباب، ويغني ذا الفهم الفطن عن الإسهاب، وأما الصفة العالية: فلا يجوز لنا التعرض بمطالبه تعرفها بوصفه، ولا السؤال عنها؛ فكيف سبحانه وتعالى في عزته وجلال بهائه عن الكيف كيف يكيف بكيف من كيف الكيف؟ أو كيف يوصف من لا يدرك كنهه الوصف؟! بل لا كيف ولا وصف، كيف يدركه من لا نظير له من له نظير، بل كيف يدرك العاجز المتلاشي من لا يقوم له شيء مدرك لولا الأسماء والأمثال والحروف والآيات والدلالات.

ولما عسر على الأبصار أن تدرك قرص الشمس في بهاء شرفها، وامتنعت بشعاع ضيائها في سلطان إشراقها، تخيل الإدراك تصور قرصها من صح تركيب السبع الطباق من عينيه، وفوق القوة الباصرة من باصريه بأن ينظر إلى موقع الشمس من الماء فينطبع له مثال صورتها في الماء فينظر مثالها ويدركه.

فهذا سبيل رؤيته بالعلم في الدنيا وآية على رؤيته بالأبصار في الآخرة، فهكذا فلتكن أنت في تعرفك، وهذه السبيل فلتسلك في اعتبارك فهو العزيز الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وكما لا تدركه الأبصار فكذلك لا يدركه كنهه البصائر، ولا تحيط بشيء من علمه إلا بما شاء، وعليك بالسكون والطمأنينة والإيمان بهويته وأنيته فهو الحق المبين، فليتق العبد ربه ولا يجاوزن حده، فله عند تعرف الصفات

العلى في اقتفاء ما جاءت به الشواهد في كتاب الله العزيز الذي **﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾** [فصلت:42] وفي سنة نبيه ﷺ أبين بيان وأعظم كفاية:

إِذَا انْسَدّ بَابٌ عَنْكَ مِن دُوْنِ حَاجَةٍ فَدَعْهُ لِأُخْرَى يَنْفَتِح لَكَ بَابُهَا
فَإِنّ قِرَابَ البَطْنِ يَكْفِيْكَ مِلْؤه وَيَكْفِيْكَ مِن سُوءِ الأمورِ اجْتِنَابُها

فصل

ومن الكلام أيضًا في تعرفه وتعرف صفاته العلى من حيث هي فيقول: إن صفاته ليس هو الموصوف ولا غيره؛ لأن الغيرية لا تكون إلا لشيئين مختلفين أو مؤتلفين، ولا يجوز في الصفات العالية أن يقال: لم يكن الكلام، ثم كان هذه صفة المخلوقين لا صفة رب العالمين، وإنما لم يكن استبان لخلقه علمه، وكلامه من أنهم لم يكونوا ثم كانوا فعجزوا عنه ولم يستبن لهم، والاستبانة لهم والقصور عنه يجري عليهم ولهم الأعلى علمه وكلامه تعالى عن ذلك وإنما استبان لهم كلامه ﷻ بالأمثال والأسماء والحروف على ما وصفناه وهي مثال يكتبونه؛ ليقرؤه ويحفظوه ويتعلموه، ألا ترى أن قولك: الفرقان، غير قولك: القرآن، المعنى المقصود واحد واختلفت العبادة؛ لاختلاف ما عبّرت عنه الأوصاف، وكذلك قولك: المكنون، قولك: المحفوظ والمقروء، فيجري التغاير على الحروف والأمثال والأسماء لتغاير ما غيرت عنه والمعبر عنه واحد.

بالأسماء والمثال واللغات تستدل على كلامه وأمره ونهيه، كما بالآيات والدلالات والمشاعر ويستدل على معرفته، وكلما وقع الوهم عليه كالمثل، والنظير، والشبه، والشكل، واللون، والشخص، فهو مخلوق مكون مصنوع فكلامه إذ لا يدركه بالكيف البشر وإنما يدرك أمره ونهيه بالأمثال تعالى أن يتكلم بكلامه أحد، وكلامه مع هذا ﷻ مسموع بالآذان حقيقة مفهوم بالإفهام يسمعه من شاء من عباده، قال الله جل قوله: **﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾** [النساء:164] وهذا خطاب قد أمن فيه المجاز؛ لتأكيد الفعل في المصدر، كذلك يقال: رأيت زيدًا عيانًا، وكلمت عمرًا مشافهة، وقال رسول الله ﷺ فيما حكاه لنا عن ربه ﷻ في خبره المشهور عن مسراه: «**أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي هي خمس، وهي خمسون لا يبدل القول لدي**»[1]. وقال

---

(1) رواه البخاري (3207).

ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان**»[1].

وبالجملة فكتبه كلها كلامه أنزله على رسله، وكما يكلمهم يوم القيامة كذلك يرونه، ومن رأى ربه بالإيمان به في الدنيا وسمع كلامه بواسطة كتابه الذي أنزله فإنه يراه في الآخرة عيانًا ويسمع كلامه دون واسطة ولا ترجمان، فاثبت بإيمانك جميع ذلك وأمط عن توهمك ما سواه مما يلزم المخلوق من صغر أو كبر أو عظم جثة ومقابلة أو مجازاة أو ما يجيء نحو هذا لا يخفى على كل ذي عقل سليم - إن شاء الله تعالى - صفاته سبحانه تعالى من صفات خلقه، قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه عنه أبو رزين لقيط بن عامر - رحمه الله - قال: قلت: يا رسول الله، أكلّنا يرى الله يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «**يا أبا رزين، أليس كلكم يرى القمر مخليًا به**» قال: قلت: بلى، قال: «**فالله تبارك وتعالى أعظم من ذلك آيته في خلقه**»[2].

فاعقل قوله ﷺ أعظم من ذلك، وكذلك ﷻ لا يوصف بالأين؛ لأن الأين مخلوق. والذي أين الأين خالق، وأين يبحث بها عن مكان وكان الله ﷻ ولا مكان وهو الآن على ما لم يزل، وكذلك تبارك وتعالى لا يجري عليه متى؛ لأن متى باحثه من زمان. والذي أوجد الزمان لا يفتقر إلى زمان ولا يتحول به الأحوال خلق الأنبياء من غير تفكير ودبرها أحسن تدبير أحاطت بكل شيء عظمته، فابتدأ ما كان في سابق علمه أن يبتدأه، وأخر ما كان في سابق علمه أن يؤخره ليس بعلة لشيء وإنما علة كل شيء صنعه أنشأ الخلق لا من شيء بحكمته وابتدعهم من غير ضرورة بقدرته؛ ليوري آثار صنعه، وعجيب حكمته، وعدل سنته، ولطيف تدبيره، ونفوذ أمره، وليدل على وحدانيته، ويوجب حق ربوبيته، وليعرف خلقه ما توحد به من القدرة، وبان به من

---

(1) أخرجه أحمد (4/256، رقم 18272)، والبخاري (6/2709، رقم 7005)، ومسلم (2/703، رقم 1016)، والترمذي (4/611، رقم 2415) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (1/66، رقم 185)، والطبراني (17/95، رقم 225)، والبيهقي في السنن الكبرى (4/176، رقم 7533)، وفي شعب الإيمان (1/245، رقم 259)، وابن منده (2/775، رقم 787) وقال: إسناده صحيح. والرافعي (4/104).

(2) أخرجه أحمد (4/11، رقم 16231)، وأبو داود (4/234، رقم 4731)، وابن ماجه (1/64، رقم 180)، والحاكم (4/605، رقم 8682) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني (19/206، رقم 465). والطيالسي (ص 147، رقم 1094)، وعبد الله بن أحمد في السنة (1/246، رقم 451).

الفضل الحكمة، وانفرد به من العزة والعظمة، واستأثر به من الحول والقوة: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:163]، خلق الزمان والمكان وما حل فيهما أوجدهما في لا زمان ولا في مكان كذلك أوجد جملة العالم لا في عالم إذ لو التفت إلى ذلك؛ لاعترض عارض التسلسل لا محالة فهو في حيث لا أين ولا كيف ولا متى بهويته، وهو فيما تقدير المكان والزمان والأين والكيف والمتى وما كان من وجود الخليقة بأسماء له وصفات نورًا نائرًا، وبرهانًا ودلالة، وصنعًا وتدبيرًا وتفصيلاً، وسنة وكلمة، ثم استوى على العرش: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ [الرعد:3] وهذه جملة كافية - إن شاء الله تعالى- ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

[خاتمة الجزء الأول]

كَمُلَ الجزء الأول بحمد الله تعالى وحسن عونه، والصلاة والسلام والإيمان والإكمال على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا علقه لنفسه، ولمن شاء الله تعالى من بعده الفقير الحقير المعترف لخالقه بالتقصير حمزة بن صالح بن عمر الخزرجي نسبًا الشافعي مذهبًا غفر الله له ولوالديه ولمن قرأه ونظر فيه، ودعا له ولوالديه بالمغفرة ولجميع المسلمين.

وكان الفراغ منه نهار الأربعاء

ثالث عشر شهر شعبان المكرم

سنة ثمان وعشرين وسبعمائة

بمدينة «صفد» المحروسة

حماها وسائر بلاد

المسلمين

فهرس المحتويات

هذا الكتاب

شرح أسماء الله الحسنى

في هذا الكتاب "شرح أسماء الله الحسنى"، يعرض المؤلف الشيخ عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي الإشبيلي المعروف بابن برّجان لأكثر من ١٣٠ اسماً، وكل واحد منها يظهر مرتبًا على ثلاثة أقسام؛ أولها: دراسة عن أصل الاسم المعني ومدلولاته المختلفة، وثانيها: تسمى اعتباره، والذي يشير لظهورها في الاستشهادات القرآنية واستخدامها في الأحاديث، وفي المقام الثالث: التعبد؛ وفيها يحاول المؤلف توضيح لهؤلاء الذين يريدون التقرب إلى الله كيف تجتاحهم سلطة أسمائه، وأن يستطيع المريد أن يكتسب الاسم المشار إليه.

ومن المؤكّد أن هذا الشرح الذي بين يديك عزيزي القارئ يعدّ من أوائل الأعمال التي كتبت عن هذا الموضوع في الأندلس من وجهة نظر صوفية. وهذا العمل الكبير في حجمه والغزير في معلوماته قد أثّر بصورة كبيرة في كل الأعمال اللاحقة عن هذا المذهب.



ISBN 978-2-7451-6379-0

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان

Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

هاتف: 12/ 11/ 804810 5 961+
فاكس: 804813 5 961+

ص.ب 9424 - 11 بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت 2290 1107

info@al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com

www.al-ilmiyah.com DKi



دار الكتب العلمية

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah